مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق

المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري

يشتمل على وصف المهرجان الذي أقامه المجمع العلمي العربي
لذكرى مرور ألف سنة على مولد أبي العلاء
وما قيل فيه من القصائد والخطب

دار صادر
بيروت

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق

المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري

يشتمل على وصف المهرجان الذي اقامه المجمع العلمي العربي
لذكرى مرور الف سنة على مولد ابي العلاء
وما قيل فيه من القصائد والخطب

دار صادر
بيروت

رفع
المسأهم
غفر الله له ولوالديه

المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري

الطبعة الأولى ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م
الطبعة الثانية ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار صادر
تأسست سنة ١٨٦٣
Dar SADER Publishers

ص.ب. ١٠ بيروت، لبنان / فاكس: ٩٢٠٩٧٨-٤-٩٦١-٠٠
هاتف: ٩٢٨٢٧١ ٠٤، ٩٢٢٧١٤ ٠٤، ٤٤٨٨٢٧ ٠١، ٤١٣٢٥٦ ٠١

المقدمة

لو لم يوجد ابو العلاء المعري ، او لو وجد ومات صغيراً ، لما قام مقامه احد ، ولبقي مكانه في ديوان الأدب العربي خالياً الى الآن ، والى ما لا يمكن تحديده فيما سيأتي من الزمان . والأدباء من هذا النوع قليل في كل امة ، ينفس الدهر بهم على البشر ، ولا يجود بواحد منهم الا نادراً في مئات السنين .

اجتمع في ابي العلاء من الخصائص ما يعز اجتماعه في اعاظم الرجال : نبوغ فطري ، وذكاء نادر ، وشعور رقيق ، وعقل راجح ، وخلق كريم ، وترفع عن باطل الحياة الدنيا فوهب نفسه بما فيها من هذه المزايا للعلم والادب ، ففاز منهما بأعظم نصيب .

وكانت الثقافة الاسلامية لعصره قد استبحرت وتشعبت فنونها تدويناً وتأليفاً ووضعاً وترجمة واقتباساً ، كما كانت القرائح الأدبية قد جادت بروائع الشعر والنثر . فاطلع على كل ذلك اطلاع تدبر ، واستوعبه واحاط به ، فكان تام الآلة كامل العدة لا ينقصه شيء من ثقافة عصره .

انصرف الرجل عن زخرف الحياة الدنيا الى العلم والادب والتفكير ، فنظم ونثر وألّف ودرّس ، مستقلّ الرأي ، حر التفكير ، يجهر بما

يعتقد ، ورائده الصدق ، وغايته الحقيقة ، ووسيلته الى ذلك ادبه المتميز بالإتقان والإبداع وبروز الشخصية .

قد يكون في شعراء العرب من هو أشعر من أبي العلاء ، وقد يكون في كتّابهم من هو أكتب منه ، ولكن ليس فيهم من رمى من وراء أدبه إلى غاية أنبل من غاية أبي العلاء الذي لم يكن أدبه أدب المستجدين ، ولا أَدب الغواة المستهترين الذين يهيمون بالفن للفن ، بل كان أدب من يعتبر نفسه صاحب رسالة يدعو اليها ، ويناضل عنها ، ويقيم الدليل عليها ، بمختلف الوسائل والأساليب ، شعراً ونثراً .

أَدب أبي العلاء أدب إنساني سامٍ شامل ، تخطى حدود الأجناس والأُديان والعصور ، فاشترك في اكباره جميع الأجيال ؛ وقد يفهم منه ابن هذا العصر ما لم يفهمه القدماء ، وستفهم منه الأجيال الآتية ، مالم نفهمه نحن في هذا العصر ؛ فكلما تحرر العقل ، وسمت المدارك ، وتهذبت النفس ، ازداد الإعجاب بأدب أبي العلاء .

ليس في ديوان الأدب العربي ، منثوره ومنظومه ، — على عظمته وجلالة قدره — ما يجزيء عن أدب ابي العلاء في نبل المقصد ، وتعدد المناحي ، وقوة الشخصية ، وظهور أثر العلم ، واخضاع الشعر للعقل ، أَوالعقل للشعر ، حتى تجاريا منسجمين ، وتباريا مؤتلفين . ولعل الافاضة في التعريف بمزاياه في هذا المكان ، من الزيادات التي يستغنى عنها ، بعد أَن جمع هذا السفر بين دفتيه بحوثاً ودراسات قيمة ، لم تدع مقالاً لقائل .

* * *

في شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٣ مرّ على مولد أبي العلاء الف سنة ، فرأى المجمع العلمي العربي في دمشق أن يحيي من هذه الحادثة ذكرى تكون وسيلة للاستقصاء في دراسة أبي العلاء ، والتنقيب عن آثاره . فعزم على إقامة مهرجان أدبي عام يفتتح في دمشق في اليوم الثامن من شوال سنة ١٣٦٣ (٢٥ ايلول سنة ١٩٤٤) ودعا اليه اقطاب العلم والأدب في الأقطار العربية ، وبعض الأقطار الشرقية والغربية ممن يمكن ان تبلغهم الدعوة في هذه الحرب الضروس . ولم يكد يعلن عزمه على ذلك ، حتى تجاوبت بهذا الخبر أقطار العالم ، وبالغت مصر في تأييد المجمع وموازرته في هذا العمل ، حتى نزلت له عن هذا المشروع بعد أن كانت عازمة عليه .

ولما أظلّ الوقت المعين ، وصلت الوفود إلى دمشق فاستقبلهم أعضاء المجمع ، واحتفت بهم دمشق حكومتها وشعبها أبلغ احتفاء ، وكانوا في مجالس اجتماعهم وندوات سمرهم يمثلون المدينة الفاضلة بما بثوه في الجو حولهم من أدب المعري وأخلاقه .

وافتتح المهرجان في دمشق تحت رعاية صاحب الفخامة رئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي ، واستمر أسبوعاً أقيمت حفلاته الخطابية في دمشق ومعرة النعمان وحلب واللاذقية ، فشهدت البلاد أعظم حادث أدبي في تاريخ الأدب العربي ، وكان شغلَ الناس وحديثهم ، وموضوع الصحف وحديث الإذاعات اللاسلكية .

حتى اذا انقضى ذلك الأسبوع البهيج وعادت الوفود إلى بلادهم ، ظلّ نبأ المهرجان حديث النوادي الأدبية في جميع الأقطار العربية ، وظلت الصحف والمجلات تتناول أخباره ، وتتناقل ما قيل فيه ، وتنشر ما كتب عنه ، مدة لا تقل عن سبعة أشهر . وما نعرف حادثاً في هذه السنين مهما عظم شأنه ، لهج به الناس طول هذه المدة وعُنوا به هذه العناية .

أما ما ألقي فيه وكتب لأجله من الدراسات والبحوث والقصائد والخطب ، فمن خيرة ما جادت به قرائح أقطاب العلم والأدب في هذا العصر ، وهو في جملته أجمع وأمتع كتاب بحث عن ابي العلاء في كل نواحيه وأشاد بذكره ، وهو في الوقت نفسه صورة للأدب العربي المعاصر في نظمه ونثره وأساليب بحثه وبيانه . وكل ذلك مجموع في هذا السفر .

ولئن كان في عقد هذا المهرجان وطبع هذا السفر محمدة ، فالفضل في ذلك لفخامة رئيس الجمهورية السورية ، فهو الذي استحسن الاقتراح ، وأمر بتحقيقه ، ورعاه بعنايته .

خليل مردم بك

الحفلة الاولى

في دمشق

لم يكد المجمع العلمي العربي يعزم على اقامة المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري ، حتى ابتدأ الاستعداد له في كل مكان . فعهد المجمع إلى لجنته الادارية في تنظيم المهرجان وتحديد أمكنته ومواقيته وحفلاته ، فرأت أن يدوم المهرجان اسبوعاً كاملاً من ٢٥ ايلول إلى ١ تشرين الاول ١٩٤٤ ،وأن تشمل حفلاته مدن دمشق وحمص وحماه ومعرة النعمان وحلب واللاذقية . ودعا المجمع أعضاءه العاملين والمراسلين إلى الاشتراك في المهرجان ،وكلف بعضهم اعداد كلمة تلقى في الحفلات الخطابية . ودعت وزارة المعارف السورية وزراء المعارف في الدول العربية . فأرسلت الدعوة إلى وزراء المعارف في مصر ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، وشرقي الاردن ، ولبنان ، وتونس ، والمغرب الأقصى ، واليمن . ودعي أيضاً مجمع فؤاد الاول للغة العربية ، ورؤساء الجامعات العربية ، وغيرها ، وبعض المستشرقين ، ونقباء الصحف في دمشق وحلب وبيروت والقاهرة ، وممثلو محطات الاذاعة في سورية ولبنان وفلسطين ومصر . فلبى كثيرون منهم دعوة المجمع .

ولم يحن موعد المهرجان ، حتى توافد المدعوون إلى دمشق ، وحلوا ضيوفاً على المجمع . والتقى أدباء مصر والعراق وفلسطين وشرقي الاردن وأدباء سورية ولبنان في مكان واحد . وكان هذا الاجتماع أعظم سوق أدبية شهدتها دمشق في تاريخها .

وكان وفد مصر مؤلفاً من السادة الدكتور طه حسين ، والاستاذ أحمد أمين ، والاستاذ عبد الحميد العبادي ، والاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والاستاذ أحمد الشايب . فقدموا إلى المجمع فور وصولهم هدية وزارة المعارف المصرية ، وهي « كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء » الذي طبعته مصر تخليداً لذكرى المهرجان .

وكان وفد العراق مؤلفاً من السادة الاستاذ طه الراوي ، والاستاذ مهدي الجواهري ، والدكتور مهدي البصير .

وحضر من فلسطين الاستاذ اسعاف النشاشيبي. ومن لبنان السادة فؤاد افرام البستاني ، والدكتور عارف العارف ، والاستاذ أنيس النصولي ، والاستاذ أنيس الخوري المقدسي ، ورئيس جامعة القديس يوسف ، والاستاذ رئيف خوري . ومن شرق الاردن الاستاذان أديب وهبه ومحمد الشريقي . ومن ايران الاستاذ عباس اقبال . ومن المستشرقين الاستاذان الفريد غليوم ، وهنري لاووست . ومن القدس السيد عزمي النشاشيبي ممثلاً للاذاعة والمطبوعات ، فضلا عن الوفود الأخرى التي مثلت الاوساط العلمية في العاصمة والمدن السورية ، ممن سيأتي ذكر اكثرهم في الخطباء .

ولقد زارت الوفود في اليوم الاول من أيام المهرجان فخامة رئيس الجمهورية ، ومجلس النواب ، ودار الحكومة . والقى الدكتور طه حسين في مجلس النواب كلمة بأسم الوفد المصري ، أعرب بها عن اعتراف مصر بفضل سورية ، لاحتفائها بذكرى أبي العلاء . قال : « وكان طبيعياً أن تقوم سورية بهذا المهرجان الالفي ، فتدعو اليه سائر بلدان العالم العربي . فهي قد أعطت الأدب العربي أكبر شعرائه ، ولكن أعظم شاعر انساني انتجته سورية ، وحق لها أن تفخر به على العالم كله، هو أبو العلاء . فلا غرو إذا سبقت العالم كله إلى الاحتفاء بذكره » . فرد عليه رئيس مجلس النواب السيد فارس الخوري بكلمة أشار بها إلى فضل مصر على العالم العربي بأدبائها المعاصرين ومفكريها ، الذين كان لهم أعظم الأثر في احياء تراثنا الأدبي وتوجيهنا الفكري .

ثم أقام المجمع مأدبة غداء في فندق (أوريان بالاس) أطلق عليها اسم « المائدة العلائية » طبخ بها الطعام وعولج على شرط أبي العلاء ، لم يكن فيه لحم ولا سمن ولا بيض ولا لبن .

وكان موعد الحفلة الخطابية الاولى في الساعة الخامسة بعد الظهر في الجامعة السورية ، دعا اليها رئيس المجمع العلمي الاستاذ محمد كرد علي وزراء دمشق ، وعلماءها ، وأدباءها ، وأديباتها ، ووجهاءها ، وكبار موظفيها ،

واساتذتها . واعد في بهو الجامعة للوفود واعضاء المجمع سدة خاصة حول منبر الخطابة . وربط المنبر بمحطة الاذاعة بدمشق . واتخذت جميع الوسائل الفنية لتسجيل الخطب وإذاعتها من محطة الشرق الأدنى . ونصبت علامة المهرجان في صدر البهو بين الاعلام السورية وأعلام الدول العربية . وعرضت آثار ابي العلاء وما كتب عنه في خزائن خاصة عند مدخل البهو ، كما عرضت بعض تماثيل وصور لأبي العلاء صنعها عدد من الفنانين . وكانت صدور اعضاء الوفود وأعضاء المجمع مزينة بعلامة المهرجان ؛ وكانت موسيقى الدرك السوري تستقبل كبار المدعوين بأنغامها .

ولما حان موعد الحفلة أقبل فخامة رئيس الجمهورية بحاشيته الرسمية ، فجلس على سدة المهرجان بين وفود البلاد العربية وأعضاء المجمع . وبدئت الحفلة بالنشيد السوري . وكان برنامجها على الوجه الآتي :

١ ـ كلمة الافتتاح لحضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية
٢ ـ كلمة وزير المعارف
٣ ـ كلمة رئيس المجمع العلمي العربي
٤ ـ كلمة الدكتور طه حسين رئيس وفد وزارة المعارف المصرية
٥ ـ قصيدة الاستاذ مهدي الجواهري ممثل وزارة المعارف العراقية
٦ ـ كلمة الاستاذ أحمد الشايب مندوب جامعة فؤاد الأول

وكان الناس يستمعون الى الخطباء والشعراء بصمت عميق دلّ على تذوقهم للأدب وميلهم إلى رجاله . وفيما يلي نص الخطب والقصائد التي القيت في الحفلة الاولى .

جميل صليبا

كلمة حضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية

السيد شكري القوتلي

أيها السادة :

لقد أتيح لي في الشهر الفائت أن أفتتح المؤتمر الاول للمحامين العرب ، وقد شعرت يومئذ باغتباط عظيم لعقد مثل هذه المؤتمرات العامة التي ينتظم فيها عقد الجماعات المختارة من الاقطار العربية ، فتتذاكر شؤونها ، وتتداول أمورها ، وتحمل إلى ربوعها الدانية والقاصية ما شهدته من منافع لها وما حملته من ذكرياتها وآمالها .

ويسرني الآن أن أفتتح هذا الحفل الكريم ، وأرحب فيه بفريق جليل من أعلام الأمة العربية ، وقادة فكرها ، وحملة أقلامها ، وأقطاب بيانها ، وكبار شعرائها ، ورجال من غير هذه الأمة أولعوا بأدبها ، ودرسوا تاريخها ، وكشفوا القناع عن آثارها ومفاخرها ، فانضم بعضهم إلى بعض لاحياء ذكرى عبقرية من العبقريات العربية مضى عليها الف سنة ، ولكنها عاشت أجيالاً طوالاً ، وستبقى أجيالاً طوالاً . هذه العبقرية هي عبقرية شاعر حكيم لغوي أخلى ذرعه للفكر ، وحبس نفسه للعلم ، فكان يجد ويدأب في استجلاء أسرار الانسان ، وإدراك كنه المجتمع ، ويستنبط من حوادث الدهر الفلسفة والسياسة والأخلاق ، حتى طارت نفسه في فضاء بعيد من سلطان العقل المطلق من قيود الالفة والتقليد ، وردد شعره فلسفة جديدة أنكرها فريق وأجلها فريق . ولكن مهما قيل فيها فلا شك في أن صاحبها أحب الحقيقة ، وجعلها شعاره ودثاره .

لقد كان يدعوا إلى الزهد وينكر حب المال وحب الشهوات واستيلاء المطامع ، ويتبرم بالدنيا تبرم الكاره لها المبغض لشرورها، ويعجب لاستئثار

الحاكمين الذين هم اجراء المحكومين ، ويصور في شعره خطرات النفس ودقائق الشعور ، ويجاري الخاطر في سيره ، حتى يكاد يلامسه ، ويسبح مع الكواكب في أفلاكها ، والأطيار في أجوائها ، والاسماك في مسابحها ، والهوام والحشرات في مساربها ومدارجها .

هذا هو أبو العلاء المعري الذي غاض ضياء عينيه ولكن ضياء بصيرته كان يشق حجب الأستار، ويكشف جوانب الظلمات ، ويبلغ ما تحار فيه العقول من صحيح الرأي وعجيب الظن ، والذي هو اليوم ومن قبل ومن بعد لواء من الألوية الخفاقة ، التي تتفيأ الأمة العربية ظلالها ، وتوحي اليها ما توحيه من عناصر بعثها وتوحيد قلوب ابنائها . وفي هذا اليوم الذي نجتمع فيه لتخليد هذه الذكرى العظيمة ، ذكرى أبي العلاء ، الذي تفخر أرض الشام بأن يكون فيها منبته ، وان يشرق منها الهامه ، تجتمع في مصر العزيزة وفود البلاد العربية للعمل على توثيق العرى بينها . وانها لمصادفة سعيدة أن نجتمع في يوم واحد تهتف بنا غاية واحدة، وتحدونا دعوة واحدة ، وهي اجلال التراث العربي واعلاء شأنه ورفع مناره .

كلمة وزير المعارف

منذ عشرة قرون خلت شهدت معرة النعمان مولد ابنها البار أبي العلاء فما كانت لتعلم أو لتحلم أن هذا المولود سيكون له شأن كبير في عالم الشعر والحكمة وفي دنيا الأدب وان قصائده سيرتلها كل لسان ينطق بلغة القرآن ولم يخطر لها على بال أن ضريحه سيصبح في مستقبل الأيام مزاراً لأعاظم الأدباء وكبار الكتاب والبلغاء وفحول الفصحاء والشعراء يؤمونه ليضعوا على مرقده أكاليل من أزاهر الشعر وفنون الأدب جادت بها عقولهم وطبائعهم وصاغتها قرائحهم الفياضة .

سادتي : ودعت دمشق عيداً لتستقبل عيداً جديداً نثرت عليه روعتها الف عام . دمشق التي عرفت أمجاد بني أمية الأعظمين فاستمعت ربوعها الى شعرائهم الميامين . دمشق التي رددت جنباتها أصداء مجالس الخلفاء وحفلت مغانيها بحلقات الأدباء ستزحف بمن اجتمع من أعاظم رجالات الأدب والعلم من كل قطر عربي الى مرقد أبي العلاء لتؤدي فروض التكريم والاجلال لروح هذا الفيلسوف الكبير اعترافاً بجميل الصنع وبيض الأيادي .

ان تكريم العظماء في حياتهم والاحتفال بذكراهم واقامة مهرجانات لهم بعد مماتهم سنة حسنة سنها السلف من أهل العقول الراجحة .

ان دمشق لترحب بجمهرة رجالات الأدب من الطراز الأول وتفخر لمرور هذه النجوم في سمائها ومن رأى في هذا اليوم البهيج بردى ونهيرات النيربين تصفق بالرحيق ومن رأى حوْر دمر والغوطتين تمايل بالقد الرشيق عرف أيّ تحية اكبار واعجاب ترسلها دمشق الى هؤلاء الضيوف الأخيار وعرف أيّ عاطفة زهو وغبطة وخيلاء يبعثها هذا الحدث العظيم .

شرفتم يا سادتي لتشاطرونا الاحتفال بهذه الذكرى فأهلاً ومرحباً بالزوار الأكارم والضيوف الأعاظم الوافدين من وادي النيل العزيز وأرض الكنانة

والقادمين من بلاد الرافدين وعاصمة الرشيد أهلاً بأعلام المشرق والمغرب ثم أهلاً فشكراً لكم وللقائمين على هذا المهرجان التاريخي في ظل حضرة صاحب الفخامة الرئيس الأول وفي عهده الميمون تخفق له الأفئدة وترنو اليه العيون .

سادتي الأكارم : ها هي ذي الف عام تنقضي على رسالة شيخ المعرة وهي عامرة في نفوس الناطقين بالضاد باقية لتضيء سبل الأدب والحكمة خالدة على وجه الدهر . فهي خير ذخيرة لرواد الأدب تنير قرائحهم وتلهب شعورهم وتصقل عقولهم غذاها أبو العلاء من روحه وقلبه ونور بصيرته ستحملون يا سادتي هذا المشمل العظيم الذي خلفه المعري — ومن أحرى منكم بهذا الشرف — من عاصمة بني أمية إلى مرقد ابن الوليد ومن مدينة أبي الفداء الى مرقد المعري فحاضرة سيف الدولة ثم الى الشاطيء السوري . وستشخص اليكم العروبة بأبصارها وتصيخ إلى كلكم بأسماعها .

سادتي : ما كان المعري يحفل بالتكريم في حياته ولكنه واجب في أعناقنا نؤديه نحو الأجداد ودرس يفيد منه الأحفاد نحتفل بذكراه اليوم فالذكرى تنفع المؤمنين وأيّ نفع عميم توحيه ذكرى الشيخ الحكيم .

ان ذكرى المعري توحي الينا أموراً كثيرة من سياسية واجتماعية وثقافية وترشدنا إلى نقائص عديدة نحن بحاجة ماسة الى المبادرة لاستكمالها . أما السياسة فلها أربابها يعالجونها بقدر ما تسمح لهم الظروف وحسبما تقتضيه المصلحة . وأما الناحية الثقافية فمن أجدر بها منكم فمعالجتها موكولة اليكم وفي ذمتكم وإيجاد الحلول الموفقة لها من خصائصكم . تنتظر الأمة منكم تعيين المناهج لوحدة الثقافة في الأقطار العربية ووضع المصطلحات العلمية والفنية وإيجاد معاجم لها على اختلاف أنواعها ورسم خطة رشيدة للأدب يمكن معها لجيلنا الحاضر أن يشق طريقه على نور هديها وغير ذلك .

كان الأدب ولا يزال القائد الأعلى المطاع في معارك الحرية ووثبات الشعوب .

فيا أمراء البيان وأئمة لغة القرآن عليكم المعول في سد هذه الثلمات

واليكم المرجع في تدارك هذه الحاجات فالشباب متعطش إلى مآثركم الحميدة ومتشوق إلى نتائج مواهبكم المجيدة .

سادتي : لم يكن للمعري في حياته شغف في السياسة ولم يلتفت اليها بل كان منصرفاً بمجموعه إلى الأدب والشعر والفلسفة ولكن الأحداث والوقائع التي كانت تجري حوله لم يغب عنه أثرها ولم يكن مرتاحاً إلى نتائجها وعواقبها . كان يشعر بتفكك في عرى الوحدة العربية وبضعف في سلطان الخلافة والملك . فمن ذلك الضعف والتفكك نشأت دويلات عديدة كانت إلباً على بعضها . هـذا ما أثار نفس أبي العلاء الحساسة وألهب شعوره فأرسل صيحتـه ندوي في الآفاق مردداً هذه الأبيات :

ولو أني حبيت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

هذه دروس ومواعظ القاها المعري على الناس وخلدها للأجيال القادمة فاستحق منها كل اجلال وتكريم واستحقت ذكراه التخليد والتأييد . إن عيدنا الأكبر يا سادة : هو اليوم الذي تحقق فيه أمنية هذا الشيخ الحكيم ألا وهي الوحدة العربية الشاملة . فيرحمك الله يا أبا العلاء رحمة واسعة ويجعل مقرك الجنان وسلام الله على روحك الابية وسلام عليكم أجمعين .

نصوحي البخاري

كلمة رئيس المجمع العلمي العربي

سادتي ، سيداتي :

الاحتفاء بأبي العلاء ، والاشادة بذكراه ، دعوة إلى الأدب في أنبل غاياته ، وأعف مقاصده ، وإلى الأخلاق الكريمة ، والانسانية في مثلها العليا . فلقد كان أبو العلاء داعية رشد وسلام ، دعا إلى عالم يستملي نظمه من عقل الحكيم ، وقلب الشاعر ، وورع الزاهد ، وتقوى العابد ، ونزاهة المخلص ، يظله الاخاء والسلام ، وينكر التظالم والخصام .

لقد مثل أبو العلاء الأدب العربي أشرف تمثيل في حياته وسيرته وآثاره ، وكانت ذكراه بعد الف سنة من مولده مظهراً من أشرف مظاهر الأدب العربي ، اشتركت بها الدول العربية وسعى اليها وساهم فيها الصفوة من أعلام العلم والأدب في الأقطار العربية ، وشاركهم في هذا العمل نخبة من كبار المستشرقين. فسيخطب الخطباء، وينشد الشعراء ، ويتلو الباحثون العلماء في حفلات هذا المهرجان بدمشق والمعرة وحلب واللاذقية ما لا يدع مقالاً لقائل ولا مجالاً لجائل في أبي العلاء وما اليه ، فضلاً عن البحوث والفصول والقصائد التي بعث بها من لم يتيسر لهم الحضور ، فلهم جميعهم جزيل الشكر ، من سعى بنفسه وتجشم مشاق السفر ، ومن بعث بالبحوث الممتعة .

لم يكد المجمع العلمي يقترح على الحكومة عقد هذا المهرجان حتى رحب به فخامة رئيس الجمهورية وشمله برعايته وعطفه وافتتحه بنفسه ، وشاء أن تساهم بشرف الحفاوة به جميع البلاد الشامية ، لما في ذلك من تكريم الفضيلة والأدب ، وشد عرى التعارف بين مفكري العرب ، فأضاف إلى مآثره العديدة هذه المأثرة الجليلة .

كانت تباشير اجتماع كلمة العرب وجمع شملهم تلك الأسواق الأدبية التي

كانوا يعقدونها قبيل الاسلام ، يتبارى فيها الشعراء والخطباء . وهذا المهرجان بما سطع فيه من مصابيح العلم والأدب في الأقطار العربية ، مجتمعين في صعيد واحد ، لغاية واحدة ، رمز لاجتماع الكلمة وجمع الشمل . « والتاريخ يعيد نفسه » كما يقولون ، « وما أشبه الليلة بالبارحة » كما نقول .

وانه لمن يمن هذا المهرجان وسعد طالعه أن يتفق عقده في دمشق وعقد مؤتمر الوحدة العربية في الاسكندرية في يوم واحد ، وقد بدت تباشير السلام تكشف دياجير الحرب ، وتطلعت النفوس الى عالم كعالم أبي العلاء مبني على الحق والرأفة والمؤآخاة الانسانية .

قال كارلايل في كتاب الابطال : (لو خيرنا بين أن نترك شكسبير أو بلاد الهند ، لقلنا سواء أحكمنا الهند أم لم نحكمها فلا غنى لنا عن شكسبير . فسيجيء يوم يصبح فيه أبناء بريطانيا مبعثرين في نواحي الكرة وحينئذ يكون شكسبير الملك الذي يضمنا جميعاً) .

وهذا يوم نرى فيه أدب أبي العلاء من شعر ونثر ، وسيلة لاجتماع مفكري العرب ما بين المغرب الأقصى واليمن ، ورمزاً لتوحيد كلمتهم وانتظام عقدهم ، وآية لجمع الشمل ووصل الحبل ان شاء الله .

محمد كرد علي

الفصول والغايات

سيدي صاحب الفخامة الرئيس

سيداتي وسادتي

لو استشير ابو العلاء في هـذا المهرجان الذي نقيمه الآن احتفالا بعيده الالفي لما حفل بالعيد ولا أقر المهرجان فقد كان ازهد الناس في هذه المظاهر وأشدهم انصرافاً عنها ونفوراً منها . ولكنه من غير شك كان يرضى بعض الرضى عن هذا الحفل الذي يقام لاحياء الأدب في ظل الدولة التي كان يتمناها ويدعو اليها ولكنه لا يظفر بها ولا ينتظر أن يكون الظفر بها قريبا . في ظل الدولة التي لا يظلم زعماؤها الرعية ولا يستجيزون كيدها ولايعدون مصالحها وهم اجراؤها .

أظن ان هذه الصفة من صفات المهرجان هي التي كانت ترضي ابا العلاء وتملأ قلبه الحزين البائس غبطة وسروراً . فقد كان أبو العلاء ابعد الناس عن الاثرة وأقربهم الى الايثار وأشدهم نقداً للناس وأعظمهم رحمة للناس ايضا . ورحمته للناس وشوقه الى أن يراهم ناعمين في ظل العدل والامن والسلم هي التي كانت ترضيه عن هذا المهرجان الذي تقيمه سورية في ظل حكومتكم العادلة الكريمة الطامحة الى المجد الموفقة من الخير الى ما تريد سورية وإلى ما يريد العرب لهذا الوطن الكريم .

والواقع أن من حق سورية أن تقيم هذا المهرجان وان تحتفل بذكرى ابي العلاء وتحيي عيده الالفي . فأبو العلاء نابغة الادب العربي غير مدافع وهو فذ في هذا الادب لم يسبقه مثله ولم يلحقه مثله ، وانما كان منحة فريدة اتيح له أن يمتاز بشعره وعلمه وفنه وفلسفته وسيرته من جميع الذين سبقوه أو جاؤا بعده من الادباء .

هو نابغة الأدب العربي غير مدافع وهو في الوقت نفسه سوري خالص تستطيع سورية أن تفاخر به لا ينازعها فيه قطر من أقطار البلاد العربية ولا تخاصمها فيه مصر من أمصار البلاد العربية .

فقد كان لسورية قبل ابي العلاء حظ عظيم من المجد الادبي وفضل عظيم على الادب العربي . وكان لها شعراء يمتازون في تاريخنا الادبي المجيد ولكنهم لم يخلصوا لها كما خلص لها أبو العلاء . فلسورية أبو تمام والبحتري بل يمكن ان يضاف اليها المتنبي ايضا . ولكن هؤلاء الشعراء وغيرهم قد نازعت فيهم أقطار أخرى فابو تمام قد ذهب إلى مصر وإلى العراق والبحتري قد ذهب إلى العراق والمتنبي قد جاء من العراق وعاد اليه وكلهم تأثر بهذه البيئات البعيدة من سورية وأثر فيها بحيث استطاعت هذه البيئات ان تضيفه الى نفسها وان تفاخر به .

أما ابو العلاء فهو الشاعر السوري الخالص ولد في سورية ونشأ فيها وتوفي فيها ولم يغب عنها الا وقتا قصيراً ذهب فيه الى العراق ولكن دون ان يكون محتاجاً الى هذه الرحلة لتكوين شخصيته او إتمام نضجه أو تحقيق شهرته . وأبو العلاء يحدثنا وهو صادق اذا تحدث بأنه لم يحتج الى استاذ ولا معلم منذ بلغ العشرين ونحن نعلم انه رحل إلى العراق حين قارب الاربعين وان شهرته كانت قد سبقته الى بغداد قبل أن يصل اليها بزمن طويل .

فمن حق سورية اذن أن تستأثر بابي العلاء وأن تفخر بأنها قد منحت الادب العربي نابغته الفذ . ولكن سورية كشاعرها الفيلسوف تكره الأثرة أشد الكره وتحب الايثار اعظم الحب وهي من أجل ذلك لاتفاخر ولا تكاثر وانما تدعو الاقطار العربية وغير الاقطار العربية لمشاركتها في أحياء عيد أبي العلاء لا لأنه مجد سورية بل لانه مجد العروبة ومجد الانسانية كلها .

وقد أقبلت وفود هذه البلاد العربية تكرم أبا العلاء في سورية وتكرم سورية في أبي العلاء وإني يا صاحب الفخامة لعظيم الحظ من السعادة والغبطة حين أحمل اليكم وإلى سورية وإلى اخواننا الذين يشاركون في هذا المهرجان تحية مصر صادقة خالصة يملؤها الوفاء والاخاء . وحين أعلن ان مصر قد

قدرت من سورية هذه العاطفة الكريمة وهذا الوفاء النبيل للمجد العربي وهذا الحرص الكريم على احياء هذا المجد باقامة هذا المهرجان . وقد رأت مصر أن تشارك سورية في احياء هذا المجد العربي القديم مشاركة متواضعة فقررت حكومتها ان تنشر آثار ابي العلاء أو بعبارة ادق كل ما يمكن الحصول عليه من آثار أبي العلاء نشرا علميا صحيحاً وبدأت في ذلك بالفعل وحرصت على أن يأتي وفدها الى هذا المهرجان ومعه باكورة هذا العمل الذي لن يتم في عام أو أعوام قليلة ولكنه سيحتاج الى الجهد المتصل والوقت الطويل . . ويسر مصر ان تقدم الى المهرجان أول جهدها في هذا الموضوع وهو هذا المجلد الذي يشتمل على ما أمكن جمعه مما كتب القدماء حول أبي العلاء .

فقد رأت مصر ان يكون هذا المجلد مقدمة صالحة لآثار ابي العلاء يستطيع العلماء ان يعتمدوا عليه إذا أرادوا أن يدرسوا حياة شيخ المعرة ويعرفوا آثار القدماء فيه . ثم رأت مصر ان تكون مشاركتها في احياء ذكرى ابي العلاء متصلة بشخصه وبلده وقد علمت ان سورية قد جددت قبر الشيخ وأقامت الى جانبه مكتبة فقررت أن تشارك في هذه المكتبة وكلفني وزير المعارف ان أعلن ان الحكومة المصرية تتبرع بألفين من الجنيهات لتشتري بها الحكومة السورية بعض ما تحتاج اليه هذه المكتبة من الكتب .

والآن أريد أن أحدثكم عن كتاب الفصول والغايات وآسف أشد الاسف لأن الوقت لن يسمح لي بأن أحدثكم عنه فيما أحب من تفصيل بل فيما يستحق من تفصيل . فكتاب الفصول والغايات من أعظم آثار ابي العلاء خطرا في تاريخ الادب العربي ولعله أن يكون اعظم هذه الآثار خطرا في تاريخ الحياة العلائية نفسها . وأول ما أحققه من ذلك هو أن كتاب الفصول والغايات ، يؤرخ لنا فلسفة أبي العلاء تأريخا دقيقاً وليس هذا بالشيء القليل .

فابو العلاء ينبئنا بانه قد كان ينتظر الخير ويرقبه دون أن يظفر به حتى اذا بلغ الثلاثين ولم يبلغ ما كان يريد وجّه حياته وجهة جديدة (١)

(١) الفصول والغايات صفحة ٢٧٩

وإذن فلم يطلب أبو العلاء فلسفته في بغداد ولم يجدها فيها وإنما ارتحل بها الى بغداد وعاد بها الى المعرة لم يضف اليها إلاهذه السيرة العملية الشديدة التي الزمته داره . فاما ما عدا ذلك من فلسفته النظرية والعملية فاكبر الظن انه قد دفع اليها شيئاً فشيئاً ثم التزمها منذ بلغ الثلاثين اي قبل رحلته الى بغداد ببضع سنين .

وهذه الفلسفة العلائية نفسها معروضة في كتاب الفصول والغايات عرضاً واضحا اشد الوضوح غامضاً أشد الغموض ان صح هذا التعبير فأبو العلاء كما تعرفون رجل اتعب نفسه واتعب معاصريه واتعب الناس بعده وسيظل يتعبهم الى آخر الدهر لأنه على صرامته وصراحته واستقامته في حياته العملية لا يسلك الطريق الواضحة المستقيمة في عرض آرائه وانما يلتوي بها أشد الالتواء يصرح حينا ويومئ أحياناً وهو معلم بطبعه وهو شديد على نفسه وعلى الناس وكل هذا يجعل عباراته غامضة ملتوية ويشغلنا بالفاظه عن معانيه وبأساليبه عن آرائه وبفنه عن دخيلة نفسه ومع هذا كله فان فلسفته معروضة في الفصول والغايات عرضا حسنا للذين يستطيعون ان يصابروه ويحتملوا صحبته الحلوة المرة اليسيرة الشاقة . وليست هذه الفلسفة الا فلسفة ابيقور قد لاءم بينها وبين بيئته الاسلامية ملاءمة رائعة حقا حتى خدع عنها كثيرا من الناس فظنوها اسلامية خالصة ورأوا فيها مذهباً موروثاً من مذاهب الزهد والنسك .

وأكبر الظن ان فلسفة ابيقور قد وصلت الى ابي العلاء من طريق الطب اليوناني ومن طريق طب جالينوس بنوع خاص فقد كان ابو العلاء معجبا أشد الاعجاب بجالينوس قرأ طبه مترجماً الى اللغة العربية ومفصلا في كتب الطب العربي وهذه الفلسفة العلائية الأبيقورية تقوم قبل كل شيء على انكار العلة الغائية التي يؤمن بها كثير من الفلاسفة وأصحاب الديانات جميعاً . فالأشياء لم تخلق بهذه الغايات التي نرى انها خلقت لها . وكان من الممكن ان تخلق على غير صورها المعروفة ، وكان من الممكن أن ينظر الانسان بقدميه ويشم بمنكبيه

ويبكي باصابعه . واذن فالعالم لم يخلق لنا والطبيعة لم تسخر لحاجاتنا واذن فلا ينبغي ان نستحل منها كل ما نستحل ولا أن نستأثر بخيراتها لانفسنا ولاأن نؤلم الحيوان للذتنا ولا أن نظلمه لمنفعتنا . فليس حقنا في الحياة باكثر من حقه وليس لنا عليه هذا السلطان الذي ننتحله لانفسنا .

انما هذا كله غرور جاءنا من هذه الاثرة التى خيلت الينا ان العالم خلق من اجلنا وسخر لمنفعتنا هذا هو الاصل الاول من أصول الفلسفة العلائية التي نجدها في كتاب الفصول والغايات . والاصل الثاني هو أن من حقنا ان نستمتع باللذاتالى أقصى حد ممكن ولكن هذا الاستمتاع لا سبيل اليه لأنه لا يصح ولا يستقيم الا اذا خلا من الالم والظلم والعدوان . وليس الى هذا سبيل . واذن فالانصراف عن هذا الاستمتاع هو الخير كل الخير وهو الحق على الرجل الذي يعرف ما يأتي وما يدع . والاصل الثالث ان هذا العالم لم يخلق نفسه ولم يخلق عبثاً وانما خلقه إله ليس في وجوده شك وخلقه لحكمة ليس فيها شك ولكن عقولنا لا تعرفها ولا تستطيع ان تعرفها لأنها لم تمنح وسائل هذه المعرفة كما ان اجسامنا لم تمنح السلم الذي يوصلها الى الثريا .

هذه هي الاصول الاساسية لفلسفة ابي العلاء وهي كلها معروضة عرضاً دقيقا في الفصول والغايات ولكن الوصول اليها شيء دونه أهوال . اهوال تأتي من اللغة ومن الاسلوب ومن حرص ابي العلاء على ان يكون معلما وبراعته في هذا التعليم . فليس الفصول والغايات كتاب فلسفة فحسب ولكنه كتاب لغة قبل كل شيء أو كتاب تعليم للغة . هو مذهب من مذاهب الأمالي والمقامات التي يقصد بها اصحابها الى استعمال الالفاظ في معانيها اللغوية المختلفة بحيث يكون استظهار الطلاب لها يسيراً . ثم هو بعد هذا كله أو قبل هذا كله ان شئتم كتاب وعظ وارشاد وتمجيد لله وإشادة بقدرته وحكمته فليس فيه فصل الا وفيه كل هذه المعاني وليس فيه فصل الا وهو يقصد به الى كل هذه الاغراض والكتاب على هذا كله كتاب ادب بالمعنى الرفيع لهذه الكلمة . فيه فن رائع لا نجده عند غير ابي العلاء من الكتاب ، فيه تصوير للطبيعة على نحو ما صورها شعراء

الطبيعة من الجاهليين والاسلاميين ، وفيه تصوير للسماء على نحو ما صورها شعراء القدماء من جهة وأصحاب النجوم والفلك من جهة أخرى . وفيه تصوير للضمير ودخيلة النفس وما يثور في القلب من عاطفة وما يضطرب فيه من أماني وما يؤذيه من حرمان وما يخطر للعقل من خاطر وما يؤلمه من اليأس حين يعجز عن الوصول الى الحق وما يرضيه من هذه المتعة التي يجدها حينما يظفر ببعض الحق .

كل هذا في كتاب الفصول والغايات ، وفيه اكثر من هذا ، فيه التزام ما لا يلزم فتأليف الكتاب على حروف المعجم لم تدع اليه ضرورة وانما هو شيء فرضه أبو العلاء على نفسه ليستقصي ما يستطيع استقصاءه من الفاظ اللغة وليأخذ نفسه بهذه اللذة المؤلمة والمشقة الحلوة التي يجدها الانسان حين يكلف نفسه مالايطيق الناس ثم يرى انه ينهض بهذا التكليف في قوة وأيد وقهر للمصاعب واقتحام للعقاب .

وقولوا مثل ذلك فيما يلتزمه في السجع والغايات من القيود المحرجة ، بل فيما يلتزمه حين يلائم بين الكلمات في أثناء الفصل الواحد من القيود التي لا تكاد تخطر لأحد منا على بال . ثم نسأل أنفسنا بعد ذلك عن شيئين أما أولهما فقد تساءل عنه القدماء واختلفوا فيه اختلافاً مصدره الحب والبغض وهو هل أراد أبو العلاء في كتاب الفصول والغايات إلى معارضة القرآن ! فأما أنا فأجيب على هذا السؤال في غير تكلف ولا تعمل فقد كان أبو العلاء أذكى قلباً وأرجح عقلاً وأنفذ بصيرة وأشد تواضعاً وأحسن علماً بطاقته من أن يحاول هذه المعارضة أو يقصد اليها . ولكنه كان كغيره من أدباء المسلمين معجباً بالقرآن مكبراً له مقدراً لروعته الفنية فليس من شك في أنه كان يتمثل أو يستحضر بعض أساليب القرآن حين كان يفكر في كثير من الفصول والغايات . يذهب في ذلك مذهب كثير من أدباء المسلمين لا لا يجد فيه ولا نجد فيه نحن حرجاً ولا جناحاً .

أما السؤال الثاني فلا أعلم أنه خطر لأحد من القدماء وهو مع ذلك سؤال له خطره في تاريخ أبي العلاء . فأي الكتابين سبق صاحبه الى الوجود ، وكان أصلاً له ومؤثراً فيه . الفصول والغايات ام اللزوميات . اما انا فأكاد

اقطع بأن الفصول والغايات هو الذي سبق إلى الوجود ، وهو الذي أنشأ اللزوميات انشاء وما بين أيدينا من كتاب الفصول والغايات كله يدل على ذلك دلالة قاطعة . فأبو العلاء يلتزم ما لا يلزم على نحو من الانحاء في الكتاب كله وفي قوافيه بنوع خاص . واكبر الظن أن ابا العلاء قد حاول التزام ما لا يلزم في كل شيء من حياته وفي انتاجه الأدبي حتى أصبح هذا الفن له ملكة كأنه طبع عليها فكان يؤدي في هذا الفن ما يريد أن يؤديه من المعاني شعراً أو نثراً ولكنه بدأ بالتزام هذا الفن في النثر رغبة في التعليم وتيسيراً على الطلاب .

أترون أن أبا العلاء على كثرة ما اختلف الناس فيه قد كان فيلسوف الرأي والحياة وكان مع هذا كله أديباً عالماً شاعراً كاتباً طرق من فنون الأدب والعلم العربي الاسلامي ما لم يتح لأديب غيره أن يطرقه فجنى بذلك على نفسه وجنى على الناس . جنى على نفسه حين حير الناس في أمره فزعم له بعضهم الفلسفة ونفى عنه الشعر وزعم له بعضهم الشعر ونفى عنه الفلسفة ويوشك قوم من الناس أن ينفوا عنه الشعر والفلسفة جميعاً وجنى على الناس بهذه الحيرة التي اضطرهم اليها وورطهم فيها فاختلفوا وما يزالون يختلفون وسيظلون يختلفون في أمره . أشاعر هو أم فيلسوف ! أكاتب هو أم عالم أم معلم !

والواقع أنه قد جمع هذه الخصال كلها وجمعها على أحسن شكل وأجمل انسجام وأروعه فأخذ من الشعر خلاصته ومن الفلسفة الانسانية صفوتها ومن علوم اللغة وآدابها ما لم يجتمع لأحد غيره من العلماء والأدباء وجنى على نفسه وجنى على الناس ، ولكن أي نابغة لم يجن على نفسه ولم يجن على الناس . أليس الخير كل الخير أن يوجد النابغة ويشقى بنبوغه ليسعد الناس أليس الخير كل الخير أن يوجد النابغة ويشق على الناس ويكلفهم من أمره وأمرهم شططاً ليتعبوا ويجدوا ويظفروا وينتجوا ويستمتعوا . وهل تظنون أننا كنا نستطيع أن نجتمع لهذا المهرجان لو لم يشق أبو العلاء على نفسه وعلى الناس .

طه حسين

الفيلسوف الحر

قف بالمعرة وامسح خدها التربا ... واستوح من طوّق الدنيا بما وهبا
واستوح من طبب الدنيا بحكمته ... ومن على جرحها من روحه سكبا
وسائل الحفرة المرموق جانبها ... هل تبتغي مطمحاً أو ترتجي طلبا
يا برج مفخرة الأجداث لا تهني ... ان لم تكوني لأبراج السما قطبا
فكل نجم تمنى في قرارته ... لو انه بشعاع منك قد جذبا
والملهم الحائر الجبار هل وصلت ... كف الردى بحياة بعده سببا
وهل تبدلت روحاً غير لاغبة ... أم لا تزال كأمس تشتكي اللغبا
وهل تخبرت ان لم يأل منطلق ... من حر رأيك يطوي بعدك الحقبا
أم أنت لا حقباً تدري ولا مقة ... ولا اجتواء ولا برءاً ولا وصبا
وهل تصحح في عقباك مقترح ... مما تفكرت أو حدثت او كتبا
نور لنا ، اننا في أي مدلج ... مما تشككت ان صدقاً وان كذبا

* * *

أبا العلاء ، وحق اليوم ما برحت ... صناجة الشعر تهدي المترف الطربا
يستنزل الفكر من عليا منازله ... رأس ليمسح من ذي نعمة ذنبا
وزمرة الأدب الكابي بزمرته ... تفرقت في ضلالات الهوى عصبا
تصيد الجاه والألقاب ناسية ... بأن في فكرة قدسية لقبا
من قبل الف لو انا نبتغي عظة ... وعظتنا أن نصون العلم والأدبا

* * *

على الحصير وكوز الماء يرفده ... وذهنه ورفوف تحمل الكتبا
أقام بالضجة الدنيا وأقعدها ... شيخ أطل عليها مشفقاً حدبا

بكى لأوجاع ماضيها وحاضرهـا … وشام مستقبلاً منها ومرتقبـا
وللكآبة ألوان وأفجعهـا … أن تبصر الفيلسوف الحر مكتئبا
تناول الرث من طبع ومصطلح … بالنقد لا يتأبى أية شجبا
وألهم الناس كي يرضوا مغبتهم … أن يوسعوا العقل ميداناً ومضطربا
وان يعدوا به في كل مطرح … وان سقوا من جناه الويل والحربا
لثورة الفكر تاريخ يحدثنـا … بأن الف مسيح دونهـا صلبـا
ان الذي ألهب الأفلاك مقوله … والدهر لا رغباً يرجو ولا رهبا
لم ينس ان تشمل الأنعام رحمته … ولا الطيور ولا أفراخهـا الزغبـا
حنا على كل مغصوب فضمده … وشج من كان ، ايا كان ، مغتصبا

* * *

سل المقادير هل لا زلت سادرة … أم أنت خجلى لمـا أرهقته نصبا
وهل تعمدت ان أعطيت سائبة … هذا الذي من عظيم مثله سلبا
هـذا الضيـاء الذي يهدي لمكمنه … لصاً ويرشد أعمى تنفث العطبا
فان فخرت بما عوضت من هبة … فقد جنيت بمـا حملته العصبـا

* * *

تلمس الحسن لم يعدد بمبصرة … ولا امترى درة منهـا ولا حلبـا
ولا تناول من ألوانهـا صوراً … يصد مبتعد منهن مقتربا
لكن بأوسع من آفاقهـا أمداً … رحباً ، وأرهف منها جانباً وشبا
بعاطف يتبنى كل معتلج … خفاقـه ويزكيه إذا انتسبا
وحاضن فزع الأطياف أنزلهـا … شعافه وحباهـا معقلاً أشبا
أهوى على كوة في وجهـه قدر … فسد بالظلمـة الثقبين فاحتجبا
وقال للعاطفات العاصفات به … الآن فالتمسي من حكمـه هربا
الآن يشرب ما عتقت لا طفحاً … يخشى على خاطر منه ولا حببا
الآن قولي اذا استوحشت خافقة … هذا البصير يرينا آية عجبا
هـذا البصير يرينا بين مندرس … رث المعالم ، هذا المرتع الخصبا
زنجية الليل تروي كيف قلدهـا … في عرسها غرر الأشعار لا الشهبا

لعل بين العمى في ليل غربته وبين فحمتها من الفة نسبا
وساهر البرق والسمار يوقظهم بالجزع يخفق من ذكراه مضطربا
والفجر لو لم يلذ بالصبح يشربه من المطايا ظماء شرعاً شربا
والصبح ما زال مصفراً لمقرنه في الحسن بالليل يزجي نحوه العتبا

* * *

يا عاريا من نتاج الحب تكرمة وناسجاً عفة ابراده القشبا
نعوا عليك ، وأنت النور ، فلسفة سوداء لا لذة تبغي ولا طربا
وحملوك ، وأنت النار ، لاهبة وزر الذي لا يحس الحب ملتهبا
لا موجة الصدر بالنهدين تدفعه ولا يشق طريقاً في الهوى سربا
ولا تدغدغ منه لذة حلماً بل لا يطيق حديث اللذة العذبا
حاشاك ، انك اذكى في الهوى نفساً سمحاً وأسلس منهم جانباً رطبا
لا اكذبنك ان الحب متهم بالجور يأخذ منا فوق ما وهبا
كم شيع الأدب المفجوع محتضراً لدى العيون وعند الصدر محتسبا
صرعى نشاوى بأن الخود لعبتهم حتى اذا استيقظوا كانوا هم اللعبا
ارتهم خير مافي السحر من بدع واضمرت شر ما قد أضمرت عقبا
عانى لظى الحب بشار وعصبته فهل سوى أنهم كانوا لها حطبا
وهل سوى أنهم راحوا وقد نذروا للحب مالم يجب منهم وما وجبا
هل كنت تخلد اذ ذابوا واذ غبروا لو لم ترض من جماح النفس ما صعبا
تأبى انحلالاً رسالات مقدسة جاءت تقوّم هذا العالم الخربا

* * *

يا حافر النبع مزهواً بقوته وناصراً في مجالي ضعفه الغربا
وشاجب الموت من هذا باسهمه ومستمداً لهذا ظله الرحبا
ومحرج الموسر الطاغي بنعمته ان يشرك المعسر الخاوي بما نهبا
والتاج اذ تحدى رأس حامله بأي حق واجماع به اعتصبا
وهؤلاء الدعاة العاكفون على أوهامهم ، صنم يهدونه القربا

الخابطون حياة الناس قد مسخوا ... ما سن شرع وما بالفطرة اكتسبا
والحاكمون بما توحي مطامعهم ... مؤولين عليها الجد واللعبا
ماكان أي ضلال جالباً أبداً ... هذا الشقاء الذي باسم الهدى جلبا
على الجلود من التدليس مدرعة ... وفي العيون بريق يخطف الذهبا
اجللت فيك من الميزات خالدة ... حرية الفكر والحرمان والغضبا
مجموعة قد وجدناهن مفردة ... لدى سواك فما أغنيننا اربا
فرب ثاقب رأي حط فكرته ... غنم فسف وغطى نورها فخبا
وأثقلت متع الدنيا قوادمه ... فما ارتقى صعداً حتى دنى صببا
بدا له الحق عرياناً فلم يره ... ولاح مقتل ذي بغي فما ضربا
وان صدقت فما في الناس مرتكب ... مثل الأديب أعان الجور فارتكبا
هذا اليراع شواظ الحق ارهفه ... سيفاً وخانع رأي رده خشبا
ورب راض من الحرمان قسمته ... فبرر الصبر والحرمان والسغبا
أرضى ، وان لم يشأ ، أطماع طاغية ... وحال دون سواد الشعب ان يثبا
وعوض الناس عن ذل ومتربة ... من القناعة كنزاً مائجاً ذهبا
جيش من المثل الدنيا يمد به ... ذوو المواهب جيش القوة اللجبا
آمنت بالله والنور الذي رسمت ... به الشرائع غراً منهجاً لحبا
وصنت كل دعاة الحق عن زيغ ... والمصلحين الهداة العجم والعربا
وقد حمدت شفيعاً لي على رشدي ... أماً وجدت على الاسلام لي وأبا
لكن بي جنفاً عن وعي فلسفة ... تقضي بأن البرايا صنفت رتبا
وأن من حكمة أن يجتني الرطبا ... فرد بجهد الوف تعلك الكربا (١)

محمد مهدي الجواهري

---

(١) نقلت هذه القصيدة عن بعض الصحف لأن صاحبها لم يبعث بها الى المجمع

أبو العلاء المعرى

شاعر أم فيلسوف ؟

-١-

بين الشعر والفلسفة صلة وثيقة . فكلاهما يعتمد على الحقيقة . ويحاول ادراك الاشياء ادراكا حراً صحيحاً عميقاً . ثم يعرضه باسلوبه الخاص .

فإذا كان الفيلسوف يجعل همه درس الاشياء ليعرف ماهيتها وما بينها من صلات بحيث يؤثر هذا الدرس في سلوكه ويكسبه براعة في فهم الامور ومعالجتها فإن هم الشاعر أيضاً أن يظفر بهذا الدرس نفسه ثم يؤدي ثمرته فكراً صائباً وشعوراً صادقا .

-٢-

هذا هو الاصل العام الذي يجمع بين الشاعر والفيلسوف . ومنه يظهر أن موضوعها واحد : الله ، والانسان ، والطبيعة .

وإذا كان هناك ما يميز بينها فذلك يكون في الطريقة . طريقة التناول والاداء . فالفيلسوف يؤدي الحقيقة عارية خالصة . والشاعر يؤديها مغمورة في الشعور .

والفيلسوف يتناول الاشياء مؤثراً باحثاً مقرراً والشاعر يتناولها متأثرا ناقدا مصورا . كل منها يعالج الشعور الانساني . إلا ان الفيلسوف يدرسه مستقلا عن عقله كأنه مادة حسية خاضعة للتحليل الكيمياوي ولكن الشاعر يعالجه ممزوجا بعقله ويضفيه على فكره ليذيبه فيه . فالشعور عند الاول سيء خارجي بخلافه عند الثاني .

كذلك الخيال فإن كان فروضاً علمية فهو اداة الفيلسوف وإن كان مصوّراً مبدعا كان لغة الشعور وميزة الشاعر ،

بقيت لغة الرجلين . فاللغة عامة رموز مبهمة قاصرة لا ضبط لمدلولاتها إلا في الأعلام وأسماء الأماكن . أما المدلولات المعنوية فلا تستطيع اللغة ضبطها ضبطا دقيقاً بهذه الألفاظ . ومع ذلك فلغة الفيلسوف أدق دلالة وأضيق تحديداً واكثر اصطلاحا لاعتمادها على معانيها الوضعية أو القاموسية ، ولكن لغة الشاعر دونها في هذه الاوصاف لأنها تؤدي معاني ثانوية لازمة يحملها عليها الشاعر بما يتصوره في الاشياء ، لذلك كان من حق الشعراء أن يحوروا في مدلولات الألفاظ تحويرا واسعاً لتستوعب المعاني الفنية التي تدور في نفوسهم . ومن هنا كان الخطر الكامن في تفسير الشعر بهذه اللغة العادية التي ترد في المعاجم .

كل من لغتي الشاعر والفيلسوف أدنى إلى القصد والايجاز إلا أن إيجاز الشاعر من باب الرمز والاكتفاء وايجاز الفيلسوف من باب المطابقة والتحديد الدقيق . لغة الفيلسوف مقيدة لأنها وسيلة ولغة الشاعر أكثر حرية إذ هي عناية لابد ان يتوافر لها قسط من الجمال الموسيقي الذي يلائم ماتؤديه من شعور صادق وحقيقة ناصعة . وأخيراً لاغنى للشعر عن الفلسفة ليكون قيم المعاني خالدا بجانب جماله الفني الأصيل وعلى الشاعر أن يكون فيلسوفا أولا ليقيم فنه على أساس من الصواب والعمق ، فاذا ما دخلت الفلسفة مجال الشعر وخضعت لصياغته الفنية صارت سهلة مستساغة . وامتزاجها معا هو المثال الكامل في الآداب .

وهنا نذكر ماقاله ابن رشيق : « والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر فان وقع فيه شيء منها فيقدر . ولا يجب أن يجعلا نصب العين فيكونا متشكا واستراحة . وإنما الشعر ما أطرب وهز النفوس وحرك الطباع . فهذا هو باب الشعر الذي وضع له لا ما سواه » . (١)

وهذا النص يوحي الينا بأمور :

منها أن مقياس الشعر الاول هو الانفعال وأما الثقافة او الافادة فليست من باب الشعر على حد تعبير ابن رشيق .

---

(١) العمدة ، ج ١ ، ص ٨٣ مطبعة السعادة سنة ١٩٠٧

ومنها أن الفلسفة لذلك أدب آخر غير أدب الشعر لقيامها على النفعية العقلية . وخير لها الا تتصل بالشعر إلا لماماً ما دامت غير مؤثرة ولا مطربة .

ومنها ان النقاد السابقين فهموا الشعر على انه ضرب من التصوير غايته التأثير واتخذوا البحتري مثال ذلك بخلاف الحكيمين ابي تمام والمتنبي . ولعل الجاحظ من شيوخ هذا الرأي .

وعندنا أن هذا الرأي يذكر للشعر صفة أساسية هي أظهر صفاته ولكنها ليست وحدها أهم ما فيه فان جانب الفكرة خطير في الشعر لا يستقيم له تأثير بدونه . . والواقع أن الشعر ضرب من التفكير والتصوير والتعبير .

فإن أراد ابن رشيق بالفلسفة هذه الحكمة العارية والتقرير العلمي فله عذره ولاأدري إذا كان قد وضع نصب عينيه هو هذه الصور الثلاث في الشعر العربي

(١) صورة البحتري بجمال تصويره وحسن تعبيره .
(٢) وصورة المتنبي بحكمته الشائعة وعبارته القوية .
(٣) وصورة المعري بفلسفته الخالصة وأسلوبه التقريري .

— ٣ —

وإذا رجعنا الى تاريخ الشعر العربي لم نجده يخلو من النظرات الفلسفية في كل خطواته لأن التفكير الشعري هو تفكير فلسفي أيضاً . ولكنا نقصد الآن إلى الاشارة الخاطفة إلى بعض المعالم الواضحة التي عالج فيها الشعر العربي رأيا واضحاً أو مذهباً مستوياً من جانب الفلسفة .

(١) ومن أقدم ما عرفنا من ذلك ما قال طرفة بن العبد في معلقته إذ تناول باسلوبه الشعري مذهبه في الالحاد والشك في الآخرة والسخرية بالمتحرجين حوله . والحرص على اللذة متهالكاً عليها . ولقد كان طرفة في عرضه هذا مثال الشاعر الذي جمع بين وضوح المذهب وقوة العقيدة وصدق الشعور ، وكان لذلك صداه في أسلوبه الموسيقي الرائع . وكان امتزاج الفلسفة بالشعر عنده مثالا كاملاً عرفناه فيما بعد عند أبي نواس من المستهترين .

ومن المناسب ان نذكر هنا زهير بن أبي سلمى حين دعا إلى السلم أيام الجاهلية الحمراء ثم طائفة الصعاليك من الشعراء الذين ثاروا على أثرة الأغنياء في الجاهلية وصوروا نزعتهم هذه بشعر قوي جميل .

(٢) وفي القرن الثالث الهجري لما أخذ الشعر في سبيل الحضارة ظهر أبو تمام وأخذ يفلسف الشعر وإن لم يكن هو فيلسوفاً وبذلك صار رأس أصحاب المعاني في الشعر .

ظفر أبو تمام بثقافة ممتازة من فلسفة ولغة ودين ونحو وأدب وتاريخ وعقائد وقد ظهرت معالم ذلك في شعره .

ثم وهب ذكاء نادراً ، وحساً دقيقاً ، وإخلاصاً لفن الشعر عميقاً يتكيء فيه على نفسه ويذيب له مخه في سبيل تنميقه وتجويده وتوليد معانيه ليكون فناً جميلاً نافعاً يجمع بين جمال التصوير وعمق التفكير .

لذلك شاعت في نظمه معان غريبة وحكم منثورة في ثنايا قصيده فعد بذلك أحد الحكيمين وصاحب مذهب التجديد لما عد البحتري شاعر المحافظة أو عمود الشعر .

ولكن أبا تمام أصيب بعد ذلك بالغلو في البديع فاعتمد على الجناس والطباق ، والاستعارة فوق الغريب من اللفظ والطريف من المعاني فأفسد بتكلفه هذا قسماً من شعره غير قليل ، ولعل هذا التكلف كان خطوة أولى للزوميات أبي العلاء وإن اختلف التكلف بينهما فمرده عند أبي تمام الترقيش الفني وعند أبي العلاء الرصف اللغوي .

وبذلك اجتمع في شعر أبي تمام خواص كونت شخصيته الفنية من معان جديدة ، وصور بديعة . وألفاظ غريبة ونقل للشعر من فن للتصور إلى فن للتصوير والتفكير . والذي يعنينا هنا أنه كان خطوة جريئة في استحالة الشعر العربي — أو الاسلامي — لما زاوج بين الفكرة الفلسفية وبين الصياغة الفنية ولقي عناء ذلك لأخذه المسألة بقوة صارمة ، فهذا شيء . . وشيء آخر هو أن حكمته قليلة منثورة في قصائده وأن الفلسفة عاشت عنده على هامش الشعر لم تغمره ، وان ذكاءه كان العامل المباشر في معانيه التي

سماها الناس فلسفة ، وأنه لم يحفظ للشعر مكانته فتكسب به ، وإن حفظ له صنعته الدقيقة كما قال : —

خذها مثقفة القوافي ، ربها لسوابغ النعماء غير كنود
حذاء تملأ كل أذن حكمة وبلاغة وتدر كل وريد
كالدر والمرجان ألف نظمه بالشذر في عنق الكعاب الرود
كشقيقة البرد المنمنم وشيه في أرض مهرة أو بلاد تزيد

(٣) وجاء القرن الرابع ومعه المتنبي تلميذ أبي تمام فظفر كذلك بثقافة عريضة لغوية ، ودينية وصوفية وفلسفية فوق ما أفاد من تجارب وألم من حكم أرسطو .

وقد تمثل هذه الثقافة في ديوانه وصارت الحكمة أو المعاني الفلسفية جزءاً من كيان فنه الشعري تحيا داخله وتقومه وبذلك نجد الفلسفة عنده أدخل في الشعر منها عند أبي تمام كما نجدها محافظة على قوالبها إلى درجة ملحوظة . فالتناسخ والحلول والمجوسية والمانوية وغيرها صريحة عنده يوردها مرتبطة بمعاني الشعر على أنها أقيسة فنية أو براهين منطقية .

وكذلك الشأن في حكمته التي اكتسبها من تجاربه أو اقتبسها من المعلم الأول ، فانها ترد في ثنايا قصيده ذات اعتبارين : مستقلة أو كأنها مستقلة في صياغتها الفلسفية فهذا وجه ، ثم هي خاضعة لتيار القصيدة العام ولجوها ، وهذا من شأنه أن يكسبها إلفاً ويخفف من طبيعتها الأصلية .

وأسلوب المتنبي لم يسلم هو أيضاً من الغريب البدوي ، والاصطلاح العلمي ، والشذوذ في العبارة حتى غاظ النحاة وأعنت اللغويين ، وصار له نحو خاص . . ، ذلك لانحراف عبارته عن الصياغة المألوفة حتى قال أنصاره إن صناعته كوفية . . ولعل أبا الطيب كان يتعمد ذلك جرأة منه وتحدياً للنحويين .

وناحية هامة نشير اليها دون تفصيل أيضاً هي أن المتنبي كان أستاذ أبي العلاء الأول المحبوب سواء في ناحيته الفنية والفكرية أي أنه كان أستاذه في الشعر والحكمة جميعاً ، فكان أبو الطيب مثال المعري في نظم

الشعر أيام صباه وشبابه . وإن كثيراً من المعاني التي احتفل بهـا أبو العلاء موجودة عند أبي الطيب .

إلا أن أبا العلاء كثيراً ما كان يأخذ المعنى وينحرف به عن طريق استاذه لما كان بين المزاجين من فروق . . فالمعري مثالي والمتنبي واقعي .

وخلاصة ما نذكره هنا عن المتنبي أنه لم يكن فيلسوفاً وان تفلسف في شعره ، وقد وردت حكمته في مواطنها المناسبة دون أن تنظم فصولاً ومقطوعات ، وأن ذلك مع قوة صياغته جعلهـا مقبولة وكسا من عريها الفلسفي الأصيل .

المتنبي ضاعف ما سبقه إليه أبو تمام واجتمع في شعره أشياء كانت مقدمة التحول النهائي الحاسم الذي نهض به ابو العلاء في هذا المضمار .

— ٤ —

فماذا فعل المعري ؟ وبم امتاز ؟

(١) حظي أبو العلاء بثقافة هي خلاصة الثقافة الإسلامية في القرن الخامس ، فكانت لغوية نادرة ، ودينية إسلامية ومسيحية ويهودية ومجوسية وأدبية وفلسفية وتاريخية ، فيها التنجيم والتصوف ، وفيها من كل شيء ، فكانت يونانية وفارسية وهندية مما فاض به شعره ونثره .

(٢) بدأ حياته الشاعرة بتقليد المتنبي أستاذه المفضل فأخذ يحذو حذوه منذ صباه وفي شبابه أيضاً ، وبدت علامات هذا التقليد باستعمال الغريب وفي الأخذ بالبديع ، وفي المبالغة وتناول المصطلحات العلمية والفلسفية والدينية . أنشأ أكثر سقط الزند في شبابه وبلغ في بعض قصائده درجة الشاعر المثالي وبخاصة في مرثيته الدالية المشهورة في أبي حمزة الفقيه لأنه زاوج فيهـا بين الشعر والفلسفة مزاوجة خالصة دون أن تشوبها شائبة تفسدها من غريب أو بديع أو التزام مالا يلزم فكانت هذه القصيدة من بين شعره

تاجاً على رأسه متألق الجواهر استوت بها عنده صنعة الشعر الأصيل ، فيها جمال الأسلوب الذي استهوى النقاد من البحتري وجعلوه من أجله الشاعر الفذ ، ثم تمتاز بعد ذلك بهذه المعاني الرائعة الدقيقة العميقة ، وبهذا الشعور السامي والأفق الواسع . وعندي أن أبا العلاء كان بهذه القصيدة يرثي الدنيا جميعاً ويقف على هذا البرزخ بين الحياة والموت ، يبكي عدوان الآخرة على الأولى ويعجب لسلطان الموت وسطوته .

ولو أن أبا العلاء اطرد شعره كله أو أكثره على نسق هذه القصيدة ما قُرن به شاعر عربي آخر . وإذاً ، كان يكون أبو العلاء سيد شعراء العربية غير مدافع وأولاهم جميعاً بالمكانة الأولى في هذا الفن الرفيع .

(٣) ولكن أبا العلاء حين اكتملت له شخصية الشاعر الكامل أخريات شبابه ، وانتهى عهد التقليد الفني نجده يتحول عن هذه السبيل تحولاً يكاد يكون عقوقاً لهذه الموهبة الرائعة كما يتحول عن حياته الاجتماعية ويمتز لها رهين المحبسين أو الثلاث ويصبح فى حياتيه الحسية والأدبية إنساناً آخر .

خضعت حياته الحسية لأوضاع قاسية صارمة من الحرمان والزهد في الطعام واللباس وبغض الزواج والنسل ولزوم البيت وتحامي الناس إلا أن يكونوا طلاب علم ، أو زواراً معجبين يلمون به لحظات ، أو يكاتبونه مجادلين . . . حياة أساسها التشاؤم والسخط واحتقار الحياة وإذلالها .

وأما حياته الأدبية فكانت عكس ذلك تماماً ، حرية في التفكير لا حد لها ، وغنى نفسي عزيز صان به نفسه وأدبه ، وتأمل عميق قد يفضي به إلى الحيرة والشك حين يعجز العقل أمام المعضلات ، وهو شك يمس الدين والعقل والحس والخير ، وكانت مناقشاته للديانات تنطوي على سخرية بها وبالأوضاع الاجتماعية وبهذا النفاق الانساني العام .

(٤) وفي هذه السجون الثلاثة نظم أبو العلاء « اللزوميات » في تمجيد الله وتنبيه الناس وقد برأها من الكذب وتوخى فيها الصدق كما قال في

مقدمتها . ومع ذلك فقد ألم فيها بمسائل شتى من الفلسفة الطبيعية والرياضية والالهية ثم العملية فوق ما فيها من عظات .

وتأليف هذه اللزوميات — من ناحية الشكل فقط — خاضع لخطة مرسومة ذات أبواب وفصول ولكنها أبواب وفصول شكلية تقوم على حروف الهجاء ، فكل حرف باب من أبواب القافية ، فصوله حركات تلحق هذا الحرف رفعاً ونصباً وجراً ثم سكوناً .

وقد تكلف ابو العلاء في لزومياته أشيـاء أخرى منها اللغوي فلم نجد ديواناً جمع من غريب اللغة ما جمعت اللزوميات ، ومنها العروضي بالتزام حرف أو أكثر قبل القافية فهذه قسوة أدبية وسجن للمعاني والآراء .

ثم استخدم الجناس بين آخر الأبيات وحشوها في مواضع شتى ، وبذلك فاق جميع من سبقوه من أهل هذه الصنعة النظمية والنثرية أيضاً .

(٥) والأمر الخطير أن هذا التعقيد اللفظي لم يكن في صالح الفلسفة ولا الشعر ، إذا جاز لنا أن نعد اللزوميات ديوان شعر — ولعله لا يجوز — فقد كان أحرى بأبي العلاء الفيلسوف أو المتفلسف أن يؤدي آراءه أو مذهبه في عبارات منثورة واضحة قائمة على التقرير العلمي المنظم ليستطيع الشرح والتدليل ثم ليسهل على الناس الأخذ عنه بدلاً من هذا الاغراب اللغوي والتعقيد اللفظي الشاذ .

ولكن أبا العلاء شاعر منذ حين فهل أبت عليه طبيعته ان يترك فنه الأول ؟ وإذا صح ذلك وكان لا بد من وصله بالفلسفة . . فما معنى هذا الترصيف اللغوي والبديعي ؟ ! هذا التعقيد إنما يعجب به الكلفون بحل المعميات اللغوية والذين يعطفون على ابي العلاء ولكنه إعجاب إلى حين يجد الجد وتطلب المعاني لدرسهـا ونقدها فاذا بهم يضيقون به ويعدون حائلا صفيقاً بينهم وبين ما يبغون وأبسط قوانين البلاغة ألا يحول اللفظ دون المعنى وان يوفر جهد القارئ لدرس الافكار وإدراك الصور لا غير ، فاللغة في

باب الفلسفة وسيلة خالصة وهي في الشعر جزء من الغاية على شرط ان تكون غاية من ناحية الوضوح والجمال لا من ناحية الاغراب والتعقيد .

وإذا كان قد سلم لأبي العلاء في لزومياته قطع تحققت فيها المزاوجة بين المعاني الفلسفية والصياغة الفنية فإنها قليلة في هذا الديوان الضخم، بحيث لا تضفي على صاحبه صفة الشاعر، إذ غلب عليها التقرير والسرد، والتكرار والوعظ حتى عاد ديوان نظم . . . وليته ديوان نظم فلسفي خلا من هذه الكلف الكثيرة .

(٦) والذي فات أبا العلاء، فلم يُعن به، أن الفلسفة بقيت في ديوانه هذا عارية في الغالب لم يلبسها ثوباً فنياً من أسلوب الشعر كما حاول هو في بعض سقط الزند وكما حاول من سبقه إلى حد كبير . . إذاً، لبقيت للأسلوب روعته وقوته وذهب عنه الابتذال. والغريب، أو الطبعي، أن هذه الكلف نجدها في اللزوميات ولا سيما التكرار المنظومة كما نجدها في اللزوميات المنثورة — أعني الفصول والغايات — وفي اللزوميات المنظومة والمنثورة معاً (ملقى السبيل) فالأفكار معادة فيها جميعاً .

وقد أربى ابو العلاء على سابقيه في استخدام المصطلحات العلمية واتخاذها أقيسة وبراهين ليس فيها جمال الشعر وإن كان فيها تظرف النحويين والفقهاء .

لم أنس أن هناك نوعاً من الشعور يحسه قارئ اللزوميات دائماً ولكنه شعور مصدره العطف على المعري، وجانب الحياة الحزين الذي سيطر عليه فغشى به آثاره، وهذه المعاني الحكمية السليمة . .ولكن متى كان الحزن واليأس والفشل غاية الأديب؟ ومتى كانت الفلسفة سلبية دائماً هدامة ؟

— ٥ —

أمامنا الآن — في باب النظم العلائي — سقط الزند الذي يعد ديوان شعر ابي العلاء ثم اللزوميات ديوان فلسفته، فأيها يعد نصه الأصيل ؟ وبعبارة أخرى هل أبو العلاء شاعر او فيلسوف ؟

يذكره فريق من المستشرقين شاعراً فيلسوفاً وان اختلفوا بعد ذلك في تقدير مكانته ولا سيما في الناحية الفلسفية .

يرى نيكلسون Nicholson أنه شاعر فيلسوف سجل في آثاره ميول التشاؤم والحيرة لعصر الانحلال الاجتماعي والفوضى السياسية .

وفون همر Von Hammer يعده شاعراً كأبي تمام والبحتري والمتنبي ويميزه بالفلسفة . وأما فون كريمر Von Kremer الذي عني بدرس اللزوميات فإنه يعد أبا العلاء من أعظم الأخلاقيين « فلاسفة الأخلاق Moralists » وان رأى فيه مرجليوث رجلا شاكا حيران . اراؤه سلبية . وليست أخلاقياته شيئاً بجانب ما أصيب به من شك ويأس ثم يعود نيكلسون Nicholson فيلاحظ ان آثاره خالية من المنهج الفلسفي وان أفكاره شتيت غير منسق . احتواها نظم معقد . لا تخلو من تناقض (١)

أما طه حسين فيرى أنه قد كان فيلسوفاً حقا (٢) وقد أوضح هذا الجانب وبين آراء المعري في كثير من المسائل الفلسفية بناء على ما استخرجه من اللزوميات وهي مسائل تدخل في أبواب الفلسفة الطبيعية أو العلم الادنى والفلسفة الرياضية أو العلم الاوسط والفلسفة الالهية أو العلم الاعلى ثم الفلسفة العملية . وبين مصادر هذه الفلسفة وردها الى الحياة والفلسفة اليونانية والهندية والفارسية ثم إلى الكتب الدينية على اختلافها . . . وهكذا دخل أبو العلاء مجال الدراسات الفلسفية على أنه فيلسوف نظم فلسفته في اللزوميات ونثرها في الفصول والغايات وفي بعض الرسائل ومع ذلك فهناك مآخذ على أبي العلاء الفيلسوف :

(١) أول ذلك أن أبا العلاء لم يبتكر شيئاً في الفلسفة يعد رأيه أو مذهبه أثر به في مجراها العام فان فلسفته إما مأخوذة من أصول قديمة اختارها وآمن بها وإما تأملات في الحياة مردها مالقي من تجارب وأحداث انتهت به إلى مثل

(١) راجع . Nicholson · Literary History of the Arabs pp - 313 - 320

(٢) ذكرى أبي العلاء ص ٣٣٠ ط ١٩١٥ م

ما انتهت اليه عند الناس فكانت أفكاراً عامة . . ومهما يكن له من تسجيل لها وخضوع في حياته لسلطانها . . فهذه أقل درجات الفيلسوف .

(٢) ثاني ذلك حيرة أبي العلاء وتردده بين الآراء دون أن يقطع برأي في بعض المسائل أوفي رءوسها لذلك دعي عند بعض الأقدمين والمحدثين شاكا ، يؤمن بالعقل وينكره . ويقول بالجبر ثم بالاختيار ، ويتمنى الموت ويفزع منه ، وينتظر البعث ويسخر به .. ولايرد على ذلك اصطناعه التقية والتعمية على الناس ، فهذا ليس شأن الفيلسوف على أن التردد إنما ينتاب الانسان أول الامر ولا يلازمه . . والاصار لا أدريا .

(٣) ثالث ذلك طريقة الاداء وهذه لم تكن فلسفية بحال فقد رأينا أنه نظم فلسفة أو أختار النظم ليقيد بها آراءه والاصل أن تنثر الفلسفة إذ كان النثر لغتها الطبيعية ولا يقال إنه نثرها في الفصول والغايات فإن هذا الكتاب أيضاً ليس إلا لزوميات نثرية أصابه من ضروب الإغراب والتعقيد والصنعة ما أصاب زميله . ومهما يعتذر أنصار المعري لهذه الكلف وذاك الغموض فإنهما يقللان من قراء المعري وتلاميذه .

وهناك أمر آخر يتصل بطريقة الاداء هو تشتت الافكار وانتشارها هناوهناك بحيث لا تجتمع الافكار المترابطة في باب . هي آراء قد تتفق وقد تتخالف مع ذلك مما يشبه للناس ان آراء المعري خطرات طارئة . بصرف النظر عن قيمتها الذاتية .

هذه الاعتراضات معناهـا ان الناس ينقمون من أبي العلاء انحرافه عن السبيل الطبيعية وتعقيده حياته وأدبه وخضوعه لنوع من الانتكاس في عزلته . ولكن هذا في الحقيقة أسف غير نافع . وخير لنا أن ننظر الى ابي العلاء كما وجد وان ننتفع به في حدود ما هيئ له دون أن نرجو منه مثالا لم تحققه الأيام .

ونتيجة ماسبق ان ابا العلاء متفلسف . وأن إطلاق لفظ الفيلسوف عليه يجب أن يفهم على وضع خاص هو انه درس الفلسفة واصطنعها في حياته لا انه ابتكر في الفلسفة أو أخضعها لسلطانه .

- ٦ -

وفي الجانب الشعري يرى كثير انه شاعر ممتاز وربما عده بعضهم خير شعراء العربية مؤيدين دعواهم ببراهين :

منها انه الشاعر العربي الفذ الذي استطاع أن ينظم الشعر الفلسفي أو يزاوج بين الشعر والفلسفة مزاوجة نادرة . في قسم من شعره حفظت للشعر قيمته وللفلسفة شيوعها وسلطانها ذلك في شبابه وأما شيخوخته فقد أثمرت لنا اللزوميات . وفيها مقطوعات هي مثل في معانيها وعبارتها على الرغم مما قيدت به من لوازم .

ومنها صدق شعره الذي يصور حياته العقلية والعاطفية تصويراً صحيحاً لارياء فيه . وصار الدارس غير محتاج إلى مصدر آخر يصحح به هذا المصدر الأصيل لفهم ابي العلاء ومنها انه نزه شعره عن الاتجار به في سوق المديح فحفظ لفنه مكانته . وهذه المسألة وان كانت شكلية ولكن لها قيمتها في فن الشعر أيضا متى حفظت له حريته وصدق شعوره وفتح بابه للفلسفة ليكون فنا نافعا جميلا .

ومع ذلك فهناك من ينكر على أبي العلاء شاعريته :

يقول ابن خلدون في معرض التعريف بالشعر ووجوب جريه على أساليب العرب المعروفة للشعر : « كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الادبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب . (١)

ويقول : « ولا يكون الشعر سهلا الا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبي بكر بن خفاجه شاعر شرقي الاندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعري بعدم النسج على الاساليب العربية كما مر فكان شعرهما كلاما منظوما نازلا عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق (٢) »

(١) المقدمة ص ٦٥٠ ط التقدم (٢) نفس المصدر ص ٦٥٦

وقبل ذلك قال ابن رشيق إن الفلسفة باب آخر غير الشعر لأنه يقوم على التصوير والتأثير ومرد هذا كله ، هنا ، ان المعري في اللزوميات ناظم لا شاعر لخروجه على الأساليب العربية لفن الشعر وإقحامه الفلسفة والحكمة فيه بدرجة جاوزت المألوف بل بدرجة أحالته نظماً ليس من الشعر في شيء .

ومعنى الأساليب العربية عند ابن خلدون هو الطبيعة التي جرى عليها الشعر العربي منذ نشأته إلى عهد أبي تمام ثم المتنبي والمعري . وهي طبيعة غلب عليها جمال التصوير وحسن التعبير المفضيان بالشعر إلى أن يهز النفوس ويحرك الطباع ومثال ذلك عند هؤلاء النقاد هو البحتري وأما المتنبي والمعري فقد خرجا على هذه الاساليب بما أكثرا من الحكمة في الشعر أولا . ثم بما ادخلاها عارية أوتكاد محافظة على قوالبها العلمية التقريرية ثانيا فعاد بها قولهما نظما ليس من الشعر في شيء .

هذا المقياس كما قلنا ليس بخاطيء إلا من ناحية ضيقة وقصوره عن الشمول ولا سيما حين مثلوه بالبحتري تاركين سلسلة أبي تمام وصاحبه . فالشعر مقبول لحسن تصويره وجمال تعبيره كما هو الشأن عند البحتري . ولكنه مقبول أيضاً لسلامة تفكيره وقوة أسلوبه كما هو الشأن عند الآخرين . . فهذا وجه . وأما ناحية التأثير التي جعلوها مقياسا لجودة الشعر فلا شك أنها تتوافر في شعر أبي تمام والمتنبي وقسم من شعر أبي العلاء .

المسألة ، إذاً ، مسألة هذه الفلسفة العلائية واحتلالها ميدان الشعر فأما إلى حدّ اتصالها بالشعر فهذا شيء طبعي بل هو الاصل وإنما الكلام بعد ذلك في مسألة الكم والكيف . أي إلى أي مدى يتسع لها هذا الفن الرفيع ؟ وكيف يستسيغها أو كيف يعرضها على القراء ؟

لا شك أن كثرتها تؤثر في جمال الشعر وقوة تأثيره وخير أن يأخذ منها هذا الفن باعتدال ، لا يقل حتى يعود الشعر صوراً وعبارات فقط كما قال الأقدمون ولا يكثر حتى يعود الشعر نظماً ثقيلاً مملولا . . على أن المسألة في الحقيقة مسألة الكيف وهي طريقة العرض فان كانت الفلسفة عارية خالصة

تقريرية كانت النتيجة ذلك النظم الذي يضيق به الناس جميعاً ويتجاوز دائرة الشعر ، وإن كانت معروضة في صياغة فنية ، بحيث تذوب الآراء في أساليب الفن فانها تكسبه قوة ولا تفقده الجمال .

ولا شك أن الأقدمين كانوا على صواب حين وجهوا نقدهم الى اللزوميات أو الى كثرتها على أساس المقياس الشعري فوجدوا فيها رسما فلسفيا وقيوداً لغوية عروضية بديعية يمقتها الشعر ويمجها الذوق . . ولكنهم لم يضعوها على مقياس النظم الفلسفي ، ولعلهم ـ لو فعلوا ـ كانوا يرون فيها رأياً آخر أدنى إلى الانصاف وأقرب الى مزاج أبي العلاء وما أحاط به من مؤثرات . وعلى كل فهذا رأي القدماء في شعر أبي العلاء ، وهذا ما نراه نحن بحيال ما رأوا ، فهل هذا كل ما يؤخذ على أبي العلاء في لزومياته ؟

هناك مآخذ أخرى متصلة بأبي العلاء الشاعر . فاذا أخذنا اللزوميات جملة لاحظنا هذا التكرار الكثير الذي يصرف القارئ ويخيل إليه ان المعري ضيق المادة الفكرية ، وقد يكون من دواعي هذا التكرار اضطرار أبي العلاء أن يملأ فصول ديوانه التي أدارها على حروف الهجاء وحركاتها الاربع . ولكن متى كان التعقيد مبرراً للتكرار ؟ ومتى كان عيب يسيغ عيبا ؟ وهناك التشاؤم الذي يطبع هذا الديوان طابعاً أسود ويشوه الحياة أمام الناس : أيصلح أن يكون مادة لديوان كامل ، أم أن وظيفة الشعر تهذيب النفوس وحملها على الرضا واحتمال الحياة وإشاعة البهجة والسرور ، أم أن شيئاً من البكاء لازم لتصفية النفوس وتحقيق الاتزان في الحياة وبخاصة اذا كان ذلك عن طريق هذا الفن الرفيع ؟ مهما نقل من ذلك أو نبرره بأن وظيفة الشعر هي التعبير لاغير ، فان أبا العلاء ساخط حزين نخشى أن يبعث اليأس في النفوس ، ويسلط عليها الأمل الضائع ، والألم المقيم. وقد ذكرنا هذا التعقيد اللغوي والعروضي والبديعي . وما قد يجوز على المعنى فيقصر أو يبتر في سبيل هذه اللوازم ، وانما نلاحظ مع ذلك أن معاني أبي العلاء المتناثرة التي حشدها في لزومياته أحالت قصائده مجموعات من الأبيات المتناثره أيضاً ، بحيث لا نجمعها ، في الغالب ، إلا وحدة البحر والقافية . وبحيث أثر ذلك على وحدة القصيدة وتنسيقها العام .

هذه المآخذ تؤثر حتماً في مكانة المعري الشاعر . وتجعلنا نسأل أنفسنا : هل تكفي بعض قصائد في سقط الزند لتضع أبا العلاء في صف الشعراء الممتازين ؟ هل نستطيع أن نعد اللزوميات ديوان شعر وبها يكون أبو العلاء من رجال هذا الفن الرفيع ؟ وهناك مستشرق آخر هو الاستاذ — دي بور De Bœr — تناول أبا العلاء الشاعر الفيلسوف فقال : « غلا البعض في رفع شأن أبي العلاء المعري (٩٧٣ — ١٠٥٨ م) فعدوه شاعراً فيلسوفاً وجعلوه في مكانة لايستحقهـا . نعم لأبي العلاء في بعض الاحيان آراء معقولة وعواطف خليقة بكل احترام ولكنها ليست فلسفة . وليس القالب الذي صيغت فيه ، بما فيه من تكلف وبمـا يغلب عليه من ابتذال ، بالذي يسمو إلى منزلة الشعر ، ولو أن أبا العلاء عاش في ظروف خير من التي عاش فيها [كان ضريراً ولم يكن غنياً] لكان من المحتمل أن يقدر على الاجادة في شيء من النقد الاولي الذي يقوم على نقد الألفاظ ، وهو ، بدلاً من أن يدعو إلى محبة الحياة ، دعا إلى الزهد في ملذاتها ، وكان متبرماً بالأحوال السياسية بوجه عام ،وبآراء العامة في الدين، وبمزاعم الخاصة في العلم . غير انه لم يستطع أن يأتي في ذلك بجديد . ويكاد ابو العلاء يكون خلواً من كل مقدرة على ربط الاشياء بعضها ببعض . لقد كانت له مقدرة على التحليل ، أما التركيب ، فليس له منه نصيب . وتعاليم ابي العلاء عقيمة ، وعلمه كشجرة أصلها في الهواء كما قال هو في بعض رسائله وان لم يقصد أن يقول ذلك عن نفسه (١) »

لاشك ان دي بور وقف عند اللزوميات وأخذها جملة على أنها ديوان شعر ، ثم كان مثالياً في نقد أبي العلاء الفيلسوف الشاعر .

— ٧ —

والآن نجد أبا العلاء حيران بين الشعر والفلسفة ، فأين نضعه ؟

قد يكون من السهل أن نجمع له بين الوصفين . فنعده فيلسوفاً لهذه الآراء التي أشرنا إليها ، ونعده شاعراً لقصائد في سقط الزند ومقطوعات من اللزوميات.

(١) تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٧٧ من الترجمة العربية .

وقد يكون من الجائز أن ننفي عنه الوصفين ، لقلة روائعه الشعرية مع كثرة آثاره النظمية فلا يكون من الشعراء المعدودين ، وان نقف عند تردده وعدم ابتداعه، فلا نعده من الفلاسفة الأولين .

ولكننا نعود فنسأل : لم يقرأ المعري ؟ ألأسلوبه الفني الرائع أم لأفكاره وتأملاته ؟

لاشك أن الناس يقرأون أبا العلاء في الاصل والاكثر لجانبه الفكري ، وحكمه الخالدة وشكوكه الرائعة . فهذا هو السبب الأساسي لإقبال الناس عليه وصبرهم على لزومياته .

ونتيجة ذلك :

أننا إذا قسنا أبا العلاء بمقياس مثالي كان أبو العلاء متفلسفاً .

وأما إذا حكمنا عليه بمقياس مقتصد فإنه يكون فيلسوفاً .

القاهرة في { أول شوال سنة ١٣٦٣ هـ
١٨ من سبتمبر سنة ١٩٤٤ م } أحمد الشايب

الحفلة الثانية

في دمشق

لما انتهت الحفلة الخطابية الاولى عاد أعضاء المهرجان إلى فندق (اوريان بالاس)، حيث اقام المجمع العلمي لهم مأدبة عشاء دعا اليها أعضاء الحكومة والوزراء السابقين وعلماء دمشق وأدباءها ووجهاءها .

وفي اليوم الثاني أعد المجمع برنامجاً لزيارة الأماكن الأثرية في دمشق ؛ فبكر أعضاؤه إلى الفندق ، وصحبوا الوفود الى متحف دمشق ، والجامع الأموي ، ودار المجمع العلمي العربي ، ودار الكتب الظاهرية ، وقبر صلاح الدين الأيوبي ، وجامع الشيخ محيي الدين بن العربي ، والبيمارستان القيمري .

ولما انتهت الزيارة عاد أعضاء المهرجان الى فندق (اوريان بالاس) لحضور وليمة الغداء التي أقامها وزير المعارف تكريماً لهم .

وما ان حان موعد الحفلة الخطابية الثانية في الساعة الخامسة بعد الظهر حتى توافد المدعوون إلى الجامعة السورية . وكان اقبال الناس على هذه الحفلة لا يقل عن اقبالهم على الحفلة الاولى. و كانت الخطب تذاع من محطة دمشق ، وتنقل بمكبرات الصوت الى الاماكن البعيدة . أما برنامج الحفلة الثانية فقد كان على الوجه الآتي :

١ – الأستاذ أحمد أمين : سلطان العقل في نظر المعري
ممثل كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول
ومجمع فؤاد الأول

٢ – الأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي : التفاؤل والأثرية عند المعري
عضو المجمع العلمي العربي

٣ – الاستاذ محمد البزم : ابو العلاء « قصيدة »
عضو المجمع العلمي العربي

٤ – الأستاذ ألفريد غليوم : المعري في نظر المستشرقين
من جامعة اكسفورد

٥ – الاستاذ عارف النكدي : المعري من الوجهة الاصلاحية
عضو المجمع العلمي العربي

وقد تخلل هذه الحفلة دور موسيقى غنت فيه فرقة الاذاعة بدمشق قطعة من شعر أبي العلاء . وهي :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمرِ لعل بالجزع أعواناً على السهرِ
وان بخلت عن الأحياء كلهم فاسق المواطر حياً من بني مطر
ويا أسيرة حجليها أرى سفهاً حمل الحلي لمن أعيا عن النظر
ما سرت الا وطيف منك يصحبني سرى أمامي وتأويباً على أثري
لو حط رحلي فوق النجم رافعه وجدت ثم خيالاً منك منتظري
يود أن ظلام الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر

ولما انتهت الحفلة الخطابية دعي أعضاء المهرجان الى حفلة عشاء أقامها المجمع العلمي في حديقة المتحف حضرها الوزراء ورؤساء المعاهد العلمية ورؤساء المحاكم وكبار الأساتذة والموظفين .

وفيما يلي نص الخطب التي القيت في هذه الحفلة :

جميل صليبا

سلطان العقل عند ابي العلاء

يرى القارئ لتراث أبي العلاء — وخاصة اللزوميات — اشادة بالعقل واعترافاً بقوة سلطانه فهو أعز ما وهب الانسان .

والعقل أنفس ما حبيتَ وان يُضَع   يوماً يَضَعْ، فغوى الشراب وما حلب

وهو الهادي الوحيد لمعرفة الخير والشر والحق والباطل فلا حاجة الى انتظار امام معصوم يرشد الناس الى ما يعمل وما يترك فالعقل كفيل ببيان ذلك كله .

يرتجي الناسُ أن يقوم امام   ناطق في الكتيبة الخرساء
كذبَ الظنُّ لا امام سوى العقـــل مشيراً في صبحه والمساء

ولكن الناس في كل زمان ما قدروا العقل قدره ولا وفوه حقه ولا عرفوا كيف ينتفعون به .

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن   الا وعنديَ من أخبارهم طرف
يخبر العقل أن القوم ما كرُموا   ولا أفادوا ولا طابوا ولا عرفوا
عاشوا طويلاً وماجوا في ضلالتهم   ولايفوزون ان جوزوا بما اقترفوا

بالعقل والتفكير الصحيح تنقشع الغيوم وتنجاب الظلماء وتهون الصعاب وتنكشف الحقائق .

اذا تفكرت فكراً لا يمازجه   فساد عقل صحيح هان ما صعبا

خذوا في سبيل العقل تُهدَوْا بهديه   ولا يَرْجوَنْ غيرَ المهيمن راج
ولا تطفئوا نور المليك فانه   ممتعُ كلٍّ من حِجىً بسراج

فكروا في الأمور يُكشف لكم بعـــضُ الذي تجهلون بالتفكير

والدنيا مملوءة بالتجارب ولكن التجارب طير اختبأ في عشه انما يستطيع أن يصيده من منح العقل والعمر

ان التجارب طير تألف الخمرا يصيدها من أفاد اللب والعمرا

والعقل هو المرآة الصادقة ترى فيها الحقائق ، لا كلام الناس والاخوان

أرى اللب مرآة اللبيب ومن يكن مرائيه الاخوانُ يُصدَّق ويُكذبِ

وانما يقيد العقل ويمنعه عن ادراك الحق والعمل به ما ركب فيه من طبع وشهوات فالعقل مغلولاً بالشهوات كالشمس يحجبها الغمام .

يحارب الطبعُ الذي مزجت به مهجُ الأنام ، وعقلهم ، فيغله
ويظل ينظر ، ما سناه بنافع كالشمس يسترها الغمام وظله
حتى اذا حضر الحِمام تبينوا ان الذي فعلوه جهل كله

واللب حارب فينا طبعاً يكابد حرْبه

* * *

والعقل أحسن هاد لفعل الخير وترك الشر وخير الخير ما أتاه صاحبه لأنه جميل لا رغبة في مثوبة ولا خوفاً من عقوبة

عليك العقلَ وافعل ما رآه جميلاً فهو مُشتارُ الشوار
ولا تقبل من التوراة حكماً فان الحق عنها في توَارِ

فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها

وأخيراً فالعقل نبي صادق من اتبعه رشد ومن صد عنه غوى

أيها الغر ان خُصصت بعقل فاسألنه فكل عقل نبيْ

وهكذا وهكذا ملئت اللزوميات بهذه المعاني وكررت على أشكال مختلفة نكتفي منها بهذا المثل لندل به على قيمة العقل في نظره وسلطانه والاعتداد به ولننظر بعد كيف استخدمه

لقد حمل على نضج عقل أبي العلاء ذكاؤه الفطري واطلاعه على الفلسفة اليونانية وصداها في الفلسفة الاسلامية وطول تفكيره وتأمله الذي اعانه عليه وحدته وعزلته وتجرده من شواغل الدنيا ما استطاع .

وفي الفلسفة اليونانية لون زاه من ألوان العقلية والعقليين الذين يرون للعقل الحق المطلق في الحكم على الاشياء والبرهنة على صحتها أو بطلانها ولا يؤمنون بشيء ، ولا عقيدة ولا تقاليد ولا مواضعات الا اذا قام البرهان العقلي

على صحتها ومالم يقم البرهان العقلي عليه لايسلمون به مهما كانت السلطة التي تجيء به — وبذلك أخضع هؤلاء اليونانيون كل شيء للعقل وسلطانه ، فكما خلقوا العلوم الرياضية بعقولهم كذلك خلقوا الفضائل والرذائل بعقولهم وقرروا النظم الاجتماعية وأشكال الحكم السياسية بعقولهم من غير ان تمليها عليهم أية سلطة خارجية فالعالم عندهم عالم عقلي والانسان ضال مالم يكتشف قوانين نفسه وقوانين الطبيعة حوله بعقله ويسير على القوانين التي توائم بين نفسه والعالم الخارجي كما يرشد اليه عقله . قرأ أبو العلاء هذا وتأثر به تأثراً عميقاً يدل عليه ماأشرنا اليه قبل من تمجيد للعقل وسلطانه ولكنه من ناحية أخرى نشأ في الاوساط الدينية وقرأ تعاليمها وتعمق مبادئها وهي تقضي بأن وراء العالم المادي المنظور عالماً روحانياً غير منظور ، وإن كان السلطان في عالم المادة للقانون الطبيعي يدركه العقل فالسلطان في عالم الروح حق وان كانت آلة العالم المنظور وادراك قوانينه هو العقل فآلة العالم الروحي وادراك قوانينه هو الوحي وفي هذا العالم الروحاني الله لا العقل هو مصدر التشريع وهو المرشد الى الفضائل والرذائل وهو واضع الشعائر الدينية وهو الذي ربط بها الثواب والعقاب وعلى الانسان ان يطيع أوامر الدين ولو لم يهتد الى بعضها العقل لأن قوة العقل في الانسان محدودة ووراء قوة العقل قوة الوحي

هاتان الصورتان — الصغيرتان جداً — اذا انعكستا في النفس سببتا الحيرة والاضطراب والقلق وقلما يسلم من قلقهما الا من ألحد جداً فلم يخضع الا لحكم العقل أو آمن جداً فأسلم عقله لأيمانه وهناك أصناف من المذاهب الدينية والفلسفية أرادت التوفيق بين هاتين الصورتين بأشكال مختلفة مما ليس مقصدنا الآن .

فلننظر الى ابي العلاء المعري كيف وقف من هاتين الصورتين ، كيف كان موقفه من سلطان العقل وسلطان الدين

لقد أعلى شأن العقل كما رأينا وأراد ان يستخدمه على طول الطريق فبدأ ينقد به العادات والتقاليد ونظام الحياة الاجتماعية في عصره فكان في ذلك موفقاً كل التوفيق .

لقد نقد الملوك والأمراء لأنهم بوضعهم العقلي خدام الأمة .

إذا ما تبينا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم

فما بال هؤلاء الخدام يعدون عليها ويظلمونها

مل المقام فكم أعاشر امة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

وهم يصدرون من الاوامر مالا يتفق والعقل والعدل ثم ينفذونما يأمرون بقوتهم وسلطانهم لا باقناعهم فاذا نفذ أمرهم قيل ما اسوسهم

يسوسون الامور بغير عقل فينفذ امرهم ويقال ساسه
فأف من الحياة وأف مني ومن زمن رياسته خساسه

وهؤلاء المسلطون على الناس لاعقل لهم ولاعدل عندهم شياطين في ثياب ولاة لا يهمهم جوع الناس اذا ملئت بطونهم وخمرت رءوسهم

ساس الانام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهم ان بات يشرب خمراً وهو مبطان

وحول هؤلاء الولاة بطانة قد جمدت عواطفهم كأنها الحجارة أو اشد قسوة لايرحمون دمعة مظلوم ولاصرخة مستغيث

يجور فيثني الملك عن مستحقه فتسكب أسراب العيون الدوامع
ومن حوله قوم كأن وجوههم صفاً لم يلين بالغيوث الهوامع

والقضاة لا عقل ولاعدل

وأي امرئ في الناس ألفي قاضياً فلم يمض أحكاما كحكم سدوم

وفقهاء صناعتهم الكلام ولا روح ولا أحلام

كأن نفوس الناس والله شاهد نفوس فراش مالهن حلوم
وقالوا فقيه والفقيه مموه وحلف جدال والكلام كلوم

ووعاظ يقولون مالا يفعلون ويأتون ما ينكرون

رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمد مساء

وشعراء ليسوا الا لصوصاً يعدون على من قبلهم في سرقة أقوالهم ويعدون على الا غنياء بمديحهم لسلب أموالهم

وما شعراؤكم الا ذُباب تلصص في المدائح والشباب
اضر لمن تود من الأعادي وأسرق للمقال من الزباب (١)

وقوم تسودهم الخرافة فيلجئون الى المنجمين والعرافين والمعزّمين وما لهؤلاء بذلك من علم ولكن شباك تنصب لاستدرار الأموال من المغفلات والمغفلين

متكهن ومنجم ومعزّم وجميع ذاك تحيل لمعاش

لقد بكرت في خفها وازارها لتسأل بالأمر الضرير المنجما
وما عنده علم فيخبرها به ولا هو من أهل الحجا فيرجما
ويوهم جهال المحلة أنه يظل لأسرار الغيوب مترجما
ولو سألوه بالذي فوق صدره لجاء بمين أو أرمّ وجمجما

سألت منجمها عن الطفل الذي في المهد كم هو عائش من دهره
فأجابها مائة ليأخذ درهماً وأتى الحمامُ وليدها في شهره

وبعد أن تقدم طبقاتٍ من الملوك الى القضاة الى الوعاظ الى التجار الى النساء تقدم جملة ، فكل الناس في كل زمان ومكان لا يصلحون الا للفناء

وهكذا كان أهل الأرض مذ فطروا فلا يظن جهول أنهم فسدوا

لو غربل الناس كيما يُعدَموا سقطاً لما تحصل شيء في الغرابيل
أو قيل للنار خصي من جنى، أكلت أجسادهم وأبت أكل السرابيل

يحسن مرأى لبني آدم وكلهم في الذوق لا يَعذُب
ما فيهمُ بر ولا ناسك الا الى نفع له يَجذِب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

وسبب فسادهم أنهم منحوا العقل فلم يصغوا اليه ولم يلتفتوا له وتجاذبهم عقل يرشد وطبع يُغوي فجروا وراء طبعهم وبصقوا على عقلهم

فأوسع بني حواء هجراً فانهم يسيرون في نهج من الغدر لاحبِ

---

(١) الزباب : الفأر العظيم

وان غير الأثم الوجوه فما ترى لدى الحشر الا كل أسودَ شاحب
إذا ما أشار العقل بالرشد جرهم الى الغي طبع أخذه أخذ ساحب

واللب حاول أن يهذب اهله فاذا البرية مالها تهذيب
من رام إنقاء الغراب لكي يرى وضح الجناح اصابه تعذيب

الى الله اشكو مهجةً لا تطيعني وعالم سوء ليس فيه رشيد
حجىً مثل مهجور المنازل داثر وجهل كمسكون الديار مشيد

العقل ان يضعف يكن مع هذه الد: يا كعاشق مومس تغويه
أو يقو فهي له كحرة عاقل حسناء يهواها ولا تهويه

فطبعك سلطان لعقلك غالب تداوله أهواؤه بالتشصص
سقيت شرابا لم تهنأ ببرده فعنيت من بعد الصدى بالتغصص

وهكذا أفاض في نقد المجتمع ومظاهره ونظمه وأخلاقه وكان في ذلك موفقاً كل التوفيق ومظهر توفيقه أنه استطاع في مهارة أن يدرك عيوب المجتمع في جملته وتفصيله ويعالج ظواهرها ويعمق في النفس الانسانية في دقة وتحليل ومظهر توفيقه أيضاً أنه لم يتناقض في هذا الباب ولم يضطرب ولم يمجمج وجرى على وتيرة واحدة في صراحة ووضوح وانسجام

وسبب نجاحه في هذا أمران ـ الاول ـ ان الامور الاجتماعية والاخلاقية التى نقدها هي في صميم اختصاص العقل فالعقل أداة صالحة لربط الاسباب بالمسببات والأمور الاجتماعية والاخلاقية تجارب تحدث فتحدث نتائجها تظلم الملوك والحكومات فتسوء حال الأمة وتعدل فيصلح حالها وللوعاظ غاية هي ارشاد الناس من طريق اعطائهم المثل بانفسهم والدعوة الى الخير بألسنتهم فاذا لم تتحقق هذه الامور فالوعاظ شر وهكذا فكل ما نقده أبو العلاء من هذا القبيل داخل في دائرة العقل والتجارب ، والاخلاق العقلية التي قررتها الفلسفة اليونانية هي بعينها تقريباً الاخلاق الدينية لأنها أيضاً نتيجة تجارب لصالح المجتمع وقد نقدت مظاهر المجتمع والاخلاق من قبل أبي العلاء كما فعل

ابن المقفع مثلا ولكن مهارته كانت في ابرازها ابرازاً فنياً رائعاً — والسبب الثاني في نجاحه في هذا الباب أن ناقد هذه الامور متمتع بكثير من الحرية فلا لوم على أحد اذا نقد المجتمع و نقد الاخلاق بل ان الناس يصفقون للناقد ويعلون شأنه لأنه يدعوهم إلى الكمال المحبب إليهم من أعماق نفوسهم لذلك صرّح بكل مايريد في هذا الباب وهو آمن مطمئن فنجح .

بعد هذا انتقل خطوة أخرى في النقد أدق وهي تحكيم عقله في المسائل الدينية الشرعية الفرعية مثل اليد كيف تودى بخمسمائة دينار وتقطع في ربع دينار.

تناقض مالنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار
يدٌ بخمس مئين عسجد وُديت مابالها قطعت في ربع دينار

ومثل ان الاسلام جاء لمحو الأوثان والانصاب فكيف عظمت بعض شعائر الحج كاستلام الحجر الأسود وتقبيله ونحو ذلك .

ما الركن في قول ناس لست أذكرهم الا بقية أوثان وأنصاب

إلى نحو ذلك وهذا النوع قد عرض له أناس من أول عهد الاسلام أرادوا أن يحكموا العقل في التعاليم الاسلامية فصدوا كالتي سألت عائشة مابال المرأة تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة فقالت لها عائشة أحرورية أنت ؟ وكالذي روى أن ربيعة الرأى سأل سعيد بن المسيب عن عقل أصابع المرأة ماعقل الاصبع الواحدة قال عشرة من الابل قال فاصبعان قال عشرون قال فثلاث قال ثلاثون قال فأربع قال عشرون قال ربيعة فعندما عظم جرْحها نقص عقلها ؟ فقال له سعيد أعراقي أنت ؟ انما هي السنة .

ومن أجل هذا روي عن عليّ أنه قال لو كان الدين بالعقل لكان المسح على باطن الخفين خيراً من المسح على ظاهرهما فجاء أبو العلاء ينقد على هذا النحو فلم يُرتحْ لقوله وردّ عليه الشعراء المتدينون فيا قال .

ثم خطوة أخرى أجرأ وهي عرض الحديث والاخبار الدينية على عقله وصرخته بأن كثيراً منها لايرتضيها العقل سواء في ذلك ما أتى به اليهود أو النصارى أو المسلمون .

وجاءتنا شرائع كل قوم   على آثار شيء رتبوه
وغير بعضهم أقوال بعض   وأبطلت النهى ما أوجبوه

جاءت أحاديث ان صحت فان لها   شأناً ولكنّ فيها ضعف اسناد
فشاور العقل واترك غيره هدرا   فالعقل خير مشير ضمه النادي

هل صح قول من الحاكي فنقبله   ام كل ذاك أباطيل وأسمار
أما العقول فآلت أنه كذب   والعقل غرس له بالصدق إثمار

ضلت يهود وانما توراتها   كذب من العلماء والاحبار
قد أسندوا عن مثلهم ثم اعتلوا   فنموا باسناد إلى الجبار
وإذا غلبت مناضلاً عن دينه   ألقى مقالده إلى الاخبار

مسيحية من قبلها موسوية   حكت لك أخباراً بعيداً ثبوتها
وفارس قد شبت لها النار وادعت   لنيرانها ألا يجوز خبوتها
فما هذه الأيام الا نظائر   تساوت بها آحادها وسبوتها

تفوّه دهركم عجباً فأصغوا   إلى ماظل يخبر ، ياسهود
إذا افتكر الذين لهم عقول   رأوا نبأ يحق له السهود
غدا أهل الشرائع في اختلاف   تقض به المضاجع والمهود
فقد كذبت على عيسى النصارى   كما كذبت على موسى اليهود
ولم تستحدث الايام خلفا   ولا حالت عن الزمن العهود

دين وكفر وأنباء تقص وفر   قان ينص وتوراة وانجيل
في كل جيل أباطيل يدان بها   فهل تفرد يوماً بالهدى جيل

اذا رجع الحصيف الى حجاه   تهاون بالمذاهب وازدراها
فخذ منها بما أداه لب   ولا يغمسك جهل في صراها

والناس لا يحكمون عقلهم في دينهم وانما هي تقاليد يتبعونها وعادات يجرون عليها.

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجى ولكن يعلمه التدين أقربوه
وطفل الفارسي له وُلاة بأفعال التمجس دربوه

في كل أمرك تقليد رضيت به حتى مقالك ربي واحد أحد
وقد أمرنا بفكر في بدائعه وأن تفكر فيه معشر لحدوا
وأهل كل جدال يمسكون به اذا رأوا نور حق ظاهر جحدوا

وقد سبقه المعتزلة إلى تحكيم العقل في الأحاديث وأنكروا منها مالا يتفق والعقل وخاصة « النظام » فقد كان ينكر الحديث في صراحة اذا كان عقله لا يقره ، لا يكتفي في الحكم على الحديث بالوضع اذا ضعف اسناده ولكن أهم من ذلك اذا لم يصبر أمام العقل ولكن أبا العلاء جرؤ على مالم يجرؤ عليه النظام وأمثاله وأراد أن يعرض الأخبار الدينية كلها أحاديث أو غيرها على محك العقل وختم هذه المرحلة بقوله الشديد الجرىء

تقدم صاحب التوراة موسى وأوقع في الخسار من افتراها
فقال رجاله وحي أتاه وقال الآخرون بل افتراها
وما حجي الى أحجار بيت كؤوس الخمر تشرب في ذراها
اذا رجع الحكيم الى حجاه تهاون بالشرائع وازدراها

وقد كذب الذي يغدو بعقل لتصحيح الشروع وقد مرضنه

وقد قوبلت أقواله في هذا الباب ببعض السخط ولكنه سار فيه أيضاً بخطى ثابتة غير مضطربة وانما قلت ببعض السخط لأنه صاغها صياغة عامة يحتمل كثير منها التأويل في جانبه

بعد ذلك نأتي الى المرحلة الثالثة في نقده العقلي ، وهي أخطر المراحل واشدها وأوعرها وهي التي تعرض فيها لصميم الدين هل الله موجود أو لا وهل هناك وحي أو لا وهل هناك حياة اخرى أو لا وهل الانسان في هذا العالم مجبور أو مختار — ما الحق في ذلك كله وأين أجده وكيف أجده ؟

هنا كانت تتراءى له الصورتان السابقتان المتعارضتان صورة الفلسفة

اليونانية ومن نحا منحاها وهي التي تصوّر أن العقل وحده أداة المعرفة وهو وحده الذي يستطيع الوصول إلى الحقائق في ذاتها والمعارف التي تصلنا عن طريقه هي وحدها الحق ولا حق غيرها والصورة الدينية التي تصور أن الحق يأتي من الله على لسان أنبيائه وأن مرد الحقَ إلى الوحي لا إلى الفلسفة وأن مركز الحق في القلب لا في الرأس — لم يستطع أبو العلاء التوفيق بين الصورتين ولا أن يكوّن صورة واحدة مؤلفة منها ولا أن يضع لهذه دائرة اختصاص ولتلك دائرة انما تركها كما هما يعتركان وكل مافعل أنه كان ينظر أحياناً إلى هذه الصورة فتعجبه ويستلهمها فتلهمه وينظر أحيـاناً إلى الأخرى فتعجبه ويستلهمها فتلهمه ، ان نظر إلى الأولى ألهمته الحاداً وان نظر إلى الأخرى ألهمته إيماناً ينظر إلى الأولى فيتوقد ذهنه فلا يرى إلا أسباباً ومسببات ومنطقاً ونتائج ومقدمات لاتسلم إلا إيمـــان فينكر وينظر إلى الأخرى فيخفق قلبه ويرهفُ شعوره فيترنح من نشوة الايمان وهو في كلتا الحالتين صادق معبر عن نفسه أصدق تعبير وهذا الموقف ليس بعيداً عن حال كثير من المثقفين في كل عصر فكم منهم يحار ويصدّق ، ويلحد ويؤمن كالنفس تشدو لها أنغاماً حزينة فتحزن وأنغاماً سارة فتسر ، « إن الانسان يطغى أن رآه استغنى » وإذا أدركه الغرق قال آمنت أن لا إله إلا هو وأكثر مؤرخي أبي العلاء يخطئون لأنهم يتصورون في أبي العلاء وحدة الزمان والمكان والفكرة بل يتصورون نفسه الانسانية حجراً لاتعتريه حالات فمن اعتقد ايمانه تأول له أبيات الكفر ومن اعتقد كفره لم يأبه بآيات الايمان والحق أن من أكفره صادق ومن جعله مؤمناً صادق كلاهما يصوّر حالة من حالات نفسه وما أكثر حالات التغير في النفس اليقظة المتوثبة ، ثم هو في حال إيمانه صريح لايحتاج إلى كناية أو مجاز فهو يتفق وآراء الجمهور وفي حال الحاده مضطر إلى الكناية والمجاز خشية من السوء ومع هذا فقد تستغويه الفكرة فلا يعبأ بالناس ولا يعبأ بموته أو حياته .

لاتقيد لفظي عليَّ فإني مثل غيري تكلمي بالمجاز

ولبس على الحقائق كل لفظي ولكن فيه أصناف المجـــاز

اصدق إلى أن تظن الصدق مهلكة ... وعند ذلك فاقعد كاذباً وقم

لاتخبرن بكنه دينك معشراً ... شطراً وان تفعل فأنت مغرر

لنعد إلى موقف أبي العلاء من هذه المسائل الاساسية في الدين في ضوء هذا الرأي هل الله موجود ؟ اللزوميات مليئة بالاجابة بنعم .

إذا كنتَ من فرْطِ السفاه معطلا ... فياجاحد اشهد أنني غير جاحد
أخاف من الله العقوبة آجلا ... وأزعم أن الأمر في يد واحد
فأني رأيت الملحدين تعودهم ... ندامتهم عند الأكف اللواحد

تعالى الله كم ملك مهيب ... تبدل بعد قصرٍ ضيق لحد
أقر بأن لي رَباً قديراً ... ولا ألقى بدائعه بجحد

للمليك المذكرات عبيدٌ ... وكذاك المؤنثات اماء
فالهلال المنيفُ والبدر والفر ... قدُ والصبح والثرى والماء
والثريا والشمسُ والنار والنثـ ... ـرَةُ والأرض والضحى والسماء
هذه كلها لربك ماعا ... بك في قول ذلك الحكماء
خلني يا أخيّ أستغفر الـ ... ـله فلم يبق فيّ الا الذّماء

ليفعل الدهر مايهمّ به ... ان ظنوني بخالقي حسنه
لاتيأسُ النفس من تفضله ... ولو أقامت في النار ألف سنه

هو الفلك الدوار أجراه ربه ... على ما ترى من قبل أن تجري الفلك
له العز لم يشركه في الملك غيرهُ ... فياجهلَ انسان يقول لي الملك
الخ الخ

وأحياناً أخرى تجد له مايجمح به في الانكار كقوله :

أما الاله فامر لستُ مدركه ... فاحذر لجيلك فوق الارض إسخاطا

متى عرض الحجا لله ضاقت ... مذاهبه عليه وقد عرضنه

هل الكون قديم أزلي كما قال أرسطو أو هو مخلوق فانٍ كما يقول الدين ؟ أحياناً هذا وأحياناً ذاك فمن ناحية يقول :

وليس اعتقادي خلودَ النجوم ولا مذهبي قدمَ العالم

ومن ناحية أخرى يقول :

إذا صح ما قال الحكيم فما خلا زماني مني منذ كان ولا يخلو
أفرّق طورا ثم أجمع تارة ومثلي في حالاته السدْر والنخل

خالق لايشك فيه قديم وزمان على الأنام تقادم
جائز أن يكون آدمُ هذا قبله آدم على إثر آدم

هل الانسان في هذا العالم مجبر أو مختار ؟

أما أكثر شعره فالقول بالجبر

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر

جبلة بالفساد واشجة ان لامها المرء لام جابلها

وأحياناً يميل إلى الاختيار ومسئولية الانسان

لا ذنب للدنيا فكيف نلومها واللوم يلحقني وأهل نحاسى
عنب وخمر في الاناء وشارب فمن الملوم أعاصر أم حاسي

وأحياناً يرى التوسط بين الجبر والاختيار

لا تعش مجبراً ولا قدريا واجتهد في توسط بين بينا

هل هناك بعث وحياة أخرى ؟

أحياناً نعم وأحياناً لا

فنعم كقوله

وما انا يائس من عفو ربّي على ما كان من عمد وسهو

أما الحياة فلا أرجو نوافلها لكنني لإلهي خائف راجي

أأصبح في الدنيا كما هو عالم وأدخل ناراً مثل قيصر او كسرى

واني لأرجو منه يوم تجاوزٍ فيأمر بي ذات اليمين الى اليسرى

خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنفاد
انما ينقلون من دار اعما ل الى دار شقوة او رشاد

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر او صح قولي فالخسار عليكما

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة ان يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

و « لا » كقوله

خذ المرآة واستخبر نجوما تمر بطعم الأري المشور
تدل على الحمام بلا ارتياب ولكن لاتدل على النشور

مالي بما بعد الردى مخبره قد ادمت الآنف هذى البره
الليل والاصباح والقيظ والا إبراد والمنزل والمقبره
كم رام سبر الامر من قبلنا فنادت القدرة لن تسبره

دفناهم في الارض دفن تيقن ولا علم بالارواح غير ظنون .

واخيراً هل هناك وحي وانبياء او لا

الجواب ايضاً نعم ولا

فنعم في مثل قوله

ام الكتاب اذا قومت محكمها وجدتها لاداء الفرض تكفيكا
لم يشف قلبك فرقان ولا عظة وآية لو اطعت الله تشفيكا

الملة الاسلام ينكر منكر وقضاء ربك صاغها واتى بها

و « لا » في مثل قوله

افيقوا افيقوا ياغواة فانما دياناتكم مكر من القدماء
ارادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا وماتت سنة اللؤماء

قالت معاشر لم يبعث الهكم الي البرية عيساها ولا موسى
وانما جعلوا للقوم مأكلة وصيروا لجميع الناس ناموسا
ولو قدرت لعاقبت الذين طغوا حتى يعود حليف الغي مرموسا

ان الشرائع القت بيننا احناً واودعتنا افانين العداوات
وهل ابيحت نساء القوم عن عرض للعرب الا باحكام النبوات

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضلله
اثنان اهل الارض ذو عقل بلا دين وآخر دين لاعقل له

وهكذا وهكذا

لقد فكر ابو العلاء طويلا بعد هذه المرحلة الطويلة واستعرض مافكر وما قال فماذا رأى ؟ رأى تناقضاً في الفكر ، وفي القول ، يسلمه التفكير يوما الى الشيء انه أبيض فيعلنه ثم يسلمه يوما آخر الى انه اسود فيعلنه فاذا هو آخر الامر يعلنه أنه اسود وابيض معاً ومحال ذلك ، أيها الحق اهو اسود ام ابيض ، لابد ان يكون اسود فقط او ابيض فقط أما اسود وابيض معاً فضلال ، وما هذا العقل الذي يسلمني الى الشيء ونقيضه ؟ عند ذلك صرخ من اعماق نفسه بأنه حائر لم يوفق ، ضال لم يهتد وان ليس في الناس من يستطيع هدايته فكلهم اما عاقل لادين له او دين لاعقل له وهو يريد ان يكون ديناً عاقلا ، والمطمئنون الذين استطاعوا ان ينجوا من الحيرة مقلدون لم يؤمنوا عن فكر وعقل فهؤلاء ضالون لتقليدهم وهؤلاء ضالون لحيرتهم فلا امل في هؤلاء ولا هؤلاء ان تجد عندهم هاديا والعقل وما ادراك ما العقل؟ اسلمت له قيادي فلم يسلم لي قياده ، وآمنت به كل الأيمان وفضلته على كل الاديان وجعلته نبياً من الأنبياء ونوراً يلمع في الظلماء فلم يؤد رسالته ولم ينقع غلته فلأكفر به كما كفرت بغيره ولأنكر سلطانه كما انكرت كل سلطة ولأكسر قيثارتي التي غنيت عليها في مدحه ولأضع اناشيد اخرى في ذمه فهذا هو الجزاء الوفاق لمن وفيت له فلم يف لي واكبرت شأنه فأصغر شأني وركنت اليه فحيرني جربت النقل فلم اطمئن اليه وجربت العقل فلم اطمئن اليه فلأرفع علم الشك واعلن ان لايقين .

سألت عقلي فلم يخبر وقلت له   سل الرجال فما أفتو ولا عرفوا
قالوا فمانوا فلما ان حدوتهم   الى القياس أبانوا العجز واعترفوا

أرواحنا معنا وليس لنا بها   علم فكيف اذا حوتها الاقبر

سألتموني فأعيتني اجابتكم   من ادعى انه دارٍ فقد كذبا

أصبحت في يومي أسائل عن غدي   متحيراً عن حاله متندسا
أما اليقين فلا يقين وانما   أقصى اجتهادي ان اظن وأحدسا

وقد عدم التيقن في زمان   حصلنا من حجاه على التظني

نفارق العيش لم نظفر بمعرفة   أي المعاني باهل الارض مقصود
لم تمطنا العلم أخبار يجيء بها   نقل ولا كوكب في الارض مرصود

انما نحن في ضلال وتعليـــــــل فان كنت ذا يقين فهاته
ولحب الصحيح آثرت الرو   م انتساب الفتى الى امهاته
جهلوا من ابوه الا ظنونا   وطلا الوحش لاحق بمهاته

وبصير الاقوام مثلي أعمى   فهلموا في حندس نتصادم

لقد تركت الدنيا للدين والنقل للعقل ولذة المادة للذة الروح فلا افدت هذا ولا ذاك واخيراً

رحلت فلادنيا ولادين نلته   وما اوبقي الا السفاهة والخرق

عقدة ابى العلاء اتت من عظمته وضعفه نبع من قوته ـ قد منح عقلا قويا دائب النشاط يريد ان يطحن كل شيء يصل اليه ليعرف كنهه وشعوراً قويا رحيما بالانسان راثيا لبؤسه رحيما بالحيوان معذبا نفسه في سبيل الرحمة به ، ومثل هذا الشعور القوي يريد ان يؤمن ومثل هذا العقل يريد ان يواصل هذا البحث حتى يصل الى الحقيقة ، ولكن ـ وهنا موضع العقدة ـ انه يريد ان يؤمن

بعقله كما آمن بشعوره والعقل ليس اداة صالحة لادراك الغيب ـ ادراك الله والحياة الاخرى والوحي والملائكة وما الى ذلك انما خلق ليكون اداة للحياة الدنيا ووسيلة لحفظها وبقائها ورقيها وهو عاجز كل العجز ان يرسم بريشته عالم الغيب المجهول الذي لايخضع لقانون سبب ومسبب ومقدمة ونتيجة وزمان ومكان وحيز وحدود .

لقد شغلت الفلسفة القديمة بالبحث وراء المادة فدارت حول نفسها ولم تصل الى نتيجة حتى جاءت الفلسفة الحديثة وعلى رأسها « كانت » فتحول بعض فلاسفتها من البحث فيما وراء المادة الى البحث في العقل نفسه ومقدرته على المعرفة وحدود مايمكن ان يعرف وما لايمكن ان يعرف ، ان العقل انما يستمد معلوماته من الحواس وكل البحوث في سائر العلوم حتى ادق العمليات الرياضية والهندسية منشؤها الحواس أعمل فيها العقل بالمقارنات وما الى ذلك والحواس لاتدرك من العالم الا بقدر فاذا انخفض الصوت عن قدر معين أو ارتفع عن قدر معين لم تسمع وهكذا العين والشم واللمس فكم في العالم من اشياء لم تدركها عقولنا لانها لم تدركها حواسنا ـ والعقل لايستطيع أن يسير الا مستنداً على حواسه ولا يمكن أن يدرك من العالم الا مظهره هل يستطيع أن يدرك ما الضوء وما الكهرباء وما الجاذبية انما يدرك آثارها ومظاهرها هل يستطيع أن يدرك مركز نفسه وحقيقة شعوره كلا انما يدرك آثار ذلك في الحياة الخارجية ــ من أين أتينا أين كانت حياتنا قبل أن نحيا ماذا تكون حياتنا بعد ان نموت ما حقيقة علاقتنا بالعالم الخارجي حولنا كل هذه الأسئلة ومئات نحوها لا نعرفها ولا يستطيع العقل أن يعرفها ولم يتقدم العقل في ادراكها كما تقدم في العلم بقوانين المادة ــ كم في العالم من حجر مغلقة لم نعط مفاتيحها .

انما نشعر بالله وبالحياة الأخرى وبالمملكة الروحانية من غير أن نعقلها وتطمئن نفوسنا اذا آمنت وتقلق وتضطرب اذا ألحدت ، « لقد ارتفع برجسون » (الفيلسوف المعاصر) الى أوج الشهرة في أعوام قلائل لأنه دافع عن الأماني الانسانية وآمالها فكم اغتبط الناس واطمأنوا اذ رأوا فيلسوفاً يصون لهم مايرجون من خلود وما يعتقدون في إله وقال وليم جيمس « لقد بحثت في نفسي ولم أعلم ماهي وما شبهها وأين تسكن وكيف تتغير وكيف تكون مجبورة وكيف تكون

مختارة ، وتتغير نظرياتي في ذلك من وقت الى وقت ولكن مع هذا أؤمن بنفسي وأؤمن أنها مركز لكل ما أعرف عن العالم حولي » كذلك الشأن في ادراك المبدأ والمنتهى والله والخلود ، انها عقيدة وإيمان لا قضايا منطق .

اعتبر الاديان كلها ، مبعثها ومظهرها ، تجدها تختلف باختلاف الامم ورقيها وطبيعتها وتتغلب عليها صفة من الصفات تكاد تكون كالمحور : كالتضحية ومعنى الابوة والرحمة والغفران واطاعة الاوامر والفن والجمال وانكار الذات والاحسان الى الجميع والشفقة على الحيوان والشجاعة والجهاد في سبيل نشر الدعوة ولكن كل هذه الصفات على اختلافها من قبيل العواطف والمشاعر ولم نر دينا أتى بفلسفة عقلية ـ لماذا هذا وقع في الحب وهام بمن يحب ولماذا هذا جمدت عواطفه ولم يحب ؟ لاادري ولست تستطيع أن تقنع المحب بالحجج العقلية حتى يسلو ولا ان تقنع من جمدت عواطفه حتى يحب ـ ان عقله قد يقيم البرهان على خطأ الحب وقد يمنعه من الزواج ولكن لايستطيع ان يمنعه من الحب وهكذا الشأن في كل المشاعر وهكذا الشأن في الدين الذي في القلب لافي العقل ـ اذا بحث الدين بالعقل المجرد لم تكن النتيجة دينا ولا فلسفة وانما شيء تافه اسمه « علم الكلام »

وقد اراد ابو العلاء ان يضم الى ايمانه بقلبه ايمانه بعقله فلم يستطع ، وكانت العقدة . ولو نام شعوره وانتبه عقله لألحد مستريحا ولو نام عقله وانتبه شعوره لآمن مستريحا ولو صحا عقله وشعوره ورسم لكل حدوده وعرف لكل دائرة اختصاصه لاستراح أيضاً ولكنه اراد ان يصل الى الفاكهة المحرمة على العقل فلم يفلح وقلق واضطرب كما يقلق ويضطرب ـ كل من خرج على قوانين الطبيعة وحاول الخروج على طبائع الاشياء لأن الدين يغذي حاجة من حاجات النفس لاغنى لها عنه الا اذا مرضت هذا هو السبب في انه نقد المجتمع فنجح ونقد الاخلاق فنجح ونقد الاخبار فنجح ونقد الدين في صميمه فلم ينجح يعجبني وصف بعضهم لهيجل وصفا ينطبق على أبي العلاء انطباقا تاما اذ قال « انه رجل كفر عقله وآمن قلبه » كما يصدق عليه ايضا قول جوته عن « فاوست » « انه عقل طغى على القلب فاشقى صاحبه »

وايا ما كان فهذه الشخصية الفذة الشخصية المؤمنة الكافرة لشخصية الفلسفة الحائرة اخرجت كل ذلك وكل ما كان يتناولها من نبضات قلب وخطرات عقل في صور فنية رائعة امتعت الناس وان اشقت صاحبها فرحمه الله ورحمه الله .

احمد امين

ابو العلاء المعرى

المتشائمون

التفاؤل والأثرة في كلام الشيخ

١

كان النبي محمد ، وكان هذا القرآن ، هذا الكتاب المعجز ، فكانت تلك الدنيا العجيبة العربية ، وكان مع الهدى والخير ذلك العلم وذلك الأدب وتلك الفنون ، وكان أولئك الأئمة وأولئك النابغون وأولئك العبقريون ، وكانت تلك المؤلفات الفائقات المحققات ، وكان أولئك المؤلفون الراسخون في العلم المستبحرون . وكان هذا العبقري أبو العلاء المعري (أحمد بن عبد الله ابن سليمان) رب هذا المهرجان . كانت الحضارة العربية وكانت هذه المدنية الغربية ولن يقدر أن يكفر إفضال المفضلين كافرون . فمحمد والقرآن هما شائدا هذا المجد ، وهما القائدان ، وهما الهاديان ، وهما الشمسان الباهرتان ذواتا الضياء السرمدي في العالمين [كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ، ويزكيكم ، ويعلمكم الكتابَ والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون — فاذكروني أذكركم واشكروا لي ، ولا تكفرون] . [سورة البقرة آ ١٥١]

* * *

« دمشق عروس الشام الموموقة ، وواسطة عقدها المرموقة »

في دمشق هذه التي قلت فيها — يا أبا العلاء — قولك هذا في رسالتك الى (أبي منصور محمد) قد مهرج العربيون لك اليوم هذا المهرجان بعد ألف سنة من سعادتك بكونك وسعادة العربية بك . وإن أمة أقامت من بعدك هذا الدهر الأطول تصارع الكروب والخطوب ، وتقارع تلك الهمجيات الشرقية

والوحشيات الغربية ثم لم تبد بل لم تهن ولم تستكن ، إن أمة وقاها كتابها ووقت لغتها ولسان كتابها ، وعرفت قدرها في الأقدار ، وفضلها من قبل ، ومسعاها اليوم ، وأرادت ألا تزول وأن تكون فكانت ، أن هذه الأمة لقوية وعزيزة وسائدة وخالدة في الخالدين .

* * *

بلاد الشام جلها ، ولا أقول كلها ، و « أن مع اليوم غداً يامسعدة (١) » لاتردد كثيراً في هذا الوقت قول الشيخ :

ألفنا بلاد الشام إلف ولادة نلاقي بها سود الخطوب وحمرها
فطوراً نداري من سبيعة ليثها وحيناً نصادي من ربيعة نمرها

فالحال اليوم ـ ياأبا العلاء ـ متهادن، والدهر مهادن ، وفي الدار من قبيلك صالحون وصادقون ومخلصون و « ما الخلاص إلا في الاخلاص (٢) » كما يقول أبو منصور الثعالبي ورئيس القوم (٣) ملآن من الفضائل الاسلامية ومن العربية والوطنية ، وهو كما أحببت وكما أردت وكما قلت :

اذا ماتبينا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم .

لايتركن قليل الخير يفعله من نال في الأرض تأييداً وتمكينا .

وقد أتى بكثير الخير وأكثره ، ومهرجانك هذا هو حسنة من حسناته .

* * *

كونت العربية في اللغات تكوين الألماس (٤) والراديوم في المعدنيات .

[صنع الله الذي اتقن كل شيء]

ولله أن يفضل لساناً على لسان ، وأن يحظي انساناً على انسان (٥)

[ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات]

---

(١) من امثالهم

(٢) في كتابه (المبهج) ورواه في كتابه (الايجاز والاعجاز).

(٣) صاحب الفخامة السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية .

(٤) هو الألماس والهمزة واللام فيه اصليتان ، ولم يصب المجد في قوله : « ولا تقل الماس فانه من لحن العامة » وقد وجدتَ (الألماس) في الفائق ج١ ص ٣٣٦ وفي النهاية لابن الاثير .

(٥) أحظيت فلاناً على فلان من الحظوة والتفضيل (المخصص) .

والشيخ يقول في (الفصول والغايات) : « وربك خص بالفضيلة من اختار » واذا قال العبقري ابن جني : « انني اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة مايملك عليّ جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر » فما غالى بما قال ولا بالغ بل كان من المقتصدين وهذا شيخ العربانيين العلامة الكبير (نلينو) الذي حذق لغات متقدمين ومتأخرين من الغربيين والشرقيين يعالن في خطبة غير متسمح في الكلام ولا مصاد بأن « العربية تفوق سائر اللغات رونقاً وغنى ، ويعجز اللسان عن وصف محاسنها » و« لغة العرب » أفصح اللغات وبلاغتها أتم البلاغات (١) » ولو تمثلت لغة غادة لأنشد المنشدون :

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت فلو جن انسان من الحسن جنت (٢) .

* * *

فتنت هذه العربية (أبا العلاء) فتوناً وسحرته فنونها ، فأقبل رجلاً مسحوراً . شغف بكتابها (قرآنها) ذاك الشغف ، وكلف بقريضها أي كلف ، وهام بألفاظها هيامه بأقوالها .

« ان هذا الكتاب الذي جاء به محمد كتاب بهر بالاعجاز . . . ماحذي على مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال . . . جاء كالشمس اللائحة . . . لو فهمه الهضب الراكد لتصدع (٣) [وتلك الأمثالُ نضربها للناس لعلهم يتفكرون] وإن الآية منه أو بعض الآية ليعترض في أفصح كلام يقدر عليه المخلوقون فيكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق [فتبارك الله احسن الخالقين] (٤) » .

« أجدني ركيكاً في الدين ركاكة أشعار المولدين (٥) »

ومن علق بأقوال العرب الأقدمين من الجاهليين أو المخضرمين أو الاسلاميين استنزل كلام المحدثين ، وقضى قضاء أبي العلاء . وللكلام العربي القديم سلطان قاهر

(١) الزمخشري .

(٢) الشنفرى الازدي في مفضليته (اسبكرت) طالت وامتدت ، والمعنى ـ كما يقول الانباري شارح المفضليات ـ : دقت في حسنها ، وجلت في خلقها .

(٣) الكتاب يقول : لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ...

(٤) أبو العلاء في (رسالة الغفران) .

(٥) أبو العلاء في (الفصول والغايات) .

اذا استمكن من نفس خليطه سحره عما سواه (١) ، فلا يتقبل الا إياه . ولولا أن عبقرية أبي تمام وعبقرية المتنبي جهرتا الشيخ وبهرتاه ماكان "فخم حبيباً في (رسالة الغفران) ذاك التفخيم مشيراً الى مقصداتله فائقات ثم قال . « إني لأضن بتلك الأوصال أن يظل جسدهـا وهو بالموقدة صال ، لأنه كان صاحب طريقة مبتدعة ، ومعان كاللؤلؤ متتبعة ، يستخرجها من غامض بحار ، ويفض عنهـا المستغلق من المحار (٢) وما كانافتتن بأبي الطيب تلك الفتنة . وسبك حبيب ـ وان كان محدثا ـ عجيب . ولغته قد ضارعت أو قاربت في القوة قديمة مطبوعة .

* * *

ذكر صاحب (الغيث المسجم في شرح لامية العجم) جماعة من « الذين رزقوا السعادة في أشيـاء لم يأت بعدهم من نالها » فلما جاء الى الشيخ قال : « أبو العلاء المعري في الاطلاع على اللغة » .

يقول الأمام الشافعي في (رسالته في أصول الفقه) :

« لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، واكثرها الفاظاً ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه انسـان غير نبي » . ولو أحاط انسان غير نبي بجميع هذا العلم لكان الشيخ أبا العلاء ، وان لم يحط به كله فقد أحاط ـ كما يخال ـ بجله وتلميذه أبو زكريا التبريزي يقول كما ذكر ابن العديم في كتابه (الأنصاف والتحري) : « ماأعرف أن العرب نطقت بكلمة لم يعرفها المعري » .

* * *

عبقرية عربية نثرت فبهرت ، ونظمت فعجبت ، وفكرت فخيرت ، وأبدعت وتفننت إذ قالت وألفت فأدهشت . وعلمها في كل فن من فنون اللغة في وقتها علم إحاطة (٣) علم الحفي (٤) المحيط لا العالم النتفة (٥) . واذا لم نر (الايك والغصون)

(١) سحره عن الشيء : صرفه عنه .
(٢) المحار جمع المحارة : الصدفة .
(٣) علمه علم احاطة اذا علمه من جميع وجوهه لم يفته منه شيء
(٤) الحفي : الذي يتعلم الشيء باستقصاء
(٥) النتفة : الذي ينتف من العلم شيئاً ولا يستقصيه . وكان أبو عبيدة يقول فى الاصمعى ذاك رجل نتفة .

— وهو نحو من مئة جزء — وغير الايك والغصون ، ومؤلفات الشيخ كثير[١] فقد رأينا المطبوعات المعروفات ، واستدللنا بما حضر على ماغاب ، ولم نستبعد ماروى ابن القارح في رسالته : « الشيخ بالنحو أعلم من سيبويه وباللغة والعروض من الخليل » ووجدنا ابن القارح هذا من المقتصدين حين يقول : « ... لقد سمعت من رسائله عقائل لفظ ، ان نعتها فقد عبتها ، وإن وصفتها فما أنصفتها . وأطربتني (يشهد الله)إطراب السماع . وبالله لو صدرت عن صدر من خزانته وكتبه حوله يقلب طرفه في هذا ، ويرجع الى هذا ... لكان عجيباً صَعباً شديداً . ووالله لقد رأيت علماء ، منهم ابن خالويه اذا قرئت عليهم الكتب ولا سيما الكبار رجعوا الى أصولهم كالمقابلين . يتحفظون من سهو وتصحيف وغلط . والعجب العجيب والنادر الغريب حفظه لأسماء الرجال [٢] ، والمنثور كحفظ غيره من الاذكياء المبرزين المنظوم . وهذا سهل بالقول ، صعب بالفعل ، من سمعه طمع فيه ؛ ومن رامه امتنعت عليه معانيه ومبانيه . »

واني لأقول : انه لمن النادر الغريب أن يحتاز الأديب عبقرية نثرية ، وعبقرية شعرية كما احتاز هذا الشيخ وإذا كانت الاجادة لاتتفق في فني المنظوم والمنثور معاً الا للأقل — كما قال ابن خلدون — فكيف حال العبقرية ؟ وهذان الشاعران العبقريان أبو تمام والمتنبي لم ترو لنا كتب الادب والسير من نثرهما إلا رسالة قصيرة للاول سطرها البديعي في (هبة الأيام) ورسالة أقصر منها للثاني أوردها ابن خلكان في (وفيات الأعيان) وأما البحتري المسكين فكان لا يستطيع أن يخط في النثر سطراً ، واذا خاطب احداً في شأنه وجه اليه شعراً . قال الشيخ في احدى رسائله : « روي ان البحتري كان لايقدر على كتب رقعة ، فيجعل المنظوم عوضاً عن المنثور » .

وأليةً محلوفة بالقرآن وإعجازه لو أن هؤلاء الشعراء الثلاثة ، وهم عند ابن الأثير وغير ابن الأثير أشعر العرب « هؤلاء لات الشعر وعزاه ومناته الذين ظهرت على ايديهم حسناته ومستحسناته » مشوا في عرض (العروض)

---

(١) قالوا : انها ستنا مجلد .

(٢) رسالة ابي العلاء الى ابي القاسم بن سبيكة يعزيه بأخيه ـ تؤيد قول ابن القارح .

المتشعبة ومناحي (النحو) المتفرقة المتصعبة كما مشى الشيخ ، ونقبوا مثلما نقب واستظهروا من مقالات الفلاسفة والمتكلمين ومصنفات الفقهاء وأهل النحل بعض ما استظهر — لأجبلوا اجبالاً (١) أو غث كلامهم وجاؤا في القريض قرازيم(٢) . لكن عبقرية الشيخ قوية جنية قد تسيطرت على كل فن ، ولم يسيطر عليها فن ، ولم ينزل نظيمها ونثيرهـا من عليائها في وقت ، ولم تتبدل لها ديباجة أو بهجـة

* * *

اذا قال ابو الطيب :

مابه قتل اعاديه ولكن يتقي اخلاف ما ترجو الذئاب

فنطّ وشطّ وبدت (فاعلن) في العروض (فاعلاتن) في حين أن المتنبي — كما قال الشيخ — : « كان شديد التفقد لما ينطق به من الكلام . يغير الكلمة بعد أن تروى عنه . ويفر من الضرورة وان جذبه اليها الوزن (٣) » . واذا قال (الوليد) البحتري :

وكأن الأيام أوثر بالحسن عليها يوم المهرجان الكبير (٤)

فكسر وجاء نقص من الزيادة . واذا قال حبيب بن أوس :

بالقائم الثامن المستخلف اتطأدت قواعد الملك ممتداً لها الطول (٥)

---

(١) أجبل الشاعر : أفحم .

(٢) القرازم . الشاعر الدون ، وهو يقرزم شعره يجيء به رديئاً .

(٣) رسالة أبي العلاء الى ابي الحسين أحمد بن عثمان النكتي البصري .

(٤) يراجع (الموشح) للمرزباني ، وذكر الشيخ في رسالة الى النكتي أن البحتري كسر في قوله :

ولماذا تتبع النفس منه شيئا جعل الله الفردوس منه جزاء

(قلت) : رواية البيت في ديوانه المطبوع في بيروت هي :

ولماذا تتبع النفس منه شيئاً يجعل الله الفردوس منه بواء

(٥) يراجع (المثل السائر) : النوع الأول معرفة علم العربية من النحو والتصريف .

(قلت) في الديوان المطبوع في بيروت : (اعتدلت) مكان (اتطأدت) واليقين ان ناسخاً قديماً أراد اصلاح الكلمة ولو اطلع حبيب على ما جاء به هذا الوراق أو الناسخ لسج وضج ، وآثر خطأه على هذا الاصلاح وأين كلمة من كلمة ؟ . . .

فتهور (١) البيت في اللغة بـ (اتطأدت) ولم يتطد .

اذا جازف في اللغة المجازفون وطفف المطففون « ويل للمطففين » فعندالشيخ الموازين القسط ، عنده القسطاس المستقيم ، وميزان الصيدلاني (٢) الحكيم .
« موازين صدقٍ ، كلها غير عائل (٣) » .

نثر أبو العلاء مترسلاً ومسجعاً فبذ الناثرين في وقته والذين من بعده كلهم أجمعين ، وشعر فتبدى في سماء القريض شمساً علائية لاتأفل ماكان القرآن ، وكان هذا اللسان المبين .

ولقد أصاب الشيخ وأطاب (٤) حين حاش في رسائله ودواوينه وكتبه الكلمات الغريبات ، فجمع نادّات شاردات لم نر كثيراً منهن في معجم من المعجمات . وان عربيات قديمات نشأن في (الجزيرة) مع أخوات لهن - لحريات أن يظهرن وأن يعرفن . وقد برع أبو العلاء اذ نص تلك الغرائب في حلل عدنيات (٥) من العبارات كأنهن عرائس قعدن فوق منصات . ولأن تجتاف لفظة غريبة جملة أو بيتاً خير من توحد (٦) . ولكل لغوي في التصنيف نمط . واذا احسن المعري فقد أجاد ابن سيده ، وأجاد الجوهري وابن دريد .

***

لم يكن الشيخ من العبقريين الملهمين بل كان من العبقريين الدارين المدركين ، تعلم واستعلم فعلم ، وسأل واستفهم ففهم . وللقائل الملهم حال ، وللدارس حال ، ولذاك وحي ، ولهذا مقال ، والوحي لايحصل ، ولا يؤازيه مؤاز .

وقد استهام الشيخ بلغة العرب ، وكان متمناه في دنياه أو مرجاه (٧) الأسمى

(١) تهور : انهدم

(٢) الصيدلاني والصيدناني منسوبان الى الصيدل والصيدن وهما أصول الاشياء وجواهرها والنون للمبالغة (الفائق) .

(٣) عائل : مائل .

(٤) أطاب : جاء بشيء طيب .

(٥) عليه عدنيات أي ثياب كريمة ، وأصلها النسبة الى عدن ، تقول : مرت جوار مدنيات عليهن رياط عدنيات (الاساس)

(٦) وحد الشيء : صار على حدته .

(٧) استعمل اللفظة أبو الطيب المتنبي وقال سمعتها من العرب .

أو مثله الأعلى أن ينبغ فيها وفي علومها فنبغ ، وبلغ حيث بلغ . فهويه (١) هو هذه اللغة ، وفنون زمانه التي شاء عرفانها هن للهوي تبع .

واذا تمادى الشيخ في اعجابه بالعرب الأقدمين ، وتطربه سجع محدثين مسجعين فقلد فقد افتن في تقليده واجتهد ، فعد في الشعراء والكاتبين من المبدعين . وتذرع أبو العلاء بالله وتحاميده وتماجيده فنظم (اللزوميات) وصاغ أوحاك (الفصول والغايات) والمقاصد لغوية لاألهانية (٢) ، لادينية ، وان اشتملت على أشياء منوعات مهولات (٣) ملونات قد بدت مثل (صندوق العجب) . وما كان يغرب حين يغرب حتى يعمي مقالة ولكن ليعلن قدرة وبراعة. وكيف يكفر معنى قصده وقد أصحبه شرح الغريب من ألفاظه .

ومؤلفات الشيخ العبقرية هن بنات القصد والتكلف وبنات الأثرية .

« . . . وقد تكلفت في هذا التأليف ـ يعني اللزوميات ـ ثلاث كلف ، الأولى أن ينتظم حروف المعجم عن آخرها . والثانية أن يجيء رويه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك . والثالثة أنه لزم مع كل روي فيه شيء لايلزم من ياء أو تاء أو غير ذلك من الحروف » .

ولو لم يجب الشيخ داعي اثريته ، ويحقق قوله في (لاميته) ويقصد ويتكلف ماكانت امثال (اللزوميات، والفصول والغايات ، والأيك والغصون) مما عرفناه وحرمنا إياه جهل الجاهلين . وضلال الصليبيين وترية التتر وحوادث الأيام ، وما كانت العربية ازدادت ثروة بباهرات عبقريات تباهت بها ، وباهت غيرها من اللغات ، واذا هجّن في العلم والأدب تكلف الضعفاء العاجزين حين يتكلفون فتكلف العباقرة القادرين يجل عن كل تعييب او تهجين .

☆ ☆ ☆

حرث ابو العلاء القرآن حرثاً (٤) عجباً ، وسيط هواه بلحمه ودمه ،

(١) هويه : محبوبه ، معشوقه .

(٢) هذه نسبة الى اسم الله عز وعلا إلا أنه وقع فيها تغيير من تغييرات النسب واقتضاب صيغة ، ونظيرها الرجولية في النسبة الى الرجل والقياس الهية ورجليه (القائق).

(٣) ورد المهول في شعر قديم رواه المخصص وفي أمثال العرب .

(٤) في حديث ابن مسعود : احرثوا هذا القرآن . وفي [الاساس] : وحرثت القرآن أطلت دراسته وتدبره .

واستهداه فهداه وذهن او ادرك من الهية (الكتاب) وسماويته ومن عربيته الناصعة الصافية ذات الاعجاز ، وبلاغته الخارقة العادة ماادركه الفصحاء البلغاء من العرب في عهد النبي او كاد يدرك ذلك . ولا تستقلن هذه الكبدودة . ومصنف الشيخ (تضمين الآي) « وهو إن لم نره فقد سمعنا خبره (١) » يبين أنه بلغ في علم (الكتاب) المبالغ ـ كما يقول الزمخشري ـ ولا يضمن مثل ذلك التضمين الفائق البديع الا من خرجه (القرآن) هذا التخريج العظيم البليغ . [ومن يهد الله فهو المهتدي] .

بصر الكتاب الالهي المحمدي (أحمد بن عبد الله بن سليمان) بعجائبه وآياته فاستيقن واستبصر ، وارتوى الشيخ من كوثر البلاغة القرآنية فأزهر الكلام العلائي ونور .

نوّر القرآن قولاً فعلاً وسما صاحبه في القائلين . انما القرآن هدي الناطقين ، انما القرآن نور العالمين . غثّ قول لم يهذبه (الكتاب) .

والقرآن ، القرآن ذلكم الكتاب العجيب المبين ؛ إنه يراه نابغة الأوربيين الأديب العبقري العظيم (جان ولفغنغ غوت) قد أعطى فيه كل مقام حقه ، وأخذ كل معنى من مقاصده لفظه كما يراه قوياً ، عظيما ، سامياً ، متعالياً ، رائعاً مهيباً قد خرق العادة ، فلا غرو أن يبلغ أثره في العالم ـ كما قال ـ حيث بلغ.

ألا إن القرآن في الكلام مثل محمد في الأنام . فان وجدت لمحمد خطيراً (٢) ألفيت للقرآن نظيرا .

[قل : لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا] .

دعاكم الى خير الأمور محمد ... وليس العوالي في القنا كالسوافل
حداكم على تعظيم من خلق الضحى ... وشهب الدجى من طالعات وآفل

---

(١) مقتبسة من البديع الهمذاني ولشبل الدولة في الزمخشري :

زمخشري فاضل ... أنجبه زمخشره
كالبحر إن لم أره ... فقد أتاني خبره

(٢) خطير الشيء مثله [المخصص] وفي اللسان : فلان ليس له خطير أي ليس له نظير ، وهذا خطير لهذا أي مثل له في القدر ، ولا يقال للدون الا للشيء السري .

وألزمكم ما ليس يعجز حمله   أخا الضعف من فرض له ونوافل
وحث على تطهير جسم وملبس   وعاقب في قذف النساء الغوافل
وحرم خمراً خلت ألباب شربها   من الطيش ألباب النعام الجوافل
فصلى عليه الله ما ذر شارق   وما فت مسكاً ذكره في المحافل(١)

* * *

ابو العلاء « هو جوهرة جاءت الى الدنيا وذهبت (٢) » .

٢

لما شاء الله أن يثب قبيل من نامية (٣) الله تلك الوثبة ، أن يطفر تلك الطفرة ، وليست الطفرة على ذي القدرة والحول بمحال ، واعتدلت القامات [ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم] وتحركت الألسنة بعد حين من الدهر طويل بتلك اللهجات البينات ، وكرّم لله اناسيّ كثيراً على سائر المخلوقات بالذي دعته اللغات (العقل) وهو نعمة الله الكبرى ، وفضيلة الانسان على غيره العظمى .

[ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا] .

« اللباب أهل الألباب ، ولكل حيوان حس ولكن الله فضل الناطقين (٤) » .

لما كان الذي سمته الافرنجيه (Évolution) وصرنا الى أفق الانسانية الذي ذكره ابن خلدون ووضحه وفصله النشوئيون تفصيلاً [وقد خلقكم أطواراً] ونجم في الأدمغة ذلك (الفكر) المضيء ، وهو خير مافي الدنيا بل هو كل مافي

[١] ابو العلاء .

[٢] قال الصفدي في [نكت الهميان في نكت العميان] :« حكي لي عن الشيخ كال الدين ابن الزملكاني انه قال في حقه هو جوهرة الخ » .

[٣] خلقه لأنهم ينمون .

[٤] في (الامتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي : فأما أنفس أصناف الحيوان كالفرس والحمار فأنها أنفس ناقصة غير كاملة ، وهي ضعيفة لأنها لم تجد إلا الاحساس والحركات ، ولم يشم فيهما نور النفس الشريفة ، ولم ينبث فيها شعاع العقل الكريم فوجب من هذا الوجه أن تكون تابعة لأبدانها جارية على فسادها وبطلانها لأن الحكمة انتهت الى ذلك الحد في كونها حشواً لهذا العالم وزينة ومنافع ومبالغ الى غايات وأغراض .

الدنيا ـ كما يقول العلامة بوانكريه ـ ومحل العقل (الدماغ) كما ذهب الى ذلك أبو حنيفة وأرنستهيكل لا القاب كما ظن الشافعي . واستنبط الحجى معاني للأشياء كانت خافية قبل ذلك (الارتقاء) وهشت النفوس وبشت بما ترى العيون ، وأقبل (الادراك) وأتى (الفهم) فأدرك المحسوس أو المحس ، وفهم المنظور ، والحس البحت والنظر الصرف كما يشعر غير الناطق ويلمح من دون فكر وفهامة هما كلا شيء ، كونهما مثل العدم ، إن الهناءة والسعادة في البصيرة لا البصر .

لما ارتقينا وعقلنا وعلمنا وبنينا وحضرنا وغرسنا وتلونا :

[هوَ أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها] .

[هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً] .

وقال الشيخ أبو العلاء :

« إن شاء الملك قرب النازح وطواه حتى يطوف الرجل في الليلة الدانية بياض الشفق من حمرة الفجر ـ طوفه بالكعبة ـ حول قاف (١) ثم يؤوب الى فراشه والليلة ما همت بالأسحار ، ويسلم بمكة فيسمعه أخوه بالشام ، ويأخذ الجمرة من تهامة (٢)فيوقد بها ناره في يبرين (٣) وقاصية الرمال(٤) » فحققنا قوله ، وطار في الجو أو في السمهى (٥) مثل الطيور الطائرون ، وسمعنا في دمشق سرار القوم بله الطنطنة (٦) في برلين وفي لندن وفي باريس وواشنطن وبله العطعطة (٧) في ميادين القتال. وأورى(مركوني) ما أورى وهو في سفينته في بحر الروم فأضاءت (سدني) في أقصى الأرض [ويخلق مالا تعلمون] .

---

(١) قاف : جبل محيط بالارض ٠٠٠ وقاف في سلم الذي هو جبل في المدينة : يثرب ٠

(٢) تهامة : مكة ، وبلاد شمالي الحجاز ٠

(٣) يبرين : من أصقاع البحرين ، ويبرين قرية من قرى حلب ٠

(٤) رويتهذه الشذرة في احدى مقالاتي في [الرسالة] ٢٥٠ س ٦ في ١٧ صفر ١٣٥٧ ، وعنوان المقالة [المخترعات وكتاب الفصول والغايات] ٠

(٥) السمهى : الهواء ، الجو ٠

(٦) الطنطنة : كثرة الكلام والتصويت به ٠

[٧] العطعطة : تتابع الأصوات في الحرب وغيرها ٠

لما قطعنا ماقطعنا ، وبلغنا مابلغنا ، ومشينا اليقدمية [١] وحمدنا وشكرنا و[الحمد لله رب العالمين] طلعت علينا أجواق تذم الوجود ، وتهجو الحياة ، وتطري العدم ، وتلعن الدنيا ، وتكنيها بأم دفر وأم درن ، وتصفها بأنها دار قلعة [٢] ، منزل قلعة [٣] ، وتسمي خيراتها حطاماً . وجاء فوج أنكر كونها . ولم يجد لها مثلاً ؛ « قيل لبعضهم : كيف ترى الدنيا ؟ قال : وما الدنيا ؟ لا أعرف لها وجوداً » « وقيل لآخر : مامثل الدنيا ؟ قال : هي أقل من أن يكون لها مثل » وتمادى محمد بن واسع في استحقارها بل جاز المدى « قيل له : فلان زاهد ، قال : وما قدر الدنيا حتى يحمد من يزهد فيها » وأقبل الحجاج بن يوسف متقرئاً متحنثاً [٤] فقال في احدى الخطب : « والله ما أحب أن مامضى من الدنيا بعمامتي هذه . ولما بقي منها أشبه بما مضى من الماء بالماء » وتالله لو أن هذا الكهاكه ـ وكان الحجاج قصيراً أصفر كهاكها [٥] ـ ابدى الى العربية تلك اليد ، وتقرب الى (الكتاب) ذاك التقرب الكريم المشتهر ، وولع بالقرآن ولعاً كبيراً حتى قال عمر ابن عبد العزيز :« ماحسدت الحجاج على شيء حسدي اياه على حبه القرآن وإعطائه اهله » لولا كل ذلك لسخطنا واطلنا القول فيه . وبدا (الوليد) متحذلقاً متفلسفاً في هذه المقطوعة التي اخرجته من بغداد :

اخيّ ، متى خاصمت نفسك فاحتشد لها ، ومتى حدثت نفسك فاصدق
اری علل الأشياء شتى ولا ارى الـتـجمع الا علة للتفرق
ارى الدهر غولاً للنفوس وإنما بقي الله في بعض المواطن من يقي
فلا تتبع الماضي سؤالك لم مضى ؟ وعرج على الباقي وسائله لم بقي ؟
ولم ار كالدنيا حليلة صاحب محب متى تحسن بعينيه تطلق

[١] اليقدمية : التقدم بالهمة والأفعال . وفي [الفائق] في حديث ابن عباس ان ابن أبي العاص مشى اليقدمية وأن ابن الزبير مشى القهقرى . أي المشية اليقدمية التي يقدم بها الناس أي يتقدمهم وروي بالتاء غلطاً .

[٢] قلعة : إقتلاع ، تحول وارتحال .

[٣] منزل قلعة : المنزل الذي لاتملكه والقلعة من المال مالا يدوم .

[٤] [المتقرئ] المتنسك [المتحنث] المتعبد .

[٥] [الكهاكه] هو الذي اذا نظرت إليه كأنه يضحك وليس بضاحك من الكهكهة [الفائق]

تراها عياناً (وهي صنعة واحد) فتحسبها صنعي لطيف وأخرق [١]

ومن قوله له :

ان الزمان زمان سو وجميع هذا الناس بو .

وأطل علينا أحمد بن الحسين الكندي مجهوراً هذا الكلام [٢] :

إذا كان الشباب السكر والشيب هماً فالحيـــاة هي الحمام

هل الولد المحبوب إلا تعلة وهل خلوة الحسناء إلا أذى البعل

وما تسع الأزمان علمي بأمرها وما تحسن الأيام تكتب ما أملي

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل

يقول ابن الأثير في كتابه (الوشي المرقوم في حل المنظوم) :
« كنت سافرت إلى مصر سنة (٥٩٦) ورأيت الناس مكبين على شعر أبي الطيب المتنبي دون غيره ، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك ، فلم يذكروا لي في هذا شيئاً ، ثم إني فاوضت عبد الرحمن بن علي البيساني في هذا فقال لي : (ان أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس) ولقد صدق فيما قال » فهل نطق المتنبي بتلكم الأبيات عن خواطر الاناسين أم لغابها عن سوانح الشياطين ، انهم الشعراء يفتلتون [٣] [ألم تر انهم في كل واد يهيمون] و « الشعر للخلد [٤] مثل الصورة لليد ، يمثل الصانع ما لا حقيقة له ، ويقول الخاطر ما لو طولب به لأنكره [٥] » . « وإذا رُجع

(١) في أمالي المرتضى : قيل : ان السبب في خروج البحتري من بغداد هذه الأبيات ، فان بعض أعدائه شنع عليه بأنه ثنوي حيث قال (صنعي لطيف وأخرق) وكانت العامة حينئذ غالبة على البلدة ، فخاف على نفسه ، وقال لابنه أبي الغوث : قم يابني حتى نطفئ هذه النائرة بخرجة نلم بها شمشنا ونعود ، فخرج ولم يعد .

(٢) جهور الكلام : فخمه .

(٣) الفلتة الكلام يقع من غير إحكام وقد افتلته وفي الأساس : افتلت الكلام : ارتجل . وكل شيء فعلته فلتة فقد افتلت .

(٤) (الخلد) القلب ، النفس .

(٥) أبو العلاء في مقدمة (سقط الزند) .

إلى الحقائق فنطق اللسان لاينبئ عن اعتقاد الانسان [١] » .

ودهمنا ابن الشبل البغدادي هتاتاً [٢] جدافاً [٣] يردد هذا الشعر :

صحة المرء للسقام طريق وطريق الفناء هذا البقاء
بالذي نغتذي نموت ونحيا أقتل الداء للنفوس الدواء
قبح الله لذة لأذانا نالها الامهات والآباء
نحن لولا الوجود لم نألم الفقـ ـد فايجادنا علينا بلاء
ليت شعري وللبلى كل ذا الخلـ ـق بماذا تميز الأنبياء
موت ذا العالم المفضل بالنطـ ـق وذا السارح البهيم سواء
لاغوي لفقده تبسم الأر ض ولا للتقي تبكي السماء
انما الناس قادم إثر ماض بدء قوم للآخرين انتهاء

بربك أيها الفلك المدار أقصد ذا المسير أم اضطرار
مدارك قل لنا في أي شيء ففي أفهامنا منك انبهار
وعندك ترفع الأرواح أم هل مع الأجساد يدرسها البوار
ودنيا كلما وضعت جنيناً غذاه من نوائبها ظؤار
هي المشواء ماخبطت هشيم هي العجماء ماجرحت جبار
نعاقب في الظهور وما ولدنا ويذبح في حشا الأم الحوار
وننتظر الرزايا والبلايا وبعد فبالوعيد لنا انتظار
ونخرج كارهين كما دخلنا خروج الضب أحرجه الوجار
فماذا الامتنان على وجود لغير الموجدين به الخيار ؟
وكانت أنعماً لو أن كوناً نخير قبله أو نستشار

لقد استأسد ابن الشبل على الحق وبالغ في العفلطة والعسلطة [٤] ، ولقد

(١) أبو العلاء في (رسالة الغفران) في أثناء حديث عن المتنبي .
(٢) (هتات) مهذار كثير الكلام .
(٣) جدف بنعمة الله : كفرها واستقلها . وفي حديث : لاتجدفوا بنعم الله .
(٤) (العفلطة) تخليط الخبر (والعسلطة) الكلام على غير نظام .

عجبنا اذ سمعنا المقترح ، وأطلنا الكركرة والقهقهة . إنّ على مبدعنا أن يستشير تلكم الذريات (أعني الا ٔناسية) في الكون أو في العدم ، ويقول لها : « أنت على المتخير » أنت بالمختار ، أنت بالخيار . ولها أن تنعم أو تلالي (١) .

[وربك يخلق مايشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون] .

« ذريةَ الانس ، لا تُزهوا فانكم ذرا تعدون أو نملاً تضاهونا (٢) »

ان الاناسيّ لم يتمثلوا بشراً أو أبشاراً أسوياء إلا من بعد آلاف من الحقب ومن بعد أطوار مختلفات كثيرات لايعلم عددها إلا الله . ومثل ابن الشبل انما نشأ ذرية لاتكاد ترى بالمجهر [ثم أنشأناه خلقاً آخر] درّجته سنة الله إلى حيث انتهى أو ارتقى . وكان لايحس في وقت ولا يسمع وما عقل‌ان عقل — إلا بالا ٔمس ، ففي أي طورٍ وفي أي حين يخير أو يستشار ؟ .

[ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى] او رآه قد احتسى من بحر علم الله حسوة . !

***

ان قوماً لم يريدوا ان يكونوا ، وما احبوا ان يكون غيرهم ، فذموا الدنيا ذاك الذم ، وصبغوها للناظرين بأردإ صبغ بأبشع صبغ « غرارة ضرارة ، حائلة زائلة ، نافذة بائدة ، أكالة غوالة (٣) » كمايقول قطري ، ان كان قال هذا . وهجوا قطين الا ٔرض ، أهل الدنيا شر هجاء .

---

(١) تلالي : تقول : لا ، لا .

(٢) أبو العلاء .

(٣) من خطبة أوردها الجاحظ في (البيان والتبيين) وابن عبد ربه في (العقد) وروى بعضها ابن قتيبة في (عيون الا ٔخبار) وعزاها هؤلاء الى قطري بن الفجاءة . ورواها الرضي في مجموعة (النهج) وقال شارحه ابن أبي الحديد : « قد رأيتها في كتاب (الموثق) لا ٔبي عبدالله المرزباني مروية لا ٔمير المؤمنين (عليه السلام) وليس ببعيد عندي أن يكون قطري قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين ، فان الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره وقد لقي قطري أكثرهم » قلت : صائنها عندي مجهول .

خذ جملة البلوى ودع تفصيلها ... مافي البرية كلها إنسان (١)

أتمنى على الزمان محالاً ... أن ترى مقلتاي طلعة حر (٢)

زمان يمر وعيش يمر ... ودهر يكر بما لايسر
وحال يذوب ، وهم ينوب ... ودنيا تناديك أن ليس حر (٣)

واذا سمعوا المتفائلين الخلص يقولون : (ليس في الامكان أبدع مما كان) تحدوهم صائحين : (ليس في الامكان أقبح مما كان) وما النجاة عندهم لمرتجي خلاصه مما يقاسي ويرى الا في الانتحار .

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا ... وحسب المنايا أن يكن أمانيا (٤)

ولهم في قتل الناس نفوسهم وتزيينه أقاويل ، شرحها طويل . وهؤلاء القوم الذين سماهم المصطلح العربي بالمتشائمين واسمهم بالفرنجي (بسيمسم) إما أن يكونوا الهيين ومؤمنين ، وإما ان يكونوا دهريين طبيعيين .

[وقالوا : ماهي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، ان هم الا يظنون] .

ودان أناس بالجزاء وكونه ... وقال رجال : انما أنتم بقل (٥)

« ضل الذي قال : البلاد قديمة ... بالطبع كانت والأنام كنبتها
وأمامنا يوم تقوم هجوده ... من بعد إبلاء العظام ورفتها(٦)

(١) ابن الهبارية .
(٢) البديهي من شعراء اليتيمة .
(٣) ابن مقلة .
(٤) المتنبي .
(٥) و (٦) ابو العلاء ، قال شارح (سقط الزند) : « هنا رد على الدهريين الذين يقولون : أن العالم قديم بالطبع لم يزل كذلك ولم يحدث باحداث محدث والناس كالنبات ينبتون ويعودون بالموت هشيماً ، وهذا كفر صريح وضلال بعيد بل الحق أن العالم محدث مخلوق أحدثه الواحد الحق بقدرته » .
وفي « شرح النهج » لابن أبي الحديد :
« قال قاضي القضاة : ان أحداً من العقلاء لم يذهب الى نفي الصانع للعالم ، ولكن قوماً من الوراقين اجتمعوا ووضعوا بينهم مقالة لم يذهب أحد إليها وهي أن العالم قديم لم يزل على هيئته هذه ، ولا إله للعالم ولا صانع أصلا ، وانما هو هكذا ما زال ولا يزال من غير صانع ولا مؤثر . وأخذ ابن—

فان كانوا من الأولين فهل يحق الا الإيقان كل الإيقان بأن ليس ثمة الا الحكمة التامة والاتقان .

[ماترى في خلق الرحمن من تفاوت] .

[صنع الله الذي اتقن كل شيء] .

[الذي أحسن كل شيء خلقه] .

[صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟] .

والله أعلم من كل عليم وأحكم من كل حكيم [أفحسبتم انما خلقناكم عبثا] وان كانت برهمية وبوذية تريان الكون شراً ، فليست البرهمية والبوذية على شيء . ولا يحتسب بمثلها . وان عدهما (أرثر شوبنهور) أكمل الاديان طراً من أجل هذا المعتقد .

نعم « ما الدنيا إلا عُمرى [١] ولا خلود إلا في الأخرى [٢] » و « الدنيا قنطرة الآخرة » لكن هل علينا أن نقعد في القنطرة نشهق ونزعق ، ونخمش الوجوه ، ونلطم الخدود ، ونلدِم الصدور حتى يجيء الأجل ، حتى يجي وقت النقلة و (الكتاب) يقول :

[ولا تنس نصيبك من الدنيا] .

ونطقُ (الكتاب) فصلُ الخطاب .

وان كان القوم المتشائمون من الآخرين فسوف يسألون : هل علمتم كيف كنتم ؟ هل علمتم كيف كانت داركم ؟ إنها كانت داراً تستعر استعاراً ولم تزل بقايا خبايا في الزوايا تضطرم . فاقرءوا تأريخها واقرءوا تأريخكم ، وفتشوا صحائف الأنساب .

ـــ الراوندي هذه المقالة فنصرها في كتابه المعروف بكتاب «التاج». قلت : ذكر الشيخ ابن الراوندي وتاجه هذا في (رسالة الغفران) ومما قاله : وأما ابن الراوندي فلم يكن الى المصلحة بمهدي ، وأما تاجه فلا يصلح أن يكون نعلاً . . . وهل تاجه الا كما قالت الكاهنة : اف وتف ، وجورب وخف . . .

(١) العمرى ماتجعله للرجل طول عمرك أو عمره . قال ثعلب أن يدفع الرجل الى أخيه داراً فيقول : هذه لك عمرك أو عمري ، أينا مات دفعت الدار الى أهله ، وكذلك كان فعلهم في الجاهلية (اللسان) .

(٢) الزمخشري .

[هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا] .

وانظروا كيف عادت (١) (محلة) (٢) كيف عادت هذه (الغبراء) ، وانظروا كيف عدتم بشراً ، وكيف سدتم أقربين وأبعدين . وان تأخر من عترتكم متأخرون اذ تقدم متقدمون فتعلموا أن السابقين والمتوقفين المتمكثين لم يبرحوا في البدء ، لم يبرحوا في أول الطريق ، لم يبرحوا في الطور الشنبنزي كما قال توماس أديسون :

تشبه بعض ببعض فما تزال الشمائل قرديه (٣)

فأجدر بالدهريين الطبيعيين الذين ينشدون :

خذ من الدنيا بحظ قبل أن ترحل عنها
فهي دار لاترى من بعدها أحسن منها (٤)

فلا يرون أن هناك دارين ، وأن هناك معنيين : معنى هذي ، ومعنى تلك بل يقولون : كل شيء معناه ومنتهاه فيه — أجدر بهؤلاء ألا يكونوا من المتشائمين في حين . ومقالهم هذا المقال .

* * *

ان الفتى بكونه سعيد ، بكونه حسبُ قد سعد بما وجد — كما يقول الانكليز — فذروا التشاؤم في الحياة يا أيها الناس ؛ وأبهجوا أنفسكم واجتذلوا لعلكم لاتحزنون . كونوا من المتفائلين ، من أهل الفؤول (٥) ، ولا تشاءموا ولا تطيروا وتمثلوا بهذا البيت وقد تمثل به رسول الله كما ذكر الشيخ في رسالة الغفران :

تفاءل بما تهوى يكن فلقلما يقال لشيء كان إلا تحققا

---

(١) العود بمعنى الصيرورة ، وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لاتكاد تسمعهم يستعملون صار ولكن عاد ، ماعدت أراه ، عاد لايكلمني ، ماعاد لفلان مال (الكشاف) .

(٢) محلة : الأرض ، وكحلة السماء .

(٣) أبو العلاء .

(٤) رواهما صاحب (نفح الطيب) ولم يسم قائلها .

(٥) جمع الفأل .

وكان (صلى الله عليه وسلم) كما روت أحاديث — يتفاءل ولا يتطير .

وكونوا إيثاريين أثريين في هذا الوجود كما تقوا أنفسكم ، وكي تصونوا جنسكم ، وتسعدو وترتقوا . إن الأثرية والايثارية هما الفضيلتان العظيمتان متحدتين لامفترقتين ، وأولى لأثري كفر بالايثارية ثم أولى ! وأولى لايثاري لم يؤمن بالأثرية ثم أولى ! ان الأول شرير شيطان من الشريرين ، وان الثاني — إما كان — لذو جنة في المجانين .

واستمعوا لما يقول شيخنا أبو العلاء فقد أعلنت أقواله الحقيقة ، وهدت إلى الطريقة ، وعززت شريعة المتفائلين ، وفندت مذهب المتشائمين ، وبينت للناس كيف يحيون ، وكيف يقوون ، وكيف يسيرون في هذا الوجود .

ولو اطلعنا على أكثر مما اطلعنا عليه مما أملاه الشيخ لروينا من هذه المعاني كتباً كبيرات لاصفحات معدودات ولكن قد حال بيننا وبين المراد جهل الجاهلين وجرم التتر والصليبيين — كما ذكر ذلك من قبل — فاجتزأنا برواية نتفة من الأقل الباقي .

٣

الأمل :

لي أمل ، فرقانهُ محكم اقرؤه غضاً كما أنزلا

أجرى من الخيل آمال أصرفها لها بحثيّ تقريب وإخباب(١)

لاتقنطن أيها الانسان ، فان بلغتك (٢) عند الله الكريم ، والرزق يطلبك وأنت تبصر الأحلام ، لو أن للرزق لساناً هتف بمن رقد ، أو يداً لجذب المضطجع باليد ، أو قدما لوطيء على الجسد . لايزال الرزق مرنقاً على الهامة ترنيق (٣) الطير الظمآء على الماء المطمع (٤) .

(١) التقريب والخبب : ضربان من سير الفرس في الأصل .
(٢) البلغة مايتبلغ به من العيش ولا فضل فيه ، وتبلغ بكذا اكتفى به .
(٣) رنق الطائر خفق بجناحيه في الهواء ورفرف ولم يطر .
(٤) المطمع الذي أطمعها في النزول عليه (أبو العلاء) .

سمّ الهلال إذا عاينته قمراً إن الأهلة عن وشك لأقمار

وقد يخمل الانسان في عنفوانه وينبه من بعد النهى فيسود

أحسبت الخير ليس بمثمر؟ بلى. ان للخير ثمرة لذت في المطعم، وتضوعت لمن تنسم، وحسنت في المنظر والمتوسم، وجاوزت الحد في العظم، فما ظنك بثمرة هذه صفتها؟.

هوّن عليك:

الأمر أيسر مما أنت مضمره فاطرح أذاك وهوّن كل ماصعبا

إذا تفكرت فكراً لايمازجه فساد عقل صحيح هان ماصعبا

العلم كالقفل، ان ألفيته عسراً فخله ثم عاوده لينفتحا

دع ماضر وصعب، إلى مانفع وهان. واترك المضلة إلى المرشدة فان طرقات الخير كثير.

لاطيرة

الأيام كلها لله، وربما ساءتك عروبة [1]، وسرك الخميس. وإذا نزل بك نازل في يوم فلا تمقته لذاك.

بركات الله ورحمته

يبث الله في نهار وليل بركات من رزقه مدروره [2]

غشيت رحمة الله كل الحيوان، وتكفل بالرزق لكل المتغذيات.

---

(١) الجمعة، في «النهاية»: هو اسم قديم لها وكأنه ليس بعربي، يقال: يوم عروبة والعروبة والأفصح ألا يدخلها الألف واللام.

(٢) «مدرورة» كثيرة، في الاساس: ومن المجاز: درت الدنيا على أهلها إذا كثر خيرها.

فرح الملأ بالكلأ (١) وحق لهم أن يبتهجوا برزق الله الكريم . جاء اللبأ (٢) وذهب الوبأ (٣) ، فسبحان الله العظيم ! ياخصب ، ثب لتراق الكثب (٤) على الكثب (٥) وعلى الله رزق العالمين .

والشمس تغمر أهل الأرض مصلحة ربت جسوماً وفيها للعيون سنا

طهت لك الشمس مايغني الخادعة عن أن يكون له في الأرض طاهونا

الاقدام، الجسارة :

واني رأيت الصعب يركب دائماً من الناس من لم يركب الغرض الصعبا

والعيش جسر ، نال من هو جاسر أو كاد فيه وخاب من لم يجسر

ويحمد الصابر الموفي على غرض لا عاجز بعرى التقصير معقود

ينبغي للمسبوق ألا يؤثر بصبوح ولا غبوق (٦) ، فليستحي المتأخر أن يفتخر

الخيف من رأي السخيف ، فاجر على معارتك في تقوى الله ؛ والخيل بفوارسها متمطرات (٧) .

انما نحن في أحلام نائم لاأحلام ذوي العزائم ، وقد يرى الراقد نفسه مع

---

(١) الكلأ : العشب ج أكلاء .
(٢) اللبأ : اللبن ، أوله .
(٣) بالقصر والمد .
(٤) الكثبة الطائفة من طعام او غيره ، القليل من اللبن .
(٥) الكثيب : التل من الرمل .
(٦) الصبوح كل ما أكل وشرب غدوة وهو خلاف الغبوق : شرب العشي « اللسان » .
(٧) (الخيف : جمع خيفة ، (المطرة) العادة « متمطرات » جمع متمطرة وهي المجتهدة في العدو) . والتفسير للشيخ .

الفراقد ، فاذا استيقظ رآها بالجدد (١) .

وكن في كل نائبة جريئاً تصب في الرأي ان خطئ الهدان (٢)
وسائل من تنطس في التوقي لأية علة مات الجبان (٣)

اشجع فان أقدار الله لاتعجل الى الشجاع . صل على الظالم بالمنصل (٤) .

الدنيا ، الحياة :

خلقت من الدنيا وعشت كأهلها أجد كما جدوا وألهو كما لهوا

أمور دنياك سطر خطه قدر وحبها في السجايا أول السطر

ولا تظهرن الزهد فيها فكلنا شهيد بأن القلب يضمر عشقها

نفسي بها ونفوس القوم ملهجة ونحن نخبر أنا لانباليها (٥)
أمرتني بسلو عن خوادعها فانظر هل أنت مع السالين ساليها؟
ولا ترى الدهر إلا من يهيم بها طبعاً ، ولكنه باللفظ قاليها

فترو من هذي الحيا ة لكي تموت النفس ريا

* * *

الموت ، كرهه

والنفس آلفة الحياة فدمعها يجري لذكر فراقها منهله !

ولم أرد المنية باختياري ولكن أوشك الفتيان سحبي (٦)

---

(١) « الجدد » : الارض .
(٢) الهدان الضعيف الجبان الذي لايهتدي لأموره (شرح السقط) والهدان الاحمق الثقيل .
(٣) تنطس في كل شيء اذا ادق فيه النظر (الاساس) .
(٤) المنصل ـ بضم الميم والصاد ، وبضم الميم وفتح الصاد ـ السيف . في التاج : قال ابن سيده : لانعرف في الكلام اسماً على مفعل ومفعل الا هذا وقولهم منخل ومنخل .
(٥) ملهجة : مولعة .
(٦) الفتيان الليل والنهار .

ولو خيرت لم أترك محلي فأسكن في مضيق بعد رحب !

فليت الفتى كالبدر جدد عمره يعود هلالاً كلما فني الشهر !

أحسن بدنيا القوم لو ان الفتى لايقتضى ، وأديمه لايحلم (١) !

تضاعف همي أن أتتني منيتي ولم تقض حاجي بالمطايا الرواقص (٢) !

فواهاً لأشباح لكم غير أنها تبدلُ من أوطانها برموس !

أنبأنا اللب بلقيا الردى فالغوث من صحة ذاك النبأ ! ! !

موت البطولة

هناك ضرب من الموت لايكره ولا يذم بل يحب ويعظم ، وهو موت البطولة في الوغى . وقد حرض الشيخ عليه ، والحرب شرعة العربي :

إذا المرء لم يغش الكريهة أوشكت حبال الهوينى بالفتى أن تقطما (٣)

والجهاد من دين المسلم :

[كتبَ عليكم القتالُ وهو كرْهٌ لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم ، وأنتم لاتعلمون] .

[وجاهدوا في الله حقّ جهاده] .

[وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون] .

[انفروا خفافاً وثقالاً (٤) ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون] .

(١) يقتضي : يطالب كأن الحياة دين عنده فإذا جاء الأجل انتضاه المقتضي .

(٢) رقص البعير يرقص رقصاً ـ محرك القاف ـ اذا اسرع في سيره . ولا يقال يرقص الا للاعب والابل وما سوى ذلك فإنه يقال : يقفز وينقز . (اللسان) .

(٣) الكلحبة العرني في مفضلية .

(٤) خفافاً من السلاح وثقالاً منه أو ركباناً ومشاة أو شباباً وشيوخاً أو صحاحاً ومراضا (الكشاف) القصد بالآية الحث على النفر على كل حال تصعب أو تسهل (مفردات الراغب) .

وإذا كان الحال كما قال الشيخ :

وما سلّ المهند للتوقي كسل المشرفية للتشفي

فالموت يومئذ خير من ألف حياة ، خير من الخلود .

* * *

من السعد في دنياك أن يهلك الفتى بهيجاء يغشى أهلها الطعن والضربا
فان قبيحاً بالمسوّد ضجعة على فرشه يشكو إلى النفر الكربا

كل يحاذر حتفاً وليس يعدم شربه
ويتقي الصارم العضـب أن يباشر غربه
والنزع فوق فراش أشدّ من ألف ضربه

لقد ركزوا الأرماح غير حميدة فبعداً لخيل في الوغى لم تطارد !
وما يجمع الأشتاتَ إلا مهذب من القوم يحمي بارداً فوق بارد (١)

لضربة فارس في يوم حربٍ تطير الروح منك مع الفراش (٢)
أخف عليك من سقم طويلٍ وموت بعد ذاك على الفراش

ألا تنهض للحرب وتدعو للوغى شوسك (٣) ؟

وقد علمتُ وغيري عن مشاهدة أن الملا الفـقوم في الوغى ليسِ (٤)

وجدتك اعطيت الشجاعة حقها غداة لقيت الموت غير هيوب

من السعادة أن يموت القوم كراماً .

---

(١) (البارد) السيف ، البوارد السيوف القواتل (اللسان) يحمي السيف فوق الدرع أو السيف فوق السيف .

(٢) فراش الرأس : عظام رقاق تلي القحف .

(٣) الأشوس : الجريء على القتال الشديد (اللسان) .

(٤) رجل أليس من رجال ليس وهو الذي لايبالي هولاً ، ولا يروعه شيء (الاساس) .

للحديد العلا على سائر الجوهـــــر ذلّ العدى وعزّ الضيوف

فوارس خيلكم تعطي مناها إذا دمّى نواجذها الشكيم (١)
وفي بيض السيوف بياض عيش بذلك ـ فاعلموا ـ نطق الحكيم

* * *

القوة :

يخضع الظبي الأخضع (٢) ، وينتصر الليث المهتصر .

* * *

المال ، تثميره :

والمال خدن النفس غيرَ مدافع والفقر موت جاء بالاهمال
أوَ ماترى حكم النجوم مُصوراً بيت الحياة يليه بيت المال

ماالبسر كالعدم في الاحكام بل شحطت حال المياسير عن حال المحاويج

أنفق لترزق فالثراء الظفر ، ان يُترك يَشن ويعود حين يُقلم

ينبغي لمن يرث أن يحترث ، وإلا فني التراث .

جل من سخره لقضاء الحاج

أعتمد على ذي وجهين ، ماعُرف قط بالمين . لو كان رجلاً لكان ناصح الجيب . . . سبح ربه مذ خلق ، اذا انطلق به فهو منطلق . ومتى بُعث في المآرب قضاها ، والله بلطفه أمضاها . ثم يُحبس ولا ذنب له ، سجن فهو طول الدهر مستريح ، لاتلح عليه الشمس ولا الريح . لايأكل ولا يشرب . . . . له منزل

(١) الشكيمة في اللجام الحديدة المعترضة في فم الفرس التي فيها الفاس ، وفأس اللجام الحديدة القائمة في الحنك .

(٢) الأخضع الذي في عنقه خضوع خلقة (أبو العلاء) ، رجل اخضع : راض بالذل (الاساس)

مادخله الهم . . . اذا غاب الحافظ عنه فله الختم ، وليس ذلك من القضاء الحتم . . . خُص بالعمر الطويل ، وتناسخه جيل بعد جيل ، فظهر في الأكاليل ، والاسورة والخلاخيل ، والكأس الدائرة بشراب الكرم والنخيل ، ماشاب ولا هرم ، ولا درَم (١) للكبر ولا درِم (٢) ملكه قوم فدفنوه ، فتطاولت في الأرض سنوه ، ثم ظهر ماُنسي اسمه ، ولا تغير جسمه . . . به صفرة من غير الضرب ، ظهر بها في الشرق والغرب . . . تلقاه معلماً بالتوحيد ، وليس بالعالم ولا البليد ، ولكن الله أنطق بعظمته كل جماد . . . جلّ من سخره لقضاء الحاج .

* * *

العمل :

تروم رزقاً بأن سموك متكلاً وأدين الناس من يسعى ويحترف

لاتقومن في المساجد ترجو بها الزلف
معملا بسط راحتيك الى نائلٍ يلف
ورم الرزق في البلاد فان رمته ازدلف

يعرى الفقير وبالدينار كسوته وفي صوانك ماإعداده خرف

أملكُ من شداد بن عاد ساعة تفتقر الأملاك رجل اشترى كرّاً (٣) ، وقصد منابت الشجر محتطباً ، فرجع بالعضد (٤) متكسباً ، فأحل في المكسب وأطاب .

لايصبرن فقير تحت فاقته ان السباريت جابتها السباريت (٥)

(١) درم من الدرمان وهو تقارب الخطو .

(٢) درم من الدرم وهو سقوط الاسنان ، ومن ذلك قيل : كعب ادرم ، والمعنى ان نقشه لم يزل وخشونته لم تملاس (أبو العلاء) .

(٣) الكر : الحبل ج كرور .

(٤) العضد : ماعضد من الشجر ، وعضده قطعه بالمعضد وهو كل ماعضد به الشجر (اللسان) .

(٥) (السباريت) الفلوات [جابتها] قطعتها [السباريت] المساكين والمحتاجون ، جمع سبروت وسبريت . وفي نقائض [جرير والأخطل] لأبي تمام : صعلك الرجل وسبرت اذا افتقر . وفي [التاج] سبرت الرجل قنع وتمسكن .

من في اللجة يغبط السائر على المحجة، والمسافر يغبط المقيم، والغنيمة مع الظاعنين.

العمل ـ وان قل ـ يُستكثر اذا اتصل ودام .

من سهر في الليالي السود فأحر به أن يسود .

بُلغ أمل بعمل ، وأهل التقصير بلا عون ولا نصير .

أجد عملك وجِدّ فيه .

طدْ بناءك على أس .

* * *

الثمر ، النبات :

فاذا ملكت الأرض فاحم ترابها   من غرسه شجراً بغير ثمار

اذا رملة لم تجيء بالنبات   فقد جهلت إن سقتها السواني (١)

* * *

النسل ، الزواج

والنسل أفضل مافعلت بهـا   فاذا سعيت له فعن عقل

إذا شئت يوماً ان تقارن حرة   من الناس فاختر قومها ومجارها

اذا خطب الحسناء كهل وناشيء   فان الصبا فيها شفيع مشفع
ولا يزهدنها عدمه ، إن مُدمه   لأبرك من صاع الكبير وأنفع
وما لأخي الستين قدرة سائر   اليها ولكن عجزه ليس يُدفع
ويخفض في كل المواطن ذمه   وان كان يُدنى في المحل ويرفع

اذا ما ابن ستين ضم الكعاب   اليه فقد حلت البهلة (٢)

(١) السانية : الساقية ، عنى بالسواني السحب .

(٢) البهلة ـ بالفتح وبضم ـ اللعنة ، ومنه حديث أبي بكر : من ولي من أمر الناس شيئاً فلم يعطهم كتاب الله فعليه بهلة الله .

هو الشيخ لم يرضه أهله ولم يرض في فعله أهله (١)
فلا يتزوج أخو الأربعين الا مجربـــة كهـــله
رأى الشيب في عارضيه المسن فنعم القرين له الشهله (٢)

اذا كانت لك أمرأة عجوز فلا تأخذ بها أبداً كعابا
فان كانت أقل بهاء وجه فأجدر أن تكون أقل عابا
وحسن الشمس في الأيام باق وان مجّت من الكبر اللعابا

ومن جمع الضرات يطلب لذة ، فقد بات بالأضرار غير سديد

* * *

معاملة الصغار

ورفقاً بالأصاغر كي يقولوا غدونا بالجميل معاملينا
فأطفال الاكابر إن يوقوا يروا يوماً رجالاً كاملينا

لا تزدرن صغاراً في ملاعبهم فجائز أن يروا سادات أقوام
وأكرموا الطفل عن نكر يقال له فان يعش يدع كهلاً بعد أعوام

* * *

... وبالوالدين احسانا

العيش ماض فأكرم والديك به والأم أولى باكرام وإحسان
وحسبها الحمل والارضاع تدمنه أمران بالفضل نالا كل انسان

(١) وللشيخ :

وواحدة كفتك فلا تجاوز الى اخرى تجيء بمؤلمات
ولا يتأهلن شيخ مقل بمصرة من المتنعمات
فان الفقر عيب إن أضيفت اليه السن جاء بمؤلمات

(٢) الشهلة : النصف العاقلة ، العجوز وذلك اسمها خاصة ، وامرأة شهلة كهلة ، ولا يقال : رجل شهل كهل ولا يوصف بذلك إلا أن ابن دريد حكى : رجل شهل كهل .

وللشيخ :

اذا خطب الزهراء شيخ له غنى وناشيء عدم آثرت من تمانق

تحمل عن أبيك الثقل يوماً   فان الشيخ قد ضعفت قواه
أتى بك عن قضاء لم ترده   وآثر أن تفوز بما حواه

* * *

حفظ الصحة

دار نفسك وان بلغت سن الهرم كما يداري الوليد .

إفراط الشبع آفة على كل حيوان .

سئنك خير لك من درة   زهراء تعشي أعين الناظرين
عجبت للضارب في غمرة   لم يطع الناهين والآمرين
يكسر باللؤلؤ من جهله   خشباً عتت عن أنمل الكاسرين

تجزأ ولا تجعل لحتفك علة   باكثار طعم ، ان ذلك لوم (١)

لاتربلن وكن رئبال مأسدة   ان الرشاد ينافي البادن الربلا (٢)

* * *

الشبيبة

اذا ما خبت نار الشبيبة ساءني   ولو نُص لي بين النجوم خباء

ان الشبيبة نار ان أردت بها   امراً فبادره ، ان الدهر مطفئها

* * *

السفر

لو ملكت الرحيل جولت في الآفاق حتى يملني التجويل .

* * *

(١) تجزأ بالشيء : قنع بالشيء واكتفى به . اكتف بجزء من أكلك .

(٢) الربالة : كثرة اللحم وهو ربيل وربل .

أدب السلوك

الكتاب المختوم يشتمل على سر مكتوم ، فان فضضته ولم يأذن من أمنك عليه فقد أوضعت (١) في سبيل الخائنين .

لا يبصر القوم في مغناك غسل يد ... على الطعام الى أن يرفع السور (٢)
ولا يكن ذاك الا بعد كفهم ... أكفهم ، ويسيرُ الفعل ميسور
فان تقريب خدام الفتى حرضاً ... والضيف يأكل رأي منه مخسور (٣)

* * *

لكل زمان ما يشاكله

أعدّ لكل زمان مايشاكله ... ان البراقع يُستثبتن بالشبم (٤)
فان ضربت بسيف الهندفي ومد ... فسيف افرنجة المخبوء للشبم (٥)

* * *

المرء شبه زمانه

وإن الفتى فيما أرى بزمانه ... لأشبه منه شيمة بأبيه (٦)

* * *

النـاس

والناس بالناس من حضر وبادية ... بعض لبعض وان لم يشعروا خدم (٧)

(١) مشيت .

(٢) سور بمعنى عرس ووليمة (شفاء الغليل) وا(في النهاية) في حديث جابر أن رسول الله (ص) قال لأصحابه : قوموا فقد صنع جابر سوراً أي طعاماً يدعو الناس اليه ، واللفظة فارسية .

(٣) الحرض : الأشنان تغسل به الثياب والأيدي على أثر الطعام .

(٤) الشبامان خيطان في البرقع تشده المرأة بهما في قفاها .

(٥) (ومد) حر (المخبوء) المعد المدخر الشبم (البرد) .

(٦) في (امالي القالي) : هشام بن عروة : الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم وروى ابن هندو في كتابه (الكلم الروحانية في الحكم اليونانية) لأفلاطون : لا تقسروا أولادكم على آدابكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم .

(٧) قالوا : الحضر ، محركة فهل سكنت ضرورة ؟

ان خالفوك ولم يجرر خلافهم شراً فلا بأس ،ان الناس أخياف (١)

قال الخليفة العظيم عمر : « أعقل الناس أعذرهم للناس »

ومن عرف الناس وتاريخهم ووراثتهم القريبة والبعيدة (L'atvisme) ومنشأ مايسمى (رذائل) وأسبابها عذر ولم يستعجب مما يشاهد . يقول الشيخ :

يلقاك بالماء النمير الفتى وفي ضمير النفس نار تقد
يعطيك لفظاً ليناً مسه ومثل حد السيف ما يعتقد

وهذان البيتان ان دل ظاهرهما على معايب في الناس ففيهما ماينبئ بارتقاء لهم عجيب ، فقد أمسى هذا الفتى الذئب الجشع الحاسد المحتقد سافك دم أخيه من أجل ثعلب ظفر به أو يربوع ومن أجل مستنقع يرده أو مطيطة (٢) ـ قد أمسى هذا الفتى وارث الغرائز يلقاك أحسن لقاء ويخاطبك خطاباً جميلاً وفي الضمير والمعتقد ماأبان الشيخ . فاذا طال تكلفه مايتكلفه ، واستمر اعتياده مايعتاده « وعادة المرء تدعى طبعه الثاني » كما يقول شيخنا حكى بعد أدهار باطنه ظاهره ، اشبه جوانيه برانيه ، وحسبك منه اليوم ذاك اللقاء وذاك العطاء وان كان في ضمير النفس نار تقد ، وساء مايعتقد .

... كذلك سخرناها لكم :

قال الامام ابن قيم الجوزية في كتابه (طريق الهجرتين وباب السعادتين) :

«... ولما انتهى أبو عيسى الوراق الى حيث انتهت اليه أرباب المقالات طاش عقله ، ولم يتسع لحكمة إيلام وذبحه صنف كتاباً سماه (النوح على البهائم) فأقام عليها المآتم ، وناح وباح بالزندقة الصراح » .

وقال العلامة الفيومي في المصباح :

ويحرمون ـ يعني البراهمة ـ لحوم الحيوان ، ويستدلون بدليل عقلي فيقولون : حيوان بريء من الذنب والعدوان فايلامه ظلم ، خارج عن الحكمة . وأجيب بظهور الحكمة ، وهو أنه استسخر للأنسان تشريفاً له عليه ، واكراماً له كما استسخر النبات للحيوان تشريفاً للحيوان عليه . وأيضاً فلو ترك حتى يموت حتف أنفه مع

(١) من المجاز : هؤلاء أخياف أي مختلفون .

(٢) المطيطة : الماء المختلط بالطين الذي يتمطط أي يتمدد لخثورته [الفائق] .

كثرة تناسله أدى الى امتلاء الأفنية والرحاب وغالب المواضع ، فيتغير منه الهواء ، ويكثر به الفناء ، فيجوز ذبحه تحصيلاً للمصلحة وهي تقوية بدن الأنسان ، ودفعه لهذه المفسدة العظيمة . واذا ظهرت الحكمة انتفى القول بالظلم والعبث » .

وشيخنا المعري يقول داعياً الى الارتفاق به :

يأكل أطايب الأعفاء من سمح بالرسل في أيام السفاء (١) ، ويلبج الغمار باذل السمار (٢) ، وتذني الضيفان على الجائد بملء الجفان . لايثني عليك فصيل بالأصيل . ومن اخضرت شربته (٣) بالواد اكمات مربده بالتمر الجلاد (٤) . ومن ركب العامة (٥) في طلب الصيد كانت بطون عياله قبوراً للحيتان . ومن تتبع بقوسه موارد الوحش كثر في منزله الوشيق (٦) .

وقال (الوليد) : النبع ليس بمثمر وأخطأ سربُ الوحش من ثمر النبع (٧)

---

(١) [الأعفاء] جمع عفو وهو الجحش [السفاء] قلة اللبن ، يقال : ناقة سفي وهي ضد الصفي ، والمعنى أن من سقى فرسه اللبن في أيام قلته طرد عليه الوحش فصادها [أبو العلاء] .
العفو : الجحش سمي به لأنه يعفي عن الركوب والأعمال [الفائق]

(٢) [الغمار] جمع غمرة وهي الشدة [السمار] اللبن المذيق ، والمعنى أن من سقى فرسه سماراً وثق بجريه فولج غمار الحرب [أبو العلاء] .

(٣) اخضرت شربته أي صار عليها طحلب من كثرة الماء وادمان السقي (أبو العلاء) الشربة مثل الحويض يحفر حول النخلة والشجرة ، يملأ ماء بسع ريها فتتروى منه ، والجمع شرب وشربات (التاج) .

(٤) اكمات المربد أي صار فيه تمر يوصف بالكمتة ، والعرب تصف التمرة با لكميت ، والجلاد جمع جلدة وهي التمرة الشديدة التي لاتتوسف أي تتقشر (أبو العلاء) .

(٥) العامة ضرب من السفن (أبو العلاء) وفي الاساس : وركبوا العام أي الارمات الواحد عامة لأنها تعوم في الماء وفيه : وركبوا الرمث في البحر وهو الطوف : وهو من قرب منفوخ فيها .

(٦) الوشيق اللحم المقدد طولا ، والقطعة وشيقة (أبو العلاء) .

(٧) (في شرح سقط الزند) :

« أراد الوليد بن عبيد البحتري وذلك أنه قال في شعره :

وعيرتني خلال العدم آونة والنبع عريان ، مافي عوده ثمر

يعني بالنبع الشجر الذي يعمل منه القسي ، قال البحتري : (ان النبع لاثمر له) وقد أخطأ في قوله فان قطيع الوحش التي تصاد من الظباء والحمر والبقر الوحشية ــ من ثمار النبع ، وذلك أن القسي انما تبرى من النبع ، ويرمى الى الوحش عنها ، وتصاد بها ، فالوحشي اذن من ثمر النبع ... »
و (عريان) مصروف ، وقد ترك البحتري صرفه ضرورة .

جلة ابلك وعشارها (١) أروت ضيفك غزارها ، وملأت جفانك وذارها (٢) لن تبكيك بكارها اذا السنة كثر قطارها ، وذُبح في الروضة فارها (٣) ، واعتم بالروضة بهارها (٤) . سائم إبلك شرارها .

* * *

الاثرية ، الايثارية .

ان ترد أن تخص حراً من الناس بخير خص نفسك قبله .

اذا لم يكن لي بالشقيقة منزل فلا ظهرت عزاؤها والشقائق (٥)

اذا كان إكرامي صديقي واجباً فاكرام نفسي ـ لامحالة ـ أوجب

ومن أطال خلاجاً في مودته فهجره لك خير من تلافيه (٦)

اذا ولى صديقك فول عنه ، فانما يُنزل بالوادي ذي الشجر والروض العميم (٧) ويقدح بزند العفار (٨) مادام واري النار ، فاذا خبت ناره بطل اختياره ، واذا السقاء لم يمسك الماء فهو زيادة في مشقة المسافر .

---

(١) « الجلة » المسان ـ الكبار ـ من الأبل يكون واحداً وجمعاً ويقع على الذكر والأنثى « اللسان » عشراء أتى على حملها عشرة أشهر والجمع عشار ومثله نفساء ونفاس ، ولا ثالث لها « المصباح »

(٢) وذارها جمع وذرة وهي القطعة من اللحم « أبو العلاء » .

(٣) ذبح الفار المسك وهو هنا استعارة للروض « أبو العلاء »

(٤) اعتم النبت اذا طال وكثر [أبو العلاء] . [البهار] : نبت طيب الريح : العرار .

(٥) [الشقيقه] الفرجة بين الرمال [العزاء] المطر الشديد الوابل [الشقائق] سحائب تبعجت بالامطار الغدقة ، والشقائق هو هذا الزهر الاحمر المعروف .

(٦) [خلاجاً] نزاعاً : جنابا .

(٧) كل مااجتمع وكثر عميم والجمع عم ، والعميم الطويل من الرجال والنبات [اللسان] .

(٨) العفار شجر يتخذ منه الزناد ، المرخ والعفار شجرتان فيهما نار ليس في غيرهما من الشجر [اللسان] وفي أمثالهم : (في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار) وقد رواه الميداني وشرحه .

لا تأو (١) لمفسد تاو (٢) ، فان الذيب جدير بالتعذيب .

آخ في الله الاخوان ، ولا تقل لبعيرك : إخٍّ في دار الهوان (٣) .

ادفع الشر اذا جاء بشر … وتواضع انما أنت بشر

بأي لسان ذامني متجاهل … عليّ ، وخفق الريح فيّ ثناء
تكلم بالقول المضلل حاسد … وكل كلام الحاسدين هراء

اذا ماقلت نثراً أو نظيماً … تتبع سارقو الألفاظ لفظي

كأني اذا طلت الزمان وأهله … رجعت وعندي للأنام طوائل (٤)
وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم … باخفاء شمس ضوءها متكامل
واني وان كنت الأخير زمانه … لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل
وطال اعترافي بالزمان وصرفه … فلست أبا لي من تغول الغوائل
فلو بان عضدي ما تأسف منكبي … ولو مات زندي ما بكته الأنامل

وكم من طالب امدي سيلقى … دوين مكاني السبع الشدادا
ويطمع في علاي وإن شسعي … ليأنف أن يكون له نجاداً
ويظهر لي مودته مقالاً … ويبغضني ضميراً واعتقادا
لي الشرف الذي يطأ الثريا … مع الفضل الذي بهر العبادا
وأحسب ان قلبي لو عصاني … فعاود ماوجدت له افتقادا

تعاطوا مكاني وقد فتهم … فما أدركوا غير لمح البصر
وقد نبحوني وما هجتهم … كما ينبح الكلب ضوء القمر

* * *

---

(١) أوى له : رق ورثى له ، وأشفق عليه ، يأوي مأوية ومأواة.
(٢) تاو : هالك ، توي كرضي يتوى وطي تقول : توي كسعى.
(٣) إخ ـ بسكون الخاء وفتحها ـ صوت اناخة الجمل ، ولا فعل له .
(٤) طلت : فتت (الطوائل) ج طائلة : الترات الذحول .

وافعل بغيرك ماتهواه يفعله　　وأسمع الناس ماتختار مَسمعه(١)

ولو أني حبيت الخلد فرداً　　لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي　　سحائب ليس تنتظم البلادا

فياوطني ، ان فاتني بك سابق　　من الدهر فلينعم لساكنك البال

وما سرني أني أصبت معاشرا　　بظلم واني في النعيم مخـــلد

فانفع اخاك على ضعف تحس به　　ان النسيم بنفع الروح هباب

كيف لايشرك المضيقين في النعـــمة　　قـــوم عليهم النعماء

أنجد أخاك على خيرٍ يهم به　　فالمؤمنون لدى الخيرات أمجاد

جُد بعرف ولو بالنزر محتسباً　　ان القناطير تحوى بالقراريط

---

(١) هذا البيت يشمل الاثرية والايثارية معاً . ولحكماء الاغريق قبل التاريخ الميلادي بخمس مئة سنة وفي الانجيل وللحكيم الصين مايشبه قول الشيخ . وروى البخاري في جامعه : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » والحديث الكريم - كما ترى - هو أثري ايثاري . ولأبي العتاهية .

ولا خير فيمن ظل يبغي لنفسه　　من الخير مالا يبتغي لأخيه

وروى البحتري في حماسته لعبد الله بن معاوية الجعفري .

ارض للناس مارضيت من النا　　س والا فقد ظلمت وجرتا

وروى السبكي في طبقات الشافعية الكبرى لأبي سليمان الخطابي :

ارض للناس جميعاً　　مثل مارضى لنفسك
انما الناس جميعاً　　كلهم أبناء جنسك
فلهم نفس كنفسك　　ولهم حس كحسك

وفي (كامل) المبرد هذا القول : «خير الناس للناس خيرهم لنفسه » قال أبو العباس : وذلك أنه اذا كان كذلك اتقى على نفسه من السرق لئلا يقطع ومن القتل لئلا يقاد ، فسلم الناس منه باتقاء على نفسه .

فدار خصمك ان حق أنار له ولا تنازع بتمويه واجلاب

اذا ماتبينا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم

لايتركن قليل الخير يفعله من نال في الأرض تأييداً وتمكينا

أضيء بالمعروف وأتلق ، وأطلق يمناك فغداً تنطلق .

انظر بين يديك ، واجعل الشر تحت قدميك ، واذا دعا السائل فقل لبيك ، واذا الجأعدوك الدهر إليك فانس حقودك الغبرات(١)، أطعم سائلك أطيب طعاميك ، واكس العاري أجد ثوبيك ، وامسح دموع الباكية بأرفق كفيك .

الرجل كل الرجل من آتى الزكاة ، ورحم المسكين ، وتبرع بما لايجب عليه ، وكره الحنث ، وكفر عن اليمين .

لتكن سماؤك ثرة (٢) ، وثرى (٣) أرضك قريباً ، فنعم الشيء الثراء لمن كسا العاري وأطعم السغبان .

ذرّت (٤) البركة في طعام أكل منه الضعيف ، ونزعت البركة من طعام خص به الغني دون الفقير ، والله مطعم المطعمين . وزر حرام يوقع المحقة في قميص انتسج من حل ، وقطرة الدم تقع في المزادة (٥) فلا يحل منه الطهور .

أرّ نارك لطارقك (٦) ، ولا تؤرها لاحراق الجار ، والله جار (٧) من

(١) الغبرات ، القديمات ، ومنه غبر الجرح اذا انتقض لفساد فيه قديم (أبو العلاء) .
(٢) عين ثرة غزيرة الماء ، وكذلك السحابة ومطر ثرواسع القطر (اللسان)
(٣) الثري: التراب الندي، والثرى الندى (اللسان) وفي الاساس: وبلغت ثرى فلان اذا أدركت ماتطلب منه .
(٤) ذرت نشرت ، بذرت .
(٥) المزادة ظرف من جلد يحمل فيه الماء .
(٦) أرى ناره تأرية : أشعلها ورفعها .
(٧) جاره : مجيره .

لا جار له من المستضعفين . وبرّ في قلبك خير من برّة (١) في يدك ، فاتق الله ، وكن من الأبرار الطاهرين .

قد نفسك إلى الواجب ولو بجرير ، وكد معاديك بأن تجتنب أفعال الكائدين ، ودل السائل لتكون نعم الدليل ، ودم على ماقربك من الأبرار الطيبين ، ودن من فعل خيراً معك فانك مدين .

يابغاة الآثام ، وولاة أمور الأنام ، مرتعُ الجور وخيم ، وغبه ليس بحميد ، والتواضع أحسن رداء ، والكبر ذريعة المقت ، والمفاخرة شر كلام . كلنا عبيد لله .

من بخل بطعام ، فقد بخل بقليل الانعام .

بعدت رائحة قتار ، تظهر تارة بعد تار (٢) . ثم لاينال خيرها الفقير .

النفاق يلبسك ثوب الاشفاق ، والافتقاد يذهب الأحقاد ، والأشر يهلك البشر ، لا كتبنا الله مع الأشرين .

مارّيا قطر (٣) ورائحة حبيب عطر بأطيب من ثناء مستطر (٤) يثني به بر على مبر (٥) .

* * *

تلكم طائفة من أقوال الشيخ ، وفيها التفاؤل كله في الحياة ، وفيها الاثرية — كما أن فيها الايثارية — وكان شيخنا « يلعب بالشطرنج والنرد ويدخل في كل فن من الجد والهزل » كما روى الصفدي في (نكت الهميان) وكان خفيف الروح يدْعب ويفاكه ، ومن فكاهته في احدى رسائله إلى

(١) البرة حلقة من سوار وقرط ، وخلخال من فضة أو ذهب .
(٢) في (الصحاح) : وربما قالوه بحذف الهاء قال الراجز : بالويل تارا والثبور تارا .
(٣) القطر - بضم الطاء وسكونها - العود الذي يتبخر به ، وقد قطر ثوبه ، وتقطرت المرأة ، والعود في المقاطر : المجامر .
(٤) مكتوب .
(٥) أبر الأمور : طلب بها البر والاحسان الى الناس والتقرب الى الله تعالى .

أبي الحسين أحمد بن عثمان النكتي البصري وقد غير هذا اسمه ، وقصر كنيته — هذه النبذة :

« . . . وأهل البصرة (١) (سلمهم الله) ينسبون إلى قلة الحنين ، أليس قد مرت به هذه الحكاية وهي انه وجد على حجر مكتوب :

ما من غريب وان أبدى تجلده   إلا سيذكر عند العلة الوطنا

فكتب تحته إلا أهل البصرة . فاذا كانت تلك سجيتهم مع أهلهم وأوطانهم فكيف بالذين عرفوهم من اخوانهم ؟ والدليل على ماقلت أنه — ادام الله عزه — لم يثبت (٢) اسمي ، جعلني محمداً واسمي أحمد . . . وله أن يقول انه تشبث بالكنية فاستغنى بها عن الاسم . فأما أنا فحفظت اسمه وكنيته ونسبه ، ولم أنس أيامه ولا مذاكرته ، وقد جعلت جواب كتابه نائباً مناب الاجتماع معه . . . وما عبت على أهل البصرة قلة التفاتهم إلى الأوطان وانما وصفتهم بقوة القلوب والأكباد لأن العرب تصف نفوسها بذلك ، أليس قد بلغه قول قتادة ابن مسلمة الحنفي :

يبكى علينا ولا نبكي على أحد   لنحن أغلظ أكباداً من الابل

فكيف استجاز أن يقصر كنية صديقه ؟ أما السمة فغيرها ، وأما الكنية فقصرها ، فانا لله وانا إليه راجعون ! هذا أمر من الله ليس هو من ضعف الشاعر ولا وهن القائل ولكنه من سوء الحظ لمن خوطب والاتفاق الرديء لمن سمي وذكر . . . وانما تغوثت من ذلك لأني قصير الهمة قصير اليد مقصور النظر أي مكفوف ، مقصور في البيت أي لازم له فكأني محبوس فيه . فما كفاني ذلك مع قصر الجسم حتى يضاف إليه قصر الاسم ، لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . لو كنت أطول من ظل الرمح لصرت أقصر من سالفة الذباب (٣) ، قد كدت أمصح في الارض كما تمصح الظلال (٤) . . وقد مدحني بما ليس في ، ولكنه في ذلك على مذهب الخطباء والشعراء ،

(١) البصرة : مثلثة والفتح والسكون اللغة العالية والنسبة اليها بكسر الباء وفتحها .
(٢) أثبت الشيء : عرفه حق المعرفة . وفي الأساس : أثبت الشيء معرفة اذا قتله علماً .
(٣) السالفة . جانب العنق .
(٤) مصح الظل . ذهب .

وزعم صاحب المنطق في كتابه الثاني من الكتب الأربعة أن الكذب ليس بقبيح في صناعة الشعر والخطابة، ولذلك استجازت العرب أن تقول فتفرط . . . »

وما (رسالة الغفران) العبقرية إلا كتاب أماليح وأفاكيه وأهاكيم (١).

وكان الشيخ كلفاً بالحمد والمجد « والثناء على الرجل أحسن الملبوسات (٢) » « وغير ملوم من عشق الثناء لأنه أحسن حبيب مزور وأبقى منفس مذخور (٣) » وقد أعلن ذلك ابن القارح في رسالته المشهورة إلى أبي العلاء :

« . . . ويعلم الله الكريم (تقدست أسماؤه) أني لو حننت إليه (أدام الله تأييده) حنين الواله إلى بكرها، أو الحمامة إلى إلفها، أو الغزالة إلى خشفها — لكان ذلك مما تغيره الليالي والأيام والعصور والأعوام لكنه حنين الظمآن إلى الماء، والخائف الى الأمن، والسليم (٤) إلى السلامة، والغريق إلى النجاة، والقلق إلى السكون بل حنين نفسه النفيسة إلى الحمد والمجد، فاني رأيت نزاعها إليهما نزاع الاسطقسات (٥) إلى عناصرها، والأركان إلى جواهرها . . . »

* * *

وإذا أقام أبو العلاء في عرينه مضرباً فيه (٦)، فقد كان مطلاً على الدنيا — وان خيل أنه تخلى منها — وما كان أخا زهد (٧) فيها، لافكر له في شيء. وكانت شؤون أمته تعنيه أيما عناية، والمتشائم لاتهمه حالة، ولا يبالي بأمر بالة. كتب إلى أبي الحسين بن سنان، وقد أوذم على نفسه الحج (٨)، والعدو يزأر في الثغور :

(١) جمع أهكومة والأهكومة كالأعجوبة من التعجب .

(٢) أبو العلاء في « الفصول والغايات » .

(٣) أبو العلاء في رسالته الى بعض أولياء السلطان يشفع في صديق له كان عاملاً يعرف بالحسين ابن عنبسة . والمنفس كالنفيس ، نفس نفاسة وأنفس انفاساً .

(٤) السليم : اللديغ ، وانما سمي اللديغ سليماً لأنهم تطيروا من اللديغ فقلبوا المعنى كما قالوا للحبشي أبو البيضاء وكما قالوا للفلاة مفازة تفاءلوا بالفوز وهي مهلكة (اللسان) .

(٥) العناصر الأربعة في مذهب القدماء وهي الماء والنار والأرض والهواء ...

(٦) أضرب في بيت: لم يبرح .

(٧) كل من نسب الى شيء فهو أخوه كقولهم اخو سفر واخو عزمات واخو قفار واخو خمر واخو لذة (المخصص) .

(٨) اوذم على نفسه حجاً اوجبه وعم به ابو عبيد : واوذم على نفسه سفراً اوجبه (المخصص)

« . . . وسفر مولاي إلى الحج في هذه السنة حرام بسل . . . وهل سمع في أخبار الصحابة (رحمهم الله) أو التابعين أن رجلاً خرج من مصافة (١) العدو يريد بيت الله الحرام . . . وهو (أدام الله تمكينه) أمين من أمناء المسلمين ، يرهف الشوكة (٢) ، ويستجيد اللأمة (٣) ، ويحصن ماوهى من سور . . . البيت العتيق منذ عصر آدم يزار ويحج ، ماخيف عليه انتقال ولا تحول ، ولا غيره عن العهد مغير . . . أما يعلم أن لأهل البلد أنساً برؤية شخصه واستماع قوله . وما ينبغي أن يكون كما قيل في المثل : (لج فحج) ولو قال وليد لوليد في ليل داج وهو شادث محاج : من يؤجر في مقامه في الديار أضعاف أجره في حج واعتمار ؟ فقال الوليد الآخر : (محمد بن سعيد) لوقع سهمه غير بعيد . وحماية الذمار (٤) أولى من حج واعتمار . . . »

ولما صبأ الفتى طارق (خلده الله في جهنم) .

وفارق دين الوالدين بزائل ولولا ضلال بالفتى لم يفارق (٥)

أرسلها (لزومية) صاعقة مجلجلة أحرقت ذاك المضلل . وهذه اللزومية — وهي واحد وعشرون بيتاً (٦) — توضح فرط عنايته بأمته واستمساكه بنحلته ، وتنبئ بأنه كان يداخل القوم في أحوالهم وان كان جليس نفسه (٧) .

* * *

اقرأ كلامي إذا ضم الثرى جسدي (٨) فانه لك ممن قاله — خلف (٩)

محمد اسعاف النشاشيبي

---

(١) صافه فهو مصاف اذا رتب صفوفه في مقابل صفوف العدو ، والمصاف — بالفتح وتشديد الفاء — جمع مصف وهو موضع الحرب الذي تكون فيه الصفوف (اللسان) .

(٢) الشوكة : السلاح . رهف السيف وأرهفه : رقق حده ، شحذه .

(٣) اللأمة : الدرع المحكمة الملتئمة .

(٤) الذمار كل مايلزمك حمايته والذود عنه . في الاساس : هو حامي الذمار اذا حمى مالو لم يحمه ليم وعنف من حماه وحريمه كقولهم حامي الحقيقة .

(٥) أبو العلاء .

(٦) ذكر الشيخ طارقاً هذا في لزومية اخرى وفيها التوبيخ الشديد والذم البليغ .

(٧) فلان جليس نفسه اذا كان من أهل العزلة .

(٨) أبو العلاء .

(٩) شاء صاحب هذه الكلمة ان يتلو في الحفلة قسماً منها لأن الوقت لا يتسع لتلاوتها كلها .

ابو العلاء

١ — مهرجانه

أجل هو يوم الشعر تطغى عباقره ... وتملأ أسماع الخلود منابره
مشي مهرجان الدهر فيه مباهراً ... فخفت له الأفلاك نشوى تباهره
وقام جلال الحق يسعى وأقبلت ... وفود النهى من كل صوب تسايره
وودت دهاقين القرون لو انها ... ميامنه في جيشه ومياسره
ولولا حياء الليل نُصت مواكباً ... عذارى الدجي في حشده وحرائره
ثوى ربه من سدرة الخلد سدة ... يلوذ بهـا ناهي الزمان وآمره
شهاب تحاماه الرجوم وساطع ... من الفجر مغمور به من يناكره
وسيف جلاه الدهر دهراً فلم يجد ... له دولة تسطو به وتشاوره
أذاب اختيال الدهر في كبريائه ... فدانت له أسراره ومجاهره

٢ — ذكاؤه وقوة طبعه

هو الشاعر الأعلى فمن ذا يكابره ... وقد طبق الدنيا فمن ذا ينافره(١)
وماذا يقول اليوم فيه مفوّه ... وقد أثقلت ظهر الزمان مفاخره
ولو نُشرت آي النوابغ جملة ... لأربت عليهـا آيه ومآثره
له يقظات توقظ الوقد في الصفا ... وتبعث ميت الروض يهتز ناضره
وجذوة طبع تترك البحر مارجاً ... ويبصر فيهـا الليل أين مخاطره(٢)
وطبع علا السبع الطباق فأسلست ... له رهبة أو رغبـة لا تماكره
يطأطئ من تيه الكواكب وادعاً ... فتعنو له طوع الهوى لا تعاسره(٣)

---

(١) في المروي أن شعر أبي العلاء بلغ مائة الف بيت وإن كان المدون منه دون ذلك بكثير.

(٢) المارج : الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد او النار بلا دخان . ومخاطره : مسالكه وطرقه.

(٣) أكثر أبو العلاء ، من ذكر النجوم ومظاهر الفلك والشمس والقمر وألوان الطبيعة ووصف الكواكب ومصيرها ، فرادى وجماعات ، إكثاراً أبر به على كل شاعر . —

تتيه بذكراه الليالي وتنتشي حنادسها ما طرَّبَ الحفل ذاكره(١)
فلا تدعوا في الوسع طوقاً فكلنا رعيته في حفله وعساكره

٣ — ثورته على الملوك

تأنق في إكليل مجدك ضافره فرفت على هام العصور ضفائره
ولو ملكت زهر النجوم قيادها لأهوت اليه النيرات تصاهره
تهاداك أعناق القرون ، فتارةً نهوضاً وأخرى يدرك الجدّ عاثره
وما كنت الا الشمس إن غال عارض سناها فمن وشك يبدد غامره
ترفعت عن صوغ المحال وأكبرت لها أُتك ميناً فانقتك جرائره
وأسمعتهم سجع الحمام فردّدوا زئير الضواري العاديات هزابره(٢)
فأصليتهم نار القوافي ورعتهم بكل حديد الطرف قُبٍّ خواصره(٣)

— قال : سبحان من برأ النجوم كأنها در طفا من فوق بحر مائج
وقال : وفي كل شهر تصرع الدهرجنة فتعقد فيه بالهلال التمائم
وقال : زحل أشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد
(١) قال : ينافس يومي فيّ أمسي تشرفاً وتحسد أسحاري عليّ الأصائل
(٢) قال أبو العلاء وقد استشفع به أهل المعرة إلى صالح حين نزوله بجيشه عليها فشفعه بهم ورحل عنها بعد أن وهبهم له :

ولما مضى العمر إلا الأقل وآن لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً إلى صالح وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسد

(٣) القب : جمع أقب وهو الضامر من الخيل ومؤنثه قباء ، والمعنى أن كل بيت من شعر أبي العلاء بصير بعيوب الملوك يكشفها للناس سريع إلى هتك فضائحهم سرعة الخيول الضامرة . فمن ذلك قوله :

وأرى ملوكاً لا تسوس رعية فعلام تؤخذ جزية ومكوس

وقوله :

ساس الأنام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان

وقوله :

رئس الناس بالدهاء فما ينفــــك مصر ينقاد طوع دهاته

اذا زار مختال الملوك تضاءلت ... عليه ثياب الملك وارتاع طائره[١]
وهمت به أجناده وتنكرت ... بشاشتها أبهاؤه ومقاصره
فما في بني حواء غيرك شاعر ... يهاب وتخشى وهو عفٌ بوادره

٤ — هو والناس

ولو كنت ذا زيغ لآن لذي الحجا ... فيعلم أن الزيغ يمحوه قادره[٢]
ولكنه ظلم الورى ليس للورى ... عن الظلم مرتاد تقيهم محاجره
هم الناس ما أعطوا أخا الحق ذرةً ... من الحق الا مصلتات حناجره
فكم ضاع فجر في ظلام نفوسهم ... وغاب أصيل مشرقات زعافره
وكم ضلّ في دهمائهم رائد الضحى ... وأخطأ نجماً قصده ومسايره
ولولا الحقود المستكنات لارتووا ... سراب الفلا أججت لهيباً هواجره
فما أبعد القطب المدى في سموه ... عن الأرض لولا الشر منهم يحاذره

٥ — بيانه وغفرانه

طلعت على الدنيا ظلاماً فشقه ... بيانك حتى أسلمته دياجره
ضربت على الجنان جزية قاهر ... فجاءت بأخبار السماء تواتره
وأفضت اليك الحالكات بغيبها ... مكشفة أحناؤه وضمائره
فهلهلت جلباب الحقائق فانبرى ... أخوها يباديها الهوى وتجاهره
كأن البيان الحر قبلك ما ضفت ... على أحد ، حتى أتيت ، مآزره
ولو كان وحي بعد وحي محمد ... لما كان إلا وحيك السح هامره
جلوت به الاخرى نعيماً وجاحماً ... وصورته حتى كأنك عامره[٣]
وخلدت من «غفرانك» الفذ للورى ... مناهل وحي مفحم من يناظره

---

(١) وقال :

مل المقام فكم أعاشر أمة ... أمرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

(٢) قدر الله الشيء كقدره تقديراً أي قضاه .

(٣) في رسالة الغفران .

٦ – أنفته وشموخه

لكل عظيم جنده ومعاشره   تعزّ به طوراً وآناً تضافره
ونحن بني الآداب جندك لم يكن   لذي صولجان مثله إذ نكاثره
جلالك في كل القلوب موطد   مكين إلى أن يبعث الخلق ناشره
وتاجك معقود على الدهر خالد   يزان به تاج الدجى ويؤاصره
وما زال ركب الدهر حيران تائهاً   ببحرك لا تلفي ملاذاً مواخره
تجاوزت طوق الحاسدين فأقلعوا   وأنى لمجتاز الخضمّ قناطره
وأثّلت للأحرار عرشاً على السهى   تعاورُه في كل عصر أخايره
وأنهضت للأخلاق مجداً وعزة   يحنُّ لها من محور الزهر دائره
تركت المنى للساهرين مع المنى   وصعدت للهم البعيدَ تساهره
وأعرضت عن دنيا الأنام محلقا   الى الملأ الأعلى يناجيك كابره
فما صحت في أعقاب ماض ولاهفا   بلبك للأوطار سؤلٌ تداوره

٧ – اشفاقه على الانسان والحيوان

وسمت الورى نوراً وطرفك موصد   على النور فياض الجوانب نائره
فلو جمحت خيل الصباح جذبتها   أعنتها كي ينقذ الكون باكره
وطفت على الدنيا تواسي حريبها   وتأسو جراح البؤس تدمى معاقره (١)

---

(١) قال : أسأت بعبدك في ضعفه   وحملت ظهرك مالم يطق
وسوف يجازيك رب السماء   فشمر لأحكامه وانتطق
وقال : إذا كسر العبد الاناء فضده   أذاة له إن الاناء إلى كسر
وقال : وابك على طائر رماه فتى   لاه فأوهى بسهمه الكتفا
أو صادفته حبالة نصبت   فظل فيها كأنما كتفا
بكر يبغي المعاش مجتهداً   فقص عند الشروق او نتفا
كأنه في الحياة ما فرح !!   بغصن فغنى عليه أو هتفا
وقال : يا ضارب الجود البطيء وظهره   لا وزر يحمله كوزر الضارب
ارفق به فشهدت أنك ظالم   في ظالمين أباعد وأقارب

ألمتَ لديدان الثرى في حشا الثرى … يململها وقد الظما وتجاوره (١)
ولم تنس عيراً يقرع الضيم ظهره … واشفقت للبرغوث يعقر طامره (٢)
وقمت بعذر الليث يقتات طائعاً … جبلّته في فرسه مايساوره (٣)
وسامحت ذئب القفر بالشاة ساغباً … يعزعه ناب الطوى وأظافره (٤)

٨ – خلوده

محا الدهر الا بعض مس يخامره … لذكراك وارتاد المحجة سادره
فليس على الغبراء أو في سمائها … كمجدك مجد لاتبين مفاقره

---

(١) قال في الفصول والغايات : لتكن أفعالك لوجه الله مااستطعت وعزيز ذلك على سكان الأرض ، ولكن توجد من وراء اجتهاد • وإذا نفثتك الشدائد إلى المفازة ومعك خبط من الأبق ـ أي القنب ـ ومعك ماء وفغرت لك البيداء فم جفر ـ بئر ـ فأصبت منه بغيتك ، فاصنع حوضاً ولو قيد فتر فألق فيه من تزيم ذلك الجفر فما أصابه من وحش أو إنس أو ذي جناح فلك من الله الثواب وإن كنت على أوفاض ـ عجلة ـ فاسق الأرض لينتفع به ولو بنات الصمق ـ الدود ـ ولا ترض جزاء على الحسنة بثلاث •

(٢) العير : الحمار • قال في اللزوم :

لقد رابني مغدى الفقير بجهله … على العير ضرباً ساء مايتقلد
يحمله مالا يطيق فإن ونى … أحال على ذي فترة يتجلد

وقال : تسريح كفي برغوثاً ظفرت به … أبر من درهم تعطيه محتاجاً
كلاهما يتوقى والحياة له … حبيبة ويروم العيش مهتاجاً

(٣) قال في اللزوم :

وماذنب الضراغم حين صيغت … وصيّر قوتها مما تدمي
لقدجبلت على فرس وضرس … كما جبل الوقود على التمي

(٤) قال في عذر الذئب ، وذؤالة علم له :

ولولا حاجة في الذئب تدعو … لصيدالوحش مااقتنص الغزال
وما لذؤالة المسكين صبر … فيعرفه عن الحمل الهزال

وقال : ولوعلمتم بما في الذئب من سغب … إذن لساعتم بالشاة للذيب

وقال : كم غال طاهيك من عفراء فاردة … وذات لونين صارت قوت مكسال
وقدضننت بشاة وهي مرضعة … على أزل فقيد القوت عسال
بخلت أن يتغذى طفله دمها … وأنت شارب لذ الطعم سلسال

ودنياك دنيا لايحيط بكنهها بيان وكون لاتناهى عباقره
صليب قناة النفس ما أضمرت وني لذي لجب مهوى المنايا بواتره
عدوت مدى الاملاك ذكراً وسؤدداً وجزت فما يسطيع مجدك كافره
فما ألف نعمان وكسرى وقيصر يضاهيك مهما عز في الارض ناصره
وأي لظى في ساطع الشمس ساطع له لهب مهما تعالت مساعره
وقد عز ابليساً على الفخر آدم بمجدك واستعلى على الجن فاخره
كما عزت العرباء اذ قام أحمد بني الارض واجتاحت دناها ضوامره
فلا زال مجد الاحمدين مرفرفاً على الضاد نهاضاً بها لا تدابره

٩ — شعره لله والخير والحق والاخلاق

مضى بالقريض الناس في كل مهيع وسخرته للحق يسطع باهره
سموت به عن كل سؤل سوى العلى يساقطها بث الجوى وتشاطره
فلله والاخلاق والبؤس بعضه وللخير والآلام والنبل سائره
لأوشك أن تنسى به الاسد بطشها ويسعى الى الموتور بالثأر واتره (١)
وورد على المحروب مابز غاصب وأصبح عاني الطير عفاً مناسره
وآبت خطى الاقدار يقظى رفيقة وراجع تياه القضاء بصائره
وقوّم من زيغ الزمان فلم تدُر بشرٍّ على أهل الزمان دوائره

١٠ — الدنيا وحقائق الكون في شعره

قريضك تيار الحياة أبيةٌ يموج به منها على الدهر زاخره
وبيت يحج العقل في كل ساعة اليه نبيل نُسكه ومشاعره
طويت به الدنيا فضاقت ولم يضق فيممت شطر الغيب تجلى سرائره (٢)

---

(١) قال :

أيكون رفع للشرور فيلتقي غاو ويقنع بالنبات الضيغم

(٢) قال :

ان لم يكن في سماء فوقنا بشر فليس في الأرض أو ماتحتها ملك

وقال: يجوز أن تطفأ الشمس التي وقدت من عهد عاد واذكى نارها الملك

فإن خبت في طوال الدهر جمرتها فلا محالة من أن ينقض الفلك

فلم يَتَّرِك براً ولا قاع لُجةٍ ولا سابحاً في الجو ينقض كاسره (١)
ولو كان مابعد النجوم مسافرٌ لسار لما أعيت عليه مسافرُه
فما اضطربت في خاطرٍ سانحيـة من الفكر الا في قريضك ساحره (٢)
ولا قذفت كف القرائح معجباً من العلم الا في لزومك سافره (٣)
وما في حشا الاحقاب منحي يروده خيال ولم تهتك لديك ستائره (٤)

---

(١) قال في سقط الزند :

بخرق يطيل الجنح فيه سجوده وللأرض زي الراهب المتعبد
ولو نشدت نمشأ هناك بذاته لماتت ولم تسمع له صوت منشد
وتكتم فيه العاصفات نفوسها فلو عصفت بالنبت لم يتأود

(٢) قال في بقاء المادة وأن لا فناء في السكون :

جسد ثوى إن تفترق اجزاؤه لم ينأ عن فلك عليه مُدار
ولرب أجساد جديرات الثرى بالصون عادت في طلاء جدار

وقال : مضى الأنام فلو لا علم حالهم لقلت قول زهير أية سلكوا
في الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا منه فكيف اعتقادي أنهم هلكوا؟!

(٣) قال في أن الاجسام ليس في طوقها الخروج من الفلك :

ولو طار جبريل بقية عمره من الدهر ما اسطاع الخروج من الدهر

وقال في وحدة مادة العالم :

وبعض ذا العالم من بعضه لولا أياة لم يكن فخت

وقال في ان السكون والظلمة سابقان الحركة والنور في الوجود :

سكون خلت أقدم من حراكٍ فكيف بقولنا حدث السكونُ
والنور في حكم الخواطر محدث والأوليّ هو الزمان المظلم

(٤) لم يعرض الباحثون عن ناحية في عظيم إمعانهم عن الخيال في شعر أبي العلاء ونثره ، ولا انقادت الطبيعة لخيال شاعر في قديم ولا حديث ، عربي أو غير عربي انقيادها لخيال أبي العلاء الجبار وإن من البلاء أن يذهل الباحثون في شأنه عن هذه الناحية فيه على كثرتها واستفاضتها في شعره بله نثره . قال في سقط الزند :

وكم بين ريف الشام والكرخ منهلاً موارده ممزوجة بسمامه
كأن الصبا فيه تراقب كامناً يثور إليها من خلال إكامه
يمر به رأد الضحى متنكراً مخافة ان يغتاله بقتامه
نهاراً كان البدر قاسي هجيره فعاد بلون شاحب من سمامه —

فان نهلت منه العقول وأنهلت   وأخصب ماضي الشعر منه وحاضره
فما في سوى العرباء شعر على الثرى   أوائله طوع لهن أواخره

١١ – شعره دهقان العقول ومعلم القوة

وشعرك دهقان العقول وأنسها   يعاقرهـا خمر النهي وتعـاقره
يثير بها كبراً ويبعث نخوةً   عن الهون وثاباً بها لاتحاوره
تذوب به الشكوى ويننى به الكرى   ويصحو الهوى من بعدما اشتد جائره
حبائك من صافي اللظى حاكها على   بريق الدراري أحوذي تياسره
سرابيل أعيت كف داوود فانبرى   لها عبرزي لاتجـارى خواطره
صواعق تنتاب الطغاة وتنتوي   الى سدة الجبار جهراً تثاوره
وما فتئت جياشة مزبئرة   على الظالم المزهو سطواً تناقره(١)

١٢ – سقط الزند

و سقطكَ مياس المعاطف حالياً   تجلجل في سمع الزمان أسـاوره
ترق حواشي الليل منه وتنثني   برود الدجى شفـافة لاتساتره (٢)

بلاد يضل النجم فيها سبيله   وتثني دجاها طيفها عن لمامه
حنادس تمشي الموت لولا انجيابها   عن المرء ماهم الردى باخترامه
رجا الليل فيها ان يدوم شبابه   فلما رآها شاب قبل احتلامـه

وفي اللزوم :

ودل هجير في زمانك انه   سخائم في احشائه وحقود

(١) قال :

فشأن ملوكهم عزف ونزف   واصحاب الأمور جباة خرج
وهم زعيمهم انهاب مال   حرام النهب او إحـلال فرج

وقال : يسوسون الأمور بغير لب   فينفذ امرهم ويقال ساسه
فأف للحياة واف مني   ومن زمن رياسته خساسه

(٢) قال :

وليل ملى قاراً بقار وأكمه   مراقبة من شهبه حدقاً زرقاً
إذا نشأت فيه الغمامة خلتها   بايماضها زنجية ضمدت عرقا

وقال يصف البرق :

إذا ماالهتاج احمر مستطيراً   حسبت الليل زنجياً جريحاً —

أغار على الأفلاك لم ينس شارقاً ... ولا آفلا لم تنتظمه مغاوره (١)
تعانقه العنقاء شوقاً وتتقي ... معارجه أنى ترامت مطافره
اذا مرّ طيار العنان تلفتت ... نجومٌ وعزّى عاثر البرق زاجره
مشى بالقرون القهقرى فتسابقت ... ُخطاها الى حيث استقرت مصادره
وناسم عصر الجاهلية فانبرت ... يجاذبها اطواقها وتخاصره
كأن ربى نجد َغذَته ولاحه ... هجير الصحارى مائجات ظهائره
اذاقنّع الشيب الجديدين وارتدى ... م السها هرماً مجت شاماً مهاصره

١٣ — العروبة

ملأت خياشيم العروبة نعرة ... تنوخية يزهى بها من تخامره
وسعرت في احشائها الوقد للذي ... يرد لها عرباءها لا تناظره
على أنها العرباء ما كان ضارعاً ... أخوها ولا لانت لغمز مكاسره
اذا هز من عطفيه زهواً تلفتت ... اليه ُطلى الاقدار طوعاً تؤامره
وان سلّ سيفاً في ُعلى العرب أسرعت ... اليه المنايا باسمات تباصره
لعمرك ماالعرباء الا بقيةٌ ... من المجد َطماح َ الذوائب غابره
وذروة صرح من اباءٍ ونهلةٌ ... من العز لا يسطيعه من يكابره

— وقال: فكأني ماقلت والليل طفل ... وشباب الظلماء في عنفوان
ليلتي هذه عروس من الزنـ ... ـج عليها قلائد من جمان
وقال: ومنهل ترد الجوزاء غمرته ... إذا السما كان شطر المغرب اعترضا
وردته ونجوم الليل وانية ... تشكو إلى الصبح أن لم تطعم الغمضا
(١) قال:
وسهيل كوجنة الحب في اللو ... ن وقلب المحب في الخفقان
مستبد كأنه الفارس المعـ ... ـلم يبدو معارض الفرسان
قدماه وراءه وهو في العجـ ... ـز كساع ليست له قدمان
يسرع اللمح في احمرار كما تسـ ... ـرع في اللمح مقلة الغضبان
ضرجته دماً سيوف الأعادي ... فبكت رحمة له الشعريان

١٤ – وفاء الشام للعروبة

ليهنئك أن الشام يقظى مساعره ... وفيٌّ بعهد الضاد ريّا أواصره (١)
حفي بما يرضي العروبة ناهض ... بأمجادها باديه عفواً وحاضره
منيع الذرى الأعلى من يؤاصره ... ويأسوه في لأوائه ويؤازره
يكفكف من طغو الطغاة فان عتوا ... نزا فاستقلت بالطغاة مقابره
يمير نفوس العرب في كل مربض ... اباء ويعروري المهالك حاسره
وكانت له في دولة الشعر دولةٌ ... حمى سرحها في الشرق والغرب شاعره (٢)
تلاقت على عربائها فهي نُزَّعٌ ... الى عزها امصاره وعشائره
وهبَّ به من عبد شمس وهاشم ... وغسانَ ارثٌ واقدات مشاعره
شرىً مائج باليعربية لم تلذْ ... بغير حماها منذ كانت معاشره
قضى حقها طلق الخطى جاهلية ... وعزَّت بآي الذكر منها منائره
ولم ينس للانجيل حقاً ورحبتْ ... بتوراتها عطفاً عليه حظائره

١٥ ترفعه عن اللحن

أنفت لذات الضاد لحناً وركةً ... فجنبته والمرء ماشاء هاجره (٣)

(١) قال:

إذا الشعرى اليمانية استنارت ... فجدد للتآمية الودادا
فللشام الوفاء وإن سواه ... توافق منطقاً غدر اعتقادا

(٢) المراد الشعراء الثلاثة: أبو تمام والبحتري والمتنبي الشامي بمنشئه وثقافته وأدبه وحياته إلا مولده في الكوفة فكل واحد من هؤلاء كان شاعر عصره:

(٣) قال:

كلت باللحن أهل اللحن أونسهم ... إذ كان عيبي عند القوم إعرابي

وقال:

أين امرؤ القيس والعذارى ... إذ مال من تحته الغبيط
استنبط العرب في الموامي ... بعدك واستعرب النبيط

وقال:

تشابه التجر فالرومي منطقه ... كمنطق العرب والطائي مرطان
فسد الأمر كله فاتركوا الاعراب إن الفصاحة اليوم لحن

فهجنت حوك البحتري واحمد ... وهجت حبيباً لاتقيه معاذره (١)
فلو نهضت قحطان غضبى لفصحها ... لكنت فتاها الاحوذي تظاهره

١٦ - ثورته على النحاة

تلاعب بالنحو النحاة فصرفت ... قضاياهُ في اغراضهم وعناصره
تواصوا بالا تستباحَ سرائره ... وأن يتوارى لبه وجواهره
أقاموا له منهم شداداً تحوطه ... وتسهر في ارهاقه وتباكره
عنت لهم الدنيا ملوكاً وسوقةً ... به وزهت بالناهبين محاضره
وسيقت الى داراتهم مطمئنة ... زبارج تبر رائعات محاسره
وأصبح نحو العرب في حوز عصبة ... شعوبية أرباحه ومتاجره
فكشفت من احوالهم كل فاضح ... وأحللت كلاً حيث تبدو مناحره (٢)
وسلطت أقحاح البداة عليهم ... لدى موقف ينسى به الوزر وازره
وفقهت أقيال الملائك بالذي ... أناءت حيازيم النحاة محابره (٣)
وبصرتهم بالقول نقداً وحكمة ... وفلسفة حتى استمرت مرائره
وأوسعت سكان النعيم مآدباً ... يحقق شعر العرب فيها أكابره (٤)
هززت جنوب النائمين فابصرت ... عقول وكانت في دجى عزّ حاسره

١٧ - أنا والنحاة بعده

وأسهرت من جفني عشرين حجة ... بهم ولهم أحيي الدجى واحاضره
وأظفرتني منهم بما لاتسرني ... به متع الابريز تزجى غرائره

(١) إشارة الى [ذكرى حبيب] و [عبث الوليد] و [معجز أحمد] ثلاثة كتب للمعري في النقد على دواوين الشعراء الثلاثه المذكورين أبي تمام والبحتري والمتنبي •

(٢) أكثر هذا — غير ما في اللزوميات وما يمكن أن يكون في كتابه [الحقير النافع] — في رسالتي الغفران والملائكة فما قاله في اللزوم :

أرى ابن أبي اسحق أسحقه الردى ... وأدرك عمر الدهر نفس أبي عمر
تباهوا بأمر صيروه مكاسباً ... فساد عليهم بالخسيس من الأمر
بكسوة برد أو باعطاء بلغة ... من العيش لا جم العطاء ولا غمر
ولم يصنعوا شيئاً ولكن تنازعوا ... أباطيل تضحي مثل هامدة الجمر

(٣) في رسالة الملائكة •

(٤) في رسالة الغفران •

فذللت منه كل أصيد شامس ودمثته حتى تألف نافره
وعقلته بعد الجنون كأنني ـولم ابتدعْ فيه الرجاحةـ فاطره
وأعطى يداً بعد الجماح فاذعنتْ شوامخه واسترجع البشر زائره
على أنه مازال من اجرائهم عباديد تخشى ان يجدد داثره
سجية شرٍ بارحيٍّ يثيرها على الضاد ثأرٌ لا تواري فوائره

١٨ - الختام

اليك امام القارضين تساوقت تجاوز طوق المدعي وتصابره
فلو أبصرتْ عيناك حالي وقد بدا سهيل وشاب الليل الا غدائره
أصادي منَ أسراب القوافي كتائباً يبادرني أبّاؤها وأبادره
لأيقنت أني قد سريت وُخلفت لخول عن الاوج الذي انا سامره
وأن لشعري في الصفا متفجراً يهب له من راقد الترب ناخره
وما صدقت رب القريض قريحة تجشمه شم الذرى وتغادره
على أنه والدهر لاتنقضي له عجائبه قد يكسر الشعر جابره

تناهبت الادواء ذهني فلا تلمْ يراعي فقد ندت عليه ضرائره
وأخمدنَ طبعاً كان مرتاد قابس ونجمة مغوار تلظى مخامره
وما كان شيطاني بليداً ولا هوى الى وطرٍ تنعى عليه معايره
أبي ماوراء الغيب وهمي لعله يعاود طبعي وقده وبواكره
وحكّم بناني بالشموس فرائداً وبالفلك الدوار ترغو هوادره
فما في قريض الارض أوفي لغاتها معاذٌ لمن يوفيك ماهو ناذره
وما أنا الا صوبُ مزنك هامراً وروض توالت بعدِ عد مواطره (١)
نقمت غليلي من خضمك حقبة أتت بالربيع الفخم تزهو حبائره
فان جئت سباقاً فشكر زججته وقد داعرفنا اكرم الروض شاكره
وعلمتني أن أصحب اليأس راضياً سعيداً وبعض اليأس ينم ذاخره
يمزق جلد الصبر صبري على الاسى كأن الاسى في مهجتي شب عاصره
فواهاً لاحرار القريض وحسرة على الشعر عفاً لاتصان مخادره

محمد البزم

(١) العِد بكسر العين الماء الجاري الذى له مادة لا تنقطع ومثله العدان غير أن العامة تنطقه على وزن فدان .

المعري في نظر المستشرقين

أيها المحفل الكريم

ان المجمعَ العلميَّ العربيَّ قد اكسبني شرفا عظيما بدعوته الكريمة لأخاطب هذا الجمعَ الراقيَ في دمشق او هذا المجمعَ العلميَّ الكبير لان هذه المدينة القديمةَ هي مجمعُ العلم العربي حقيقةً كما كانت بأيام الشاعر الكبير الذي نُحيي ذكرَه اليوم . واذا لم يكن لي أملٌ في أن أزيدَ على علم العلماء أو أضيف الى معرفة العارفين فاني أرجو ان يكون باستطاعتي ان أجيء بما يساعدُ على فهم هذه الشخصيةِ المعقدة .

أبو العلاء بنظر مستشرق

وكان يجوز أن أتناولَ هذا الموضوعَ من جهتين أولاً من وجهة نظرِ المستشرقين كمرجليوث ونيكلسون وفون كريمر وآخرين من الدارسين والباحثين في الغرب . أو ثانيا من وجهة نظري الخاص . أما المسلك الأول فالأدباء في الشرق مُنذُ سنين كثيرةٍ قد عرفوا دروس هؤلاء المستشرقين والاستاذ طه حسين تكلم فيها بكتابه المشهور . لذلك أستغني عن ذكرها هنا . اما المسلك الثاني فله فائدةٌ واحدةٌ وواحدة فقط وهي أن تكونَ هذه الكلمةُ محاولةً مخلصهً لتقدير عبقريةِ أبي العلاء وأهميتهِ لهذا القرن ولا مناص للمستشرق حين يدرس كُتبَ المعري من أن يتعرض للعناءِ والجهدِ لبعده عن اسلوب هذا الأديب الغريب وتعمقهِ الشديد : لأنه رمز الى كل فنون العلم من عادات الجاهلية وأخلاقها الى مجادلات الفلاسفة في عصرهِ ويجب على الباحثين ان يكونَ لهم علم بالفقه والتوحيد والفرائض والنحو والعروض والتأريخ . فاني بعد ما اجتهدتُ غاية الاجتهاد شعرتُ بقصوري الذي أعتذر عنه : ومع ذلك فمن حُسن الحظ انَّ كلَّ شاعر كبير لم يكن يَقصر شعرَه على امتهِ وجيله فقط بل كان يكتب شعره لكل الناس بكل الأزمان . وإن يكن أبو العلاء شاعراً عربياً فهو شاعرٌ عالميٌّ ايضاً واسمه وصيته

مشهوران في الغرب لذلك رغماً عن الصعوبات المشار اليها فباستطاعة المستشرق ان يكوِّنَ نظرةً عنه إنْ لم تكن شاملةً فهي عامة على الأقل وباستطاعته ان يقدرَ عبقريتهُ وحقه ومكانته بين الشعراء الذين كان شعرهم ورسالتهم الى كل العصور وكل الامم . والمستشرق لايزعجه جحدُ ابي العلاء لصحة النبوات والديانات عامةً لانه يعرف سوءَ حالة الحياة الدينية والخلقية في عصره . ومن يدرس شعرَ المعري لا غِنيً له عن الشعور بهمومه وأحزانه اذا كان يريدُ ان يستفيدَ من فكرهِ العميق ، ويجب ان يتعمقَ هذا الشعورُ بالباحثِ حتى يصلَ الى شخصية الشاعر ونفسهِ : فيرى كمن لم يرضَ بدنياه ولم يجد عذراً للتناسل ولا سلوى بديانات عصره . وليس على القارئ شرقياً كان امستشرقاً الذي ليس له عطف على عبقري غارقٍ في بحر الظلمة والشك إلا ان يطوحَ باللزوميات فهي مضرّةٌ له لانافعة . والعالمُ الذي يدرس هذا العبقريَّ بروح العطفِ يقوم قائلاً إنَّ هذا الرجلَ ليس من القرن الرابع للهجرة بل من الرابع عشر . يذكر ذلك العالمُ ان هذا الشاعرَ لم يرَ ولم يقرأ كتب ادباء زمانه مثلَ أبي علي بن سينا والبيروني وبديع الزمان الهمذاني والثعالبي وابن حزم والباقلاني وآخرين . ولكن على هذا فما اكثر أدبهُ وما أعلمه فانه بكل حياته مااستغنى عن قارئٍ ولا فاته حفظُ ماسمع ؛ بينما لنا نحن في هذا الزمان كتب ومكاتبُ ودائراتُ معارف وقواميس . ولكن لاينبغي أن اطيل الكلامَ بعمى الشاعر لان زماننا كرم بكاتب (ويبقى الدهر ما كتبت يداه) تكلم من سجن أبي العلاء كلماتٍ تستحق إعجابنا واحترامنا .

اما أبو العلاء فإنَّ احوالَ عصره قدبغضته الحياةَ .سفكُ الدماءِ سغبٌ رُعبٌ كانت حوله دائماً . قال التغري بردي: «عمَّ الوباءُ والقحطُ بغداد والشام ومصر والدنيا وكان الناس يأكلون الميتة (١) ولكن بعد سنين قليلةٍ مات رجل وترك وصيةً على الف الف دينار غير المتاع والقماش والجوهر (٢) هذا مما كان سبباً لتشاؤم أبي العلاء ويمكن ان الزلازل التي هدمت ابنية الشام وقتلت سكانها أتمت تشاؤمه وقال :

لم يقدُر اللهُ تهذيباً لعالمنا فلا ترومنَّ للاقوام تهذيبا
ولا تصدق بما البرهان يُبطله فتستفيد من التصديق تكذيبا

(١) النجوم الزاهرة ٢٤٢١٩
(٢) « « ٢٤١٠٦

إنْ عذب اللهُ قوما باجترامهم فما يريد لأهل العدل تعذيبا

تُظهرُ هذه الابيات تمرداً على قدر الله او على الاقل نقدَ تصرّفه تعالى في عالمه . فإن لم يقدر الله تهذيبا للعباد فلماذا ارسل انبياءه ورسله (عليهم السلام) وإن لم يعذب قوما باجترامهم فيلزم ان يقال هلكت عاد وثمود بأسباب طبيعية وقد سلك المعري مسلك من نفى ان سببَ الألم هو الإثم والمعصية لان العادلَ يُعذب مع الظالم بلا فرق . ويكون هنا مُشكلة قديمة وجدت بأسفارِ البابليين اعني لماذا يعذبُ العادلُ في الدنيا ولماذا أفلحَ الظالم . وتكون هذه المشكلة موضوع كتاب أيوب باللغة العبرانية ويقول :

« انّ الكاملَ والشريرَ هو يُفنيها »

وكلاهما راما ان لم يولدا

وليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من امه النفساء

وأيضاً

والحال ضاقت عن ضمها جسدي فكيف لي ان يضمه الشجب

ماأوسعَ الموتَ يستريح بهالجسـ مُ المعنى ويخفتُ اللجبُ

وقال أيوب :

« لِمَ لم أمت من الرَحم عندما خرجتُ من البطن لِمَ لم اسلم الروح . لماذا اعانتني الركبُ ولِمَ الثديّ حتى أرضعَ لاني قد كنت الآن مُضطجعاً ساكنا . حينئذٍ نمتُ مستريحا . »

إنّ روحَ المعري لم تكن روح مؤمنٍ بالنبوات : وروح النبي أيوب لم تكن روح مؤمنٍ بان الألمَ نتجَ عن الخطيئة ضرورةً . وبلغ كلاهما غاية واحدة وهي الله تعالى وتبارك . ولقد قال النبي أيوب بعد الرؤيا « بسمع الأذن قد سمعتُ عنك والآن رأتك عيني . لذلك أرفض وأندم في التراب والرماد » .

وقال المعري : أزول وليس في الخلاق شك .

ولأختصر فان أسوأ القول الافراط إذ لايمكنني بحديث قصير ان أذكر الا مسائل قليلة من أدب المعري وهذه المسائلُ تتضمن بكلمة واحدة كان المعري محدثاً . وكل عبقري يولد قبل زمانه وما كان المعري شاذاً . فيلوح انه كان شاعر المستقبل باعتبارنا تعليمه العقلي والاخلاقي والسياسي والديني .

العقل

مدح العقل وكرمه بقوله :

اذا تفكرت فكرا لايمازجه   فسادُ عقلٍ صحيح هانماصعبا

ويقول :

نهاني عقلي عن امور كثيرة   وطبعي اليها بالغريزة جاذبي
ومما أدام الرزءَ تكذيبصادق   على خبرةٍ منا وتصديق كاذب

وأيضاً :

ولا تطفئوا نور المليك فانه   مُمتعُ كلٍ من حجىً بسراجِ

ومع ذلك ماكان المعري مصلحاً فقد منعه من ذلك عماهُ فزاد تشاؤمه :

واللب حاول ان يهذب أهله   فاذا البريةُ مالها تهذيبُ
من رام إنقاءَالغراب لكي يرى   وضح الجناح أصابه تعذيب

الأخلاق

ان الأحوال الاجتماعية في عصره قد بغضت أبا العلاء في الدنياولكن لم تبغضه في الأنسان بل بالعكس زيد رفقه به . اما نفسه فقد كان ألمه ضروريا من طبيعته ورجا مكافأة في الآخرة .

أأخشى عذابَ الله والله عادل   وقدعشتعيشالمستضام المعذب

واما الناس عامةً فله نظران متناقضان في أمرهم اوّلا أنه أصلح لهم أن لم يولدوا وثانياً أن السعادةَ في الدنيا ممكنةٌ لهم إن اصلحت أحوال الحياة وترتبت أخلاقهم على اصول العدل واللطف والحقيقة . فعذابُ أبي العلاء الضروريُ بغض اليه عذاب الناس اللا ضروريّ وهجم على كل من أضر النـاس على أي وجه من الوجوه. مثلاًهجم على المفتري والواشي والنمام والفتان الذيناثاروا عدواةً بين الناس بألسنتهم المسمومة .

لسان الفتى يدعى سناناً وتارةً   حساماً وكمن لفظةضربت عنقا

وقال ايضاً :

يقول لك انعم مصبحاً متوددُ   اليك وخير منه أغلبُ أصبحُ

فيظهر من البيت التالي أنه لو كان للمعري استطاعة لـكان مصلحاً فعالاً لا ناقداً محضاً .

لو كان لي امر يطاوع لم يعش   ظهر الطريق يد الحيـاة منجم

فوصفه لهذه النسور من خاصية سخريته مع بغضه للخدعة والكذب .

سألت منجمها عن الطفل الذي   في المهد كم هو عائش من دهره
فاجابها مائة ليأخذ درهماً   وأتى الحمامُ وليدها في شهره

وسخر من التجار في الاسواق الذين ضايقوا الفقراء واعتذروا عن غلاء بضائعهم وقال :

يا تاجر المصر ما انصفت سائمةً   كذبتها في حديث منك منسوق
إن تشك قطع طريقٍ بالفلاة فكم   قطعت من قبلُ طرق الناس في السوق

السياسة

وما من شك ان أبا العلاء كان ديمقراطيا عصرياً وبيانُ ذلك بما قال في الملوك واولي الامر وهو أن يجلسوا على كراسيهم ليهديَ رعيتهم ويحق عليهم إصلاح الرعية فليسوا الا نوابهـــا . وليس من المستحيل ان هـذه الروحَ كانت احيـاءَ الديمقراطية القديمة العربية ولكن على كل حال تجسمت هذه الروح بصورةٍ حادثة في قوله :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها   فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

واما البيت التالي فلو كان كتب باللغة الانكليزية لقال القارئ هذا من شعرِ شاعرنا ملتون وتاريخه القرن السابع عشر .

وأرى ملوكاً لاتحوط رعيةً   فعلامَ تُؤخذُ جزية ومكوسُ

أو

اذا ماتبينا الأمور تكشفت   لنا وأميرُ القوم للقوم خادمُ

وقد تكلم كثيرٌ من الكتاب في حقوق الملك على رعيته وحقوق الرعية على ملكها ولا أعرف من يشارك المعري في هذه الجزأة . فمن الواضح انه إنْ لم يدفع القومُ اجرةً لملكهم فبمقدورهم ان يحرموه منها ويخلعوه . وهذه ديمقراطيةٌ محضةٌ ولكن أبا العلاء ما كان فوضوياً بمعنى انه كان عدوَّ الحكومة ذاتها فذكرَ الناس أن اولى الامر كانوا نافعين رغما عن معايبهم .

واخشَ الملوك وياسرها بطاعتها   فالملك للارض مثل الماطرِ الساني
ان يظلموا فلهم نفعٌ يعاش به   وكم حموكَ برجلٍ أو بفرسان

فللمعري نظرٌ سليم بالهيئة الاجتماعية وعلم الناسَ ان الهيئةَ الاجتماعيةَ يجب

عليها أن تكون جسما واحداً لانّ الجسمَ مركبٌ من أعضائه المختلفة وان بعضاً واجبٌ لبعض وإن لم يشعرْ بتعلقه او ملازمته المتبادلة والمشتركة وتراه يقول :

والناسُ بالناس من حضر وباديةٍ — بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ
وكلُ عضوٍ لامرٍ ما يمارسهُ — لامشيَ للكفِّ بل تمشي بك القدم

الدين

كان أبو العلاء محدثا في فكره. وفائدتهُ وخدمته للحياة الدينية هما بتشديده على التسامح والتعقل فكراً وعلى الإخلاص عملا . لذلك نظر الفرقَ بين الفرق والاختلافات بين الديانات نظرةَ عاقلٍ وانساني وفي رأيه ان الاختلافات بين المذاهب المختلفة والفرق كالاشاعرة والمعتزلة والجبرية والمرجئة تدلّ على وجوب ترددِ العاقل في قبول اخبارها ، فليست الاختلافاتُ بين الديانات مهمةً حذاءَ الأصول الأساسية وهي الاعتقادُ بالله والعمل بالعدل والمعروف . ويظهر احياناً انه شكّ في حقيقة الديانات كلها .

هفت الحنيفةُ والنصارى ما اهتدت — ويهودُ حارتْ والمجوس مضلله
اثنانِ اهل الارض ذو عقلٍ بلا — دينٍ وآخرُ دينٌ لاعقل له

وقبل أن نذمهُ يجب علينا ذكرُ ماقال الامام الغزالي : الشكوك هي الموصلةُ الى الحق فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال . ومع ذلك ما بقي المعري في عمى وضلال فقال بنفسه .

ازول وليس في الخلاق شكٌ — فلا تبكوا عليَّ ولا تبكوا
خذوا سيري فهن لكم صلاح — وصلوا في حياتكم وزكوا
ولا تصغوا الى اخبار قومٍ — يصدقُ مينها العقلُ الاركّ

ويظهر لي ان المعرّي كان بموضع كثيرين من المثقفين اليومَ بانه مدح دينهُ خاصةً وفضله على الاديان عامةً ومع ذلك اعتبر ان ليس في الدنيا دينٌ بقي على ماتركه نبيهُ . وكل الاديان نمتْ وتغيرت بتاثير الاخبار والعادات والنواميس وهي اثارت الحروبَ والعداوة : واما الانبياء فهم أنذروا الناسَ بها . لذلك المعري هاجم أخبار الأولين من جهتين (اولا) نفى صحيحها تأريخياً وعقلياً (وثانياً) قال بانها اسبابُ الحروب بين أممٍ يجب عليها احترامُ بعضها لدين البعض الاخر واما الاول فقال :

جاءت احاديثُ إن صحت فان لها ... شأناً ولكنَّ فيها ضعفَ إسناد
فشاور العقل واترك غيره هدراً ... فالعقل خيرُ مشيرٍ ضمه النادي

وأيضاً .

هل صحَّ قولٌ من الحاكي فنقبله ... ام كلٌّ ذاك اباطيلٌ وأسمارُ
اما العقولُ فآلت أنه كذبٌ ... والعقلُ غرسٌ له بالصدق إثمار

واما الثاني فقال :

إن الشرائع ألقت بيننا إحناً ... وأورثتنا أفانينَ العداواتِ

وايضاً

غدا اهلُ الشرائع في اختلافٍ ... تقض به المضاجعُ والمهودُ
فقد كذبت على عيسى النصارى ... كما كذبت على موسى اليهودُ
ولم يستحدثِ الأيامُ خلقاً ... ولا حالت من الزمنِ العهود

وما كان نظر المعري في الدين الصحيح ؟ وما كان أمله للمستقبل ؟ وبكلمة لقد كان رأيه الاعتقاد بالله تعالى هذا الاعتقادُ الذي يُظهر بالإنصاف والعدل والمعروف

الدينُ إنصافك الاقوام كلهمُ ... وأي دينٍ لابي الحقَّ إن وجبا

وما هذا الا معنى الامام الغزالي بقوله ومن ظن ان سعادةَ الاخرة تُنال بمجرد قوله لااله الا الله دون تحقيقه بالمعاملة كان كمن ظن ان الطبخ يحلو بقوله طرحتُ السكرَ فيه دون أن يطرحه . فسخر المغري المتمسك بظاهر الدين دون حقيقته وقال :

توهمت يامغرور أنك دين ... عليَّ يمين الله مالك دين
تسيرُ الى البيت الحرام تنسكاً ... ويشكوك جارٌ بائسٌ وخدينُ

وأخيراً تسمعُ اشتياقه لهيئةٍ اجتماعيةٍ صالحةٍ مطهرةٍ من الظلم والعداوة .

متى يقوم امامٌ يستقيدُ لنا ... فتعرفَ العدلَ أجبالٌ وغيطانُ

وأيضاً .

مرآةُ عقلك إن رأيت بها سوى ... مافي حجاك أرته وهو قبيح
أسنى فعالك ماأردتَ بفعله ... رشداً وخيرُ كلامك التسبيحُ

فلتكن كلمةُ التسبيح آخر كلمةٍ أقولها والسلام .

الفريد غلبوم

ابو العلاء المعري

وآراؤه في الاصلاح الاجتماعي

في الحق من الذهب ثلاث خلال ، حسنه ، وثقله، وبقاؤه على الأبد بغير تغيير، الا ّ ان الذهب كثير الراغب ، والحق قليل الراغبين .

لقد صدق شيخنا المعري ـ رحمه الله ـ فان الحق على حسنه ، ثقيل على النفوس، قليل الراغبون فيه من الناس ، لذلك كان المصلحون قليلاً عديدهم ، لأنهم يدعون الى الحق فتثقل دعوتهم على النفوس، وينصرف عنهم الناس، ويكثر الطاعنون فيهم، المفتأتون عليهم. فيجبن عن قول الحق والدعوة الى الاصلاح، الا من أوتي الايمان الصدق، والعقيدة الحق . وهؤلاء قليل ماهم ، في كل قرن وعند كل جيل .

والزمن يدور دورته ، ويسير الناس قدما في قافلة الأيام ، لايملكون لأنفسهم تفكيراً مستقلاً ، ولا وعياً صحيحاً ، وتغلب عليهم العادات الموروثة ، والتقاليد الجارية ، على مافيها من ضرر وسوء، وعوج وأمت؛ حتى يصبح الناس وكأنهم قطع الآلة الصماء ، لايعون ولا يعقلون ينيخ الظلم بكلكله على الصدور ، فتستكين له صابرة، وتتحكم المادة في العقول، فيؤمن بها الناس متعبدين، ويفسد رجال الدين والامارة والسياسة ، فيستسلم لهم الجمهور مذعنين ، ويكون للهوى الغلب على العقل ، فيتبع الناس أهواءهم ، ويتنكرون لعقولهم . وتسير هذه القافلة سيرها الحثيث الى الهوة السحيقة لايقفها واقف ، ولا يعترضها معترض .

ومن ذا الذي يجرؤ في زمن الضعف والخمول ، وغلبة الهوى على العقل ، أن يقف في وجه الظالم المستبد، أو السياسي المشعوذ ، أو المتدين المتلبس ، أو المتمول المتلاعب ، فيقول له : لا ؟ !

انه ان فعل سحقه الظالم بظلمه ، وغلب عليه المشعوذ بشعوذته، ورماه المتلبس بالدين ، بالكفر والزندقة ، وملك عليه صاحب المال قوته ، ففل عزمه، وشل عمله.

وأشق مايلقاه المصلح في اصلاحه ، ان الأمة التي تحتاج الى المصلحين ،

يقفون دونها وقفة المدافع الجبار ، ينيرون سبيلها ، ويرشدون عقولها ، ليسيروها في الطريق السوي ، تكون هي نفسها حرباً عليهم ، يعملون على حياتها ، فتعمل على القضاء عليهم . تقبل على المضلّ ، فتستمع له ، وتعرض عن المرشد وتصم أذنها عنه .

غير أن المصلح المؤمن، يمضي في اصلاحه ، ويستمر على دعوته ، لا يدفعه عما وطن عليه نفسه دافع ، ولا تقفه قوة من قوى الظلم والشعوذة والمال . تسمو نفسه فوق ما في هذه الحياة من مغريات ، فيأنف أن يلتفت اليها .

من هذه الطبقة المصلحة كان شيخنا المعري .

ومن الحق ، ان لا نتعرض لمبادئ المعري الاصلاحية ، ولا لآرائه الفلسفية ، قبل أن نلقي نظرة عجلى على العصر الذي عاش فيه .

عصر أبي العلاء :

أسس العرب ملكهم في الاسلام على العدل : العدل المطلق، الذي لم تعرفه امة من الأمم عرفها التاريخ في غابره وفي حاضره . وكانت الولاية عملاً دينياً يراد به وجه الله وخدمة الأمة ، لا الزعامة الدنيوية واختزان الدرهم والدينار . ثم جعلت هذه المبادئ الدينية الاخلاقية تضعف مع الايام ، وزاد في ضعفها ، انتقال الحكم الفعلي من العرب الى غيرهم من الشعوب والجماعات ، التي دخلت في الأسلام ولم يدخل الأسلام في قلبها فتعرف حقيقته وروحه ، معرفة العرب لها .

فلما كان القرن الرابع الهجري ، كان الأمر قد ساء من جملة نواحيه . وغلب على الخلفاء ، الملوك والأمراء والرؤساء ، فاستبدوا بالأمر دونهم ، وا كثروا من الظلم والعدوان ، حتى كان منهم من يعمل السيف في الناس فيقتل الألوف الكثيرة ارضاء لنزعة الشر في نفسه . فاذا رفع له رافع المصحف وقال له : اتق الله وارفع السيف عن هؤلاء الذين لا ذنب لهم ولا جناية يستحقون بها ما نزل بهم . كان جزاءه : ان يؤخذ منه المصحف فيضرب به وجهه ، ثم يؤمر به فيذبح .

وقد بلغ الظلم ببعض هؤلاء الامراء ، ان كان يحط السروج عن الدواب ، ويجعلها على ظهور الناس ، يقادون بالارسان كما تقاد البهائم .

اما انتهاب هؤلاء الملوك والامراء والعمال والرؤساء للاموال ، وانهابها جماعاتهم وبطاناتهم ، فقد جروا عليها على ما يجري عليه الحاكم الغريب ، في البلد الغريب . أو المتحكم في قومه لا دين له ولا وطن .

وكان من جراء الاسراف في الظلم ، والرغبة في كسب المال من أي وجه كان . واستبداد كل قائد أو أمير بالناحية التي هو فيها ، أن تجزأت المملكة فصارت دولاً بعد أن كانت دولة واحدة ، وانتهى الامر بهذه الدويلات الهزيلة أن طمع فيها الاعداء ، فارتدوا إليها ، واستولوا على كثير من أجزائها ومدنها وأمصارها ، جاعلين من هذه الدول المنفصل بعضها عن بعض مستقراً لهم ، وممراً منها إلى ماوراءها من البقاع . وهل تجزأ وطن من الاوطان أو تمزق قطر من الاقطار إلا ليكون للاستعمار مقراً ، وللمستعمر ممراً ؟..

ويصف المسعودي (ضعف الاسلام في هذا الوقت وذهابه ، وظهور الروم على المسلمين ، وفساد الحج ، وعدم الجهاد ، وانقطاع السبيل ، وفساد الطريق ، وانفراد كل رئيس ، وتغلبه على الصقع الذي هو فيه ، كفعل ملوك الطوائف بعد مضي الاسكندر ... ولم يزل الاسلام مستظهراً إلى هذا الوقت، فتداعت دعائمه، ووهى أسسه ، وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة . . . والله المستعان على مانحن فيه .)

الوجهة السياسية :

بعيد هذه الفترة ، وفي مثل هذه الحال السيئة التي وصفها المسعودي ولد أبو العلاء المعري .

رأى الظلم يحيق بقومه فثار عليه وعلى الظالمين :

وما سرني اني أصبت معاشراً　　بظلم واني في النعيم مخلد

ونعى على الظالم ظلمه ، وفضل عليه المظلوم :

خير من الظالم الجبار شيمته　　ظلم وحيف ظليم يرتعي الذُبحا

ورأى الأثرة وحب الاستعلاء قد ملكا على الناس نفوسهم فراح يدعو إلى المساواة الحق . يسوي بين الهاشمي — وهم بيت النبوة ، والخليفة القائم منهم — وبين الرجل من نسل البربر : الحق واحد ، والناس أمام الحق سواء :

لا يفخرن الهاشمي على امرئ من آل بربر
فالحق يحلف ما علي عنده الا كقنبر

ويؤكد هذه المساواة بان يكشف عن حقيقة الناس ، وانهم خدم بعضهم لبعض ، وان الاعمال موزعة بينهم توزيعاً لايستغني معه واحد منهم عن أخيه وهم أعضاء جسم واحد لايشرف احد منهم احدا .

الناس بالناس من حضر وبادية بعض لبعض وان لم يشعروا خدم
وكل عضو لأمر ما يمارسه لامشي للكف بل تمشي بك القدم

ولا يخرج الملك عنده ، عن أن يكون عملاً من جملة الاعمال الموزعة التي يشير إليها ، ويجعل الملك خادماً للقوم وأجيراً ، لاسيداً وأميراً .

إذا ما تبينا الامور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم

ويعود فيؤكد هذا مرة اخرى بقوله :

مُلَّ المقامُ فكم أعاشر أمة امرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

ولا يقف عند هذا ، بل يحاول أن يدخل اليأس في قلوب الملوك ، ليخفف من هذا الصلف في نفوسهم ، ويضعف من هذا الصيد في رؤسهم :

وكم نزل القَيْل عن منبر فعاد إلى عنصر في الثرى
واخرج من ملكه عاريا وخلف مملكة بالعرا

ويقول فيهم :

افضل من أفضلهم صخرة لايظلم الناس ولا يكذب

ويتحداهم بالدهر :

وارى الملوك ذوي المراتب غالبوا ايامهم فانظر بنفسك من غلب

ثم هو يهون ما هم فيه من ملك، تهويناً يقيم دعائمه على الآباء المحض فيقول :

لكون خلك في رمس اعز له من أن يكون مليكا عاقد التاج
الملك يحتاج الافاً لتنصرهُ والميت ليس إلى خلق بمحتاج

ويزيد على ذلك في تهوين شأنهم فيساوي بين الملك والحطاب :

ما عاقد الحبل يبغي بالضحى عضدا إلا كصاحب ملك عاقد التاج

ويذهب به الغلو في حب المساواة، حتى يقابل بين الملك واضعف الحشرات « البرغوث » ويجعلها سواء في حب الحياة ، وطلب العيش :

لافرق بين الأسك الجون اطلقه وجونِ كندة امسى يعقد التاجا
كلاهما يتوقى والحياة له حبيبة ويروم العيش مهتاجا

ويقرع الامم على تقديسهم الملوك ، وهم قد نكبوا الشعب بما نكبوه به من ظلم وعدوان ، وابتزاز أموال وتمزيق سلطان .

ما أجهل الامم الذين عرفتهم ... ولعل سالفهم أضل واتبر
يدعون في جمعاتهم بسفاهة ... لأميرهم فيكاد يبكي المنبر

ويقول :

كذب يقال على المنابر دائماً ... أفلا يميد لما يقال المنبر

ويهيج الشعب عليهم ، بما يبتزونه من أمواله في سبيل لهوهم وشهواتهم :

فشأن ملوكهم عزف ونزف ... وأصحاب الامور جباة خرج

وينادي بفضل الاخلاق وشرفها على الملك ، وانها خير منه وأبقى على الدهر .

أسر ان كنت محموداً على خلق ... ولا أسر باني الملك محمود
ما يفضل الراس بالتيجان يعقدها ... وانما هو بعد الموت جلمود

هذا إلى كثير من مثل هذه الآراء التي كشف فيها عن حقيقة أصحاب التيجان، وانهم من الشعب لايختلفون عنه في شيء ، الا في هذا الحكم الذي يتولونه، ومن حقه عليهم أن يكونوا لشعوبهم خداماً مخلصين ، فيشرفوا بعملهم ، لابملكهم .

وهذه الآراء ، قد سبق المعري فيها غيره من رجال القرون المتأخرة وفلاسفتها ، الذين قاموا بالثورات على العروش العاتية، فدكوها وأقاموا على انقاضها اسس الحرية والاخاء والمساواة .

وأبو العلاء في كل مايقرره من آرائه الفلسفية الاصلاحية ، يبني قوله فيه على الحق والعقل والمنطق ، لا على النزعة الصاخبة ، والهوى الجامح .

الوجهة الدينية :

واذا كان أبو العلاء ، يرى في الملوك الذين وصفهم ، هذا الشر المستطير الذي اذل نفس الامة ، ومزق وحدتها وسلبها مالها وثروتها ، فهو يرى ان رجال الدين — الا اقلهم — قد خرجوا عن الدين السوي المستقيم بما ابتدعوا من آراء ، وبما احدثوا من مذاهب وطرق ، لاعهد للدين بها ، ولا يرجى صلاح ولا خير معها ، بل هي فيها كل البلاء والشر .

انما هذه المذاهب أسبا ... ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقو ... ن لدمع الشماء والخنساء

وهو يرجع أصل الخلافات الدينية ، والانقسامات المذهبية إلى التنافس في الدنيا وإلى حب الرئاسة :

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت كتب التناظر لا المغنى ولا العمد
قد بالغوا في كلام بان زخرفه يوهي العيون ولم تثبت له عمد
وما يزالون في شام وفي يمن يستنبطون قياساً ماله أمد
فذرهم ودناياهم فقد شغلوا بها ويكفيك منها القادر الصمد

ويحذر الناس من المتلبسين بالدين أن يقعوا في شباكهم :

فلا يغرنك من قرائنا زمر يتلون في الظلم الفرقان والزمرا
يقامرون بما أوتوه من حكم وصاحب الظلم مقمور إذا قمرا
يبدي التدين محتالاً ضمائره غير الجميل إذا ما جسمه ضمرا
يشدو مزامير داوود ويفضله في النسك نافخ مزمار له زمرا

وهو يحمل حملة منكرة على من يجعل من دينه تجارة يتكسب بها :

ولا تطيعن قوماً ماديانهم الا احتيال على اخذ الاتاوات
وانما حمل التوراة قارئها كسبُ الفوائد لاحبُ التلاوات

ويدعو الناس الى الهرب بدينهم منهم :

فاهرب بدينك من اولئك انهم حربوك واحتربوا على الدنيا به

ويهاجم الذين يخادعون الناس ، يعظونهم مكراً ورئاء. وينهونهم عما هم أنفسهم فاعلوه :

رويدك قد غُررت وانت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء
اذا فعل الفتى ماعنه ينهى فمن جهتين لاجهة أساء

ويرى في الدين وسيلة لاغاية ، يراه طريقاً الى تهذيب النفوس ،وتنقية الضمائر، ويرى ان العبادة شيء لايطلب لنفسه، بل هو مالاخير فيه اذا لم يرافقه العمل الصالح:

(اذا صمت عن المآثم ،فعند ذلك صم عن الطعام) .

وعنده : (طهارة الخلد – اي القلب – ابلغ من طهارة الجسد) .

(احجج – كف – كلوم جرائمك، فاذا برئت فاحجج)

ويرى الصوم، في صون اللسان عن المحال، وعن التعرض للناس بالأذى .

اذا القوم صاموا فعافوا الطعام وقالوا المحال فقد افطروا

ويقول :

ان صمت عن مأكل العادي ومشربه فلا تحاول على الاعراض افطاراً

وتارك الصلاة عنده خير ممن يرائي فيها :

اذا رام كيداً بالصلاة مقيمها فتاركها عمداً الى الله اقرب

ورأيه في الدين يلخص بقوله :

ماالدين صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على جسد
وانما هو ترك الشر مطرحاً ونفضك الصدر من غل ومن حسد

وان :

اخو الدين من عادى القبيح واصبحت له حُجزة من عِفةٍ وإزارُ

وان :

الدين انصافك الأقوام كلهم واي دين لآبي الحق ان وجبا

هذا هو الأصلاح الديني الذي دعا اليه أبو العلاء المعري، بعد ان رأى كثيراً من رجاله قد فهموا الدين على غــير حقيقته ، وجعلوه شركاً يتصيدون به منافعهم في هذه الحياة . رمى به الى تفهيم الجمهور روح الدين وسره ، وان الدين جوهر يقوم بما يدعو اليه من خير وصلاح، لا بما يتلبس به منتحلوه من حُلة ووشاح.

الوجهة المالية :

ورأى المعري ان الناس قد غالوا في حب المال ، حتى بلغوا من حبهم له مبلغ العبادة .وليس من شك في ان حب المال هو العامل الأكبر الذي قامت عليه الرغبة في الزعامة والشهرة والمتاجرة في الدين ،واصطناع المذاهب والطرق وخلق الرئاسات وتحطيم الدوله وتمزيقها ، لذلك أراد أن يكون المال وسيلة أيضاً لا غاية ؛ فدعا الناس الى الزهد فيه والتخفيف من تقديسه :

وأفضل من عيش الغني عيش فاقة ومن زي ملك رائق زي راهب

وهو يقول لهم :

أغنى الأنام تقي في ذُرى جبل يرضى القليل ويأبى العيش والتاجا
وأفقر الناس في دنياه ملك يُضحى الى اللجب الجرار محتاجا

وفي رأيه :

يكون أخو الدنيا ذليلاً موطئاً وان قيل في الدهر الاميرُ المؤيد

ويريد للناس أن يكون كسبهم حلالاً :

اذا فاتك الأثراء من غير وجهه فان قليل الحل أولى وأبرك

ويزهد في المال فيقول :

اذا كان جسمي من تراب مآله إليه فما حظي بأني مترب

ولا يرى العزة بالمال ، والذلة بالفقر . لذلك ينصح الفقير أن لا يهون لفقره ، والغني أن لا يتجبر ليسره :

واذا افتقرت فلا تهن واذا غنيت فلا تجبر

وفضيلة الرجل، وقيمة آرائه ، أنه اذا دعا الناس الى أمر من أمور الاصلاح، بدأ بنفسه أولاً . فهو اذ يدعو الناس إلى نبذ المال ، يعيش عيش الكفاف (ينفق على نفسه من دخل معاشه نفقة طفيفة ، وما يفضل عنه يفرقه على أخيه وأولاده واللائذين به وعلى الفقراء والقاصدين له من الغرباء) .

قدم عليه الخطيب التبريزي وأقام عنده مدة يقرأ عليه ، وأعطاه صرة فيها ذهب وقال له : أوثر من الشيخ أن يدفعها الى بعض من يراه ، ليشتري بها خبزاً ولحماً ، وما تدعو حاجتي اليه ، ويجري ذلك علي في كل يوم ، لا تناوله مدة مقامي عنده للقراءة ، وأتوفر بذلك على الاشتغال ، ويتفرغ لي للاستفادة فلا يكون لي شغل غير ما أنا بصدده .

فأخذ أبو العلاء الصرة منه ، ووضعها عنده ، وأجرى للخطيب ما تدعو اليه حاجته مدة مقامه بمعرة النعمان ، والخطيب يظن أنه ذهبه الذي دفعه إلى الشيخ فلما أراد الانصراف دفع اليه ابو العلاء صرته بعينها .

ولم يقبل هدية ولا صلة من شريف ولا وضيع ، وبذل له الوزير الفلاحي خراج معرة النعمان وكتب له سجلاً بذلك ، فأبى أبو العلاء واستعفى من ذلك كله .

قلت : يستمد أبو العلاء آراءه الفلسفية من العقل فيجعله المشير الهادي .

عليك العقل وافعل ما رآه جميلاً فهو مُشتار الشوار

ويقول فيه :

يرتجي الناس ان يقوم امام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما أطعته جلب الرحمة عند المسير والارساء

ويقول :

اذا الانسان فض العقل منه فما فضل الأنيس على النهال

ويريد الناس على أن يحكموا في أمورهم عقولهم :

فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة اذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

ويقول لهم :

لا يدينون بالعقول ولكن بأباطيل زخرف كذبوه

وخلاصة ما يقال في آراء شيخنا المعري ، انه أراد للانسان أن يكون حراً كل الحر ،لا عبداً للملك ، ولا للمال ، حتى ولا للدين ؛ بل عبداً لله وحده :

« كلنا عبيد الله ، فما بال الرجل يقول : عبدي فلان ، والعبودية في عنقه ألزم له من طوق الحمامة ؟ »

نحن عبيد الله في أرضه وأعوز المستعبد الحر

الانسانية وعمل الخير :

وهو يدعو الى انسانية مخلصة ، وغيرية صادقة،بعيدة عن الأثرة وحب الذات، قائمة على الايثار ، وعمل الخير .

أسمعه يقول :

« أطعم سائلك اطيب طعاميك ، واكس العاري أجد ثوبيك ، وامسح دمعه الباكية بارفق كفيك » .

ولا يرى الكرم ولا الخير،في هذه المآدب تقام للأغنياء بطراً وسمعة ،بل يراها في اطعام الفقير .

« واعلم ان الفقراء بطعامك احق من الأغنياء »

ويقول :

« انظر بين يديك ، واجعل الشر تحت قدميك ، واذا دعا السائل فقل لبيك ، واذا الجأ عدوك الدهرُ اليك ، فانس حقودك الغبرات »

ويحض الناس على عمل الخير جهدهم :

فانفع أخاك على ضعف تحس به ... ان النسيم بنفع الروح هباب

ويكرر ذلك فيقول :

لجد بعرف ولو بالنذر محتسباً ... ان القناطير تحوى بالقراريط

ويريد للانسان أن يفعل الجميل لأنه حسن في نفسه ، لا لأجل ما وراءه من ثواب . وهذا أسمى مايكون من فعل الخير .

فلتفعل النفس الجميل لأنه ... خير وأحسن لا لأجل ثوابها

وان يخفي احسانه :

« الزكاة ، تذهب عن المال الشكاة . فاذا زكيت أموالك فاخفها كل الاخفاء . »

ويزيد على هذا فيريد للمحسن أن ينسى احسانه :

إذا مافعلت الخير فانسَ فعاله ... فانك ما تنساه احيي له ذكرا

واذا كان يريد المحسن على أن ينسى احسانه ، فهو يريد المحسن إليه أن لايكون كفوراً ، فيذكر الخير لصاحبه :

عندي لخلي اعظام لمنته ... وانني للذي اوليه محتقر

حضه على العمل :

ويحض الناس على السعي والاحتراف ، ولا يريد لهم الكسل والتوكل باسم الدين :

تروم رزقاً بان سموك متكلاً ... وادين الناس من يسعى ويحترف

ترغيبه في الفلاحة :

وينكر على الناس أن يترفعوا عن الفلاحة والعمل في الأرض ، فيؤنبهم بقوله :

اكرهت ان يدعى وليدك حارثاً ... ياحارث بن الحارث بن الحارث

تلك الصفات لكل من وطئ الحصا ... مابين موروث وآخر وارث

بل يرفع العامل في الملك ، على العامل في الملك[1] : (حارث الارض عند ربه اوجه من الحارث الخراب[2] .)

(١) الملك (بالضم) السلطان (وبالكسر) مايملكه الانسان .

(٢) هو ملك من ملوك كندة .

ويحتقر الصناعة واهلها ، ان يجعلوا منها عدة للحرب :
(فما فضيلة الصَّنَع ، اتخذ قميصاً للحرب ، كبارد الحَبَب أو برد الحُباب.(١))

تواضعه وأدبه :

ويزين هذا الشيخ في دروس الاصلاح التي يلقيها ، هذا التواضع في النفس ، وفي العلم ، يكثر عليه الدليل في شعره وفي نثره . والتواضع الحق صفة من صفات المصلحين . فمنها قوله في ذلك:

«ان معايبي لكثير، فجاز مولاي بالاحسان رجلاً اعلم في بعيب في:اماغيرته، واما سترته ، او عرفت مكانه فاضمرته . لقد منّ عليّ ذا كره منة الا ضبط على الرباب»
وقوله :

من لي ان لا اقيم في بلدٍ ... اذكر فيه بغير مايجب
يظنّ لي اليسر والديانة والعلم ... وبيني وبينها حجب
اقررت بالجهل وادعى فهمي ... قوم فامري وامرهم عجب
والحق اني وأنهم هدر ... لست نجيباً ولا هم نجبُ

ويقول :

او كان كل بني حوآء يشبهني ... فبئس ماولدت في الحضن حوآء

هذه لمحات موجزات عن آراء شيخنا المعري في الاصلاح الاجتماعي من نواحيه السياسية والدينية ، والاقتصادية ، لم يتسع الوقت المضروب ، للاكثار منها ولا التبسط فيها. وهي آراء لاتزال الى يومنا هذا ، على جدتها وطرافتها . ولانزال نحن في أشد الحاجة اليها والى من يبعثها فينا ويعمل بها صادقاً مخلصاً . فيكبح من جماح المستبد ، ويأخذ على يده ـ فرداً كان هذا المستبد ام جماعة ـ ويحد من سلطان القوي على الضعيف ، ومن تحكمه فيه ، ويدفع الضالين المضلين من رجال الدين والسياسة عن ضلالهم وتضليلهم ، ويقف عباد المال من عبادة المال عند حد لا يتجاوزنه ، وينبه الشعوب الى حقوقها والى حرياتها .

ان آراء المعري حق . والحق ـ على ماقال ـ كالذهب حسن ، وتقليل ، ولكنه خالد على الدهر .

عارف النكدي

(١) الحبب ، طرائق الماء ، الحباب جلد الحية .

الحفلة الثالثة في معرة النعمان

على ضريح أبي العلاء

في اليوم الثالث من اسبوع المهرجان (يوم الاربعاء في ٢٧ ايلول ١٩٤٤) أخذ اعضاء المجمع اهبتهم للسفر الى معرة النعمان ، فبكروا الى فندق (اوريان بالاس) حيث اعد المجمع لهم عشر سيارات . فلما تم عددهم وانتظم أمرهم غادروا دمشق مع اعضاء المهرجان في الساعة العاشرة صباحاً .ومضت قافلة السيارات تصعد جبال (القلمون) ، وتقطع أوديتها ، وتتلوى في معاطفها ، حتى بلغت بلدة (النبك) ، فأحب الركب أن يستريح من عناء السفر ، فجلس المسافرون حول عين الماء في حديقة البلدية ، وشربوا القهوة في ظلال الاشجار . ثم انهم لما أخذوا قسطهم من الراحة غادروا(النبك) وانحدروا الى حمص ، فمروا بها — على نية العودة اليها— ، ووصلوا الى حماة في الساعة الثانية بعد الظهر .

وكان السيد خالد الداغستاني محافظ مدينة حماة قد خرج لاستقبالهم ، فاجتمع بهم عند مدخل المدينة ، ودعاهم الى زيارة دار العلم والتربية،فساروا اليها على الاقدام بين الجماهير المحتشدة في الشوارع ، واستمعوا هناك كلمة الترحيب التي القاها المحافظ باسم مدينة حماة . ثم عادوا الى فندق ابي الفداء حيث اعدت لهم مدينة حماة مأدبة غداء فاخرة القيت فيها كلمة باسم بلدية حماة ، وتكلم فيها الدكتور طه حسين، والاستاذأحمد أمين ، والدكتور عبد الوهاب عزام، والاستاذ طه الراوي، والاستاذ اديب وهبي ، عن مدينة حماه ومهرجان ابي العلاء والجامعة العربية والصلات الروحية والمادية التي تجمع اقطار العالم العربي بعضها الى بعض .

ولما انتهت مأدبة الغداء غادر اعضاء المهرجان في الأصيل مدينة حماة ، فوصلوا الى معرةالنعمان في الساعة السادسة قبيل غروب الشمس . وكان نائب المعرة السيد حكمة الحراكي قد أعد لهم احتفالاً شعبياً رائعاً . فاستراحوا قليلاً في دار السيد طالب الحراكي عند مدخل المدينة . ثم ساروا الى ضريح أبي العلاء مشياً على الإقدام والجماهير تصفق لهم وتحييهم . وبلغوا القبر في العشية يحيط بهم اهل المدينة

كبارهم وصغارهم في موكب مهيب لم تشهد معرة النعمان مثله ، وترمقهم اعين النساء من شرفات المنازل بنظرات ملؤها الفرح . ثم انهم جلسوا على المقاعد التي اعدت لهم حول الضريح ، وبدئت الحفلة بعشر من القرآن الكريم اوله : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » . ثم القى الدكتور طه حسين كلمة بدأها بتلاوة ابيات من قصيدة ابي العلاء الخالدة .

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد

واشار فيها الى مذهب ابي العلاء في اعتزال الناس ، وابتغائه الوحدة وحرصه عليها . قال : لقد وجد ابو العلاء ان خير مايصنعه لنفسه في الحياة عزلة تبعده عن الناس . ولكنه لم يكد يبدأ سيرته في الاعتزال حتى اخذ الناس يسعون اليه ويلتفون حوله . فشقي في حياته بالناس . وها هو يشقى بهم بعد موته ، ويخفق في طلب العزلة . لقد سجن نفسه في بيته حباً بالزهد واعراضاً عن المجد ، فهل يرضيه ان يجتمع الناس حول قبره ويقيموا له هذه الاحتفالات لا لعمري لو ترك الأمر لابي العلاء لما اراد شيئاً من هذا .

ولما انتهى الدكتور طه حسين من مناجاة ابي العلاء تلا السيد محمد الشريقي قصيدة الاستاذ معروف الرصافي وعنوانها « شاعر البشر »، وكان شاعر العراق قد أرسلها الى المجمع، وقد حال المرض بينه وبين حضور المهرجان لتلاوتها بنفسه . ثم القى الدكتور مهدي البصير كلمة عنوانها : على قبر ابي العلاء . ولما انتهت الحفلة الخطابية دعي اعضاء المهرجان الى مأدبة عشاء أعدها لهم السيد حكمة الحراكي فساروا في العتمة الى بيته وشهدوا عنده من صنوف الكرم العربي مايعجز القلم عن وصفه .

ثم ان اعضاء المهرجان سروا بعد ذلك الى حلب في ليلة قمراء ساكنة، فوصلوها بعد منتصف الليل. وكان محافظ المدينة لايزال واقفاً بانتظارهم، امام فندق (بارون)، مع لجنة الاستقبال. فاستقبلهم بحفاوة بالغة، ثم أوى كل واحد منهم بعد فترة قصيرة من الزمان الى الغرفة المعدة له في الفندق ، فتوسد الراحة بعد عناء السفر الطويل .

وفيما يلي قصيدة الاستاذ معروف الرصافي وكلمة الدكتور مهدي البصير .

جميل صليبا

شاعر البشر

حيّ هل يا أخا مضرْ | نذّكر خير مدّكرْ
نذّكر شاعر البشرْ | خير من قال وافتكرْ

حي هل ايها الملا | نحيي ذكرى ابي العلا
شاعر شعره اجتلى | صوراً كلها غُررْ

فكره يملأ الفضا | نفسه صعبة الرضا
دونه كل من مضى | دونه كل من غَبرْ

هو بالفكر مذ سما | كان من نوره العمى
طاول الأرض والسما | شارف الشمس والقمرْ

حلّ في ذروة الادبْ | آتياً منه بالعجبْ
لا تقل شاعر العربْ | انه شاعر البشرْ

جعل الشعر وحيهُ | موقظاً فيه وعيهُ
ما ورى فيه وريهُ | قبله كل من شعرْ

حكم العقل واجتهدْ | وتعالى عن الفندْ
هو في القول ما اعتمدْ | غير ما ذاق واختبرْ

شعره شف عن دَها | ما له فيه منتهى
ذو معان هي النهى | وحروف هي الدررْ

جعل الصدق ديدنا | تاركاً هذه الدُنى
ان تناءى او ادّنى | فهو للحق ينتصرْ

عيشه عيش زاهد | نفسه نفس واجد

فكره فكر ناقدٍ مُبعد الفكر والنظرْ

صير الحق ذوقهُ باذلاً فيه طوقهُ
شاعرٌ ليس فوقهُ شاعرٌ من بني البشرْ

خطّ سِفراً به ابتغى غنيةَ الروح بالرغى
جامعاً افصح اللغى حاوياً اكبر العبرْ

شاعرٌ الارض والسما هو بالذكر مذ سما
ابصر الحق بالعمى لم يضره عمى البصرْ

هو بالشعر ان شدا يتجلى لك الهدى
مُدركاً أبعد المدى بالمعاني التي ابتكرْ

جانب الناس واعتزلْ قائلاً انهم هَملْ
شرهم غير محتملٌ خيرهم غير منتظرْ

ما بهم غير حاسدٍ دائب في المكائد
مبتغي كل واحدٍ منهم الجور ان قدرْ

ليس للموت عندهُ من تفاويع بعدهُ
ان عرا الحيّ ردّهُ فاقد الحس كالحجرْ

شعره شعر متقنٍ فيه شك لموقنٍ
فيه كفر لمؤمنٍ فيه ايمان من كفرْ

نحن اسرى ذواتنا خشية من مماتنا
كم وكم في حياتنا مبتدا ما له خبرْ

معروف الرصافي

على قبر أبي العلاء

سيدي حكيم المعرة بل حكيم العرب قاطبة .

ألا ليأذن لي السادة المحترمون الذين حملهم الأعجاب بك والاكبار لك على أن يحجوا إلى قبرك في هذا الموكب الحافل بمناسبة مرور الف سنة على ميلادك ، أن أفرغ لمناجاتك ، وأتجرد لمخاطبتك ، وما أظن بأن الدقائق القليلة التي يسمح لي بها حجاج قبرك الكرام والتي أستطيع فيها أن أناجيك وأن أخاطبك تكفي للاعراب عما توحيه إلي في هذه الساعة ذكراك الخالدة ويثيره هذا المشهد الرائع على قبرك في نفسي من شتى الخواطر والافكار وضروب الأحاسيس والانفعالات .

سيدي أبا العلاء

إن العراق الذي تجشمت اليه الأخطار وركبت له متون الأهوال وقضيت في ربوعه زمناً غير قليل وعاشرت علماءه وأدباءه وشعراءه معاشرة طويلة فعرفتهم وعرفوك وأحببتهم وأحبوك يرفع لك على لسان هذا العاجز خالص ولائه وصادق إعجابه راجياً جميل صفحك إن كان قد وقع له معك في اثناء زيارتك له ما لا يرضيك عنه أو ما لا يرضيه هو عن نفسه شاكراً كريم إحساسك ورقيق شعورك نحوه في قولك مودعاً أبناء عاصمته :

أودعكم يا أهل بغداد والحشا ... على زفرات ما ينين عن اللذع
وكان مرادي أن أموت لديكم ... حميداً فما الفيت ذلك في الوسع

وقولك متشوقاً إلى أصدقائك الأوفياء فيه واليه :

سلام هو الاسلام زار بلادكم ... ففاض على السني والمتشيع
كشمس الضحى أولاه في النور عندكم ... وأخراه نار في فؤادي وأضلعي

يفوح إذا ما الريح هب نسيمها شآمية كالعنبر المتضوع
نعم حبذا قيظ العراق وإن غدا يؤجج ناراً في مقيل ومضجع
فكم حله من أصمع القلب آيس يطول ابن أوس فضله وابن أصمعي
أحن لذكراه وأحفظ غيبه وانهض فعل الناسك المتخشع

إنه لفخر للعراق يا سيدي الحكيم ما بعده فخر أن يترك هذا الانطباع الحميد في نفسك وأن يحتل هذه المكانة الرفيعة من قلبك وأن يظفر بهذا النصيب من ثنائك وتقريظك.

ايها الفيلسوف الكبير

إن الشرق العربي الذي أقمت نفسك مصباحاً له تنير أمامه السبيل وأنت تحترق لجهل فضلك وأنكر فلسفتك واتهمك في دينك وطاردك في أيام حياتك وبعد مماتك ما وجد إلى مطاردتك سبيلاً، قد أدرك اليوم خطأه وتبين إسرافه على نفسه فاستعاض عن خطأه بصوابه وعن ضلالته بهداه وعن غيه برشده وهو اليوم يؤمن بمبادئك ويصدق بتعاليمك ويشعر من أعماق نفسه أنك رسول أمين من رسل المحبة والحنان والرحمة. على أنه إن آمن بمبادئك وصدق بتعاليمك فأنما يؤمن بما فيه خيره ويصدق بما فيه صلاحه وفلاحه. وقد يدهشك يا سيدي الحكيم أنه لم يصحح رأيه فيك إلاّ بعد مرور الف سنة وقد تقلقك منه هذه الأناة في تصحيح الاخطاء فأطمئنك بأن ثقافته قد تقدمت وأن معارفه قد اتسعت وإنه سيقضي من الآن فصاعداً في تصحيح الخطأ الواحد أقل من الف سنة.

ايها الفيلسوف الكبير

إن القرون العديدة التي مرت منذ وفاتك لم تزد مبادئك إلا سمواً وتعاليمك إلا قوة ورسوخاً، «فديكارت» لم يزد على أن كرر للعالم مادعوته إليه مائة مرة من تقديس العقل وتمجيده وتحكيمه في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الدنيا والدين على السواء، وكلمته الشهيرة (أنا أفكر، إذن أنا موجود) ليست إلاّ تكراراً غير مقصود لكثير من أمثال قولك:

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهداً وارحل عنهاما إمامي سوى عقلي

«وروسو» لم يزد في دعوته الى الاصلاح السياسي على أن أيد آراءك

وكرر أقوالك ودعا الناس إلى اعتناق تعاليمك ، إذ كل ما دعا اليه في هذا الباب أو جله هو أن يتمتع الناس جميعاً بحرية الفكر والقول والعمل وأن يكونوا متساوين في الحقوق والواجبات وأن يكون الشعب مصدر السلطات جميعاً اليه يرجع الحكام فيما يدبرون من شؤونه ويصرفون من أموره. لأمره يخضعون وبرأيه يهتدون ، وقد سبقته إلى تقرير هذا كله في لزوم ما لا يلزم . فما أعرف كلمة أبلغ في انكار التحكم في الحريات من قولك :

إذا قلت المحال رفعت صوتي وإن قلت اليقين اطلت همسي

ولا اعرف كلمة أبلغ في تقرير المساواة من قولك :

لا يفخرن الهاشمي على امرىء من آل بربر
فالحق يحلف ما علي عنـــده إلاّ كقنبر

ولا أعرف كلمة أبلغ في تحديد علاقة الحاكمين بالمحكومين من بيتك الجاري على كل شفة ولسان ألا وهو :

ظلموا الرعيةواستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وسبقك الى ما جاء به ديكارت ورسو يعني انك تمثل بعبقريتك التي لا حد لها مدرستين هما من اعظم المدارس الادبية في العالم ان لم نقل أعظمها ، هاتان المدرستان هما اللتان تدعيان « الاتباعية والابتداعية » وأخيراً أفعل تولستوي في تنازله عن املاكه ومشاركته العمال والفلاحين فيحياتهم الخشنة الاّ ما فعلته في تنازلك عن مال المعرة عندما آل أمرها اليك وانفاقه على الفقراء وذوي الحاجة من أبنائها وانت تقول :

سولت لي نفسي أموراً وهيها ت لقد خاب ذلك التسويل
ويقول الغواة خولك الله كذبتم لغيري التخويل
ان حباك القدير كالنيل تبراً فليفضه العطاء والتنويل
لا تعول على أختزان فما للبـــدر الصفر أثر ميت عويل

أما رأيك في الناس فلا يمر عصر أو جيل — أستغفر الله — بل لا يمر يوم حتى يقوم البرهان تلو البرهان على انه صحيح كل الصحة مصيب كل الاصابة فليس من شك في أنهم اليوم كما كانوا على عهدك وكما كانوا منذ

وجدوا على ظهر هذه البسيطة أهل لما سددت اليهم في سقط الزند ولزوم مالا يلزم من سهام نقدك الجارح خلقاء بما وصفتهم به من حرص على المال وتهافت على الجاه وتكالب على المطامع والشهوات . لم يعصمهم علمهم من رذيلة ولم يطبعهم على فضيلة ، قد كبرت عقولهم وصغرت نفوسهم واتسعت مداركهم وضاقت افئدتهم ، وحسنت مظاهرهم وساءت سرائرهم ، وقد جرفتهم مطامعهم الأشعبية فزجت بهم في حرب قضت على جانب كبير من عمران مجتمعهم وذهبت بحياة الملايين من رجالهم وسببت الثكل واليتم لملايين كثيرة من نسائهم واطفالهم وحرمت المجتمع ملايين عديدة من الأيدي العاملة وأثخنت جسم المدنية بجروح قد لايشفى منها الا بعد عشرات الأعوام . وقد كانوا على عهدك يكتفون بالنشابة سلاحاً وبالحربة اداة فتك وبطش ، اما اليوم فهم يترامون بالقذائف المحرقة في اعماق البحار ويتراشقون بها في جوف السحاب ، ماذا أقول لك ، بل أنهم يقصفون المدن الآمنة ويضربون النساء والشيوخ والأطفال بقنابل زنة الواحده منها اربعة اطنان حيناً وستة اطنان حيناً آخر ، اي أن قنبلة واحدة من هذه القنابل لو سقطت على المعرة لاسمح الله لتركتها أثراً بعد عين .

وما احدثك به عن الناس من بعدك احدثك به عن الحياة وهي على كل حال حياتهم وثمرة جهادهم ، وتفكيرهم ونتاج أخلاقهم وعاداتهم واعمالهم واحوالهم فما عسى أن تكون بعد ذلك ومع كل ذلك ورغم كل ذلك يمكنني أن اروي لك خبراً مفرحاً جداً ، خبرا يملأ قلبك سروراً ونفسك حبوراً ، هذا الخبر ياسيدي الحكيم هو خبر اجتماع مندوبي الأمم العربية في الأسكندرية للتشاور في اعاده تنظيم الوحدة العربية ، وانه لمن بدائع الصدف ومحاسن الاتفاق ان تفتتح هذه المفاوضات في نفس الوقت الذي يحتفل فيه العرب بمرور الف سنة على ميلادك كانهم بذلك يقيمون البراهين المختلفة على حيويتهم وفاعليتهم في وقت واحد . أجل ياسيدي الحكيم ان العرب الذين ساءك تواكلهم وتخاذلهم والحلال ملكهم وسطوتهم فندبت سوء حظهم في العراق والشام لملاقتك المباشرة بهذين القطرين بقولك :

ان العراق وان الشام مذ زمن … صفران مافيها للملك سلطان

قد شمروا اليوم بدم الحياة يجري في عروقهم مرة اخرى فانتفضوا من مراقد

الخمول ونهضوا من كبوتهم البعيدة المدى وراحوا يعملون بكل ماأوتو من قوة على لم شعثهم ورأب صدعهم واصلاح بلادهم وتنظيم شؤون مجتمعهم وهم مقتنعون في قرارة نفوسهم بأن توحيد بلادهم بشكل من الأشكال هو الطريق الوحيد لتحقيق كل هذه الأغراض وبلوغ كل تلك الغايات لذلك يجتمع مندوبوهم ورؤساء حكوماتهم اليوم في ارض الكنانة ليعملوا على تحقيق هذه الرغبة الشاملة التي مضت عليها الأعوام الكثيرة دون أن تخرج من حيز الأماني والأحلام . هذاهو احسن خبر يمكنني ان ارويه لك عن هذه الدنيا الفانية ، فان سرك واطمأنت اليه نفسك وهذا مالا اشك فيه فسل ربك ان يشد ازر القائمين بالدعوة الى الوحدة العربية وان يثبت اقدامهم ويكلل جهودهم بالتوفيق الكامل والنجاح التام ، فان في ذلك فوائد لاتحصى ومنافع لاتحصر لعشرات الملايين ممن يتكلمون لغة اللزوميات ورسالة الغفران .

الا لتعش ذكراك ايها الفيلسوف الأكبر ، ولتعش الوحدة العربية .

مهدي البصير

الحفلة الرابعة

في حلب

في الساعة العاشرة من يوم الخميس في ٢٨ ايلول ١٩٤٥ زار أعضاء المهرجان قلعة حلب ، ومتحفها ، ومكتبتها الوطنية ، وغير ذلك من الأماكن . ثم زاروا دار الحكومة في الساعة الثانية عشرة ، فحيتهم موسيقى الدرك عند وصولهم ، واستقبلهم محافظ حلب السيد احسان الشريف استقبالاً رسمياً ، ثم عادوا بعد ذلك الى فندق (بارون) ، حيث تناولوا طعام الغداء على الانغام الموسيقية التي عزفتها فرقة دار الايتام .

وكانت لجنة المهرجان قد أعدت العدة لاقامة الحفلة الخطابية الرابعة في باحة مدرسة التجهيز . فلما دنا موعد الحفلة ، زار أعضاء المهرجان ضريح المغفور له الزعيم ابراهيم هنانو ، وانتقلوا منه الى مكان الحفلة . وكانت باحة مدرسة التجهيز مزينة بالاعلام السورية ، وأعلام الدول العربية ، والأنوار الكهربائية على أشكال هندسية مختلفة ، فلما دخلها أعضاء المهرجان استقبلهم المدعوون بالتصفيق ، فجلسوا على المقاعد الخاصة المعدة لهم حول منبر الخطابة ، وكانت اللجنة قد نصبت حوله مكبرات الصوت لاذاعة الخطب على الجماهير ، وعرضت امامه تمثالاً كبيراً لأبي العلاء صنعه احد الفنانين في حلب . وكانت باحة المدرسة غاصة بالمدعوين ، وكلهم من علية القوم ، جلسوا على صفوف دائرية متوازية تلتقي اقطارها في المحل الذي اقيم عليه المنبر . واحاطت الجماهير بمدرسة التجهيز من كل جانب لاستماع الخطب حتى زاد عدد الشهود على ثلاثة آلاف .

وبدئت الحفلة بالنشيد السوري في جو ملؤه الروعة والجلال ، فألقى محافظ حلب كلمة ترحيبية أشار فيها الى حق مدينة حلب في الاحتفال بذكرى أبي العلاء لقربها من معرة النعمان ، ولصلة صاحبها صالح بن مرداس بابي العلاء وما كان من شفاعة ابي العلاء عنده . قال : وان الشهباء عاصمة سيف الدولة التي كانت تظل المعرة بظل وارف ، وتكلؤها بعين رؤوم ، لتفخر اليوم بشاعرها الحكيم ، وفيلسوفها العميق ، كما انها ترحب باعلام الفكر الذين وطئت اقدامهم ارضها لمشاركتها في الاحتفال بذكرى شاعرها .

وتتابع الخطباء بعده على الوجه الآتي :

١ — الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني   أبو العلاء شاعر انساني
ممثل الصحافة المصرية

٢ الأستاذ طه الراوي — سر الخلود في شعر المعري
ممثل وزارة المعارف العراقية

٣ - الأستاذ عمر ابو ريشه — الفيلسوف (قصيدة)

٤ – الأستاذ سامي الكيالي — الاضطراب السياسي في عصر أبي العلاء واثره في بيئته وشعره

وطلبت لجنة المهرجان في نهاية الحفلة الى الدكتور طه حسين أن يتكلم فألقى كلمة بليغة عن فن أبي العلاء أشار فيها الى قدرة أبي العلاء على استعارة المعاني والاصطلاحات من علماء الشعر والصرف والعروض والفقه والفلسفة ، وحذقه في قلب هذه الاصطلاحات المستعارة الى تشبيهات شعرية جيدة مع انها في نفسها ابعد ماتكون من ظرف الشعراء . كقوله :

مالي غدوت كقاف رؤبة قيدت في الدهر لم يقدر لها اجراؤها

وقوله : اعللت علة قال وهي قديمة اعيا الاطبة كلهم ابراؤها

قال : لقد ظلم الناس ابا العلاء في حياته ، وظلمه الأدباء بعد موته ، فمن قائل انه فيلسوف لاشاعر ، ومن قائل انه شاعر لافيلسوف ، ومن قائل انه لاشاعر ولا فيلسوف ، وعندي ان ابا العلاء يسمو على كل هذا لأنه جمع من صفات العبقرية مالم يتح لغيره ان يجمعه فتعذر بذلك تحليل شعره ورده الى اصول معروفة وقوالب موصوفة .

وتخلل الحفلة قطعة موسيقية رمزية للاستاذ سامي الشوا استمع اليها الجمهور بصمت عميق . وكانت حفلة حلب من أجمل الحفلات التي تجلى فيها الذوق والشعر والموسيقى في أجلى مظاهر السحر والجمال .

ولما انتهت الحفلة الخطابية ، دعي الأعضاء الى حفلة عشاء ، اقامتها لهم مدينة حلب في فندق (بارون) ، حضرها وجهاء حلب ، وعلماؤها ،وأدباؤها . ثم اجتمع الأعضاء بعد حفلة العشاء على سطح الفندق ، وشهدوا العرض الكشفي الذي اقامته فرق الكشافة في حلب ، بموسيقاها الكشفية ، ومشاعلها النارية ، في نظام حسن وترتيب مهيب . واحتشدت الجماهير بعد ذلك امام الفندق ، فتلا العرض الكشفي مهرجان شعبي دل على مشاركة مدينة حلب كلها في مهرجان ابي العلاء ، وفرحها به وحبها للعلم والأدب ، وميلها الى تكريم رجاله وايناسهم .

وفيما يلي نص الخطب التي القيت في الحفلة الرابعة . جميل صليبا

أبو العلاء شاعر انسانى

اسمحوا لي — قبل أن أدخل في الموضوع — أن أتوجه بالشكر الى المجمع العلمي العربي الموقر على تفضله بدعوتي ودعوة نقابة الصحفيين المصرية التى أولتني شرفا عظيما بندبي لتمثيلها في هذا المهرجان التاريخي . وكنت لما تلقيت دعوة المجمع الكريمة منذ شهور لا أرى أن الحال تسمف بتلبيتها ، ثم رأى مجلس النقابة أن ينيبني عنه ففاجأني مفاجأة سارة فله مني الشكر على ما أعان ويسر . ولعل مما يسركم أن أبلغكم أن رجال الصحافة المصرية مجتمعون اليوم . وفي هذه الساعة بناديهم بمصر وان كلمتي تتلى عليهم الآن لا لقيمتها بل على سبيل التأكيد لمشاركتهم لكم في الاحتفال بذكرى هذا الشاعر الجليل .

والشكر أولا وآخراً . لحكومة سورية الشقيقة على ما الطفتني به وخصتني من التسهيل والتذليل . وما نفعتني لا مسئولة ولا مكلفة . ولو لا حسن صنيعها لكان الارجح أن لا أدرك الاحتفال في حينه .

وأرى بعد ذلك واجباً أن أصحح خطأ غير مقصود. مرجعه الى آفة لا بُرءْ لي منها على ما يظهر . فقد كنت كتبت قبل حضوري الى الاستاذ الجليل محمد كردعلي بك رئيس المجمع الموقر أقول له أن عنوان موضوعي هو « أبو العلاء شاعر انساني » والواقع انى كنت الى ذلك الوقت حائرا لا أهتدي . ولا أدري أية ناحية من أبى العلاء يحسن بي أن أتناولها . وزاد حيرتي علمي أن معظم أعلام الادب قد وفدوا على دمشق ليقولوا في المعري . ويقيني انهم لم يتركوا لي بابا أدخل منه أو كوة صغيرة أنفلت منها . وكان الوقت قد ضاق . والمراجعة الواجبة طويلة . والمشاغل لا هينة و لا قليلة . والعنوان آخر ما أكتب . وهو على كل حال شيء لا أحسنه . ولقد أخرت كتابا لي في المطبعة سنة كاملة حتى وفقني الله فاهتديت الى اسم له . وأصارحكم اني ماتسنى لي أن أكتب كلمتي هذه الا قبل مقدمي بيوم

واحد فأنا لهذا أخشى أن يكون عنوان كلمتي مضللا أو اسماً على غير مسمى ولهذا وجب التنبية وابراء الذمة ـ أما الموضوع الذي سأتلوه فلا أدري ماذا أدعوه وكل ماأدريه اني أحوم فيه وألوب حول أبي العلاء .

يرجع عهدي بأبي العلاء الى أيام الطلب والتحصيل ـ أي الى نحو خمسة وثلاثين عاماً أو تزيد ـ ولعل الاصح أن أقول الى بداية أيام الطلب فما اعرفها تنتهي أو تنتهي الحياة نفسها . وما زالت الدنيا مدرسة لايتخرج فيها المرء ولكن يخرج منها . وما فتئت أرجع اليه حيناً بعد حين . حتى تقضى من العمر فيه شطراه وأطيبها. وأطولهما فيما أخشى . فما يتكافأ شطران من عمر تكافؤ شطرى بيت منظوم . ولا يلتزم ربنا معنا مايلتزم شعراؤنا من الوزن والقافية . فلا تنفك أوزاننا تتغير وتتنوع وتتفاوت . ولولا ذلك لضقنا بانفسنا وسئمنا أن تجري حياتنا على استواء . وعسى أن تكون هذه حجة لمن يضجره استواء البحور العربية .

وأذكر أننا كنا في الفرقة النهائية للتعليم الثانوي . وكنا ذات يوم نعرب أبياتاً للمعري في الفخر ـ ماأقل ماكان يفخر ـ فدخل علينا المرحوم عاطف بركات باشا ـ وكان يومئذ مفتشاً للغة العربية . وكانت فيه صراحة تلتبس بالفظاظة والجفوة ـ وقال : « اسمعوا . هذا الشعر يصلح للإعراب ككل شعر آخر . ولكنه من أردإ ماقال المعري وسأحدثكم عنه حديثاً وجيزاً أوجهكم به اليه . فانه شاعر جليل القدر . مني في حداثته بذهاب بصره فحيل بينه وبين السعي والتصرف وعكف على الدرس لايشغله عنه شاغل وتوفر على ماكان في زمانه من علوم وآداب وفنون . حتى الرياضيات والموسيقى والفلك . فلم يكد يفوته شيء . ولزم بيته وسمى نفسه رهين المحبسين . محبس الدار التي لايفارقها . والعمى الذي لايفارقه. وراح يتفكر ويتدبر . ويملي مايدور في خاطره ويضطرب به فؤاده . فله شأن غير شأن من سبقوه وتلوه من الشعراء الذين يتكسبون بالشعر ويتخذونه أداة للرزق . وقد جارى غيره قليلاً في البداية ثم كف وأقصر . وستحتاجون وأنتم تقرأونه الى المعجم فان الشيخ كان يتكلف الإغراب . على أن المعجم لاغنى عنه لقارئ الأدب العربي وستجدون أبا العلاء فيما عدا ذلك أصفى من الجدول الرقراق »

فكان أن اقتنيت سقط الزند واللزوميات وعكفت عليها . وما أظن به الا أنه قوى في نفسي ميلي في أيام الشباب الى التشاؤم . وأعداني بخواطره السود .

ولكنه علمني أن أنظر بعيني . وأفكر بعقلي . وصدني عن التقليد والمحاكاة . وحبب الي الخير والرحمة والانصاف . وبغض الي الظلم والبغي وأن كان لم يهدني . وله العذر فما كان اهتدى حتى يهتدي سواه .

ولم يتغير رأيي فيه بعد أن زدت خبرة بالحياة وتجربة للدنيا . واطلاعا على الأدب . فما زال عندي في المحل الأول بين الشعراء . وان كان لايعجبني يأسه من الخير والصلاح . وعزوفه عن الدنيا . ونكوصه عن الضرب في زحمة الحياة . ولكني أفهم دواعي ذلك وأعذره . ولا شك في أن الزهد والاعتزال ينافيان الطباع حتى في الحيوان . ولكنه لم يكن زاهداً وانما كان يتزهد . ويشيح بوجهه عامداً . ويروض نفسه على الحرمان . أو كما يقول الميمني فيه « روض نفسه وقنعها على الكفاف فعاد شماسها انقياداً . وألقت اليه مقادا . » ولا بد أن تطلع نفسه وفيه بقية من حب الدنيا» وليس هذا بصحيح كل الصحة أعني أن نفسه لم تلق اليه مقاداً ولم يعد شماسها انقياداً . كما سنرى .

وقد عرف عنه أنه في صباه كان يلهو ويعبث . ويلعب الشطرنج والنرد . وهو القائل بعد أن تقضى الشباب :

ألم ترني حميت بنات صدري ... فما زوجتهن وقد عنسنه
ولا أبرزتهن الى أنيس ... اذا نور الوحوش به أنسنه
وقال الفارسون حليف زهد ... واخطأت الظنون بما فرسنه
ورضت صعاب آمالي فكانت ... خيولاً في مراتعها شمسنه
ولم أعرض عن اللذات الا ... لان خيارها عني خنسنه
ولم أر في جلاس الناس خيراً ... فمن لي بالنوافر ان كنسنه

فهو كما ترون يخطىء أهل الفراسة الذين يزعمونه حليف زهده . ويقول إنه راض صعاب آماله فظلت كالفرس الشموس الذي يمنع الراكب ظهره . وما أعرض عن اللذات الا لأن خيارها تفوته . وهو يشتهي أن يأنس بالناس ولكنهم كالظباء النافرة التي تدخل كناسها . وكان واسع المطامع ففاته أن يكون بحيث يحب فنفر وآثر العزلة .

وقد صاح مرة :

أيأتي نبي يجعل الخمر طلقة ... فتحمل ثقلاً من همومي وأحزاني ؟

ثم آثر الاحتشام والتجمل وكره لنفسه أن يسكر ويخف عقله فقال :

وهيهات لو حلت لما كنت شارباً مخففة في الحلم كفة ميزاني

وهو كثير التحديث لنفسه بالخمر . يأسف مرة على حرمانها فيقول :

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تجهلني كيف اطمأنت بي الحال

وتارة يكرر بغير داع أنها لو كانت حلالا لما شربها . فيقول :

لو كانت الخمر حلا ما سمحت بها لنفسي الدهر . لا سراً ولا علنا
فليغفر الله . كم تطغى مآربنا وربنا قد أحل الطيبات لنا

وهو في رسالة الغفران يصف مجالس الخمر والمنادمة عليها ويقول انما لذة الشرب فيما يعرض لهم من السكر . ولو لا ذلك لكان غيرها أعذب .

وهو القائل أيضاً :

ولولا أنها باللب تودي لكنت أخا الندامة والنديم

وقال في ذمها والتحذير منها :

البابلية باب كل بلية فتوقين هجوم ذاك الباب
جرّت ملاحاة الصديق وهجره وأذى النديم وفرقة الأحباب
أم الحباب . وان أميت لهيبها بمزاجها وافت كأم حباب
هتكت حجاب المحصنات وجشمت مهن العبيد تهضم الأرباب
وتوهم الشيب المدالف أنهم لبسوا على كبر برود شباب
واذا تأملت الحوادث الفيت صهب الدنان أعادي الألباب

وقال أيضاً في هذا المعنى :

هي الراح . أهلا لطول الهجاء وان حصها معشر بالمدح
فلا تعجبنك عروس المدام ولا يطربنك مغن صدح
ومن يفتقد لبه ساعة فقد بات فيها بخطب فدح
قبيح بمن عد بعض البحار تغريقه نفسه في قدح

وقال في الدنيا التي عالج الانصراف عنها

أيها الدنيا لحاك ال له من ربة دل
ما تسلي خلدي عن ك وان ظن التسلي

وقال أيضاً :

طال صبري فقيل أكثم شبعا ن وإني لمنطو طيان

أي جائع متعمد للجوع .

وقال يصف مجاهدته نفسه

مهجتي ضد يحاربني أنا مني كيف احترس ؟

وقال :

حبستك أقدار ذوتك عن المنى فمضى الصحاب وأنت ثاو جالس

وقال :

وما يترك الانسان دنياه راضيا بعز ولكن مستضاماً على قسر

وقال :

والعز في الثروة . والعيش في الا حبرة . والحرفة في المحبرة

وقال :

تنازعني الى الشهوات نفسي فلا أنا منجح أبداً . ولا هي

وقال :

أريد ليان العيش في دار شقوة وتأبى الليالي غير بخل وايان
ويعجبني شيئان . خفض وصحة ولكن ريب الدهر غير شياني
وما جبل الريان عندي بطائل ولا أنا من حود الحسان بريان

وفي رسالة الغفران . يجعل ابن القارح يلتقي باثنين من الحور من الضرب الذي نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الأعمال الصالحة . فيقبل على كل واحدة منها يترشف رضابها فيهيجه ذلك الى ما به ويصيح « ان امرأ القيس لمسكين . مسكين . تحترق عظامه في السعير وأنا أتمثل بقوله :

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى وصوب القطر
يعل به برد أنيابها اذا غرد الطائر المستحر

ولا يزال المعري في هذه الرسالة يلتفت الى مواضع معينة في جسد المرأة ولا يخلو هذا من دلالة .

وفي « الفصول والغايات » تقرأ له كثيراً من أمثال هذه الكلمات .

« يا أرض ، لا قرض عندك ولا فرض . أودعت المال فرددته سالماً . والخليل

فأكلته راغماً . ليتك أكلت المال ووردت الخليل . انما أنا كرجل يلي بالصدى (العطش) لا يجد ورداً ولا مورداً . فهوظمآن أبداً »

أي لا يجد نصيبه من الماء ولا موضعاً يرده فيطفيء ظمأه .

وان الله خلقني لأمر حاولت سواه فألفيت المبهم بغير انفراج . وفطام ابن العامين أيسر من فطام ابن الأعوام . وأعيا تأديب الهرم على الأدباء . وقد صرفت نفسي في الشبيبة فألفيتها صاحبة جماح . فالآن وقد اسمألت الظلال (قصرت) ان تركتها أسفت . وان زجرتها فلا انزجار . كأن كلامي سفير الريح (ماتكنسه من الورق) مالها اليه التفات . وقد سئمت الحياة . وأخاف أن أنقل فأقدم على ماحزن وساء . وأنا أغفلت الحزم ملت عن الجدد ومشيت في الخبار . وقد خلصت من الحبالة فكيف عدت . وعلى علم وضعت القدم في النار . أحلف يانفس . ولك الحلف . لقد ضيعت آخرتك ودنياك . ماوفق رجل امن الله وخشي الناس . اسمى للنفس فيما تكره كأني لها غاش . أنا وهي شيء لايماز . نتراد الملامة كأننا اثنان . تلك محارة في حور . ان جنت علي . أو جنيت كيف يقع القصاص ؟ أفنيت الشبيبة سوى سواد قد آن له أن يبدل ببياض » . . الخ

ولا داعي للاكثار من الشواهد . فان أبا العلاء انسان . وليس بانسان من لايشتهي الحياة الرضية . والمتعة المرضية . والسلامة من اليأساء والضراء وأن أبا العلاء لانسان عريق في الأنسانية . يحب الحياة كما نحبها جميعاً . ويفزعه المصير الذي لامندي عنه ولا مهرب منه . تأمل قوله :

وكلكم يبدي لدنياه بغضه   على أنه يخفي بها كمد الصب

وقوله :

تبغي الثراء فتعطاه وتحرمه   وكل قلب على حب الغنى جبلا
لو أن عشقك للدنيا له شبح   ابديته لملأت السهل والجبلا

وقوله :

اشربت حبك لاينفيه عن حسدي   سوى ثرى لدماء الأنس شرّاب

وقوله :

وصدقت هذا العيش في حي له   واغترني بخداعه وكذابه

وقوله :

شقينا بدنيانا على طول ودنا فدونك مارسها حياتك راشقها
ولا تظهرن الزهد فيها فكلنا شهيد بأن القلب يضمر عشقها

وقوله في « الفصول والغايات » ايها الدنيا البالية . مااحسن ما حلتك الحالية . اين امك الخالية . ان نوبك لمتوالية . والنفس عنك غير سالية .

« كسيت الحداثة فأبليتها . واعطيت الصحة فتمليتها . ماخلوت من الجرائم ولا خليتها . قلتني دنياي فما قليتها . اكتلأتها فما اكتليتها (راقبتها فما اصبت شيئاً)

« اسب نفسي وتسبني . واريد الخير لايجبني . احب الدنيا كأنها تحبني . والحرص يوضعني ويخبني . والعزيزة عن الرشد تذبني »

« ويحي كل الويح . أحب الدنيا وآلتها ليست فيّ . وقد يئست من بلوغها واليأس مريح . فالام التشوف الى الضلال »

* * *

ومن فرط حبه للحياة وتعلقه بها وحرصه عليها وأسفه على مافاته فيها وحرمه . كان جزعه من الموت . واستهواله له . وطول تفكيره فيه وفيما يليه . وحيرته بين الجبر والاختيار ، وشكه في كل شيء الا أن الموت حق ومصير محتوم :

اذا ما تباشر أهل الغلام به فالتباشر معنى هلك
ألم تريا أن سلك الزمان أفنى السليك وأفنى السلك؟

يمر الحول بعد الحول عني وتلك مصارع الأقوام حولي
كأني بالأولى حفروا لجاري وقد أخذوا المحافر وانتحوا لي

سيسأل ناس ما قريش ومكة كما قال ناس ماجديس وما طسم
أرى الوقت يفني أنفسا بفنائه فيمحو . فما يبقى الحديث ولا الرسم

تبكّى على الميت الحديث لأنه حديث وينسى ميتك المتقادم

لو كان ينطق ميت لسألته ماذا أحس . وما رأى . لما قدم

اذا الحي ألبس أكفانه فقد فنى اللابس واللابس
ويبلى المحيا فلا ضاحك اذا سر دهر . ولا عابس
ويحبس في جدث ضيق وليس بمطلقه الحابس

فما هو في سلف سائر ولا هو في حندس قابس
يجاور قوما أجادوا العظات وما فيهم أحد نابس

أما اليقين فلا يقين وانما أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا

ومدّ وقتي مثل القصر . غايته وفي التراب تساوي الدر والبرد

فنى الواتر والموتور . وعند الله علم الذاهبين

ولا آخر لقوله – شعراً ونثراً – في الموت والفناء . حتى الكواكب لامنجاة لها من هذا المصير .

يجوز أن تطفأ الشمس التي وقدت من عهد عاد وأذكى نارها الملك
فان خبت في طوال الدهر جمرتها فلا محالة من أن ينقض الفلك

زحل أشرف الكواكب دارا من لقاء الردى على ميعاد
ولنار المريخ من حدثان الدهر مطف . وان علت في اتقاد
والثريا رهينة بافتراق الشمل حتى تعد في الأفراد

وقد زعموا الأفلاك يدركها البلى فان كان حقاً . فالنجاسة كالطهر

وما مصير من يفكر على هذا النحو ؟ مصيره ولا ريب الى اليأس . والى أن يستوي عنده الجهل والعلم . والهدى والضلال . وإلى حيرة مضنية لايخرج منها . ولهذا تراه لاينفك ينفي ويثبت . ويقول بالرأي ونقيضه .

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر

ومن يظفر بأمر يبتغيه فأقضية المهيمن وفقته

ماباختياري ميلادي ولا هرمي ولاحياتي. فهل لي بعد تخيير ؟

تتخيرين الأمر كي تحظي به هيهات ليس على الزمان تخير

لو ينطق السيف نادى ليس لي عمل اذا قضى ملك الأفلاك أنضاني
وان كهمت فأمر الله اكهمني وان مضيت فأمر الله أمضاني

وهو مغلوب على أمره في كل شيء .

من وسخ صاغ الفتى ربه فلا يقولن توسخت

نهاني عقلي عن أمور كثيرة وطبعي اليها بالغريزة جاذب

قضى الله فينا بالذي هو كائن فتم . وضاعت حكمة الحكماء

وهل يأبق الانسان من ملك ربه فيخرج من أرض له وسماء؟

ولكنه يعود فيقول بالاختيار :

تقلدن المآثم باختيار أوانس بالفريد مقلدات

تخير . فاما وجدة مثل ميتة واما جليس في الحياة منافق

فما أذنب الدهر الذي أنت لائم ولكن بنو حواء جاروا وأذنبوا

ثم يتردد ويضطرب ويحتار فيقول :

تخالفت الأشياع في عقب الردي وتلك بحار ليس يدرك عبرها

وقيل نفوس الناس تطبع فعلها وقال أناس بل تبين جبرها

ارى شواهد جبر لا احققه كأن كلا الى ما ساء مجرور

قالت معاشر . كل عاجز خرع ما للخلائق . لا بطء ولا سرع

مدبرون فلا عتب اذا خطئوا على المسيء . ولا حمد اذا برعوا

وقد وجدت لهذا القول في زمني شواهداً ونهاني دونه الورع

وحار في الثواب والعقاب . ورأى ان من الظلم عقاب المجبر . ولم يطمئن الى الجبر . فطمع في الغفران . وآمن بالعقل وكفر به

جاءت أحاديث ان صحت فان لها شأنا ولكن فيها ضعف اسناد

فشاور العقل واترك غيره هدرا فالعقل خير مشير ضمه النادي

والعقل غرس له بالصدق اثمار

ثم يرجع فيقول :

هي الأفهام قد صدئت وكلت ولم يظفر لها أحد بصقل

وقد أعمل الناس أفكارهم فلم يفهم طول أعمالها

وبصير الأقوام مثلي أعمى فهلموا في حندس نتصادم

سالتموني فأعيتني اجابتكم من ادعى أنه دار فقد كذبا

انما نحن في ضلال وتعليل فان كنت ذا يقين فهاته

أما الحقيقة فهي اني ذاهب والله يعلم بالذي أنا لاقي

أنا اعمى فكيف اهدى الى المنهج والناس كلهم عميان

فهم الناس كالجهول وما يظفر الا بالحسرة العلماء

* * *

وحسبنا هذا القدر من الشواهد

وقد قيل ان علة العلل هي عماه . وان هذه المحنة هي التي حملته على التزهد وايثار العزلة . ورياضة النفس على الكفاف . وان آفته هذه هي مفتاح شخصيته . فلا سبيل الى فهم المعري على حقيقته الا اذا رددنا كل عمل او قول له الى هذه المصيبة التي اصابته في طفولته لغير ذنب جناه .

وغير مردود ولا منكور ان ذهاب البصر محنة . ولا سبيل الى الشك في ان المكفوف لايسعه الا ان يشعر بما حاق به من المكروه . وما حرم من المزية . والا ان يألم ويأسف ويتحسر ويتلهف وان اظهر الجلد وابدى التشدد . ولا يمكن ان تخلو خسارة هذه الجارحة النفيسة من أثر عميق في نفس المرء وتفكيره واتجاه عقله ونوع احساسه بالحياة والناس .

كل هذا مسلم لاخلاف عليه . فما يستوي ان تكون او لاتكون للانسان هذه الجارحة والا كان خلقها عبثا . وزايداً لاداعي له . ولكني لاارى راي القائلين برد كل شيء الى فقدانها . ولا انها هي مفتاح شخصية المعري . فليس من الحتم ان يحدث ذهاب البصر هذا الأثر . وقد عمي بشار جنينا ولم ير ضوء النهار وتحسر وتألم . ونقم وسخط . ولكنه لا تزهد ولا اعتزل . بل نزل الى المعترك . وخاض الغمار . وضرب في الزحمة وكان حيوانا كبيراً . وروى بيرك الأديب الانجليزي المشهور في كتابه « الجليل والجميل » أنه يعرف عالماً أعمى كان أستاذاً

لعلم الضوء في الجامعة . وهو قد ولد مكفوفاً . وقرأت منذ شهور كتاباً اسمه « العالم تحت أناملي » لكاتب امريكي حديث اسمه « كارستن اونستاد » ذهب بصره وهو طالب في مدرسة عالية . أي بعد أن أمتع بنعمة البصر نحو عشرين عاماً . فالخسارة افدح . والحرمان أوجع . وقد ترجم في هذا الكتاب لحياته . ووصف ما كان من أمره بعد هذه المحنة . وكيف غالبها فغلبها . وهو لا يعتمد الا على العصا ولا يحتاج الى من يأخذ بيده ويقوده ولا يرضيه الا أن يعامله الناس كأن ليس بينه وبينهم فرق . فلا هو أعمى ولا هم بصراء دونه . وكيف كان يشارك الطلبة في العابهم ومغامراتهم . حتى الزحلقة على الثلج في الجبال .

وعندي أن ذهاب البصر لا يورث صاحبه ما عزوه في المعري اليه . الا اذا اجتمع أمران على الخصوص : حس مرهف دقيق في المكفوف . ومجتمع لا يزال يشعره انه مكفوف كأن يبدي العطف عليه . أو يعيره . أو يتعجب لما يكون منه مما يعد مستعصياً او مستكثراً على مثله . واحسب ان عامل المجتمع اقوى الاثنين فاذا تلقى الناس الكفيف على نحو طبيعي . وعاملوه كأنه مثلهم بلا فرق . ونزهوه عن العطف والتعيير والتعجب . فان أثر العمى في نفسه على الرغم من دقة الشعور به ، يمكن أن يخف جداً لأن الجماعة تصبح عوناً له وتشجعه على مغالبة رزئه والتغلب على قيده . وتقيه بسلوكها نحوه من التهويل بمصابه على نفسه .

ومن المحقق على كل حال أن ذهاب البصر ليس هو الذي حمل المعري على اعتزال الناس ورفض الحياة . وايثار الوحدة والعزوبة . وكراهة أكل اللحم وذبح الحيوان والطير . ولو شاء المعري لتولى القضاء في المعرة أو حمص كما تولاه أبوه أبو محمد عبد الله . وعمه أبو بكر محمد . وجده سليمان . وابن أخيه أبو اليسر ولو شاء لما حرم نفسه طيبات ما أحل الله . بل لو شاء أن ينهز مع الغواة بدلائهم ويسيم سرح اللهو مثلهم لفعل . فما حال العمى أو الصمم أو الكساح بين أحد وبين ما يشتهي من ذلك . فاذا .قيل أنه كان حساساً جداً وانه يستنكف ويكره لنفسه أن يراه أحد خفيف الحلم أو على حال تزرى به . وان شعوره بكرامته كان يأبى له أن يطلب فيمنع ويشتهي فيحرم . قلنا أن هذا ليس من العمى . بل من دقة احساسه المرهف وفرط شعوره بنفسه .

ودع هذا واسأل ما ذا حرمه العمى ؟ انه شاعر أديب وعالم متفلسف . وقد عرف له أهل زمانه ومن جاء بعدهم من الأجيال غزارة الفضل ووفرة العلم وحدة الذكاء . وسعة الاحاطة باللغة . والحذق بالنحو . وجودة الشعر . والالمام بكل علم معروف في عصره . وكان تلاميذه يعدون بالمئين . ويزحمون داره . ولما مات أنشد على قبره المراثي أربعة وثمانون شاعراً . فهو قد فاز في حياته بالحظ الأجزل من الشهرة والتوقير . ولا يزال الى يومنا هذا في المحل الأول والأرفع بين شعراء العربية . أما فيما عدا ذلك مما هو من الحياة الخاصة الشخصية . فما حرم شيئاً أو كانت الآلة تعوزه فيه كما يقول وإنما حرم هو نفسه وآثر لنفسه العزوف وأبى عليها كل متعة . فالأمر مرجعه الى ارادته لا الى عماه .

واذا قلنا ارادته فقد قلنا ما ينزع به اليه مزاجه السوداوي الخاص وما بني عليه من الطباع . وهذا عندي هو مفتاح شخصيته والذي أرد اليه ما كان من سيرته . وقد جاءت عوامل أخرى فقوت استعداده الخاص فقد نشأ في بيت علم وفضل وتقوى . وكانت لأسرته مكانة عالية ومنزلة ملحوظة في بلدته الصغيرة . وحسبك من شعوره بكرامته وكرامة بيته في هذا البلد أنه وهو عائد من بغداد بعث الى أهل المعرة بكتاب ينبئهم فيه أنه اعتزم أن يلزم داره ويعتزل الناس . كما يفعل الحاكم أو القائد حين يقدم على بلدة فيدع كتابه أو « منشوره » يسبقه اليها ببلاغ منه . وكان هو إلى ذلك عالماً ضليعاً وأديباً رفيعاً . فاجتمعت له كرامتان : كرامة علمه وأدبه وفضله . وكرامة بيته وآله . وخلق حساساً جداً حتى لكأنما يحس الدنيا بأعصاب عارية لا يسترها لحم ولا يقيها جلد . فهي أبداً مكشوفة معرضة للمؤثرات مباشرة . ولهذا كان يخجل أن يرى وهو يأكل مخافة أن يرى منه ما يعاب . ومثله يحرص على اجتناب ما يعرضه للمهانة أو الزراية أو السخرية . ومن هنا لجاجته في تنقص نفسه وقوله إنه كلب لئيم وإنه جاهل وناقص وإنه أعمى ضال كأنما يريد لفرط شعوره بذاته أن يسبق الناس إلى ذمه . ولا يدع لهم ما يقولون فيه أو يعيبونه به . ومثله ينزع الى العدل والانصاف . لأن الانصاف سبيل النجاة والأمن لمن كان يفطن فطنته الى مواطن ضعفه وقصوره ويحس بها احساسه . حتى لقد عرّف الدين بأنه

إنصاف الناس . ولا عجب بعد ذلك أن يكون رقيق القلب رحيمه . وان كانت رحمته مفرطة حتى ليقشعر بدنه حين يقدمون له فروجاً أوصى له به الطبيب في مرضه . ويقول : « استضعفوك فوصفوك . فهلا وصفوا شبل الأسد ؟ » وقد ثقلت عليه محنة العمى وشقت جداً لانها ظلم حاق به بغير ذنب . فظل ثائراً على هذا الظلم كثورته على كل مظاهره الأخرى في الحياة . ولم تكن ملازمته داره واقتصاره على أكل البقول ونفوره من اللحم . إلا ضرباً من التحامل على النفس وتعذيبها لا يستغرب . فان تعذيب النفس نوع من إثبات القوة فكأنه لما أنس من نفسه العجز عن أن يكون ذا بأس وصولة بين الناس تحول الى نفسه وحمل عليها وعالج رياضتها لينعم بالشعور بالقوة والاقتدار . وكل امرئ ينزع بطبعه الى تعويض النقص الذي يعرفه أو يحسه ولو احساساً غامضاً . وتلك حقيقة لا تحتاج إلى بيان . وأحسب أن مما يجري هذا المجرى شدة تكلفه في اللزوميات وإلزامه نفسه فيها ما لم يلزم أحداً ، وإكثاره من الغريب فيها وفي نثره . وتحريه الوحشي وغير المأنوس من الألفاظ . حتى كتاب « الفصول والغايات » جعله فصولا غاياته أحرف مرفوعة أو منصوبة إو مجرورة . وذلك كله لاثبات القدرة والرسوخ في العلم والاستبحار فيه . بل التفوق والتميز .

وهنا موضع سؤال : لماذا احب المعري أبا الطيب المتنبي كل هذا الحب ؟ وأعجب به وأكبره الى هذا الحد ؟ حتى تعرض للأذى من أجله ؟ وألف فيه كتاباً سماه « معجز أحمد ؟ » لقد كان يتعصب له تعصباً عجيباً وليس هو بالذي يخفى عليه أن هناك شعراء آخرين لايقلون عنه شأناً . وان معاني المتنبي ليست كلها مما ابتكر وان كثيراً منها يوجد في أشعار غيره . ولقد ألف في أبي تمام كتاباً سماه « ذكرى حبيب » فما هو سر هذا التعصب المفرط ؟

عندي أن السر هو شخصية المتنبي لاشاعريته . فقد كان المتنبي يمثل كل ماينقص المعري . أو مايحس المعري أنه ينقصه : الجرأة . والأقدام . والثقة بالنفس . والأطمئنان الى صواب مايرى . والجزم في الأمور والفحولة التي تخرج المعنى مخرج المثل السائر وتجعل منه عملة . وعلى الخصوص اليقين الجازم . والثقة بالنفس . وانتفاء الحيرة والاقتناع بأن فهمه للناس وللحياة

صحيح لايرتقي اليه الشك . وكل هذا ينقص المعري . فهو أبداً مضطرب لايستقر . وحائر لايهتدي . لايطمئن الى رأي . ولا يثق بصواب . ولا يرضى عن نفسه . ولا يحول عينيه عما يدركه من قصورها وعيوبها . يحس أن في وسعه أن يجتريء ويلقي بنفسه في عباب الحياة ويفرق تياره الى حيث يتطلع ويرجو أو يراه من حقه .

وأحسب أن كل من قعد يفكر ويتدبر على نحو مايفعل المعري . لابد أن يضطرب اضطرابه . ويضل ضلاله . ويقع في مثل حيرته . فان هذه أمور أشكال لاسبيل الى الاهتداء فيها الى مايقنع العقل . وليس المعري يبدع في هذا فان له لأندادا كثرا في الشرق والغرب .

ولقد كنت منذ ايام أراجع رواية هملت لشكسبير الشاعر الانجليزي. فاذا بي أقرأ لهملت وهو واقف مع حفارى القبور . وفي يده جمجمة « أتظن أن الاسكندر كان هذا منظره في الأرض ؟ »

فيقول رفيقه هوراشيو « تماماً »

فيقول هملت « وكانت له هذه الرائحة ؟ أف . »

هوراشيو « كذلك ياسيدي »

هملت « إلى أي درك نصير ياهوراشيو .. لماذا لايتعقب الخيال رفات الاسكندر النبيل حتى يجده يسد ثقب برميل ؟ ... مثلاً : مات الاسكندر. دفن الاسكندر . عاد الاسكندر ترابا . والتراب من الأرض . ومن الأرض نصنع الصلصال . ومن هذا الصلصال الذي تحول إليه ماذا يمنع أن يصنعوا منه مايسد برميل بيرة ؟ »

فأذكرني هذا قول أبي العلاء :

إذا غدوت ببطن الأرض مضطجعا ... ثم أفقد أوصابي وأمراضي
تيمموا بترابي علَّ فعلكم ... بعد الهمود يوافيني بأغراضي
وان جعلت بحكم الله في خزف ... يقضي الطهور فاني شاكر راضي

والبيت الأخير هو الشاهد

وتأمل صيحة هملت باوفيليا حبيبته

« إلى الدير .. لماذا تريدين أن تكوني أما لآثمين ؟ اني أنا نفسي رجل شريف إلى حد ما . ومع ذلك أستطيع أن أتهم نفسي بأشياء يبدو معها انه كان خيراً لو لم تلدني أمي . وأنا رجل متكبر جداً وبي من المغريات بالشر فوق ما يحيط به الفكر ويصوره الخيال أو يتسع لارتكابه الزمن . ماذا يصنع أمثالي وهم يزحفون بين الارض والسماء ؟ اننا جميعاً أوغاد أشرار . فلا تصدقي أحداً منا » .

ثم يقول لها « إذا كان لابد لك من الزواج فتزوجي مغفلا . فان العقلاء يعرفون كيف تخلينهم وحوشاً شنيعة . إلى الدير . اذهبي بسرعة . »

وأما أكثر ما أبدا المعري وأعاد في هذه المعاني . وما أشبه رأى هملت في المرأة برأي شاعرنا الذي يعد النساء فوارس فتنة وأعلام غي .

وتأمل مناجاة هملت لنفسه « تكون أو لاتكون ؟ هذه هي المسألة . » وهي مشهورة . يقول فيها أن الموت رقدة تنتهي بها آلام القلب وجراح الجسم وأوجاعه كما يقول المعري « انما الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد » ولكن الموت قد تتخلله الأحلام . فأي أحلام نراها ياتري إذا سلبنا الحياة . كما يتساءل المعري « كيف لي بمخبر . يعتام نفائس ما أحذر عليه . يعلمني بعد الموت كيف أكون ؟ » وكما يقول :

وبين الردى والنوم قربى ونسبة وشتان برء للنفوس واعلال
إذا نمت لاقيت الأحبة بعدما طوتهم شهور في التراب وأحوال

وكما يسأل

« سبحانك مؤبد الآباد . هل للمنية نسب الى الرقاد ؟ »

ولا يزال هملت يلهج بمحنة الحياة . وسهام القضاء . وسياط الزمن وظلم الظالمين . وصلف المتكبر . وبطء تحقيق العدل . ووقاحة ذوي الأمر وبغيهم واحناء الظهر تحت أثقال الحياة . واحتمال ذلك الشقاء فزعا مما بعد الحياة ومن بعدها مجاهل لم يعد منها مسافر . وهذا خوف يفل العزم ويغري المرء بالرضى بآلام يعرفها واتقاء مايجهل — وذلك كله ما كان يلهج به المعري .

ويتكرر مثل هذه الآراء في الناس والحياة ومصائر الخلق في روايات أخرى مثل تيمون الأثيني وماكبث والملك لير وغيرها .

وندع شكسبير وما يجريه على السنة أبطاله . وننتقل الى جوتيه الشاعر الألماني وروايته فوست على الخصوص . وهي كما وصفها الشاعر « جولة بين الأرض والسماء » وفوست رمز للأنسان الذي ينشد المعرفة ويبغي أن يحيط علماً بسر الحياة وقد وجد أن المعرفة المستفادة من بطون الكتب التي كان يعكف عليها لاتفيده يقيناً ولا تكشف له عن سر ولاتبيحه مجهولاً أو مغيباً . وقد بلغ من يأسه أن باع الشيطان نفسه . وعاهده أن يسلمه روحه اذا وسع إبليس أن يفيده الدعة والاطمئنان واليقين فبدآ معا رحلة طويلة لاداعي لوصف مراحلها فان القصة معروفة . وقد ذاق في رحلته مرارة الندم وضاق به الفضاء الرحيب فالتمس ماوراء ذلك لعل الخيال يغني حيث لم تغن الحقيقة . وقد أعياه على الرغم من مقدرة الخيال أن ينحي الأستار المسدلة . ولم يجده رفع طرفه الى السماء ومحاولته أن يطوف في الأبد ويجوبه . ولم يقنعه أن يتقبل الحياة كما تجيء وان كانت لا ترضيه . وأشقاه عقله الذي طغى على نفسه ولم يستفد الا الحيرة اللازبة وادراكه مبلغ جهله . ولم يصل الى شيء من ثالوث افلاطون — ثالوث الحق والجمال والخير — واستعان بالشيطان على ضعفه البشري فآب بالندامة والخسار .

وليست هي إلا قصة أبي العلاء في حيرته ونشدانه الحقيقة واليقين في كل ما يستجليه ويفكر فيه . بل قصة كل مفكر من بني الانسان في هذا العالم .

وقد ترجمت منذ ربع قرن وزيادة قصة روسية اسمها « سانين » وقد سميتها ابن الطبيعة . وهي لها ترب شيق . ومن أشخاصها من يدعى يورى يشهد جنازة منتحر فيستهول أنه لم يعد موجوداً . وانه كان شيئاً فأصبح لا شيء . ذهب كالتراب المكنوس ولم تبق منه إلا القبعة على النعش . ويفتح الانجيل فيقرأ فيه أن من يهبط الى الأرض لا يصعد أبداً فيقول :

« ما أصدق هذا وأحكمه . حلم فظيع . هذا أنا أعيش ويلج بي الظمأ إلى الحياة واللذات . ثم أقرأ هذا القضاء المبرم ولا يسعني حتى أن أحتج عليه » .

ويناجي القوة الخفية فيقول :

« ماذا جنى الانسان عليك حتى تسخري منه هذا السخر ؟ إذا كنت موجودة فلماذا تخفين نفسك عن عينه ؟ لماذا تجعلينني إذا آمنت بك لا أؤمن بإيماني ؟ (كأبي العلاء تماماً) وإذا أجبتني فكيف أعرف أأنت المجيبة أم نفسي ؟ وإذا كنت على حق في رغبتي في الحياة وطلبي لها فلماذا تسلبينني هذا الحق الذي منحتني إياه ؟ إذا كانت بك حاجة إلى آلامنا فدعينا نحملها من أجل حبنا لك . ولكنا لانعرف أيهما أعظم قيمة : الشجرة أم الانسان . ان الشجرة دائمة الأمل . إذا قطعت استطاعت أن تقوم مرة أخرى وأن تسترد الخضرة وتفوز بحياة جديدة . أما الانسان فيموت ويزول يرقد فلا ينهض مرة أخرى . ولو أني كنت على يقين من اني سأحيا مرة ثانية بعد ملايين السنين . لرضيت أن أنتظر في صبر كل هذه القرون في الظلام . »

وهذه معان تقرؤها كلها في المعري نثراً وشعرا فقد مزق قلبه بها طول حياته .

ومما يستحق الذكر أن بطل هذه الرواية « سانين » يبدي رأياً في يورى هذا الذي يعذب نفسه بالتساؤل الذي لايجدى . فكأنه يبديه في المعري وذلك حيث يقول :

« ان الانسان لا يمكن أن يكون فوق الحياة لأنه جزء منها وقد يسخط ولكن مرجع السخط الى نفسه . فهو اما لا يستطيع أو لا يجرؤ أن يأخذ من خيرات الحياة ما يسد حاجته . ومن الناس من يقضون حياتهم في السجون . وهناك آخرون يخافون أن يفروا منها كالطائر الأسير يفرق في الطيران إذ يطلق له والجسم والروح يكونان كلا متجاوبا لا يزعجه الا دنو الموت الرهيب . ولكنا نحن نقضي على هذا التلاؤم بسوء فكرتنا عن الحياة . فقد زعمنا أن رغباتنا الطبيعية حيوانية . وصرنا نحس العار والخجل منها ونخفيها في صور وضيعة والضعاف منا لا يفطنون لهذا بل يقضون حياتهم في الأغلال المضروبة عليهم . أما الضحايا فأولئك الذين تقعد بهم آراؤهم المقلوبة . ولا شك أن القوى المحبوسة تتطلب منفذاً . وان الجسم ينشد السرور واللذة . وانه يتعذب

من جراء عجزه وقصوره . فهؤلاء وأمثالهم حياتهم صراع دائم . وشك مستمر يتعلقون بكل ما يقدرون أن يعينهم ويفضي بهم إلى نظرية أخلاقية أحدث وأجد . ولا يزالون كذلك حتى يعودوا وهم يخافون أن يعيشوا ويحسوا » .

هذه حال المعري وصفها أديب روسي على لسان شخص متخيل أصدق وصف . أراد أن يحلق فوق الحياة فعجز . لأن ذلك مستحيل لا يستطيعه إنسان . وتهيب الحياة ففر من ميدانها . وخاف نفسه فألجمها وألزمها القيد فانتقمت منه وثأرت لنفسها القوى التي حبسها وسد عليها كل فج . فتعذب وراح يتساءل لمَ ولماذا ؟ ويبحث عن الحق والخير والعدل . ويحاول أن ينفذ ببصيرته من أستار غيب الله المسدلة وهي كثيفة فما اهتدى الى شيء يستريح اليه العقل وتطمئن به النفس . وصار كما يقول بطل هذه القصة يخاف حتى أن يعيش ويحس .. لأنه يتألم . ولأنه يجهل المصير .

* * *

وبعد فان مجال الكلام ذو سعة . ولكني لست الوحيد الذي قال أو يقول في ابي العلاء . وليس من حقي ولا في مقدوري أن أحاول الاحاطة بكل جانب وأن ألم بكل ناحية . فحسبي ما قلت على القصور فيه والعجز . واني لشاكر لكم صبركم وسعة صدركم . ومعتذر اليكم من التقصير . والسلام عليكم .

ابراهيم عبد القادر المازني

سر الخلود في شعر أبي العلاء

ايها الحفل الكريم :

حياكم الله بالحسنى . أرجو أن تسمحوا لي قبل الافاضة في الموضوع أن احيي حاضرة بني حمدان ذات التاريخ اللامع، والعز الراسخ الشامخ ، أيكة أبي الطيب التي اكثر فيها التغريد وأطال فيها النشيد ، وروضة الحارث بن سعيد التي صدح فيها بالمفاخر وغنى بالجليل من المآثر . وان احيي البهاليل من غطارفتها الصيد الذي وصلوا طارف مجدهم بالتليد .

أما بعد فانني كنت شديد الرغبة في أن اتحدث اليكم عن « أبي العلاء في بغداد » لأني احب أبا العلاء واحب بغداد واحب أن اجمع بينهما ، ولكن سبق لي أن تحدثت بهذا الحديث في عاصمة فيصل الثاني ايده الله وحاطه برعايته وقديماً قيل : المعاد معاد وعلى هذا وقع الاختيار على « سر الخلود في شعر أبي العلاء » وكنت اوثر أن اتبسط في هذا الموضوع واشبعه تحقيقاً وتمحيصاً ولكن حديثاً لايزيد عمره على نصف الساعة لايمكن أن يتسع للتحقيق والتمحيص واستخلاص النتائج من المقدمات ولهذا اجدني مضطراً ان اقتصر على شيء وأترك اشياء فأقول :

مضى على الناس زهاء الف عام وهم يتناقلون شعر أبي العلاء ويتدارسونه ويحرصون على اقتنائه وهم في ذلك فريقان : فريق يرفعه الى اسمى مراتب التعظيم والتكريم ، مؤمن بما يدعو اليه مكبرٌ لكل ما يثني عليه ، وفريق آخر يعتقد أن هذا الشعر خليط من حق وباطل وشك ويقين وأن الكثير منه يدعو الى الانحراف عن الصراط السوي صراط الله العزيز الحميد . وكلا الفريقين يجمع على ان هذا الشعر وليد المبقرية الفذة ونتاج المقلية الجبارة وكلاهما حريص على اقتنائه واستظهاره وجعله موضوعاً للنقاش والاستشهاد

في مجالس المسامرة والمذاكرة وفي المساجلات والمطارحات . فما هو السر يا ترى في كل هذه العناية والرعاية مع تباين الانظار فيه وتضارب الأفكار حوله ؟ . . . يمكن الجواب على هذا السؤال بكلمة واحدة فيقال : ان السر في ذلك « جودته » تمشياً مع قانون بقاء الأصلح . ولله اخو خزاعة حيث يقول :

يموت رديء الشعر من قبل اهله وجيده يبقى وإن مات قائله

ولكن هذا الجواب لا يقنع السائل وله أن يسأل ماسر الجودة في الشعر ؟ أفي الفاظه ؟ أم في معانيه ؟ أم في اغراضه ؟ أم في اوزانه وقوافيه ؟...

والجواب على هذا أن شعر أبي العلاء يتحلى بكل هذه المزايا ، فهو جيد في الفاظه جيد في معانيه جيد في اغراضه . فان سعة اطلاع أبي العلاء على اسرار العربية مكنته من ترصيع شعره بالبارع من الألفاظ الناصع منها . وانا زعيم بأنه لو جمع جامع ما جاء في شعر أبي العلاء من فرائد الألفاظ ونوابغ الكلم لاجتمع له معجم طريف في بابه يغني الناظر فيه عن الكثير من معاجم اللغة . أما المعاني التي طرقها أبو العلاء فهي غاية في الدقة والطرافة والابداع والاختراع مع الكثرة في التنوع والتفرع والتوليد والتجديد . وأما الأغراض فقد نهج فيها منهجاً اختطه لنفسه وابتدعه ابتداعاً خالف فيه من قبله ولم يلحقه فيه من بعده .

وهنا يمكن أن نقسم شعر شاعرنا الى قسمين : القسم الأول شعره في الشطر الأول من حياته والثاني شعره في الشطر الثاني منها .

أما القسم الأول فهو فيه متبع اكثر منه مبتدعاً فقد رمى فيه الى الأغراض التي كان يرمي اليها شعراء زمانه ومن سبقهم على انه تنكب بعض الأغراض التي تصم الشعر وتحط من كرامة الشاعر ، مثل المجون والهجاء وغزل المذكر والأعابيث التي كان يتعاطاها الخلعاء من الشعراء ، على أن الناقد البصير ليجد في شعره الأول نفحة تنم عن اتجاهه الفلسفي

فانا نجده عندما يطلق لنفسه السير على سجيتها تندفع به في مسالك عميقة من الفلسفة قلّ ان سمعنا بمثلها من شعراء زمانه . خذ مثلاً على ذلك ما جاء في صدر مرثيته لأبيه وصدر مرثيته لصديقه الفقيه وهما من أوالي شعره ففي الأولى يقول :

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي ... يراد بنا والعلم لله ذي المن
اذا غيب المرء استسر حديثه ... ولم تخبر الأفكار عنه بما يغني
طلبت يقيناً من جهينة عنهم ... ولن تخبريني يا جهين سوى الظن
فان تعهدبني لا أزال مسائلاً ... فاني لم اعط الصحيح فاستغني
وإن لم يكن للفضل ثم مزية ... على النقص فالويل الطويل من الغبن

وفي الثانية يقول :

صاح هذي قبورنا تملأ الرّ ... حب فأين القبور من عهد عادِ
خفف الوطء ما اظن اديم الأ ... رض إلا من هذه الأجساد
خلق الناس للبقاء فضلت ... امة يحسبونهم للنفادِ
انما ينقلون من دار اعما ... لِ الى دار شقوةأو رشادِ
ضجعة الموت رقدة يستريح ... الجسم فيها والعيش مثل السهادِ

وهذا يترجم عن نفسٍ أقلقها الشك في أمور واطمأنت الى اليقين في أمور ، فهي في الحالة الأولى تلح في التسآل وفي الحالة الثانية تطمئن الى برد اليقين .

أما القسم الثاني من شعر شاعرنا فقد سلك فيه مسلكاً خاصاً ابتدعه لنفسه ابتداعاً تنكب فيه جميع الأغراض التي كان ينظم فيها المتقدمون من الشعراء والمتأخرون واتجه الى درس أمور لا عهد للشعراء بدراساتها واتخذ في ذلك من عقله اماماً مرشداً ومناراً هادياً يعرض عليه جميع ما يعن له من شؤون الملكوت في السموات والأرض فيقر ما يقره وينفي ما ينفيه ويقف موقف الشك فيما يعجز العقل عن البت فيه :

يرتجي الناس أن يقوم إمام ... ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العقل ... مشيراً في صبحه والمساء

فاذا ما أطعته جلب الرحمة عند المسير والارساء

نهاني عقلي عن أمور كثيرة وطبعي اليها بالغريزة جاذب

والعقل يسعى لنفسي في مصالحها فما لطبع الى الآفات جذاب

تركت مصباح عقل مااهتديت به والله أعطاك من نور الحجى قبسا

فشاور العقل واترك غيره هدراً فالعقل غير مشير ضمه النادي

وصرف جل جهوده في دراسة أحوال الانسان فحلل غرائزه وطباعه كما حلل أخلاقه وعاداته ، وأنعم النظر طويلاً في أديانه ومعتقداته كما أنعم النظر في حياته ومماته وأولية أمره وآخرته . وإذا كان لا بد لنا من ضرب الأمثلة في هذا الباب فهاك طرفاً منها :

انتهت به دراساته للغرائز البشرية الى أن هذا المخلوق المسمى بالانسان مطبوع على الشر مجبول على العدوان وإذا صدر منه الخير فانما يكون ذلك لعلة :

شر اشجار علمت بها شجرات أثمرت ناسا
حملت بيضاً وأغربة وأتت بالقوم أجناسا
كلهم ضمت جوانحه مارداً في الصدر خناسا

أتعبتم السابح في لجه ورعتم في الجو ذات الجناح
هذا وأنتم غرض للردى فكيف لو خلدتم يا قباح

ما أنتم بالنبات الحميـ ـد ولا بالنخيل ولا بالعُشر
ولكن قتاد عديم الجناة كثير الأذاة أبى غير شر

ما فيهم بر ولا ناسك إلا إلى نفع له يجذب
أفضل من أفضلهم صخرة لاتظلم الناس ولا تكذب

أما المعتقدات فقد طاف بها طواف خبير بصير فانتهى به المطاف الى الاعتقاد بوجود خالق حكيم متصف بجميع صفات الكمال منزه عن جميع صفات النقص :

اثبت لي خالقاً حكيماً   ولست من معشر نفاة

عجبي للطبيب يلحد في الخا   لق من بعد درسه التشريحا

اذا كنت من فرط السفاه معطلاً   فيا جاحد اشهد أنني غير جاحدِ
اخاف من الله العقوبة آجلاً   وازعم أن الأمر في يد واحدِ

الله حق وابن آدم جاهل   من شأنه التفريط والتكذيب
واللب حاول أن يهذب اهله   فاذا البرية ما لها تهذيب

اما النبوات واليوم الآخر فانه كان يدور فيها في ليل من الشك فتارة يقف على مطمئن من الاثبات وتارة يندفع الى شفا الانكار فبينا نسمعه يقول :

دعاكم الى خير الامور محمد   فليس العوالي في القنا كالسوافل
حداكم على تمجيد من خلق الضحى   وشهب الدجى من طالعات وآفل
فصلى عليه الله ماذر شارق   وما فت مسكاً ذكره في المحافلِ

ويقول :

أحسن بهذا الشرع من ملة   يثبت لا ينسخ فيما نسخ

ويقول :

وجدنا اتباع الشرع حزماً لذي النهى   ومن جرب الأيام لم ينكر النسخا
ومن يعف عن ذنب ويسخ بنائل   فخالقنا اعفى وراحته اسخى

ويقول :

وقدرة الله حق ليس يعجزها   حشر لخلق ولا بعث لأموات
ولا تطيعن قوماً ما ديانتهم   إلا احتيال على أخذ الاتاوات

ويقول :

ما اقدر الله أن تدعى بريته ... من تربهم فيعودوا كالذي كانوا
قد يمكن البعث ان نادى المليك به ... وليس منا لدفع الشر امكان

ويقول :

وان طال الرقاد من البرايا ... فان الراقدين لهم مهب

فبينا هو كذلك اذ نسمعه يقول :

إن الديانات القت بيننا احناً ... وعلمتنا افانين العداوات

ويقول :

إن يصحب الروح عقلي بعد مظعنها ... للموت عني فأجدر أن ترى عجبا
وإن مضت في الهواء الطلق هالكة ... هلاك جسمي في تربي فوا شجبا

ويقول :

واوصال جسم للتراب مآلها ... ولم يدر دارٍ اين تذهب روحها

ويقول :

قلمت ظفري تارات وماجسدي ... الا كذاك متى ما فارق الروحا

ويقول :

ايرجون ان اعود اليهم ... لا ترجوا فانني لا اعود
ولجسمي الى التراب هبوط ... ولروحي الى الهواء صعود

ويقول :

وروح الفتى اشبهت طائراً ... اطير فما عاد لما نفر

ويقول :

وجبر وكسر له في الزمان ... ويكسر يوماً فلا ينجبر

ويقول :

سنؤوب في عقبى الحياة مساكنا ... لا علم لي بالأمر بعد مآبها

ويقول :

لو جاء من اهل البلى مخبر ... سألت عن قوم وأرخت
هل فاز بالجنة عمالها ... وهل ثوى في النار نوبخت

ويقول :

لا حس للجسم بعد الروح نعلمه فهل تحس اذا بانت عن الجسد

ويقول :

أرى قبساً في الجسم يطفئه الردى وما دمت حياً فهو ذا يتلهب

وفي هذا ما فيه من الحيرة الحائرة التي تجهد العقل وتكده ثم تتركه يدور في متاهات المجهولات وآخر ما قرأت له في هذا الباب قوله :

اقيم خمسي وصوم الدهر آلفه وأدمن الذكر ابكاراً بآصال
عيدين افطر في عامي اذا حضرا عيد الأضاحي يقفو عيد شوال
واعبد الله لا ارجو مثوبته لكن عبادة اكرام واجلال
اصون ديني عن جعل اؤمله اذا تعبد اقوام بأجمال

على انه كبير الثقة بأن الدين بمجموعه إنما هو وسيلة لتهذيب النفوس وصقلها وتصفية الأرواح من ادران الشرور والسمو بالاخلاق الى اوج الكمال :

صم ثم صلّ وطف بمكة زائراً سبعين لا سبعاً فلست بناسك
جهل الديانة من اذا عرضت له اطماعه لم يلف بالمتماسك

ما الخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وانما هو ترك الشر مطرحاً ونفضك الصدر من غلٍ ومن حسدِ

توهمت يا مغرور انك ديّن عليّ يمين الله مالك دين
تسير الى البيت الحرام تنسكاً ويشكوك جار بائس وخدين

لعل اناساً في المحاريب خوفوا بآي كناس في المشارب اطربوا
اذا رام كيداً في الصلاة مقيمها فتاركها عمداً الى الله اقرب

والدين انصافك الاقوام كلهم واي دين لآبي الحق إن وجبا

ونظر في الحياة فرأي انها صلة بين روح وجسد وانها عبء ثقيل وانها

مجموعة من التكاليف المضنية وان التخلص منها ربح وفوز مبين :

وما العيش الا علة برؤها الردى   فخل سبيلي انصرف لطياتي

ويقول :

كأس المنية اولى بي واروح لي   من أن اكابد اثراءً واحواجا

ويقول :

العيش افقر منا كل ذات غنى   والموت اغنى بحق كل محتاج
اذا حياة علينا للأذى فتحت   باباً من الشر لاقاه بارتاج

ويقول :

رب روح كطائر القفص المسجو   ن ترجو بموتها التسريحا

ويقول :

متى الق من بعد المنية اسرتي   اخبرهم أني خلصت من الأسر

ويقول :

صمت حياتي الى مماتي   لعل يوم الحمام عيد

ويقول :

ان السيوف تراح في اغمادها   وتظل في تعب اذا لم تغمد

ويقول :

ضجعة(١) الموت رقدة يستريح الـ   ـجسم فيها والعيش مثل السهاد

ويقول :

تعب كلها الحياة فما اعـ   ـجب إلا من راغب في ازدياد

ويقول :

إن يقرب الموت مني   فلست اكره قربه
من يلقه لا يراقب   خطباً ولا يخش كربه

ويقول :

ايا جسد المرء ماذا دهاك   وقد كنت من عنصر طيب
تصير طهوراً اذا ما رجعت   الى الاصل كالمطر الصيب

ويقول :

اذا افترقت اجزاؤنا حط ثقلنا ونحمل عبأً حين يلتئم الشعب

ونظر في موقف الانسان تجاه سائر انواع الحيوان فحكم على الانسان بأنه معتدٍ أثيم لا يشبعه الكثير مهما كثر ولا يقف في وجه مطامعه واقف مهما قوي يفترس الوادع من الحيوان ويعتدي على دره وبيضه وسائر نتاجه واعلن أن عمله هذا ظلم مشين واعلن اكثر من هذا فحرض الغراب على مقابلة الاعتداء بالاعتداء قائلاً :

جر يا غراب وأفسد لا ترى احداً الا مسيئاً واي الخلق لم يجر
فخذ من الزرع ما يكفيك عن عرضٍ وحاول الرزق في الأعلى من الشجر
لو كنت حارس اثمار لهم ينعت ثم اقتربت لما اخلوك من حجر

بل اعلن العطف والرقة على الحشرات المؤذية فهذا هو يقول :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا
لافرق بين الأسك الجون تطلقه وجون كندة امسى يعقد التاجا

ولسنا نريد استقصاء آراء ابي العلاء في الانسان وما يحيط به من العوارض وانما نريد أن نشير الى أنه نهج في شعره نهجاً مبتكراً واتخذ له موضوعات حية باقية فجاء شعره جامعاً بين الابتكار في الموضوع وبين العمق في التفكير والصراحة في التعبير والبراعة في التصوير وان شعراً يجمع بين هذه العناصر الحية لجدير بالبقاء ما بقيت اغراضه وموضوعاته حية ماثلة وما بقي الفن الذي ابرزه حياً ماثلاً ، وليس غرضي أن اقصر الخلود على شعر شاعرنا الفيلسوف وانما اريد أن اقول ان كل شعر يجمع بين العناصر التي جمعها شعر ابي العلاء من حيوية الموضوع وعمق التفكير وصراحة التعبير وبراعة التصوير فانه لخليق بالعيش الطويل .

سلك ابو العلاء هـــذا الوادي من الشعر وترك الشعراء في اوديتهم يهيمون يحبرون قصائد الثناء استدراراً لأكف اهل الثراء ويطيلون الهجاء لمن يمنعهم العطاء ويرثون من لا يعرفون ويتهافتون في العبث والمجون تركهم

في ذلك وانصرف الى درس احوال الانسان وما يحيط بـه من خير وشر فأخذ يقرر ويصور ويخترع ويبدع ، فمات الكثير من شعر اولئك الشعراء المنطوي على الثنـاء الزائف والهجاء الباطل والرثاء الـكاذب بموت اولئك الممدوحين والمهجوين ، وبقي شعر شاعرنا حياً يطاول ويصاول ويجاهد ويجـالد ، فان رأينا بعض شعر المديح والهجاء والرثاء والمجون يعيش فانما ذلك لما يحمل معه من نادر الصفات الفنية وطريف المعاني الأدبيه أو لما يتخلله من الموضوعات الخالدة الباقية فانني ازعم أن قصيدة المتنبي التي هجا بها ابن كيغلغ :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم ... عرضاً نظرت وخلت اني اسلم

لم تتداولها الألسن إلا لما انطوت عليه من بارع الحكم ذات الموضوع الحي الباقي وما عليك إلا أن تنظر في قصيدة ابي العلاء نفسه التي مطلعها :

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي ... نوح باك ولا ترنم شادي

فانك تجد جمهرة المتأدبين يحفظون صدرها ولا يعرفون من سائرهـا إلا النزر اليسير وما ذاك إلا لأن صدرها حيوي الموضوع خالد الأثر على الزمن واما باقيها فانه كسائر شعر الرثاء يزيد عليه أو يساويه .

واني لأزعم أن الكثير من شعر أبي العلاء لم تنكشف مخبآت معـانيه لمعاصريه لبعد ما بين عقليته وعقليتهم وفرق ما بين نظرته ونظرتهم خذ مثلاً على ذلك قوله في ساسة زمانه :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... وعدوا مصالحها وهم اجراؤهـــا

فان كلمته هذه مع صراحتها لم يتوضح معناها جلياً الا في هذه العصور المتأخرة عندما ذر قرن الديمقراطيات في الغرب ثم في الشرق مع أن رجال النهضة الاسلامية الأول كانوا يدركونها ويعملون بمقتضاها ولكن تتابع القرون وتتابع الكوارث طمست معالمهـا حينـاً من الدهر . وسيبقى كثير من شعر أبي العلاء كامن المعاني الى أن تفسره اعمال الاجيال المقبلة واحوالها لأن الرجل كان ينظر الى الحقائق بمجهر متقن الصنع فيرى

الكثير مما يخفى على غيره ولا يظنن ظان أننا عندما نكبر في أبي العلاء عقله الجبار وعبقريته الفذة ندعو الى اعتناق مذاهبه كلها لاننا اذا اكبرنا فيه اكباره للعقل وشغفه بالخير ودعوته الى الحرية على اختلاف ضروبها والعدالة والمساواة بأدق مقاييسها والى التحلي بكل خلق كريم والتخلي عن كل عمل رذيل . واذا اكبرنا فيه اتساع معارفه في علوم الكون والشرائع وفنون الآداب فاننا لا ندعو الى اعتناق مذاهبه في الحياة المتقشفة الجافة وهجر جميع متع الحياة البريئة والدعوة الى الزهد في زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق والتبرم بالحياة واستثقال اعبائها فان الأحوال التي اكتنفت حياته جعلته جزوعاً كثير الضجر عديم الامل رزيء المنى وهذه كلها من خويصات نفسه لا يجمل بأبناء هذا العصر ولا سيما الناشئة منهم أن ينحدروا معه ويتخذوا منه قدوة فيها فان الله جل وعلا خلق لهم مافي الأرض جميعاً ليتمتعوا بالحلال الطيب وينعموا بالعيش الرافه الهنيء « قل من حرّم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق » ..

طه الراوي

الفيلسوف

ملعبَ الدهرِ لو ملكنا هدانا لبلغنا من الحياة مُنانا
سبقَتْنا إليك احنحة الشوقِ وشقتْ لنا سبيل خطانا
وتلقيتنا بسمة إشفاق وطوّقتنا رضىً وحنانا
ودرجْنا معَ الشروقِ نغنيـ ـكَ ونسقي سمعَ الدُّنى ألحانا
وحنين المجهولِ ، أخيلةٌ تُنـ ـبت من كل صخرةٍ ريحانا
أي زاد سوى الظنون حملنا ؟ وتركنا الى هواها العنانا
كلما اوغلت ركائبنا ضاق على زحمة الدروب مدانا
واحتوانا من كل صوب ضباب يرجع الطرف خاشعاً حرانا
أتريد الوجودَ منهتك السترِ يرينا اسراره عريانا
ويفض الفدام عن قلبه السمـ ـح ويجريه للعطاش دنانا
لو بلغنا ما نشتهي لرأينا الله في نشوة الشعور عيانا
نحن نسج الثرى فما لأمانينا على كل كوكب تتفانى
تلك اقدامنا تعثر بالاعـ ـشاب حيناً وبالحصى احيانا
وظلال الغروب ، دون مدى الـ ـطرف ، الى رهبة اللقا تتدانى
نشطت قبلنا مواكب شتى وزامت خضيبة خذلانا
وبقايا اشباحها من رؤى الهـ ـموم او هي تماسكاً واقترانا
تغمز الهاجس الرهيف فما يبلـ ـغ صدقاً منها ولا بهتانا
وخفي الوجود ما انفك لا ينـ ـبض قلباً ولا يرف لسانا
طلبته عين الخيال ولما لمحته تكسرت أجفانا

ملعب الدهر إن رجع حنين من اقاصيك ارهف الآذانا
واستفز الاجيال من حجرة الغـ ـيب فهبت تمزق الاكفانا

وتهادت تقل موكب فكر يسحب الشهب خلفه اردانا
قام عنه ابو العلاء ، وقام الموت مستنزف الاباء جبانا
قد طواه الزمان حتى اذا الخلد اجتباه أطل يطوي الزمانا
ذاك تجواله كأن انطلاق الروح فيه لم يستطب ميدانا
بين شك مروع ويقين مطمئن ما يأتلي حيرانا
وهو في حالتيه قيثارة زهراء تروي نشيدها الفتانا
وقف الشرق بعدلأي لتذكار صداها مرنحاً نشوانا

يا أخا الحكمة السنية هل نلت على سدة الخلود أمانا
كيف ألفيت عالماً لم يفتح مرود النور جفنه الوسنانا ؟
هل محا بسمة الكآبة عن فيك واردى في صدرك الاحزانا
وهدى خاطراً ، وزان لساناً وسبى مقلة ، وارضى جنانا
كم تهاوت من دونه روحك الحرى وسالت جراحها الحانا !
عالم الوهم نحن صغنا رؤاه واردناه ان يكون فكانا !
لست تسطيع ان تكون إلاهاً فاذا اسطعت فلتكن إنسانا

لمن الارض إن سلاها بنوها وتناسوا سخاءها المتانا
وهبتنا من قلبها خفقة القلب وشدت بساعديها قوانا
واباحت لنا جناها واعطت فوق ما افق حلمنا اعطانا
فهي مرآتنا ، ومرآة مسرانا ومرآة سخطنا ورضانا
ما بكينا نفارها إنما العجز على صرخة الحنين ، بكانا
اي قلب حملته بين جنبيك ووالاك طيباً اسوانا
طالعته الحياة مشبوبة الانفاس تذكي دماءه اشجانا
مر من وهجها الملح فما هدّ هدّ شوقاً ولا شفى حرمانا
كنت في حبك المجرد لا تحبس عن كل معتف احسانا

أمنَ الحبِّ انْ تدار عليكَ الكأسُ ملأى وتنثني ظمآنا
ما العزاء الذي نحرتَ لهُ العمـــرَ وقدَّمتهُ لهُ قربانا ؟
أتصباك موردٌ من وراءِ الـــغيبِ تغشى نعيمهُ جذلانا
كنتَ تدري انَّ الهناءَة طيرٌ لاحَ في دوحةِ الحياة وبانا
يا لزهوِ الصبا نظرتُ بعينيه الى العيشِ مورقاً ريانا
ماعرفتُ ارتعاشةَ الكفِّ بالكأس اذا كانتِ المنى ندمانا
هيكلي الرحب كل اهواء نفسي في ذراهُ اقمتها أوثانا
سوف امضي كما مضيتَ وندري في حمى الروحِ اينا اشقانا

يا أخا الحكمةِ السنية هلْ منـــكَ التفاتٌ الى صدى نجوانا
سلسلتها على الحناجرِ ذكرا كَ وقرَّتْ في كلِّ سمعٍ بيانا
منك اشراقها ، ولولا الجذور الخضرُ ماهزَّتِ الصبا اغصانا
أتخافُ الاصغاءَ انْ يجرحَ الهدأةَ او انْ يصوغها اشجانا
قدْ يحنُّ الطريدُ للربعِ مهما سامهُ الربعُ شقوةً وهوانا
هذه الدارُ كم سئمت بها العيـــشَ وكم ذقت مرَّها ألوانا
سرحتْ في ضلوعها شيعُ النســـلِ فنزتْ ضلوعها ادرانا
وتعالتْ صيحاتكَ الحرُ تهدي لو أصابتْ اصداؤها آذانا
وتلقيتها اسىً فتلقتْ اسداً في قيودهِ غضبانا
فتواريت عنْ عيونٍ مراضٍ خلتَ الحاظها عليكَ سنانا
وطويتَ الايامَ في عزلة الرهـــبان لم تحتسبْ لها حسبانا
قدْ تجفُّ الحياةُ ، إلاَّ وريداً ويضيقُ الوجودُ الاَّ مكانا

كيف تفترُّ عنْ رضى ولياليـــكَ اقامتْ عليكَ حرباً عوانا
وعجافُ الرجال ارفعُ منكَ قدرا في غيهمْ وانبه شانا ؟
طالما كنتَ مبصراً في دياجيـــك وكانوا في نورهمْ عميانا

اسرجوا صهوةَ المذلةِ وانقضوا ... على مثخنِ الجراحِ طعانا
واستباحوا مالَ الضعيفِ عتوّاً ... واهانوا حرماته طغيانا
وأزاحوا عن المنابر احراراً ... فهزّتْ اعوادُها عبدانا
وتمشوا لدى الاعاجمِ حملانَ ... وسابوا في قومهمْ ذؤبانا
هذه الزمرةُ التي في حِماها ... وقفَ الملكُ مطرقاً خزيانا
ما اظنُّ العصورَ مرّتْ عليها ... فتلفتْ اما تراها الآنا ! ! !

يافؤاداً من المراحمِ نبضاتِ ... ومنْ جامدِ السنا شريانا
مرجلُ الحقد لم تلامسه كفٌّ ... الحبّ الا ادمى لظاهُ البنانا
لمْ يزلْ شرّبُ النجيع سكاري ... يتبارونَ حولهُ عدوانا
طرفوا مقلة السماءِ وأدموا ... كبدَ الارضِ عثيراً ودخانا
ما ألانتْ قلوبهم ادمعُ الايـــتام اوْ هزّهمْ انينُ الحزانى
فضحاياهمُ تمورُ على الرملِ ... المدمى وتعتلي صلبانا
كلهمْ في وليمةِ البغي يخشى ... أنْ يرى جوفَ غيره ملآنا
والحجى بينهمْ شراعٌ على الدأماءِ ... لايرتجي لهُ شطآنا
قلْ لتلكَ الحمائمِ البيضِ : طيري ... فالخطايا تدفقتْ طوفانا ! ! !

أأناجيك يامجيّ الدراري ... وأغنيك أغنياتي الحسانا
إنّ آفاقكَ البعيدةَ لاتطلقُ ... للخاطر الحبيسِ عنانا
حسبك المجد ان ترى كلّ يومِ ... لاغانيكَ عندهُ مهرجانا ! !

عمر ابو ريشة

الاضطراب السياسي في عصر أبي العلاء

وأثره في بيئته وشعره

عاش شاعرُنا الفيلسوف في فترات الانهيار السياسي — في تلك الفترات السود التي تصدّعت فيها السيادةُ العربية على مذبح الشهوات التي كانت تضطرم في صدور المتغلبينَ منَ الديلم ومن إليهم من الأعاجم المتسلطين. نعم، عاش شاعرُنا في نهاية هذه الفترات والبلاد العربية تعصف بها الزعازع وتهزها الاعاصير. فكان الحكمُ في بغداد غيرَه في مصر، وفي بلاد الشام غيرَه في القطرين المتنابذين، وهو في أقصى المغرب، في الاندلس، وفي شمال افريقية غيرُه في الاقطار العربية الثلاثة — كل شيء قد تعرّض للميوعة والتفكك، ففسدَتِ الحياةُ السياسية، وفسدتِ الحياة الاجتماعية حتى أصبحتِ الدنيا العربيةُ وكأنها على بركان.. دولٌ مختلفاتُ المنازعِ والاهداف قد انتثرت في الرُقعةِ الاسلامية الكبرى، نزعاتٌ فردية في إهاب من المطامع الصارخة تجيش في كل صدر، جمعياتٌ سرية تستهدف غايات مريبة، مذاهبُ جديدة هدّامة ترمي إلى نزعاتٍ سياسية خطيرة — كل شيء قد فسد واضطرب، وأبو العلاء ينظر إلى هذه التيارات الجارفة نظرةَ الفيلسوف الانساني المتألم وقد أشفق — وهو الحكيم البعيد النظر — ان تنهار هذه الامبراطوريةُ الكبرى في الفترة التي وصلتْ فيها الحياةُ العقلية إلى الذُروة، وأن يكون لبيئته النصيبُ الأوفرُ من مأساة هذا الانهيار..

ولعلّ من أدق الأمور التي تستدعي انتباه الباحثين أن تجريَ احداث الحياة منذ فجر التاريخ الاسلامي في الاقطار العربية الثلاثة — مصر والشام والعراق — على غرار واحد من الانشاء أو التهديم، من النظام أو الفوضى فما يجري اليومَ مثلاً من تجاوبٍ بليغ للنهوض والتحرر والتطور والتماسك كان يجري بالامس، في تلك الفترة، وفي نفس هذه الاقطار بالضدّ،

من تنافس وتناحر وتنازع وتخاذل وثورات وفتن أدّت إلى انهيار سحيق ذاق العربُ مرارته طويلاً عبرَ القرون .

هذا التنازُع الذي كان طابع الحكومات الاسلامية في عصر أبي العلاء هو الذي قضى على ما كان للخلافة من السلطان السياسي — ذلك السلطان الذي تجاذبته مصر وبغداد مدةً غير قصيرة .

كانت بغداد خاضعةً للديلم أو للأسرة البويهية التي حكمتِ العراقَ وفارسَ حكماً اوتوقراطياً فيه هذا التكالبُ على السلطةِ والمال ، وهذا التزاحم على المجد والسلطان ، وهذا الصراعُ الدامي بين أبناء العمومة وحتى بين الأخ وأخيه . وإذ كان للخلافة هذا السلطان الداوي في الرُقعة الاسلامية الكبرى ، وكانت النفوس تتطلع إلى بريق سلطانها كقوةٍ من القوى الروحية والزمنية معاً ، كان من البداهة بمكان ، وقد تقلص ظلها في بغداد ، أن يطمح إليها الفاطميونَ بعد أن ملكوا مصر .

وللفاطميين هذه الدعوى التي تربطهم بآل البيت . فقد ادّعوْا هذه الوشائجَ القويةَ بين نسبهم ونسبِ فاطمةَ بنتِ الرسول ، ورغم ماقامت به بغدادُ من الاحتجاج الصارخ على هذه الدعوى الباطلة ، وما تبع ذلك من احتجاج بعض المنتسبينَ إلى آل البيت في القاهرة نفسها وطلبهم الحجة الساطعة على هذا البرهان فقد أثبتوا هذه الدعوى بقوةِ السيف وبريق الذهب ، وكلمة المعزّ لدين الله يذكرها كلُّ من قرأ تاريخ الفواطم : أتريدون البرهان على نسبي ؟ هاكم فاقرأوه :

سلّ نصفَ سيفه من غِمده وقال لهم : هذا نسبي !

ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال : هذا حسبي ! . .

ماذا كان موقفُ المعارضين من هذين البرهانين القاطعين ؟

كان جواب الجميع : السمعَ والطاعة !

وانتهت ذيول هذه الحركة عند هذا الحد ، وأصبحتِ الخلافة في مصرَ أقوى منها في بغداد ، وأخذتِ الدعوة العباسية تنكمش في حدود ضيقةٍ بعد أن أصبح الخليفةُ الشرعي في بغداد ، العوبةً في أيدي الامراء البويهيين المتسلطين .

والشام — وأريد بيئة المعري — ماذا كان شأنها في جون هذه الاحداث ؟

كانت مسرحاً لفتن وحروب متعاقبة لعلّ اقربها إلى عهده تلك الحروبُ والغزوات التي أثارها الامير سيفُ الدولة توطيداً لكيان العربي وصوناً لثغور الشام من الغزو البيزنطي . . وإذا كانت الايام لم تسعد المعري ان يرى المجد الشامخ الذي شادَه الاميرُ الحمداني في السياسة القوميَة والحياة العقلية ، فقد شاهد ، وهذا مازاد في محنته ، لوناً من ضعفِ السياسة وفساد الرأي في ابنه سعد الدولة ، وفي حفيده أبي الفضائل ، وإذا تركنا الكلام عن ابن سيف الدولة لأن ملكه لم يطل ولم يتميز بالاحداث الخطيرة فنرجو أن يطول حديثنا قليلاً عن حفيده أبي الفضائل ، فقد انتهى حكم الدولة الحمدانية والدنيا العربية على ماوصفنا ، ولم يكن أبو الفضائل كجدّه بل كانت مطامحه منحصرة بالملك دون أن يعطي للمملكة حقها من التضحية والبذل ، أي كان يريد أن يحتفظ بصولجان الملك رخيصاً ، وكانت أهدافه تختلف كل الاختلاف عن أهداف جدّه ، هذا يفكر بمجد امته وبلاده ، وذاك بمجده الشخصي ، والفرق جدُّ بعيدٍ بين الاتجاهين . . وإذ كانت بلاد الشام تتمتع بالحكم الذاتي على أيدي امراء مختلفي المنازع والاهواء فقد فكر الفاطميون بضمها إلى مصرَ لاسيما بعد أن تضاءل سلطان بغداد الروحي كما تضاءل سلطانها السياسي . .

وقد عزّز هذه الفكرةَ الرغبات التي أثارها بعض زعماء حلب الناقمين على حكم أبي الفضائل من جهة واغراء الوزير المغربي للخليفة الفاطمي بوجوب الاستيلاء على حلب واطرافها من جهة اخرى ، ونزلت هذه الرغبات من نفس عزيز مصر منزلةً طيبة فجهز حملةً كبرى إلى بلاد الشام لضمها إلى المملكة الفاطمية . وناط أمرَ هذه الحملة باحد غلمانه الاتراك الذي استطاع أن يخضع البلادَ الشاميةَ كلها دون حلب التي امتنعتْ على مصر للخطة المزرية التي انتهجها أميرها . . ماذا ؟ استغاث أبو الفضائل بباسيل الثاني امبراطور الروم لمحاربة الفاطميين . . وبذلك فقد اقترف أكبر غلطةٍ سياسية بهذه الصلات التي خلقها مع أعداء البلاد الطبيعيين ، فهدم الحفيد بيديه الاثيمتين مابناه الجدُّ . أي هدم هذا ؟ لقد مدّ يدَه إلى الاجنبي — تحقيقاً للنزوات الشخصية الهائجة والانانية السوداء — وقال له :

إن البلاد مفتوحةُ الصدر لكم . فهيا ادخلوها مطمئنينَ بل أن يزيلني ملك مصر الفاطمي عن عرش آبائي وأجدادي . .

وتتالت الاحداث والحروب مدة أربع سنوات كاملة بين البيزنطيين والفاطميين كتب فيها النصر للفاطميين أولاً ثم للبيزنطيين الذين بسطوا سلطانهم على بلاد الشام بفضل هذه المعاهدة أو بفضل هذا الخضوع المزري لاعداء الدين واللغة والعادات والوشائج والدم . ولم يقف الفاطميون موقف المتفرج من هذه الاحداث بعد أن مست سلطتهم بل جهزوا حملة ثانية لدفع البيزنطيين عن بلاد الشام فنجحوا وسقطت حلب في أيدي الفاطميين الذين قضوا على السياسة الخرقاء التي انتهجها أبو الفضائل الذي اعتمد ، مع وزيره لوءلوء ، على الاجنبي في توسيع شقة الخلاف بين مصر والشام .

وهكذا ، فقد مثلت في تلك الفترة ، وفي بيئة المعري ، رواية من أفجع مآسي التاريخ ، هي نتيجة هذا الاضطراب السياسي الذي ساد البلاد العربية كلها . فقد كانت الاطماع تتهدد بلاد الشام من الشمال ومن الجنوب ، أما أطماع الجنوب ، فمها قيل عنها ، فهي في اعتقادي ، هينة يسيرة ، هي اطماع الفاطميين الذين يحكمون مصر ، وهم يمتون إلى العروبة بنسب عريق . . أما اطماع الشمال فهي السيفُ يحزُّ العنق — اطماع الاعداء الطبيعيين لهذه الاوطان التي حماها سيفُ الدولة فترة غيرَ قليلةٍ من مطامعهم فجاء أبو الرذائل — أريدُ حفيده المسمى أبا الفضائل — يفتح صدره لهم ، ويمهد الاسباب لدخول أعظم ثغور المملكة الاسلامية .

وكتب التاريخ لتقصّ لنا هذه الفترات بما يدمي القلبَ ويدمع العين . وليس كالاديب رجل تعاف نفسه شروزَ السياسة وشرور الحروب والقتال . . وقد فكر في بقعةٍ تكون في معزلٍ عن هذه الشرور ، فرأى بغداد أهدأ حالاً من الشام ، وهي إلى هذا كعبةُ العلم والادب ، فشدّ إليها الرحال ، ومكث فيها سنةً وبعضَ سنة فما الذي أفادَه من هذه الرحلة التي تركت في نفسه أجمل الذكريات ؟ لقد خرج بفكرة لاغموض فيها ، وهي ان الانسان بالرغم مما لقيه من كرم البغداديين وحسن وفادتهم — هو هو في جبلته وطبيعته

وان الحكام هم هم في كل مصرٍ ووطن . وانتهى إلى الرأي الذي يتلاقى وروح فلسفته الحزينة التي تقوم على الشك واليأس :

إن العراقَ وإن الشام مذ زمن صفران مابها للملك سلطان
ساس الانام شياطين مسلطةٌ في كلّ مصر من الوالين شيطان

وعاد إلى وطنه ، وإذا التنافس على أشده ، وحلب تشهد من جديد هذا الصراع الدامي في أرضها ، وشهد ابو العلاء هذا الصراع بين احفاد الحمدانيين أو غلمانهم والمتغلبين من اعراب الشام وعلى رأسهم صالح بن مرداس ، ثم بين المرداسيين والفاطميين ، وأخيراً بين المرداسيين وغلمانهم الذين ثارت في نفوسهم شهوة الحكم أيضاً مما لايسمح المجال لان نقصّ تفاصيله باسهاب . . نعم ، شهد فيلسوفنا الحكيم هذا الصراعَ الداميَ المتعاقب ، وبديهي ان تؤلمه هذه الاحداثُ وان يكون لعواملها الاثرُ الاكبرُ في فلسفته وأدبه .

فأبو العلاء أديب حساس ، وشاعر عميق التفكير ، وفيلسوف حر ذو نظرة نافذة ، رأى وطنه نهباً للاهواء والشهوات ، ورأى البلاد العربية وقد انتهتْ إلى ما انتهتْ إليه من الضعف والاضطراب والفوضى ، بديهي أن يؤثر ذلك في أدبه ، وأن تشيعَ روحُ السخرية في هذا الادب ، وان يقسوَ قسوةً مرة على من يظهرون بصورٍ من ملائكة الرحمن بينا هم ابالسة في إهاب انسان .

لقد آلمته هذه الاحداث العاتية التي هزّتِ البلادَ العربية من أقصاها إلى أقصاها . . ولعله فكر بالنزوح عن وطنه . . ولكن إلى أين والدنيا العربية في لهيبٍ محترق من الفوضى . لقد فكر بالهجرة إلى الحجاز . . ولكنْ :

أما الحجاز فما يرجى المقام به لانه بالحرار الخمس محتجز
والشامُ فيه وقود الحرب مشتعلٌ يشبه القوم شدّتْ منهم الحجز
وبالعراق وميضٌ يستهل دماً وراعد بلقاء الشرّ يرتجز

إلى أين يذهب ؟

كل البلاد ذميمٌ لامقام به وإن حللتَ ديار الويل والرهم
ان الحجاز عن الخيرات محتجز وما تهامةُ الا معدنُ التهم
والشام شؤم وليس اليمن في يمن ويترِبُ الآن تثريب على الفهم

كان يفكر فيلسوفنا بالهجرة الى اية بقعة عربية قد خلت من فساد عصره ومخازيه وقد ودَّ اكثرَ من مرةٍ الخلاص من هذا المأزق .

كيف التخلص والبسيطة لجةٌ والجوُّ غيمٌ بالنوائب يسجم
فسد الزمان فلا رشاد ناجم بين الانام ولا ضلال منجم

إلى أين يذهب وكل أرض قد ملئت بالمفاسد والشرور ؟ قبع في بيته ، في سجنه الضيق ، وأخذ يرسل صيحاته الصادقة في تصوير طباع البشر — طباع اولئك المسيطرين على دفة السياسة ، المتربعين على دست الحكم وقد نسوا أمنيات شعبهم ، ونسوا اولى واجباتهم كخدام للمصلحة العامة ، فكانوا مطية الاهواء ومطية الشهوات دون أن يفكروا بالمسئولية الكبرى الملقاةِ على عاتقهم وهي خدمة الشعب وانهم اجراؤه لا أسياده .

مُلَّ المقام فكم أعاشر امة امرتْ بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

وليس كالمعري أديب شاعر عرف سجايا النفس البشرية وطواياها فوصفها أبلغ وصف ، كما وصف هذه الشهوات التي كانت لاتعرف غير النهب والاستلاب فكان رغم عزلته ، ذا اتصال مباشر بهذه القضايا التي تشغل الشعب سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الخلقية .

في الواقع ، ان ابا العلاء قد اعتزل البشر ، ولكن هل كان هذا الشيخ الوقور الذي يعتبرُ حكيمَ العصر وفيلسوفه بحق ، بعيداً عما يمثل على مسرح البشرية ؟ . . أبداً . ان عزلته لم تحصنه عن شكاوى الافراد والجماعات ، وكانت شخصيته الفذّة تجتذب الناس على اختلاف طبقاتهم إلى سجنه المتواضع ، يحلُّ قضاياهم ومعضلاتهم ، ويتوسط لدى أولي الأمر برفع ظلاماتهم ، وقصةُ عصيان أهالي المعرة على سياسة أمير حلب صالح بن مرداس ، والقائه القبض على سبعينَ شخصاً من زعمائها ، وتجهيز حملةٍ للقضاء على مثيري تلك الفتنة ، ولجوء كبار القوم الى أبي العلاء ليشفعَ لهم لدى صالح وقبول ابن مرداس شفاعته ان هذه القصة تدُلُّ دلالة بالغة على انه كان على اتصال بما يجري على مسرح السياسة ، وان القوم لم يتركوه يتمتع بعزلته ، وهذا ما كان له اكبرُ الأثر

في ادبه ، ولو اعتزل البشر حقاً كالرهبان المتبتلين أو الصوفيين المتجردين لكان لون أدبه يختلف كل الاختلاف عن هذا اللون المغموس باعماق النفس البشرية .

وفي اللزوميات وفي رسائله نقرأ الكثير من هذه الممزات التي تصف اضطراب السياسة ، وسوء الادارة ، وفسادَ الحكم .

فالسياسة التي تسير على الاهواء والنزوات ، ولا تستند على الفكر الرجيح المتزن ـ هي في نظره ـ سياسة خرقاء . .

واذا الرئاسةُ لم تعنْ بسياسة عقلية خطيءَ الصوابَ السائسُ

يسوسون الامورَ بغير عقلٍ فينفذُ امرهم ويقالُ ساسه
فأفٍّ من الحياة وافٍّ مني ومن زمنٍ رئاسته خساسه

هذه السياسةُ المضطربة التي غمرت بيئته وكلَّ بقعة من الأرض العربية هي التي كانت تستثيره ليصف هذه الاهواء الجامحة . كان يشير الى روح الطغيان في نفوس المتسلطين الذين يريدون ان تخضع الرعية لأهوائهم رغم مايقومون به من مظالم .

يسود الناسَ زيدٌ بعد عمرو كذاك تقلب الدولات دوله
ومن شر البرية ربُّ ملك يريد رعية ان يسجدوا له

لقد تساءل اكثر من مرة كيف لايثور الشعب ضدّ تلك السياسه الغاشمة ؟ كيف يدفع الافرادُ الضرائب والمكوس وهم يشاهدون ملوكهم وقد أصبحوا عبيد الشهوات واللذاذات . .

وارى ملوكاً لاتحوط رعية فعلامَ تؤخذ جزية ومكوس ؟

وجدتُ الناس فيهرجٍ ومرجٍ غواةً بين معتزلٍ ومرجي
فشأن ملوكهم عزفٌ ونزفٌ واصحاب الامور جباةُ خَرج

أتعجب من ملوك الأرض امسوا للذات النفوس عبيد قنّ

فياالذلك العصر الذي عاش في صميمه ، لاهمّ لملوكه وزعمائه الا لذاذاتهم واهواؤهم ، والاّ مصادرة اموال الناس وإشاعة الفوضى في البلاد ، والزيغ في قرارة النفوس ـ هذا العصر المضطرب الذي عاش في اعاصيره وأهوائه قد جعله ،

ونفسه اميل الى التشاؤم ، ان ينظر الى الدنيا هذه النظرة السوداء ، وان يراها على حقيقتها ، اي ان يرى شرورها أغلب . .

عرفتُ سجايا الدهرِ اما شروره فنقدٌ ، واما خيره فوعود
اذا كانت الدنيا ، كذاك فخلها ولو ان كل الطالعات سُعود
رقدنا ، ولم نملك رُقاداً عن الاذى وقامت بما خفنا ونحن قعود

قالوا فلان جيد لصديقه لايكذبوا . . مافي البرية جيد
فأميرهم نال الامارة بالخنى وتقيهم بصلاته متصيد

لقد سئمت نفسه هذه المخازي ـ هذا التنازع على إماراتٍ كاذبة ، هذه المذاهب الاجتماعية والسياسية التي شاعت في عصره والتي كانت في مظهرها ذات رواء جميل . . ولكن من هم رجالها ؟ ممن لاتطمئن اليهم النفوس . . من صميم الشعوبيين . . كان يرى في هذه المذاهب الشائعة التي سادت عصره وسيلةً للسيطرة والحكم . . فما كان اصحابها ليقصدوا المثل العليا في مذاهبهم التي ابتدعوها ودعوا اليها سواء منهم القرامطة او غيرهم .

انما هذه المذاهب اسبا بٌ لجذب الدنيا الى الرؤساء

اولئك الرؤساء الذين عرف خبيثة طواياهم فازدراهم شرّ ازدراء ـ هم الذين كانوا يثيرون الفتن والحروب في سبيل مطامعهم الدنية وامجادهم الكاذبة .

كانت هذه الفتن وما تجره وراءها من ارهاق تستثيره وتستفز ضميره . فما كان شعوره المرهف يتحمل اية مظلمة ، وهوالذي عاش في افق واسع من فرديته الحرة رغم سجونه الثلاثة ـ هذا الثائر الحر الذي انتصب يدافع عن كرامة العقل وعن حرية الفرد وحرية الجماعة قد اهاب بالانسان ان يثور على المظالم . وطلب الى المفكرين الذين يساهمون في سياسية الدولة ان يتحرروا هم ايضاً من الرياء الاجتماعي ، وان لايكونوا آلاتٍ مسخرة في ايدي العتاة ، يميلون مع الهوى دون أن يستجيبوا لنداء الضمير . لقد غمز الادباء والشعراء والخطباء ـ الخطباء الذين يصفون الامير بالتقوى ايام الجمع بينا هو آية في الهوى والضلال . .

ما أجهل الامم الذين عرفتهم ولعلّ سالفهم أضلُّ واتبر
يدعون في جماعتهم بسفاهةٍ لأميرهم ، فيكاد يبكي المنبرُ

نعم ، يكاد يبكي المنبر من ضلالات ذلك الخطيب المرائي الذي يخدع الجماعات ويصور لها الحالة على غير حقيقتها لا في الشؤون السياسية بل في الشؤون الاجتماعية فيصفه بقوله :

طلب الحسائسَ وارتقى في ِمنبر يصف الحساب لامة ليهولها
ويكون غير مصدقٍ بقيامةٍ أمسى يمثل في النفوس ذهولها

والادباء والشعراء . . هل يؤدون رسالتهم السامية في هذا المصطرع الصاخب كما يؤديها هو ؟ ان رسالة الادب رسالة مقدسة لايجوز التهاونُ بها . . وكما غمز الخطباء المشعوذين فقد غمز الشعراء المدّاحين الذين يتخذون الشعر آلة لتشويه الحقائق الساطعة .

بني الآداب غرتكم قديماً زخارفُ مثلُ زمزمة الذباب
وما شعراؤكم الا ذئاب تلصصُ في المدائح والسباب

لقد اضطرب كل شيءٌ في نظره ـــ اضطربت مقاييس الحياة ، واختلّ النظام ، ولم يعد ينظر إلى الحياة الا هذه النظرة السوداء البغيضة التي تنطوي فيها خيوطُ فلسفته التشاؤمية .

قد اختلّ الانامُ بغير شكّ ٍ فجدوا في الزمان أو العبوه

نعم ، كل شيءٌ عنده يدعو إلى اليأس ، فالحياة رواية من الروايات الكاذبة ، والانسان يخادع أخاه الانسان ، اليومَ يرتفع به إلى السماء ، وغداً ، يشك بنزاهة قصده فيهبط به إلى مواطئ الاقدام . .

وكم أدّى امانته إليها امينٌ خونته وسرقته
وقائم امةٍ زكته عصراً فلما أن تمكن فسقته

هذه هي أهواء الجماعات لاتكاد ترتفع بالرجل الذي احبته حتى تهبطَ به الأرض ، لاتكاد تؤلهه وتعتبره رمزاً للامانة حتى تتنكرَ له وتعتبره رمزاً للخيانة !

وبعد فقد كدنا ننتقل من تصوير عصره إلى آرائه في الحياة..

ولكن هل هذه الآراء الا صورة ذلك العصر المليء بالمخازي والموبقات، مخازي السياسة الرعناء التي كان لها أبلغُ أثر في انهيار الامة العربيه — ذلك الانهيار الذي ذاقت مرارته العصورَ الطوال.. نعم، كدنا ننتقل من تصوير الاضطراب في عصره السياسي إلى آرائه في الحياة — تلك الحياة التي سئم أوضارها وأضاليلها فنظر إليها هذه النظرةَ الفلسفيةَ المتعالية.. كيف يحتمل هذه المخازي؟ كيف يدفع هذا الطغيان؟ لاحيلة له إلا الشعر — هذا الينبوع الثرّ الذي يبرد غليل الموتورين المتشائمين.

قد فاضت الدنيا بادناسها على براياها واحناسها
والشر في العالم حتى التي مكسبها من فضل عرناسها
وكل حي فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها

وبعد فنتساءل: وقد عاش شاعرُنا الحكيم في سجوف هذا اليأس الحزين يهدِم وينقدُ ويهاجم هل كانت لة رسالة في الحياة؟ مالون هذه الرسالة؟ كيف كان يريد أن يكون العالم؟ لقد أراد له الخير المحض، وأراد له العدالة الاجتماعية المطلقة، وأراد الهناءة المثلى للبشرية فهل تحققت رسالته؟ ابداً.. فقد اصطدمت هذه الميولُ الطيبة بغريزة الانسان ونزْعته الشريرة — فتراءت له الدنيا، في مرآة تشاؤمه، وعلى ضوء الاحداث التي واجهت عصرَه — صورةً من المآثم والشرور، فيئس، وجره هذا اليأس الحزين إلى العزلة — تلك العزلة التي انتجتْ للادب الحي ثروة خالدة ترمز إلى جبروت العقل العربي الذي لايقل في خياله وابداعه عن أسمى العقول التي عرفتها آداب البشرية.

فاذا أضفنا إلى عزلته هذه الحياة الجافة القاسية الملولة التي عاشها في سجنه الضيق خمسين عاماً، بعيداً عن المباهج والاضواء واللذاذات، والشرور التي أصابت عصرَه وما كان لها من أثرٍ سيء في بيئته، ثم تلك المحنة التي بلي بها وهو في الرابعةِ من عمره، ومزاجه السوداوي الكئيب، وشكوكه الفلسفية القلقة — علمنا ما كان لهذه الحياة من أثر في أدبه — هذا الادب

العلائي الذي يعتبر نسيج وحده بين آداب الامم الحية ، والذي يرى فيه الباحثون الكثير من الآراء والفكرات والصور التي تتلاقى مع أصدق ما خلده أكابر أدباء العالم في مختلف العصور . نعم ، اننا نجد مثلاً في حدائق أبي العلاء العابسة الكئيبة تشاؤم شوبنهور وسخرية اناتول فرانس والكثيرَ من هذه المذاهب والفكرات الشائعة في عصرنا هذا ، ففلسفته لم تقف عند واحات الزُهد والعزلة بل تعدَّتها إلى الاخلاق والسياسة والاجتماع والدين والانسان والخالق فأبدى رأيه صريحاً في جميع ظواهر الحياة ، ماظهر منها وما استتر ، حتى الاشتراكية التي عرفتها مذاهب القرن العشرين — فكان شاعراً فيلسوفاً يعكس في شعره كلَّ النزعات التي يحسها المفكر الحر الذي سما بنزعاته فوق كل القيود التي فرضتها عليه مواضعاتُ عصره ، وهكذا ، فقد كان لنا من لزومياته ، والعوبته ، وفصوله وغاياته والكثير من رسائله هذه الثروةُ الضخمةُ التي تشغل في رحاب الفكر الانساني مكاناً رفيعاً .

* * *

أيها السادة

ان مجد الامم يقوم على مايتركه ادباؤها ومفكروها من تراث ثمين ، وقد ترك المعري لامته أضخم تراث أدبي ، فاذا احتفت الدنيا العربية بذكرى مولده الالفي فانها تحتفي بتراثها الذي خلد على الاجيال — بذكرى رجل اقتعد مكانته السامقة إلى جانب عباقرة الادباء العالميين الذين قام مجدهم على الصدق لا على الشعوذة ، وعلى جمال الفكرة ونبل الشعور ، أحسّ فتألم فأملى ، حتى هذه الأبياتُ المتفرقةُ التي وصف بها لوثات عصره — كافية الدلالة على ما كان يجيش به صدرُه من ميولٍ صادقةٍ ونزعات سامية في سبيل الخير والحق والجمال — الخير الذي كان يصدُمه الشر ، والحق الذي كان يغلبه الباطل ، والجمال الذي كانت تلطخه البشاعة — بشاعة الغرائز الدنية التي تدفع الانسان إلى تشويه الحقائق في سبيل الانانية الحمقاء — تلك الانانية التي كانت من أقوى العوامل في انهيار السلطان العربي الذي واجهه عصر أبي العلاء .

سامي الكيالي

الحفلة الخامسة

في اللاذقية

في الساعة التاسعة من يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر ايلول ١٩٤٤ غادر أعضاء المهرجان مدينة حلب متوجهين الى اللاذقية ، فمضت سياراتهم صوب الغرب تقطع سهول حلب الخصبة ومسافاتها ، حتى بلغت بلدة (ادلب) ، فوقفوا عند مدخل البلدة ، حيث احتشد أعيان المدينة ، وموظفو الحكومة ، وطلاب المدارس وطالباتها لاستقبالهم . فدوت الانغام الموسيقية ، وأنشد الطلاب بعض الأناشيد الوطنية ، وقدم الطالبات طاقات الزهر الى ضيوفهن . ثم اجتاز الركب صفوف المستقبلين بين الهتاف والحماسة والعطف ، وانحدرت السيارات الى وادي العاصي حتى بلغت بلدة (جسر الشغور) . ثم تسنمت جبالاً عالية مخضرة ، وما زالت في صعود وهبوط حتى وقفت عند (قسطل العجوز) . وعدلت بعد ذلك عن الطريق العام قاصدة أحراج الباير حيث أعدت بلدية اللاذقية لاعضاء المهرجان مأدبة غداء . فصعدت في جبال صعبة المرتقى فيها من المضايق والتلال والمعاطف والأحراج الكثيفة مايبعث في قلب المسافر شعوراً عميقاً بالخشية والجلال (١) . فكان الركب لايبلغ قمة جبل حتى ينحدر الى فجاجه وبطون أوديته . وكلما صعد في جبل ظن أنه سيطل منه على البحر . وما زالت الجبال تتلو الجبال، حتى صعد الركب في سفح جبل شاهق مطل على واد عميق . فلما شارفت السيارات قمة الجبل ، احترقت احداها ، وهي سيارة أرسلها محافظ اللاذقية لارشاد الركب الى مكان المأدبة . فأوعث الاعضاء ، وأوجسوا خيفة من الطريق ، حتى ظنوا أنهم سيضيعون في

---

(١) تبلغ مساحة الاحراج في سورية ٤٥٠٠٠ هكتار ، ومساحة أحراج الباير والبسيط نحو ٢٠٠٠٠ هكتار ، معظم اشجارها من الصنوبر وانواع البلوط كالسنديان والملول . وفيها حرجات كثيرة من الارز والدنوب والزيتون البري والبطم واشجار متفرقة من الآس والدردار والغار والعبهر وغيرها . وحراج الباير والبسيط تشبه حراج اوربة الفيحاء .

مضايق الجبال بين اشجار الصنوبر. وبينما هم في هذه الحالة اذ وقفت السيارات في واد يقال له فرواشق على حدود لواء الاسكندرونة فيه عين ماء وأشجار عالية باسقة تحيط بساحة مستوية على شكل دائرة أعدت فيها موائد الطعام على هيئة بديعة من الترتيب. فلما دنوا منها رأوا محافظ اللاذقية الأمير مصطفى الشهابي، ورئيس بلديتها السيد عدنان الأزهري، على رأس وفد كبير من أعيان اللاذقية، خرجوا لاستقبالهم. فنزلوا من السيارات، وسرى عنهم ما كان اصابهم من التعب، وسروا بما رأوا من سحر الطبيعة وجمالها. ثم أنهم جلسوا الى مائدة جمعت حسن الحضارة الى جمال الطبيعة، فتناولوا الطعام على الانغام الموسيقية التي غناها بعض القرويين من رجال التركمان بمزاميرهم وطبولهم. وسمعوا كلمة الترحيب التي القاها السيد عدنان الازهري باسم مدينة اللاذقية، فأنسوا بما سمعوا ونسوا وعورة الطريق ووعثاء السفر.

ولما انتهت مأدبة الغداء سار الركب الى مدينة اللاذقية على طريق انطاكية فهبط في سفوح الجبال المطلة على البحر، حتى انتهى الى سهول اللاذقية الخصبة، وبلغ المدينة قبيل غروب الشمس.

وكانت مدينة اللاذقية قد اعدت العدة لاقامة الحفلة الخطابية في فندق السياحة والاصطياف المشرف على البحر. فلما استراح الاعضاء قليلاً في الفندق، نزلوا الى مكان الحفلة، وهو في الناحية الجنوبية من الفندق متصل بأمواج البحر. وغصّ فناء الفندق بالمدعووين وامتلأت شرفاته بالمدعوات، وأحاطت الجماهير به من جهاته الثلاث، بعضهم في الطرق المؤدية الى الفندق، وبعضهم الآخر في الحديقة العامة المتصلة بساحل البحر.

وكانت الحفلة الخطابية من أروع الحفلات التي ائتلفت فيها انغام الموسيقي وأمواج البحر، وانسجم هتاف الجماهير مع كلام الخطباء، حتى خيل الى السامعين انهم في أرض يفيض منها السحر والايمان والروعة والشعر.

وألقى الامير مصطفى الشهابي في أول الحفلة كلمة ترحيب عرف فيها الضيوف بمحافظة اللاذقية، قال ان سكانها قرابة نصف مليون نسمة منهم ٦٢٪ علويون و ٢٠٪ سنيون و ١٨٪ مسيحيون معظمهم من الروم الارثوذكس. وقال ان أهم غلاتها التبغ والزيتون والقطن. وفيها معدن من القار (الاسفلت).

و ٨٠ ٪ من التبغ الذي يدخن في سورية ولبنان يزرع في هذه المحافظة، ويشحن قسم كبير منه الى امريكا . ثم ذكر نبذة عن مدارس المحافظة ، وطرقها ، وبلدانها، ومصايفها، وحراجها، وآثارها الرومانية والعربية والصليبية كقلعة صهيون والمرقب والحصن ، وشيئاً عن عادات السكان ودلّل على أن معظمهم عرب أقحاح ولا سيما العلويين والنصارى .

ثم تتابع الخطباء بعده على المنبر على الوجه الآتي :

١ — الاستاذ عبد الحميد العبادي — الناحية التاريخية في أدب المعري
عميد كلية الآداب بجامعة فاروق الاول

٢ — الدكتور جميل صليبا — فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء
عضو المجمع العلمي العربي

٣ — الاستاذ بدوي الجبل — الدهر ملك العبقرية (قصيدة)

٤ — الاستاذ محمد الشريقي — أسلوب المعري

٥ — الاستاذ أنيس المقدسي — الروح العلائية في أدبنا الحديث
ممثل الجامعة الاميركية في بيروت

ثم كانت مأدبة العشاء بعد ذلك في دار الامير مصطفى الشهابي ، دعى إليها وجهاء المدينة ، وموظفوها ، وأساتذتها ، وتخللها حفلة سمر ألقى فيها بعض المغنين قطعاً من الزجل الشعبي ، وأوى الاعضاء بعد ذلك إلى فندق السياحة والاصطياف فنعموا بالراحة بعد التعب ، وناموا على أصوات الامواج الرتيبة . وفيما يلي نص الخطب التي القيت في هذه الحفلة :

جميل صليبا

ناحية التاريخ

من ادب أبي العلاء المعري

سيدي الرئيس ، سيداتي ، سادتي .

يقول أبو العلاء في بعض لزومياته :

ماكان في هذه الدنيا بنو زمن   الا وعندي من اخبارهم طرف

فهو يدعي أنه ما من امة وجدت فيهذه الدنيا الا وقد ألم بطرف من أخبارها وعرف شيئاً من تصاريف احوالهـا . والحق ان أبا العلاء لم يصطنع المبالغة . ولم يركب متن الشطط عند ما ادعى هذه الدعوى . فقد أدرك من اول أمره أن العاهة الجثمانية التي لحقته منذ طفولته لاشك مانعته من معرفة الطبيعة الانسانية من طريق البيان والمشاهدة غير أنه فطن الى أن في وسعه أن يتدارك مانفوته عليه هذه الآفة المحتومة من طريق الاطلاع على ماضي الانسانية المسطور في تاريخهـا . فالطبيعة الانسانية واحدة لاتختلف ، والنـاس هم الناس بعد العهد بهم ام قرب . ذلك اصل ولع أبي العلاء بالتاريخ . ثم نجده يزداد به ولعاً عند رجوعه من بغداد الى بلده ، واعتزامه لزوم ثاني محبسيه. فان أبا العلاء لم يرد باعتزاله الناس أن يضرب بينه وبينهم حجاباً كثيفاً لايراهم من دونه ولا يرونه ، وانما اراد بالعزلة أن يكون بنجوة من مخالطتهم وملابستهم وأن تتاح له حرية درس احوالهم ونظمهم ومصاير امورهم دون أن تمتد اليه ايديهم ، ودون أن يعرضوا له بما يوجب له شغل الخاطر وهم القلب وفتنة النفس فكأنه اراد أن يقطع صلته بالناس من ناحية ليصلها بهم من ناحية أخرى هي ناحية الاطلاع على أخبار الماضين منهم والغابرين أي من ناحية الاطلاع على التاريخ . على أنه اذا كانت الضرورة هي التي قضت على أبي العلاء بالاطلاع على التاريخ فهناك سبب آخر حبب هذا العلم الى عقل شاعرنا

الفيلسوف وقلبه . ذلك أن التاريخ قد يكون الذ العلوم واشدها امتاعاً متى ورد الانسان ساحته وقلب صحائفه بفهم ذكي وقلب سليم . هو موكب الامم ومعرض الحياة الانسانية ، فيه تبين مواطن الضعف والقوة من تلك الحياة وفيه تظهر اسباب عظمة الشعوب واسرار اضمحلالها . فيه حكمة الحياة واضحة لالبس فيها ولا ابهام . فاذا كان أبو العلاء قد اقبل على التاريخ يتلو صحائفه ويستخرج عبره فان ذلك انما كان عن ضرورة اول الامر ثم عن حب له وشغف به اخيراً .

على أن اطلاع أبي العلاء على التاريخ كان بطبيعة الحال محدوداً بحدود الرواية التاريخية العربية على نحو ماوصلت اليه في ايامه أي في النصف الثاني من القرن الرابع والنصف الاول من القرن الخامس الهجري . فماذا كانت حدود هذه الرواية ؟

لقد ابتدأت الرواية التاريخية العربية في القرن الاول الهجري ثم نمت نمواً مطرداً وتنوعت تنوعاً بيناً في القرون الثلاثة التالية . فدونت اخبار العرب قبل الاسلام واخبار الامم التي كان للعرب اتصال بها كالفرس والروم والهنود والمصريين والاحباش وكل ذلك كالمدخل الى التاريخ الاسلامي ثم دونت سيرة الرسول عليه السلام واخبار المغازي والفتوح واخبار الدولتين الاموية والعباسية، وما تفرع عن الاخيرة من دويلات عدة بعضها في الشرق كالطاهرية والسامانية والغزنوية والبويهية والحمدانية وبعضها في الغرب كالطولونية والاخشيدية والادريسية والفاطمية وقد وضعت في كل ذلك كتب كثيرة ذكر اكثرها ابن النديم في الفهرست في الفصل الذي عقده للاخباريين خاصة . وقد سلم لنا من هذه التآليف شيء غير قليل نذكر منه كتاب السيرة لابن اسحق بتلخيص ابن هشام ومغازي الواقدي وطبقات ابن سعد وكتب ابن قتيبة والدينوري والبلاذري واليعقوبي وتواريخ الطبري والصولي والمسعودي وأبي الفرج الاصفهاني ومسكويه . لاشك أن أبا العلاء اطلع على جل هذه الكتب ان لم يكن اطلع عليها كلها ، فقد كانت في متناول يده في مكاتب المعرة واللاذقية وحلب ودار العلم ببغداد ولا ادل على سعة علمه بالتاريخ العام واخبار العرب قبل الاسلام والتاريخ الاسلامي من كثرة استشهاده بالحوادث التاريخية كثرة رائعة في نثره وشعره . ففي الرسالة التي يعزي

فيها خاله أبا القاسم بن سبيكة باخيه نجده يسرد اسماء الانبياء من لدن آدم الى محمد (ص) ثم يتبع ذلك بسرد اسماء ملوك اليمن فملوك الحيرة وغسان والفرس وسادات العرب في الجاهلية وكل ذلك على سبيل العبرة والموعظة وبيان أن كلا منهم قد صار بعد العز وعلو الشأن الى الموت والفناء ونجده في « رسالة الغفران » يخبر في القصيدة السينية التي قالها على لسان الجني « أبي هدرش » كيف استغوى هذا الجني في جاهليته كثيراً من خلق الله ملائكة وغير ملائكة الى أن بعث الله نبيه محمداً (ص) فآمن به وصدقه واشترك معه هو وقبيله من الجن في غزوات بدر واحد والخندق كما اشترك بعد في وقائع اليرموك والجمل وصفين والنهروان . وكثيراً مايورد أبو العلاء في «رسالة الغفران» تلميحات وأشارات الى الفرق والنحل الاسلامية من سنة وشيعة ومعتزلة ومرجئه كما ذكر الزنج والقرامطة والمختار بن أبي عبيد والمنصور اليمني والحلاج . ومن الطريف انه ساق في آخر رسالة الغفران كلاماً على الدنانير والعملة الاسلامية فيه تفصيلات لانجدها في كتب التاريخ التي بايدينا . وتفيض « اللزوميات » بذكر كثير من ملوك الفرس والروم والهند واليمن وحوادث الدولة الاسلامية وملوكها من نحو محمود ومسعود الغزنويين والاخشيد وابيه طغج وجده جف كما تذكر خاقان وخان وآلك (= أيلك)

وكما وجد أبو العلاء في التاريخ العام الاسلامي وغير الاسلامي مادة انتفع بها الى ابعد مدى في تأييد آرائه وتقوية حججه وتجميل فنه المنثور والمنظوم فقدوجد في حوادث عصره أو في التاريخ المعاصر له مادة غزيرة اكسبت شعره ونثره حيوية عجيبة وأمدته بما أعانه على تكوين رأيه في السياسة ونظم الحكم والاجتماع بوجه عام . ونستطيع ان نقول ان شعر صباه وصدر كهولته الوارد في ديوانه « سقط الزند » يتصل اتصالاً وثيقاً بحوادث عصره بل هو صدى لحوادث ذلك العصر . وفي وسع من يقرأ « سقط الزند » « واللزوميات » ان يتبين صورة لابأس بها لحوادث الشام خاصة في زمن أبي العلاء .

كانت معرة النعمان معدودة من الاقليم المعروف « بالعواصم » والواقع على تخوم الدولة الاسلامية مما يلي مملكة الروم وقد أصبحت حلب اذ ذاك قاعدة ذلك

الاقليم ، وكانت متنازعة بين متأخري امراء الدولة الحمدانية وبين الدولة الفاطمية المصرية فيغلب بنو حمدان على أمرهم ويستولي الفاطميون على حلب ولكن سرعان ماانبرت للفاطميين اسرة عربية بدوية هي الاسرة المرداسية فتستولي على حلب سنة ٤١٤ على يد أسد الدولة صالح بن مرداس الكلابي . وقد تبعت المعرة حلب فيما اختلف عليها من الاحوال لذلك نجد أبا العلاء يمدح امراء حلب على اختلافهم من حمدانية وفاطمية . فيمدح الامير سعيد الدولة الحمداني بالقصائد الاولى من « سقط الزند » كالقصيدة اللامية الأولى ومطلعها :

اعن وخد القلاص كشفت حالا ومن عند الظلام طلبت مالا

كما يمدح ولاة الفاطميين على حلب في قصائد أخرى منها السينية التي مطلعها :

لولا تحية بعض الأربع الدرس ما هاب حد لساني حادث الحبس

ثم ان أهل المعرة ثاروا على صالح بن مرداس بسبب المرأة التي أهانها خمار نصراني فذهبت الى المسجد يوم الجمعة وقصت على الناس ما نالها فثاروا بالخمار وانتهوا حانوته وهدموها والى هذا الحادث يشير ابو العلاء بقوله في اللزوميات :

اتت جامع يوم العروبة جامعا تقص على الشهاد بالمصر امرها
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها لخلت سماء الله تمطر جمرها
فهدوا بناء كان يأوي فناءه فواجر القت للفواحش خمرها

واستفحل الخطب عندما أشار على صالح وزيره النصراني « تادرس » (وكان حنقاً على أهل المعرة) بقبض سبعين رجلاً منهم وسار صالح الى المعرة فأخرج اليه اهل المعرة ابا العلاء شفيعاً فشفعه صالح واطلق له الاسارى السبعين سنة ٤١٨ والى ذلك يشير ابو العلاء بقوله في اللزوميات :

تغيبت في منزلي برهة ستير العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر الا الأقل وحم لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً الى صالح وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام واسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبني هذا النفاق فكم نفقت محنة ما كسد

وباضمحلال نفوذ الفواطم في الشام اصبحت الشام نهباً لقبائل العرب

المتبدية من لدن الجزيرة الى حدود مصر وخاصة قبائل كلاب وطيء وعامر والى ذلك يشير ابو العلاء بقوله :

أرى حلبا حازها صالح — وجال سنان على جلقا
وحسان في سلفي طيء — يصرف من عزه أبلقا
فلما رأت خيلهم بالغبار — قتاما على جيشهم علقا
رمت جامع الرملة المستضام — فأصبح بالدم قد خلقا
وما ينفع الكاعب المستبا — ة هام على عضب فلقا
وطل قتيل فلم يدكر — وغل أسير فما أطلقا
وكم تركت آهلاً وحده — وكم غادرت مثرياً مملقا
يسائل في الحي عن ماله — وما القول في طائر حلقا

واذا كانت هذه الأشعار تصور لنا الحوادث البارزة بالشام في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس فانها تصور لنا ناحية من نواحي شخصية ابي العلاء ، ناحية وطنية وحبه لبلده ومعشره وحزنه لما يصيبه واستمداده لأن يخدمه بنفوذه الأدبي عند الاقتضاء ، وهي أشعار تأتلف وشعره الذي قاله وهو في بغداد يتشوق بلده المعرة .

على أن لوطنية أبي العلاء مظهراً آخر . لقد كان للشام في زمنه عدو اجنبي يرقب الفرص للانقضاض عليه . ذلك العدو هو الروم وكان الروم بعد زمان سيف الدولة والتياث الأمر بالشام قد استولوا على انطاكية سنة ٣٥٨ واستولوا بعد على اللاذقية وذلك في أيام امبراطورهم نقفور قوقاس . ثم أخذوا يمدون أعينهم الى حلب . وكان سعيد الدولة الحمداني وولاة الفاطميين يدافعونهم جهدهم . وهنا تجد ابا العلاء يسخر فنه لا لخدمة وطنه فحسب ولكن لخدمة العالم الاسلامي كله ، فهو في مدائحه لعمال حلب يشيد دائماً بمقاومتهم الروم ، فيخاطب الأمير سعيد الدولة الحمداني (٣٨١ — ٣٩٢ هـ) بقوله :

حفظت المسلمين وقد توالت — سحائب تحمل النوب الثقالا
وقيت عيالهم اذ كل عين — تعد سواد ناظرها عيالا
بوقت لايطيق الليث فيه — مساورة ولا السيد احتيالا

ويقول :

الى حارم قاد العتاق سواهماً لها من نشاط بالكماة زمال
بني الغدر هل الفيتم الحرب مرة وهل كف طعن عنكم ونضال
وهل اظلمت سحم الليالي عليكم وما حان من شمس النهار زوال
وهل طلعت شعث النواصي عواليا رعال ترامى خلفهن رعال
فان تسلموا من سورة الحرب مرة وتعصمكم شم الانوف طوال
ففي كل يوم غارة مشمعلة وفي كل عام غزوة ونزال

الى أن يقول في الخيل :

يردن دماء الروم وهي غريضة ويتركن ورد الماء وهو زلال
وقد علم الرومي انك حتفه على أن بعض الموقنين يخال

وكان الشيخ ابو الحسين بن سنان احد رؤساء حلب قد عزم على الحج فكتب اليه أبو العلاء ينهاه عن الحج في عامه ويريه ان الروم لحلب بالمرصاد فمن ذلك قوله: « وسفر مولاي الى الحج في هذا العام حرام بسل كما حرم صوم عيد الفطر وحظر على المحرم تضمخ بعطر . . . . . . وهو ادام الله تمكينه . . . . . . امين من امناء المسلمين يرهف الشوكة ويستجيد اللأمة ويحصن ماوهى من سور أوشرفات . . . . . . ومن لحياطة الرعية بمداميك المدر . . . . . . واجراء السعد لحفظها والقدر ، وحلب حرسها الله قد صار فيها رباط يغتنم ، وجهاز يرغب فيه ويتنافس ولا يلبث ان يزول بانعقاد الهدنة ، وعودة الجامع كلمة الروم الى كرسيه من بزنطيه »

فقصائد أبي العلاء الواردة في « سقط الزند » والمتصلة بمدح امراء حلب المناضلين للروم تجري مجرى قصائد المتنبي المعروفة بالسيفيات والقصائد الروميات لأبي فراس الحمداني وهي حلقة من حلقات ملحمة الحروب العربية الرومية . على ان أبا العلاء كما يخيل الينا كان يلحظ فيما بينه وبين نفسه ان روح الجهاد قد فتر عند المسلمين وعند قومه خاصة وانهم امام استعلاء الروم وكلبهم عليهم قد التزموا خطة الدفاع دون الهجوم . وقد احب ان يعبر عن هذا الاعتقاد الذي استقر في نفسه من طريق الكناية والرمز ، فنظم تلك المجموعة الغريبة من القصائد المعروفة

« بالدرعيات » والوارد في آخر « سقط الزند » فالدرع اداة وقاية لاسلاح هجوم كالسيف والرمح والقوس . هذا ظننا في تعليل إنشائه هذه القصائد فان يكن ظننا صادقاً فقد أبدع أبو العلاء الرمز واجاد الكناية .

ويستعرض أبو العلاء جملة احوال العالم الاسلامي لعهده فيرى حالا لاتسره من ظلم واضطراب وفقر وطغيان ويجتهد في أن يطب لتلك الحال فيذهب الى أن الملوك والمتغلبين لم يدركوا انهم في حقيقة الامر خدام رعاياهم واجراؤها وأن الشعوب مستقر السلطان ومستمده :

مل المقام فكم اعاشر أمة … امرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها … وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

ويرى في علاج الفقر أن يؤخذ الناس باداء الزكاة المفروضة عليهم شرعاً :

واحسب الناس لو اعطوا زكاتهم … لما رأيت بني الاعدام شاكينا
ياقوت ماانت ياقوت ولا ذهب … فكيف تعجز اقواما مساكينا

ويرى ان الارض لله لايصح تملكها :

الارض لله ماالستحيا الحلول بها … أن يدعوها وهم في الدار اضياف
تنازعوا في عواري فبينهم … نبل حطام وارماح واسياف

ويرى ان في امكان الناس ان يصلوا الى « المدينة الفاضلة » أو « اليوتوبيا » أو الجماعة السياسية المثالية اذا سلكوا طريق القصد وجادة الاعتدال :

ان اكلتم فضلاً وأنفقتمُ فضـ … ـلاً فلا يدخلن وال عليكم
لا تولوا أموركم ايدي النـا … س اذا ردت الأمور اليكم

***

وكما وجد أبو العلاء في التاريخ قديمه والمعاصر له مادة غذت فنه الأدبي وأعانته على صوغ آرائه في الاصلاح السياسي والاجتماعي فقد وجد فيه كذلك مادة لآرائه الفلسفية الخاصة به . لقد عرض تواريخ الأفراد والملوك والأسر والأمم وما يختلف على الناس من احوال فوجد كل ذلك لا محالة منتهياً الى العدم والفناء ، رأى الحياة كلها أشبه شيء بعملية حسابية مركبة نتيجتها الصفر . ومن ثم ساء ظنه بالحياة ولم ير في سعي الناس سوى جهود عقيمة :

حوادث الدهر ما تنفك غادية   على الأنام بإلباس وتلبيس
الوت بكسرى ولم تترك مرازبه   وبالمناذر أودت والقوابيس
زارت حسيناً وحست بالردى حسناً   وواجهت آل عباس بتعبيس

والليل والنهار عنده شفا مقراض يأتيان على كل شيء :

الصبح أصبح والظلا   م كما تراه احم حالك
يتباريان ويسلكا   ن الى الورى ضيق المسالك
أسدان يفترسان من   مرا به فأبه لذلك
حملا الممالك عن ردى   قاض الى خان وآلك

والشر ، لا الخير هو الغالب على الناس :

والارض موطن شرة وضغائن   ما أسمحت بسرور يوم فارد

هذه فلسفة التاريخ عند أبي العلاء وتفسيره إياه . هو تفسير رجل متشائم لا يرى في العالم ولا في الحياة شيئاً يسر . وهو من أجل ذلك يستعجل الفناء والعدم ويمتنع من الزواج الذي هو وسيلة النسل وبقاء النوع :

تواصل حبل النسل مابين آدم   وبيني ولم يوصل بلامي باء

وهو سيء الظن بالناس زاهد فيهم .

وزهدني في الناس معرفتي بهم   وعلمي بأن العالمين هباء

نهيتك عن خلاط الناس فاحذر   أقاربك الاداني واحذرني
وان انا قلت لاتحمل جرازا   فهز أخا السقاسق واضربني

الى أي شيء يرجع هذا التشاؤم ؟

قد يقول قائل ان مزاج أبي العلاء المتأثر بحياته التي اخذ نفسه بها بعد عودته من بغداد هو علة هذا التشاؤم . ولكن مزاج شاعرنا الفيلسوف نتيجة لاعلة لتلك الحال . فهو انما اخذ نفسه بحياة الزهد والتقشف البالغ بعد أن بلغ الاربعين وبعد أن استكمل خبرته بالناس والاشياء اذاً فخبرته بالناس والاشياء في القديم وفي زمنه هي علة تشاؤمه . هي علمه بالتاريخ كما وصل اليه وكما عرفه .

لقد كان علم قدماء المؤرخين من الاغريق والرومان بالانسان وحياته قاصرا قصورا بينا . لقد بنوا الرواية التاريخية على حياة الفرد أو الاسرة أو القبيلة أو

المدينة أو طبقة بعينها ، ومن شأن التاريخ اذا بني على هذا الاساس ان يكون قاتم اللون مليئاً باخبار الفتن والثورات وظلم الانسان للانسان واستعباد الطبقات بعضها لبعض فلما اطلع فلاسفة الاغريق والرومان على هذا التاريخ تأثروا به في صوغ نظرياتهم عن الحياة جملة فجاءت نظريات ملؤها التشاؤم سواء في ذلك نظريات افلاطون والرواقيين والابيقوريين وصنيق ومارك اوريل . فمنهم من رأى ان العالم ينتقل في دورات زمنية تفتتح كل منها بعصر ذهبي مجيد ثم لايزال يتدلى ويضعف حتى تختتم الدورة بحال فوضى واضمحلال ثم تفتتح دورة أخرى وهلم جرا . ومنهم من رأى الانسان محدود القدرة مضروباً بينه وبين قوى لا حد لقدرتها هي الآلهة بنطاق لاسلطان له عليه فنغمة فلاسفة الاغريق والرومان نغمة حزن ويأس وحسرة على الناس والحياة بوجه عام . ثم جاءت العصور الوسطى الاوربية وساد سلطان النصرانية فأصبح الناس يرون ان هذه الدنيا دار بلاغ وانالآخرة هي دار القرار وان السعادة في هذه الدنيا ليست محققة وان الحياة الآخرة هي التي ترجى فيها السعادة والخلود . فازداد الناس ضيقا بالحياة واصبح شعارهم الزهد فيها وتمني الخلاص منها . والرواية التاريخية الشرقية لاتختلف في خصائصها العامة عن الرواية الغربية والمجتمع الشرقي القديم لم يكن يختلفاختلافا جوهريا عن المجتمع الاغريقي الروماني القديم ومن ثم كانت نظرة حكمائهم الى الحياةهي نفس نظرة حكماء الغرب نظرة يأس وحزن وتشاؤم . وفكرة الادوار التيتحدثناعنها عند مفكري الاغريق والروم تقابل فكرة « الفترات الزمنية » التي تفتح بمجيء نبي أو رسول وتنتهي بقيام آخر والايمان بحياة مـتقبلة ينعم فيها المؤمن ويخلد هي خير مايتعزى به المؤمن عما يصيبه من البلاء في هذه الدنيا

لم يلحظ القدماء على العموم ان الانسان ابتدأ ضعيفاً ثم صار بعقله واجتهاده وقوة ارادته يرقى شيئاً فشيئاً ولكنهم خصوا بعنايتهم ضعفه امام عوامل لاسلطان له عليها مثل القضاء والقدر والحياة الأُخرى وعلاقته بخالقه سبحانه وتعالى .

وبعد فابو العلاء قد نهج في فلسفة التاريخ منهج المفكرين القدماء من المشارقة والمغاربة على السواء لأن العلة واحدة في الحالين . على أن تشاؤمه ويأسه ينطوي على حب حقيقي للانسان والانسانية واذا كان أبو العلاء شديد الرفق بالحيوان فلا شك في انه كان في اعماق نفسه اشد رفقاً بالانسان .

عبد الحميد العبادي

فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء

ليس غرضي في الكلام عن فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء ان أحيط بفلسفته الخلقية كلها، فان أمراً كهذا يحتاج الى وقت واسع وبحث طويل. وانما أريد أن أبين ما هو المثل الأعلى للخير في نظر أبي العلاء، وما هي القواعد الخلقية اللازمة عنه.

والبحث في فكرة الخير هام جداً، لأن أبا العلاء لم يكن فيلسوفاً مدرسياً، ولا صاحب مذهب منظم كأرسطو وابن سينا. وإنما كان فيلسوفاً خلقياً قبل كل شيء. ومن البحث في فكرة الخير يستطيع الناظر أن يطل على الفلسفة الخلقية كلها.

لم يكن أبو العلاء حسن الرأي في الدنيا والناس. ومن الاطالة أن نستدل على ذلك الآن بشعره ونثره. فقد ذم الدنيا كما ذمها ابو العتاهية، واتهم الانسان بالظلم كما اتهمه به المتنبي، ونفض يده من اصلاح الانسان فلم يرج له شفاء من أدوائه، ولا نجاة من أوصابه وآلامه، بل زعم أن جبلته فاسدة وان الشر في طبعه وانه غادر يميل الى الظلم.

وجبلة الناس الفساد فضل من ... يسمو بحكمته الى تهذيبها
من وسخ صاغ الفتى ربه ... فلا يقولن توسخت

وأكثر الذين بحثوا في فلسفة ابي العلاء الخلقية لم يدرسوا إلا هذه الناحية السوداء من مبادئه. فأشاروا الى تشاؤمه، وريبه، وسخريته، ونقده للحياة الاجتماعية والدينية، وشكه في إصلاح الانسان، وأهملوا ايمانه بالخير، وألحقوه بالفلاسفة المتشائمين كشوبنهاور وغيره. وأريد الآن أن أبين أن تشاؤم أبي العلاء انما هو تشاؤم نسبي لا ينافي الإيمان بالخير. وفي اللزوميات والفصول والغايات أدلة كثيرة على تطلع أبي العلاء الى مثل أعلى شبيه بالمثل العليا الخلقية التي تطلع اليها أصحاب الأحلام من الشعراء والفلاسفة والمصلحين.
فما هو الخير في نظر ابي العلاء؟ —

من الصعب لا بل من العبث ان نبحث عن تعريف علمي واضح للخير في شعر أبي العلاء . لان اللزوميات ليست كتاباً فلسفياً مشتملاً على تعريفات علمية واضحة . وليس من شأن الشعراء ان يضعوا التعريفات وان يبنوا عليها المبادىء والغايات. على أن أبا العلاء قد ذكر لنا الخير في كثير من أشعاره ، فلم يكتف بالتلميح به بل اثبته وعدد لنا كثيراً من صفاته. ولنذكر الآن بعض هذه الصفات :

١ — لنبين اولاً ان الخير محبب الى النفس . فكل عاقل يطلبه ويريد الحصول عليه ، لانه يجد فيه لذته وسعادته . نعم ان الانسان قد يعجز عن الخير لصعوبة الطريق المؤدية اليه فطريق الغي واسعة ، وطريق الخير كما يقول ابو العلاء ضيقة كسم الخياط . والعدل صعب والمرء يعييه قود النفس للخير ، مع انه « يقود العسكر اللجب » . وقد يعجز الانسان عن الخير لكسله الطبيعي وفساد جبلته ، وغش طبيعته ، ولكنه اذا ماتجرد عن غرائزه ، وابتعد عن هواه استسهل فعل الخير ، ورغب فيه واحبه .

والخير محبوب ولكنه يعجز عنه الحي أو يكسل

٢ — على أن اللذة التي يجدها الانسان في الخير ليست غاية الفعل ، ولا هي مبدأ من مبادئه لانها تنقلب الى الم . فقد تولد لذة ساعة واحدة شقاء حياة طويلة ، وقد تولد المرض والفضيحة والعار . والذين يرسلون نفوسهم في اللذات لايعرفون الراحة والهناء انهم كالانعام ، لابل اضل سبيلاً . لان اللذة كما يقول أبو العلاء لاتخلد صعلوكاً ولا ملكاً . ولا تدوم على حال واحدة ، بل سرعان ماتنقلب الى ضجر وملل .

اذا فزعنا فان الامن غايتنا وان امنا فما نخلو من الفزع
وشيمة الانس ممزوج بها ملل فما ندوم على صبر ولا جزع

فلا خير اذن في لذة نتيجتها الملل ، ولا قيمة لمسرة نصيبها الزوال ، ولا فائدة في امن لايخلو من الفزع .

جاءتك لذة ساعة فأخذتها بالعار لم تحفل سواد العار
ان يرسل النفس في اللذات صاحبها فما يخلدن صعلوكاً ولا ملكاً

٣ — وكما ان اللذة ليست غاية الفعل ، فكذلك المنفعة ليست غاية الخير ، بل الفضيلة اسمى من ان تنحل الى تجارة رابحة . فينبغي للعاقل أن ينزه الخير عن نتائجه ، وان لايؤمل الربح منه كأنه تاجر . نعم قد يجر الينا الخير نفعاً ، فنفعله كما يقول أبو العلاء لأن له «ثمرة لذت في المطعم ، وتضوعت لمن تنسم ، وحسنت في المنظر والمتوسم ، وجاوزت الحد في العظم» ونفعله لحسنه في المسامع ، ونفعله لنكسب به ثواباً عند الله .

فافعل الخير وأمل غبّه فهو الذخر اذا الله حشر

ولكن المنفعة والخير امران مختلفان تماماً . وانك لتجد المنفعة في هذه الدنيا قد وفرت للاشرار اكثر مما وفرت لاولى الفضل ، بل اولو الفضل كما يقول أبو العلاء غرباء في اوطانهم ، غرباء في بني جنسهم . وكثيراً ماتولدت المنفعة من الشر .

ولا لون للماء فيما يقال ولكن تلونه بالأواني
وفي كل شر دعته الخطوب شواسع منفعة أو دواني
وجدت الشر ينفع كل حين ومن نفع به حمل الحسام

فلو كان معنى الخير مطابقاً لمعنى المنفعة لما ولد الخير الا نفعاً ، ولما ولد الشر الا مضرة . فالخير ليس اذن في اللذة ولا هو في المنفعة بل هو مستقل عنهما معاً .

٤ — لذلك صرح أبو العلاء بان الخير يجب ان يطلب لذاته لالنفعه . فالاخلاق في نظره ليست في مداراة الناس ، ولا هي في طلب المنافع واللذات ، بل هي ذاتية مثالية . والعاقل انما يفعل الخير لانه خير وجميل ، لا لأنه يرجو عليه ثواباً عند الله والناس ، أو يخشى من مخالفته عقاباً . « قد تقول لك النفس انها في اذى وقذى ، فاذا كنت محباً للخير قلت لها يانفس صبراً وتسليما ، ان ماتفعلينه هو الواجب» . فابو العلاء لم يكتف بتنزيه الخير عن اللذة والمنفعة حتى نزهه عن العقاب والثواب ، وجعله خالصاً لربه ، وزجر السنة الناس عن مديحه . وفي ذلك يقول :

كن صاحب الخير تنويه وتفعله مع الانام على ان لايدينوكا
فلتفعل النفس الجميل لانه خير واحسن لالأجل ثوابها
توخي جميلاً وافعليه لحسنه ولا تحكمي أن المليك به يجزي
فنزه جميلاً جئته من جزاية تؤمل او ربح كانك تاجر

سأفعل خيراً ما استطعت فلا تقم على صلاة يوم اصبح هالكا

فالخير جميل ، والظلم قبيح ، وأبو العلاء يفضل عذاب النار مع الخير ، على نعيم الخلد مع الظلم :

وما سرني اني اصبت معاشراً بظلم ، واني في النعيم مخلد

ومثل هذه المعاني كثير في اللزوميات والفصول والغايات لم نشأ ان نطيل في الاستدلال بها . وهي كلها تدل على أن أبا العلاء قد آمن بالخير وطلبه لذاته لا لنفعه .

٥ — ومن اعظم صفات الخير قيمة صفته العقلية ، لأن العقل في نظر أبي العلاء هو معيار كل معرفة صحيحة ، وميزان كل منهج قويم . فالخير لا يكون خيراً حقيقياً الا اذا كان خاضعاً لحكم العقل . ومنهج الاخلاق لا يكون واضحاً الا اذا اضيء بنور الروية والفكر . لم يوصف العقل باحسن مما وصفه ، أبو العلاء في لزومياته وفصوله وغاياته . فقد جعله اماماً ومشيراً وهاديا الى الرشاد ونبياً . قال في الفصول والغايات : « العقل نبيء ، والخاطر خبيء ، والنظر بريء ، ونور الله لهذه الثلاثة معين » . وقال في اللزوميات :

يرتجي الناس ان يقوم امام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العقـ ـل مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما اطعته جلب الرحـ ـمة عند المسير والارساء

وقال :

وينفر عقلي مغضباً ان تركته سدى واتبعت الشافعي ومالكا

وقال :

فشاور العقل واترك غيره هدرا فالعقل خير مشير ضمه النادي

وهذا يدل على ان الخير كل الخير هو في اتباع العقل لان العقل مشير امين . فاذا ما اطاعه الانسان جلب الى نفسه الرحمة وابتعد عن القسوة ، وتحرر من سيطرة التقاليد العمياء والعادات المظلمة وحكم النظر في الاخبار والروايات . فان الغائص كما يقول أبو العلاء لا يتناول درة الحق الا بالروية والفكر . واذا قوي عقل المرء استطاع ان يهوى الدنيا ولا تهويه ، اما اذا قل عقله فان الدنيا تغويه وتغريه بزخارفها واكاذيبها . فليأخذ الانسان اذن في سبيل العقل ليهدى بهديه . انه اذا فعل ذلك ادرك ان هناك عادات قبيحة ومعاملات سيئة ،

وقوانين وشرائع بالية تحتاج الى اصلاح وتبديل . ولو اتبع الانسان عقله في هذه الدنيا لما لقي فيها الا الخير .

وها هنا مسألة لابد من الاشارة اليها ، وهي ان أبا العلاء لم يكتف ببيان أثر العقل في الخير ، بل اشار ايضاً الى ان الادراك العقلي ضروري للمسؤولية الخلقية والشعور بالالم . فما قاله في الفصول والغايات : « ان الله ، وله علو المكان ، قد جعل الشر غريزة في الحيوان ، فابعدهم من الشرور اقل حظاً من المعقول ، الا ترى الحجر مر به العاثر فادمى الابهام . لاذنب للحجر ، ولكن للواضع والعاثرين » وقال ايضاً : « داء المسرة العقل ، وداء الحزن الجهل » وهذا يدل على ان ازدياد القوة المدركة عند الحيوان يقربه من الشر ، ويزيد شعوره بالالم . فالعقل يولد الحزن والالم والشقاء ، والجهل يولد القناعة والرضى . وابو العلاء يعتقد كشوبنهاور ان للشعور بالالم درجات : فالجماد لايحس بالالم ، والنبات يكاد يكون عديم الحس . اما الحيوان فان درجات شعوره بالالم متفاوتة . فكلما كان ارقى كان شعوره بالالم اشد . وكلما كان ادنى كان شعوره بالالم اخف . واما الانسان فهو اكثر الحيوانات شعوراً بالالم لنمو مداركه العقلية . ولو فرضنا ان هناك عالماً آخر فوق عالم الانسان له نصيب من المعقول ، ونمطه في الوجود شبيه بالنمط الذي نحن فيه ، لكان شعوره بالالم أشد من شعور الانسان به . فكأن العقل عن النعيم صاد ، وللسعادة مضاد . وكأن العلم سبب من اسباب الشقاء .

اذا علمي الاشياء جر مضرة الي فان الجهل أن اطلب العلما

فاذا كان العلم يشقينا ، فخير لنا ان لانعلم . ولنحن حقيقون بأن ننعم في الجهل ، وأن نفضل الظلمات على النور .

فهم الناس كالجهول وما يظفر إلا بالحسرة الفهماء

اذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فالخسر للعلماء

فالجهل مع الفضيلة خير من العلم مع الرذيلة . والذي يقيم الصلاة ويروم بها كيداً أبعد عن الله كما يقول ابو العلاء من تاركها عمداً .

فأنت ترى أن أبا العلاء قد جعل العقل من جهة ميزان الخير ، وجعله من جهة ثانية علة الشقاء والضير . وليس في هاتين الجهتين أي تناقض ، لأن العقل

لا يكون علة الشر إلا إذا كان ناقصاً ، فيكون له في هذه الحالة جهتان إحداهما جهة العلو ، وهي جهة الشعور بالكمال ، والأخرى جهة السفل ، وهي جهة الشعور بالنقص . وكلما غلبت الجهة الثانيـة الجهة الأولى كان الشعور بالألم أشد وأقوى . فاذا استطاع الانسان أن يتغلب على غريزته ، وأن ينزه عقله من العاطفة والهوى لم يشعر إلا بالكمال ، ولم يدرك إلا الخير . وإذا غلب هواه قواه ، وطغت غريزته على عقله عاش في عذاب دائم وضلال مبين .

ولو كان عقل النفس في الجسم كاملاً   لما أضمرت فيما يلم به غماً

والنفس لا تشعر بهذا الشقاء الا لوجودها في الجسم . فقد كانت قبل اتصالها بالجسم سعيدة هادئة . فلما هبطت اليه أدركها العذاب ، كما يقول أفلاطون وابن سينا ، ونحن لا نعلم لماذا هبطت الروح إلى الجسم ، ولماذا أراد الله لها هذا الشقاء ، ولماذا أمرها أن تكسب الخير عن طريق العقل . فما هي إرادة الله ، وما هي عنايته ، وما هي صفاته ، إن العقل لا يستطيع أن يحيط بذلك كله ، فهو لا يعرف حقيقة الله ، ولا قدم العالم ، لأن نطاقه في أمور ما بعد الطبيعة محدود . دع عنك ان قيود الجسم والغريزة تصده عن إدراك الحق ، فلا بد له إذن من الاستعانة بنور الله .

٦ — وإذا استقل العقل عن الغريزة ، وتجرد من العواطف والأهواء ، أدرك المثل الأعلى وتطلع الى الحياة الروحية المثالية . فالعاقل لا يطلب الخير لنفسه فقط ، بل يطلبه لنفسه ولبني جنسه أيضاً . وأبو العلاء لا يريد أن ينفرد وحده بالخير ، بل يريد أن يعم الخير جميع الناس . ولو كانت له جنة الخلد لما أحب بها انفراداً . وفي ذلك يقول :

ولو أني حبيت الخلد فرداً   لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا نزلت علي ولا بأرضي   سحائب ليس تنتظم البلادا

ولا فرق في نظره بين حر وعبد ، ولا بين غني وفقير ، ولا بين عربي وأعجمي ، ولا بين هاشمي وغير هاشمي ، بل الناس كلهم سواء لأنهم متساوون في اصلهم ، متساوون في حقوقهم وواجباتهم لا فضل لواحد منهم على الآخر إلا بالتقوى .

فان الناس كلهم سواء وإن ذكت الحروب مضرمات

٧ — فأنت ترى أن مذهب أبي العلاء في الخير قريب من مذهب الرواقيين ، لأنه قد مدح الجهد والمشقة ، ودعا إلى اتباع العقل ، وهجر اللذات ، ونادى بالعدل والمساواة والرحمة . وهو قريب أيضاً من مذهب شوبنهاور ، لأن الرحمة عنده هي الحب ، لا بل هي مبدأ الاحسان والعطف على الانسان والحيوان . وربما كان شعوره بالرحمة أحد مظاهر تشاؤمه ، لأنه كما قدمنا قد حكم على الناس بالفساد ، وذمهم لتخبطهم في دياجير الظلام ، ولكنه في الوقت نفسه حنا عليهم حنو الأم على رضيعها ، فأراد إنقاذهم مما هم فيه من الجهل والظلم والشقاء . وإنك لتجد وراء نقده الاجتماعي ووراء هزئه وسخريته شعوراً عميقاً بالحب والحنان . وتجد قسوته على نفسه أشد من شعوره بالعطف على غيره . ولكم تمنى أن يشعر الانسان بالرحمة التي يشعر بها هو نفسه ، وأن يسود العدل بين الناس ، وأن لا يقابل الشر بالشر . ومن أجل هذا الشعور بالرحمة رام الدفاع عن الحيوان ، وأراد حماية الضعفاء والمرضى والمساكين والشيوخ والأطفال . فهو إذن رسول الإخاء وعدو الظلم وبطل المساواة والعدل . ألا ترى اليه كيف يطلب الى المسلم والصابئ والهادي أن يرحموا المسكين ، وأن يصيدوا الخير ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . إن الأمراء لا يسوسون الرعية بالعقل ، بل يعتدون على الأفراد ويسومونهم أنواع العذاب ، ويحدثون الفوضى في سبيل مطامعهم . والقضاة والعلماء ليسوا أحسن حالاً من الأمراء ، لأنهم يستخفون بقضايا الناس ، ويستجيزون الجور والقهر ، ويقبلون شهادة الزور والرشوة . فهم أشبه بالتجار الظالمين منهم بالعلماء العاملين . لا يصلح الناس إلا سياسة عقلية مبنية على الرحمة والعدل والمساواة . ولو صلح الحكام لما احتدمت نار الحرب بينهم ؛ ولوفروا على الناس كثيراً من البؤس والشقاء . فأبو العلاء يكره الحرب ، ويرجو أن يسود السلام في العالم ، وان يحل الوئام محل الخصام ، والحب محل البغضاء ، وان لا يشهر رجل على رجل سيفاً .

وفي ذلك يقول :

فلا تشهرن سيفاً لتطلب دولة فأفضل ما نلت اليسير المروج

ويقول :

فان ترشدوا لاتخضبوا السيف من دم ولا تلزموا الأميال سبر الجرائح

ويقول : « يارب العب ، ان عبادك لفي تعب ، الام الاسنة على الرماح والاعنة في اعناق الخيل ورحائلها فوق الاثباج » .

فالانسان في نظره اخو الانسان احب ام كره . ومن الظلم ان يسلم الناس امرهم للغريزة وان تلعب بهم المقادير ، وان يسوقهم الدهر الى هذا الشقاء .

٨ — وهذه الاخلاق التي نادى بها أبو العلاء ليست سلبية ، لانه لم يكتف بالامتناع عن الشر ، بل دعا الى فعل الخير دعوة ايجابية بدون قيد ولا شرط . فهو من جهة يقول : لاتؤذ بلسانك بشراً ، ولا تخن من خانك ، ولا تضر الجار اذا لم تنفعه ، ولا تهزأ باحد ، ولا تؤازر الظالم ، ولا تجالس المغتاب ، ويقول من جهة ثانية : صد افعال الخير ، وان استطعت ظالماً فاردعه ، واكرم صاحبك ولا تخدعه ، واطعم سائلك اطيب طعاميك ، واكس العاري اجد ثوبيك ، وامسح دموع الباكية بارفق كفيك ، وافعل الخير بجذل ، وكن دون المحارم اخا عذاب .

ويقول ايضاً :

لاتسدين قبيحاً ان هممت به وافعل جميلاً فان الخير يغتنم

فان قدرت فلا تفعل سوى حسن بين الانام وجانب كل ما قبحا

٩ — وهذا يدل على ان فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء مفعمة بالشعور الديني ، ولا غرو في ذلك فابو العلاء قد نشأ في بيئة دينية ، فكانت حياته مثلاً اعلى يقتدى به في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وفي لزومياته ابيات كثيرة يدعو بها الى الصيام والصلاة والزكاة . فالعقل عنده ، وان كان نبياً ، خاضع للنور الالهي . ولولا غريزته الوحشية ، ومغالاته في التوحيد ، ورغبته في التوحيد ، وضعف جسمه وفقد بصره لما انتقد الحج ولا ذم المرأة ولا اعرض عن الزواج والنسل . ان ارادة النسل عنده شبيهة بارادة الحياة التي اشار اليها شوبنهاور . انها لاتنافي غريزته الوحشية فحسب ، بل تؤدي الى زيادة كمية الشر والالم في العالم . ومهما يكن من امر فان الخير في نظر أبي العلاء عقلي وديني معاً . ولا فرق عنده بين الدين والاخلاق .

الدين إنصافك الأقوام كلهم   واي دين لآبي الحق إن وجبا

١٠ — ويظهر أن للخير في فلسفة أبي العلاء درجات ومراتب، كالخير الخاص بالحيوان، والخير الخاص بالانسان، والخير الخاص بالملائكة، والخير الأعلى هو الله، فاذا فعل الانسان خيراً ارتفع إلى عالم الملائكة، وإذا فعل شراً هبط إلى درجة الحيوان.

ثلاث مراتب ملك رفيع   وإنسان وجيل غير أنس
فان فعل الفتى خيراً تعالى   الى قنس الملائك خير قنس
وإن خفضته همته تهاوى   إلى جنس البهائم شر جنس

والشر لا ينسب إلى الله أبداً، بل ينسب إلى الدهر والمادة.

كذب الذي نسب القبيح إلى الذي   خلق الأنام وخط في برسامه

لا أزعم الصفو مازجاً كدراً   بل مزعمي ان كله كدر

كأن الدهر بحر نحن فيه   على خطر كركاب السفين

أعجم قد بين الرزايا   وجعل الشر ترجمانه

فالإله خير وكمال، والعالم شر ونقص. ولولا تيار الزمان الذي عكر صفو الوجود لما تولد الشر، ولا خوف على مصير الانسان لأنه يستطيع أن يتغلب على الشر باتباعه العقل وإيمانه بالله وثقته بعدله وكماله. والدهر لا عقل له، أما الله فهو كما قالت الفلاسفة عقل محض، ومن اتبع عقله فقد تشبه بالله.

١١ — تلك هي صفات الخير في فلسفة أبي العلاء. فما هي القواعد الخلقية التي تلزم عنه؟

لا أريد الآن أن أذكر جميع القواعد التي اشتملت عليها فلسفة أبي العلاء الخلقية، وإنما أريد أن أنبه إلى أن مثله الأعلى الخلق قد جره إلى العزلة والتقشف والمحبة والرحمة والتسامح والسلام.

فالتقشف يقضي باتباع العقل وإماتة الشهوات، والاعراض عن اللذات، والقسوة على النفس، ومجاهدتها، وقطع عقباتها الغريزية، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، وكفها عن الهوى.

والعزلة تقضي بقطع القلب عن الدنيا ، والتجافي عن دار الغرور ، والاعراض عن الجاه والمال والزواج والنسل ، والهرب من الشواغل والعلائق .
والرحمة تقضي بالتسامح والحب والسلام والعطف على الانسان والحيوان .

١٢ — فهذه الاخلاق كما ترى ، شبيهة باخلاق الرواقيين ، لا بل باخلاق الزهاد والمتصوفين فهي تدل على ان تشاؤم أبي العلاء لم يكن تشاؤماً مطلقاً ، بل كان تشاؤماً نسبياً لاينافي الايمان بالخير ولو كان تشاؤمه مطلقاً لما عزى نفسه بالايمان ، ولا تمسك باهداب العقل ، ولا تطلع الى المثل الاعلى . واصحاب التشاؤم المطلق يعتقدون ان حقيقة الوجود شر ، وان اللاوجود خير من الوجود ، اما اصحاب التشاؤم النسبي ، فيعتقدون ان الخير موجود في الدنيا مع الشر ، وانه في وسع الانسان ان يتغلب بارادته العاقلة على الظلمات . فابو العلاء لايرى ان حقيقة الوجود شر مطلق . ولو اعتقد ذلك لنسب الشر الى الله ، ولما آمن باله حكيم قادر ، خير عادل ، يجزي المحسن ويجازي المسيء . ولما اثبت الخير في الدنيا الى جانب الشر . وهو يقول في ذلك :

جهلنا ولكن للخلائق صانع اقربه فسل من القوم او شهم
ويعلم كل ان للخير موضعاً وفضلاً على انباته اجمع الدهم

ويقول : « غفرانك ربنا القديم ، خلقت الخير الى جنب الضير » .

ويقول :

خير وشر وليل بعده وضح والناس في الدهر مثل الدهر قسمان

ويقول :

والشر مشتهر المكان معرف والخير يلمح من وراء خمار

فوجود الله المسيطر على الدهر ، والنور المحيط بالظلمات ، والعقل الهادي إلى الرشاد ، كل ذلك يدعونا إلى الاعتقاد ان الله سينقذ الانسان من براثن الدهر ، وسيرفعه إلى المثل الأعلى . فأبو العلاء متشائم في الدنيا متفائل في الآخرة . وإذا كان قد بكى لبكاء الناس ، وحنا على الحيوان ورثى لحال البائس المسكين ، فما ذلك إلا لأنه تطلع إلى المثل الأعلى ، ورغب في حياة مثالية

لا يشوبها نقص، ولا يعكر صفوها ألم. ومن الخطأ تشبيهه بشوبنهاور، لأن الارادة في نظر شوبنهاور إنما هي عمياء هوجاء. سيان عندها الخير والشر. أما الله في نظر المعري، فلا يصدر عنه إلا الخير، ولا يريد لعباده إلا الرحمة والعدل. وهذا الايمان بالله هو كما يقول أبو العلاء خير الذخر في كل شدة «والخير عند ربنا لا يضيع» فليرد الإنسان إليه أمره، وليطهر مهجته بخوفه، وهذا يدل على أن أبا العلاء لا يختلف عن غيره من أصحاب الأحلام، كأفلاطون والفارابي وغيرهما، الذين حلموا بمدينة فاضلة لا تنبت أرضها إلا الرحمة والعدل، فهو بهذا المعنى شاعر المثل الأعلى، ورسول الكمال والخير.

جميل صليبا

الدهر ملك العبقرية

حلي الندي كرامة للراح ... عجباً اتسكرنا وأنت الصاحي
لك في السرائر بدعة مرموقة ... أنس المقيم وجفوة النزاح
مجد كآفاق السماء اذا انتهت ... منـه نواح بادهت بنـواح
الدهر ملك العبقرية وحدها ... لا ملك جبـار ولا سفـاح
والكون في أسراره وكنوزه ... للفكر لا لوغى ولا لسلاح
ذرت السنون الفاتحين كأنهم ... رمل تنـاوله مهب رياح
لا تصلح الدنيا ويصلح أمرها ... الا بفكر كالضياء صراح
مرح على كيد الحياة وأهلها ... يلقى شدائدها بأزهر ضاح
خير العقائد في هواي عقيدة ... شماء ذات توثب وجمـاح
تبني الحياة على هدى إيمانها ... والعقل مثبت غيرها والماحي
سكرى من الحق المدل ورعا ... لقي الحتوف لخاد عنها الصاحي
سكر العقيدة أين من آفاقه ... سكر العيون وأين سكر الراح
ملك الحياة نخلف كل ثنية ... لليأس يكمن منه الف طماح
شرف العقيدة أن تكون جريحة ... فبدار قسطك من أذى وجراح
واحمل بكفيك الحياة تحدياً ... منها لأول معتد بالساح
العمر من غيب القضاء خبيئة ... فابسط مصون كنوزه بالراح
لا تشك من قصر الحياة فربما ... أغنت اشارتها عن الايضاح
سفر الحياة اذا اكتفيت بمتنه ... أغناك موجزه عن الشراح
واختر لنفسك ميتة مرموقة ... بين النجوم على الاديم الصاحي
للموت في اللجج العنيفة رهبة ... شمخت بسؤددها على الضحضاح
حوطت بالله العقيدة من أذى ... خرقاء فاجرة اليمين وقاح
سكرت على كرم الندي وعربدت ... فالآن لا خمري ولا أقداحي

فيم المقام على قراي وفاتها ... في الروع حطم ظلى وقصف ماح
ومن البلية لا بلية قبلها ... أن تحسب العجفاء كبش نطاح
لهو العيون — ولا أقول قذاتها — ... وكل تكلف زهوة لجناح
مترنح العطفين من خيلائه ... ماذا تركت لغارة وكفاح
الله يعلم ما أردت شماتة ... بمصرعين من العياء طلاح
تأبى الشماتة في الضعيف شمائلي ... وتعف عن شلو الجريح صفاحي
وانا الذي وسع الهموم حنانه ... وبكى لكل معذب ملتاح
أشقى لمن حملوا الشقاء كأنما ... أتراح كل أخي هوى أتراحي
غسل الاسى قلبي وحسبك بالاسى ... من غاسل حقد القلوب وماحي
ووددت حين هوى جناح حمامة ... لو حلقت من خافقي بجناح
حب قد انتظم الوجود بأسره ... اسد الشرى وحمامة الادواح
اعمى تلفتت العصور فما رأت ... عند الشموس كنوره اللماح
نفذت بصيرته لأسرار الدجى ... فتبرجت منها بألف صباح
من راح يحمل في جوانحه الضحى ... هانت عليه أشعة المصباح
أمصور الدنيا جحيماً فائراً ... يرمي العصور بجمره اللفاح
البغي عند الأقوياء سجية ... والمكر في الزهاد والصلاح
هون عليك ففي النفوس بقية ... من رحمة ومروءة وسماح
خلف الهجير وعنفه ولهيبه ... ما شئت من ظل وطيب نفاح

* * *

ضجت ملائكة السماء لساخر ... مر الدعابة شاتم مداح
السخر فيه اذ سقاك حتوفه ... كالسخر حين تراه في النصاح
نكب العقائد والطباع فيالها ... فتكات حتف كالقضاء متاح
وعدا على حرم السماء فياله ... فتحا أطل به على الفتاح
عرى السرائر والنفوس ممزقاً ... عنهن كل غلالة ووشاح
وجلا المصون من الضمائر فانتهى ... همس النفوس لضجة وصياح
ان يقس في نقد الطباع فلم تكن ... ترجى لرحمتها يد الجراح

* * *

ايه رهين المحبسين ألم يئن اطلاق مأسور وفك سراح
ظفرت برحمتك الحياة وصنتها عن كل ناعسة الجفون رداح
أتضيق بالانثى وحبك لم يضق بالوحش بين سباسب وبطاح
يا ظالم التفاح في وجناتها لو ذقت بعض شمائل التفاح
عطر أحب من المنى وغلالة بدع فمن وهج ومن أفراح
هي صورة لله جل جلاله عزت نظائرها على الألواح
منحت بقدرته النعيم ولونت أنواعه جلت يد المناح

✡ ✡ ✡

ليت الهموم العبقرية هدهدت بحنان طيبة اللمى ممراح
لو انها نزلت على نعمى الهوى نزلت مدلاة باكرم ساح
حرم على عسر الزمان ويسره وحمى امين السرب غير مباح
مااحوج العقل الحكيم وهمه وسع الحياة لصبوة ومراح
ولمن تدلله وتسكر روحه عند الهجير بظلها النفاح
انثى اذا ضاقت سريرة نفسه طلعت بآفاق عليه فساح
تسقي الهموم اذا وردن حنانها بمعطر كالسلسبيل قراح
وتردهن عرائساً مجلوة كندى الصباح وكن غير صباح
للعبقرية قسوة لولا الهوى عصفت بكل عقيدة وصلاح
وعناء ان ترك الجمال عنانها طاحت بفارس متنها الجحجاح
ماللشراع على العواصف حيلة ان لم تصرفه يد الملاح

✡ ✡ ✡

ايه حكيم الدهر اي مليحة ضنت عليك بعطرها الفواح
اسكنتها القلب الرحيم فرابها مافيه من شكوى ورجع نواح
جرحت اباءك والحياء فاقفلا باب المنى ورميت بالمفتاح
لو انصفت لسقتك خمرة ريقها سكر العقول وفتنة الارواح
ولأسعفتك على الهوى بمعطر بالحسن . لا بشقائق واقاح
لاتخف حبك بالضغينة والاذى الحب جوهر حقدك الملحاح
واطل هجاءك ماأردت نخالفه غرر منضرة من الامداح

✡ ✡ ✡

العبقرية والجمال تحدرا من نبعة وتسلسلا من راح

اخوان ماطلع الضحى لولاهما … الا على العبرات والاتراح
الظالمان المالكان ونعمة … ماأسلفا من زلة وجناح
ان التي حرمتك نعمة حبها … وابيك عار كواعب وملاح
لو كان في يدي الزمان وسره … واعنة الإمساء والإصباح
لاعدتها بعد الردى مجلوة … بشبابها وجمالها الفضاح
في مشهد تكسو الوفود رحابه … ويغص بالغادين والرواح
فنزعت فتنتها وسحر جفونها … ومحوت نور جبينها الوضاح
ونثرت جوهر ثغرها من عقده … فصحاحه المطرات غير صحاح
ورددت للسبعين ريق عمرها … والحاليات من الصبا المفراح
وجلوت مرآتي فندت صرخة … كلمى وغطت خزيها بالراح
حتى إذا أتممت ذلك كله … أشرفت أنظر نظرة المرتاح
فثأرت من ظلم الجمال وربما … شمتت جراح في الثرى واضاحي
واذا رأيتك ضقت فيه تنكرت … للجد منه دعابتي ومزاحي

✡ ✡ ✡

هذي العروبة في حماك مدلة … ريع العدو بها وجن اللاحي
الازرق الرجراج حن لرملة … في الدجلتين ندية مسماح
وأرى الكنانة ان تماجد ماجدت … بالعاص لا «بمنى» ولا «بفتاح»
الوحدة الكبرى تهلل لجرها … بظلال أبلج ذائد نفاح
«شكري» الذي لقي السيوف بصدره … فأعادها مزقاً على الصحصاح

✡ ✡ ✡

سمعاً حكيم الدهر فهي قصيدة … وأبيك بدع مغرد صداح
عصماء ان شهد الندي خطيبها … تركت فصاح القوم غير فصاح
بدهت شواردها العدى بكتيبة … خضراء تلمع بالحديد رداح
هل في ثراك على المعرة موضع … بين العيون لدمعي السحاح
حنت النفوس عليه تسكب حبها … لجلت براح البيد غير براح
ما للجياد الأعوجية حسرا … صرعى الهجير على المدى الفياح
فاعذر اذا لم أوف مجدك حقه … لجج الخضم طغت على السباح

بدوي الجبل

أسلوب المعرى

ومنهاجه

سيداتي وسادتي :

باسم تراثنا الادبي وسلسلة الفكر العربي نجتمع الآن في ضوء هذا المهرجان ومن حول مناوره وذرى منابره لنحيي ذكرى (أبي العلاء) [أحمد ابن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري] رهن المحبسين . ولنكرم في ذكراه ليس شخصاً زائلاً بل عبقرية فذة وفكرة باقية ونفحة عطرة من نفحات الادب العربي تملّت بها العروبية والانسانية في القرنين الرابع والخامس للهجرة وما زالت تطوي مراحل الزمن لتعيش بيننا بعد ألف سنة مما نعد ولتعبر عن حاجاتنا الادبية تعبيرها عن حاجات عصرها وزمانها . وإذا كانت الشخصية الادبية هي التي توفق في أي عصر من العصور في التعبير عن الحاجات الادبية لذلك العصر أو لجماعة من جماعاته أو فئة من فئاته وكلما ارتفعت في ميزان القيم اتسعت آفاقها وعظم شمولها وجاوزت حدود الحاضر الى المستقبل فان أبا العلاء هو من طراز تلك الشخصيات الادبية التي أوفت على الزمن وشغلته ماضياً وحاضراً ومستقبلاً . ذلك لان أبا العلاء في غالب ما اخرج للناس لم يكن إلا ومضة حق وخير وتعبيراً حراً بليغاً عن الكون والحياة وصدى قويا شجيا لخلجات القلب وأمواج النفس .

ومهما اختلف النقاد في هذه الشخصية الادبية النادرة واستبقوا النظر في منهاج أبي العلاء وأسلوبه واكتناه مناحيه فزعموا له الوضوح او الابهام والشك أو اليقين والقوة أو الضعف او اعتبروا لغته وألغازه وجناسه ومجازه دليل تفوق وتمكن او ضربا من ضروب العبث فأن هذا ليس بضائره في شيء بل ان هذا كله لدليل اهتمام بذي خطر لا بد وأن يختلف إليه النظر اختلاف النقاد في مذاهبهم واذواقهم وعقائدهم وثقافاتهم .

أما الذي لا ريب فيه وعليه المعول واليه ميل جمهرة النقاد فهو ان أبا العلاء شخصية أدبية فذة طالعت الآداب العربية بأسلوب جديد له خطره وأثره في الشعر والنثر تفنن فيه أبو العلاء لفظاً ومعنى شكلاً وأساساً وتأثر به الادب العربي والآداب الاجنبية الى حد بعيد . ونحن اذا صحبنا أبا العلاء واستمعنا إليه في رفق وأناة واستقصينا آثاره وفنونه وشروحه ومتونه استطعنا أن نرد المنهاج الذي اعتمده وركّز عليه اسلوبه سواء أفي الشعر أم النثر الى الاصول الآتيه :

(أ) **في الشعر**

١ — الاخذ بمبادئ المدرسة القديمة (مدرسة الخليل بن أحمد) في العروض والقافية مع استقصاء نواقص هذه المدرسة وا كمالها وقد كان من جراء ذلك ان استحدث القافية المقيدة المجردة أثبتها في ديوانه (جامع الاوزان) على ما روى (ياقوت) قال : (وذلك مفقود في الشعر القديم والمحدث يشبه المقصور) .

٢ — اخضاع حروف المعجم بكاملها للقافية الشعرية والنظم على منوال ما ُفقد أو ندر او أهمل من ذلك عند المتقدمين وهذا بعض ما قصد إليه في (اللزوميات) . وعمل كهذا كان يعتبر من باب الاستقراء الادبي والجهد اللغوي الفني ورياضة الفكر بل حتي الخليل بن أحمد وهو أدنى إلى عصر البساطة والطبع (تظرف) لجمع حروف المعجم في بيت من الشعر .

٣ — لزوم مالا يلزم على مثال ما شرح وأوضح في مقدمة (اللزوميات) أيضاً وهو أن يلزم مع كل روي حرفاً ليس بلازم تقوية للقافية في السمع كما في قوله :

وإذا رجعت إلى الحقائق لم يكن ... في العالم البشري إلا بائس
والموت باز والنفوس حمائم ... وهزبر عريس ونحن فرائس

فقد التزم في هذين البيتين الهمزة المكسورة مع السين كما هو ظاهر من كلمتي (بائس) و (فرائس) وكان بامكانه أن يكتفي بالسين لو لم يجد في

ما التزم ايقاعاً أجمل ولفظاً أنبل . ذلك هو منحاه في (لزوم مالا يلزم) وهو شكل من أشكال النظم النادر في شعر المتقدمين وسعه وأضاف اليه وتفنن فيه واختصه باغراض شعرية جديدة . وأنشأ عليه أبنية أوراق ديوان (اللزوميات) وأكثر ما ورد منظوما في رسالة (ملقى السبيل) •

٤ — نبذه أسلوب القصيدة العربية التقليدي سواء أبالنسبة لاغراضها أم تنسيقها وذلك أن الشاعر العربي قد ظل محافظا على أساليب العصر الجاهلي وقوالبه الشعرية يستلهم من حياة البداة ومنازعهم وصور البادية وتقاليدها ما يباين طبع الحضارة واحساسها وصورها وحاجاتها ومن أعرض عن ذلك من الشعراء المحدثين ظل فرديا في المجتمع العربي الجديد وفي معزل عن الذاتية القومية إلى حد بعيد الى أن جاء أبو العلاء بأسلوبه متخذاً من صدق الكلمة والنظر الحر والحياة العامة والمثل العليا دليله في الشعر .

(ب) في النثر

١ — استحداثه قوالب جديدة للنثر الفني تجمع بين الروح الشعري والفكر التعليمي الفلسفي مضيفا إلى بعضها (الغاية) أو القافية إلى السجع والتوازن على نمط خاص هو أدنى إلى ما نسميه (الشعر المنثور) في اصطلاح أيامنا ليكون التعبير أحسن جرساً وأوقع في السمع والنفس . وهذا هو أسلوبه في (الفصول والغايات) و (والأيك والغصون) محمولا على مواعظ وتأملات وأحاديث وآراء والتفاتات ذهنية وروحية إلى حقائق أو مظاهر كونية وإنسانية في صيغ متينة حافلة بفوائد وطرائف أدبية ولغوية تستتر غالباً في الوشي الفني والاغراب والتكلف .

أما في (ملقى السبيل) وهو نثر وشعر من نوع المواعظ والتذكير بالنهاية فيجيء بالقطعة النثرية لا تجاوز سطراً أو أسطاراً على حرف واحد أو عدة حروف من السجع ثم يكرر معناها شعراً يبتدىء بهذا من الهمزة إلى أن يستوفي حروف المعجم وهو نمط آخر يعتمد حل المعنى وعقده ووحي الالفاظ والاوزان معاً . وهو أدنى إلى أسلوب الوعظ الخطابي القديم عند العرب •

٢ ـ اصطناع الاسلوب القصصي التعليمي الفكه محمولا على الخيال المبدع والسخرية اللاذعة والاستقصاء الادبي الجامع وهو أسلوبه في رسالة الغفران المشهورة وقد كاد ينفرد به .

والمعري لم يكن عابثاً أو متفكهاً في اعتماد هذه الاصول او ابتكار تلك القوالب الادبية التي أودعها حشاشة نفسه وعصارة فكره مهما اختلف النقاد في تقويمها بل كان يريد أن يبلور ما لم يكن مبلوراً من أشكال الصيغ العربية . وأن يتم نقصا أو يسد ثلمة في دواوين الشعراء المتقدمين والمحدثين وأن يأخذ بالاقوى من القافية مصطفيا موسيقى اللفظ ورادأ قوة الكلمة في بناء القوافي إلى لزوم ما لا يلزم وإلى توافق الكلمات في السنخ (أي أصل بناء الكلمة) لان هذا هو الامتن والاحسن في رأيه ولان العرب كما يقول : كانت تختار أشرف الكلم في السمع متأثراً في الوقت نفسه بما كان شائعا في عصره والعصور التي تقدمته من افتتان بالصنعة والتوشية والمحسنات اللفظية والمعنوية وبما كان للصيغة من أثر سحري يشفع بالاغراب والتكلف ذلك ما جعل أبا العلاء يأخذ بأقصى حد العبارة وهو يرى للالفاظ قوة ايحائية تنقل أكثر من معانيها وتخلق أجواء من عواطف وتصورات .

بيد أن أبا العلاء لم يقصر أسلوبه على هذا المستوى بل كان يراعي فيه مقتضى الحال فالنثر الفني المحمول على التفوق الادبي والمنهج التعليمي هو عنده غير النثر التعليمي المجرد او ما يكتب في المراسلات او يقال في الجماعات ففي الاول يؤثر الصعوبة والمتانة والتعمق اللغوي والسجع ولزوم ما لا يلزم والتفنن اللفظي والمعنوي وحشد المعرفة وفي الانواع الاخرى يتوخى مع الجزالة وتوثيق السرد بساطة التعبير وسهولته ومن كلامه في بيان ما ترك من حروف المعجم توخيا للسهولة في ما وضع من خطب منبرية عامة قوله : (تركت الجيم والحاء وما يجري مجراها لان الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون سجيحاً سهلا) . ومن شواهد أسلوبه البسيط السهل (مقدمة اللزوميات) و (رسالة الملائكة) والمعري لا يختار الص...

للتعمية كما ظن بعض النقاد بل لان الصعوبة أنفس من السهولة في مذهبه الادبي وما يهمس أو يلمّح به أحيانا ليس هو من باب التعمية بل من سوانح الربب الغابر وقد تكون الاشارة أبلغ فيه من العبارة وليس أدل على وضوح أبي العلاء وصراحة طبعه وحرّية فكره حتى في الشؤون الدينية والسياسية من آرائه الجريئة وأفكاره المعلنة في تعريف الله ونفيه عنه الصفات واثباته له الزمان والمكان بالمعنى الذي عرّفهما به ومن قوله بالعلل ورسالة العقل وحرية النظر والخير للخير والمساواة العامة والمغفرة الشاملة ومن حملاته العنيفة على الطغيان والطغاة والولاة وتجار العقائد والمبادئ وسائر مساوئ عصره ومن نقده المذاهب والشيع والمقالات جميعاً حتى ليصح أن يدعى له مذهب مستقل . ولو أن أبا العلاء كان يؤثر التعمية حقا في أسلوبه وبيانه لم يتبع كل مؤلف ممتاز من مؤلفاته الادبية بشرح أو تفسير لكشف مغلقاته — على ما هو ثابت في ثبت مؤلفاته — بل أن الصعوبة هي مهماز البحث والاستقراء ونزعة تعليمية عند أبي العلاء أوجبت أن يلحق بديوانه (لزوم مالايلزم) (زجرالنابح) و (شرح اللزوم) و (الراحلة) و (راحة اللزوم) و (بالفصول والغايات) كتابي (السادن) و (اقليد الغايات) و (بالأيك والغصون) او (الهمزة والردف) (تفسير الهمزة والردف) . وهذا كله لان أبا العلاء لم يكتب لنفسه فحسب بل لطلابه وقرائه جميعا . بل ان النزعة التعليمية المعلمية لتلازم أسلوبه حتى في القصص الخيالي الفكه وقد يضحي الوحدة الفنية ووحدة السياق اللاذة في سبيل الاستقصاء العلمي النافع . ومن ايثاره هذه النزعة استخدامه مصطلحات وسائل العلوم والفنون الخاصة في اختراع المعاني العامة وتوسيع الطاقة اللغوية والبيانية بحذق وعمق سواء أفي الشعر أم النثر مما لم يسبق إليه .

قال في (الفصول والغايات) : [استغفرك ماحي السيئات من قول ليس باسناد . استكثر من السناد . كم أوطئ في الذنوب واضمن الحوب بالحوب . وإذا تقويت لفعل الحسنة اقويت ومتى انكفأت إلى الخير أكفأت . فاسترني ربي فعيوبي أقبح من السناد والاكفاء] .

وقال في (الأيك والغصون) : [لا تعيين احداً بأمر فتطأ على مثل الجمر . اصبر على ما حكم ربك واياك وليت الـكاذبة ولو الغرارة وعسى المخلفة ولعل الخالبة وابك على خطيئتك ولا تكون كالرجل يبكي العداء .

ومنها :

ما ترخيم وضع وكلام ضم وجمع جر بالاضافة ونصب على الاغراء]

وقال في (لزوم مالا يلزم) :

بعدي من الناس برء من سقامهم وقربهم للحجى والدين أدواء
كالبيت أفرد لا ايطاء يدركه ولا سناد ولا في اللفظ إقواء

وأمثلة ذلك كثيرة جدا في شعره ونثره .

والمعري الحائر او الساخر او الثائر شخصية مطبوعة لا مصنوعة . بيد أنه كلما أوغل في حروف المعجم أو عالم الالفاظ والكلمات وأغرب أو تفنن في الجناس والالغاز والتوشية مستسراً في بطولة البيان والبديع واللغة اكتنفه الغموض الى أن يفسر نفسه باملائه أو تفسره المعاجم وهو في مثل هذا الايغال قد يضحي الجمال الفني بمعناه الحديث ليشبع نهمه العلمي او التعليمي ارضاء لذوق عصره . والقطعة الفنية من مثل بيانه هذا انما نستفيد منها اليوم بمقدار ما يستفيد علماء الحضارات القديمة من القطع الاثرية والنفائس المتحفية . أما عندما يرتجف قلبه بالالم وتغمر ثورته النفسية معالم الصيغة وتتكاثف عواطفه وأفكاره فينبثق عنها الالهام فاننا لنبصر فيه عندئذ أوضح وجهٍ وآنس روح وأعمق نظر بل الشاعر الحق متصلا ليس بعصره فحسب بل بجميع العصور الانسانية .

وأبو العلاء عندما يأخذ بالسمت الفلسفي في الشعر أو باختراع المعاني العامة من المسائل والمصطلحات العلمية والفنية الخاصة لا يسخر الشعر للعلم بل العلم للشعر فهو ليس بالشاعر الفقيه أو اللغوي أو النحوي أو الفلكي بالمعنى المنتقص في الذوق الادبي بل هو الشاعر الملهم أبداً والمشرف بشعلة وجدانه وبيانه على صميم الحياة وأقصى المسالك الانسانية .

وقد يبهجنا أن نستمع إليه الآن قليلا لنكون أكثر اتصالا بروحه الشعري الواضح واسلوبه الحر :

قال من قصيدة في (لزوم ما لا يلزم) يمجد الله ويندد بما انتهى إليه مجتمع عصره من انحلال أخلاقي :

للمليك المذكرات عبيد ... وكذاك المؤنثات اماء
فالهلال المنيف والبدر والفر ... قد والصبح والثرى والماء
والثريا والشمس والنار والنث ... رة والارض والضحى والسماء
هذه كلها لربك ما عا ... بك في قول ذلك الحكماء
خلني يا أخي استغفر الل ... ه فلم يبق في إلا الذماء
ويقال الكرام قولا وما في العص ... ر إلاالشخوص والاسماء
وأحاديث خبرتها غواة ... وافترتها للمكسب القدماء

وقال : يحمل على الطغاة والطغيان والفوضى السياسية في عصره :

يكفيك حزنا ذهاب الصالحين معاً ... ونحن بعدهم في الارض قطان
ان العراق وان الشام من زمن ... صفران ما بهما للملك سلطان
ساس الانام شياطين مسلطة ... في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهم ... ان بات يشرب خمراً وهو مبطان
تشابه النجر فالرومي منطقه ... كمنطق العرب والطائي مرطان
أما كلاب فأغنى من ثعالبهم ... كأن ارماحهم في الحرب أشطان
صلوا بحيث أردتم فالبلاد أذى ... كأنما كلها للإبل اعطان

وقال : يخاطب الدنيا الغرارة ويقوّم مصير الانسان :

يموج بحرك والاهواء غالبة ... لراكبيه فهل للسفن إرساء
إذا تعطفت يوماً كنت قاسية ... وان نظرت بعين فهي شوساء
إنس على الارض تدمي هامها إحن ... منها إذا دميت للوحش أنساء
فلا تغرنك شم من جبالهم ... وعزة في زمان الملك قعساء
نالوا قليلا من اللذات وارتحلوا ... برغمهم فاذا النعماء بأساء

وقال : وكأنه يرى الموت أثبت الحقائق على مافيه من سر غامض :

أما الصحاب فقد مروا وما عادوا ... وبيننا بلقاء الموت ميعاد
سر قديم وامر غير متضح ... فهل على كشفنا للحق إسعاد

سيران ضدان من روح ومن جسد هـذا هبوط وهذا فيـه إصعاد
أخـذ المنـايا سوانا وهي تاركة قبيلنـــــا عظة منهـا وايعاد
توقعوا السيل أوفى عارض وله في العين برق وفي الاسماع إرعاد

وبعدُ : أوليس في هذا الشعر أعمق وأدق ما يختلج به القلب البشري ؟ أفلا نرى فيه الشاعر الملهم وقد أبرز أفكاره وأحاسيسه في صيغ متينـة متسقة من اللفظ الواضح المأنوس تدخل الآذان من غير استئذان لتحتل أعماق النفس ؟ ألم نخشع مع الشاعر لعظمة الله بديع السماوات والارض وقد أبرز الكون عبداً لله بمذكراته ومؤنثاته ؟ ألم يصور لنـا حياة عصره حتى لكأننا نراه ونعيش فيه ؟ ألم يبصرنا بالموت والحياة وقد أشهدنا النهاية سيلاً جارفاً وايعادها عارضاً تخطف الابصار بروقه وتصم الآذان رعوده ؟ ألا ان هذا لهو الشعر بأكمل معانيه وأجمل مبانيه .

أما قصائد (أبي العلاء) المشهورة كمرثيته الخـالدة (غير مجد في ملتي واعتقادي) وقصيدة (علاني فان بيض الاماني) وأشباهها فقـد كاد يجمع أهل البصر في الشعر أنه ابتنى منها هيكل جمال فني ما زال يخشع له الخيال والفكر .

وأبو العلاء إذا لم يستطع أن يطالعنا بالمسرات والمباهج في (اللزوميات) لانها نظر حزين في نقص النواميس ورثاء حار للانسانية الضعيفة الفـانية ومعالجة جريئة لمجتمع مريض وحيرة متجهمة متهجمة فلقد طالعنا بما يروح عنا في رسالة الغفران وبرز أسلوبه القصصي التعليمي غنياً بالخيال والصور الفـكاهية محمولة على السخرية اللاذعة مما هو معروف مشهور ولا مجـال الآن لتحليله وتفصيله . والسخرية في اسلوب ابي العلاء مردها إلى النقد الضمني كأن يظاهر خرافة او صورة على المبالغة ليثير من حولها الضحك . والقهقهة التي يثيرها حول بعض الاساطير والعقائد تكون معول هدمها وآية نسخها .

ومما تفنن فيه اسلوباً وبياناً انطاقه الطير والحيوان بما ينفع الانسان

ويبهج البيان . ألّف في هذا الباب — على ما نقل الرواة ومؤرخو الآداب العربية ولم يصل إلينا — (سجع الحمائم) يتكلم فيه على ألسنة حمائم أربع و (أدب العصفورين) و (الصاهل والشاحج) و (خطب الخيل) يتكلم على ألسنتها (والقائف) على مثال (كليلة ودمنة) بل هو كما يقول الكلاعي صاحب (احكام صنعة الكلام) أكثر ورقاً وأفسح طلقاً وأكثر شمماً وعبقاً . وله مما يعد من الاشكال الادبية الخاصة كتاب (المواعظ الست) في خطاب (رجل ، اثنين ، جماعة) ، (امرأة ، امرأتين ، نسوة) . ومما تحسن الاشارة إليه تفننه في اختيار العناوين الطريفة المبتكرة لآثاره ومؤلفاته الادبية سواء أفي الشعر أم النثر وهي نزعة الادب الحديث محمولة على الذوق الفني والدقة والاناقة .

ولقد تأثر أبو العلاء في أسلوبه إلى حد كبير بما حدد لنفسه من معنى الادب وغاية الشعر إذ كان المتقدمون يرون الشعر باباً من ابواب الباطل فاذا بالمعري يخرج به عن هذا فيبتنيه على القيم أي على الحق والخير والجمال بعد أن ظل الشعر أمداً طويلا مسخراً للمعابثات وأهواء الرئاسات والمدائح والاهاجي والاغراض الخاصة المحدودة .

ومما صرح به في مقدمة (اللزوميات) أنه قد رفض الشعر بمفهومه السابق إلى أسلوب جديد هو أسلوب الصادقة معتذراً عما قد يبدو من ضعف فنه الشعري بسبب هذا المنحى فيقول : (من سلك في هذا الاسلوب فقد ضعف ما ينطق به من النظام لانه يتوخى الصادقة) إلى أن يقول : (ويروى عن الاصمعي كلام معناه أن الشعر باب من أبواب الباطل فاذا أريد به غير وجهه ضعف) .

بيد أن توخي الصادقة لم يكن باعث ضعف في شعر أبي العلاء بل قوة وهذا الاسلوب الجديد بفكرته وغايته هو الذي نفحه بالخلود وأبرز منه شاعر القيم بل المفرد العلَم الذي حمل الكون والانسان على أَثلة اللسان ومنطوق البيان واختار للحكمة أفقاً شعرياً تشرف منه على العالم ،

وفي الحق أن أبا العلاء في اختياره مذهب الصادقة قد جعل من الشعر

تعبيراً تاماً عن نفسه . والفن تعبير كما يقال والشاعر كلما كان أصدق تعبيراً عن نفسه كان أبلغ شعراً وأعظم أمراً . نعم . قد يجاوز المعري أحياناً حدود الروح الشعري في استمداده المبنى من الصيغ الصعبة ولكنه ليظل في استمداده المعنى من ثورته الروحية الملهمة وشعوره الاصيل مثال الشاعر الجبار .

وإذا كان قد انفصل في اسلوبه الجديد عن مذهب (الفن للفن) وهو في أصله مذهب أرسطو ثم الأصمعي إلى مذهب (الفن للفائدة) وهو في أصله مذهب أفلاطون معتبراً غاية الشعر التهذيب والحقيقة والمثل الاخلاقية العليا مجاوزاً في هذا ما أخذ به الأصمعي من الفصل بين الاخلاق والشعر فأنه في الواقع لم يأخذ بهذا السمت إلا لأن الانسانية في نظره قد تستطيع أن تستغني عن باطل الفن ولكنها لا تستطيع أن تستغني عن الاخلاق .

ونحن إذا أخذنا برأي من يذهب إلى أن (الادب نقد الحياة) ولاحظنا القوة الناقدة الزاخرة بالحيوية الذهنية والمعارف الشاملة والحس المرهف في أسلوب أبي العلاء أمكننا أن نضعه في الذروة بين عباقرة الادب وأن نحمل تفوقه الادبي على مواهبه الممتازة وثقافته الواسعة وفهمه الحياة والعالم فهماً عميقاً شاملاً أمدّ أبداً قوته المبدعة بالأضواء والظلال والجمال والجلال .

ولعلنا نختلف أحياناً مع أبي العلاء في آرائه ومقاييسه وفي تفسيره الحياة والكون والمعاني الآلهية ولكن الذي يستهوينا منه أبداً هي حرية فكره وطهارة نفسه وأن يصدر في كل ما يكتب أو يقول عن إيمان صادق وغيرة عامة وفكر رصين وشعور عميق . وفي الحق إذا كان أسلوب الكاتب أو الشاعر شديد التأثر بمزاجه وخصائصه النفسية والفكرية فأن أسلوب أبي العلاء ليس بمطبوع على هذا فحسب بل هو ذات أبي العلاء يطالعنا بصرامته ورقته وغموضه ووضوحه وقلقه واطمئنانه وبما يواكب عواصف نفسه وآهاته وواهاته من تشاؤم مكفهر ونظر حائر وتناقض أحياناً .

لا جرم أن المفاجئات الروحية في حنادس الكون والحياة ومعارج (اللانهاية) لابد وأن تهز الانسان هزاً وأن تجاوب في نفسه أمواجها ومفارقاتها .

وأنى لأبي العلاء وقد أعجزه سر الغيوب ووقف في ليل عاصف يتشوف على خضم المجهول أن لا تطالعه الحيرة أو التناقض كلما أمعن في السرى ولما يطلع الفجر:

أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا
سألتموني فأعيتني إجابتكم من ادعا أنه دار فقد كذبا
وبصير الاقوام مثلي أعمى فهلموا في حندس نتصادم

بيد أن أبا العلاء قد أفاد من الحيرة على خضم المجهول أن ازداد ايماناً بعظمة الله وصغر شأن الانسان ووجوب النظر الحر وانتهى إلى تنزيه الخالق مع التسليم لملكوته والثقة المطلقة بعدله ورحمته لان الانسان على حد تعبيره أقل في ملك الله من أن يناله غضبه أو رضاه .

قال في (لزوم ما لا يلزم) :

ليفعل الدهر ما يهم به إن ظنوني بخالقي حسنه
لا تيأس النفس من تفضله ولو أقامت في النار ألف سنه

وقال : وما أنا يائس من فضل ربي على ما كان من عمد وسهو

وقال في (الفصول والغايات) :

كن حراً وانزل حيث شئت ولو بحرة النار فان رعاية الله شاملة للأحرار .

ولقد تأثر أسلوبه بنظره هذا واغتنى بالصيغ المبتكرة والتعابير الجميلة الرصينة في مناجاة الله وتحميده وتسبيحه وتمجيده . بيد أنه من جهة أخرى قد ظل مأخوذاً بفلسفة التشاؤم لدوام ريبه في العلة الغائية وهو ما يبرح يرى اللحد يصير لحداً مراراً وقد أضحكه تزاحم الأضداد.

وفي الحق ان التشاؤم وهو طابع الريب والألم محمولاً على المزاج لذو أثر بليغ في أسلوب أبي العلاء بل هو (علامته الفارقة) لما حمله في (اللزوميات) و (الفصول والغايات) من أفكار وألوان قاتمة حتى أسرف بعض النقاد فاعتبره في لون أسلوبه هذا (سلبياً هداماً) واقتصد آخرون فزعموه إيجابياً بقدر معلوم واني لأميل الى الأخذ بالرأي الثاني بل الى القول بأن التشاؤم في ذاته

ليس هدماً للحياة بل هو لون من ألوانها ولحن من ألحانها بل ميزان من موازينها ومعرض للكثير من صورها ورسومها . نعم . وأي ضير في أن يطالعنا ابو العلاء بالألوان القاتمة من الحياة البشرية محمولاً على مزاجه وحيرته وعوامل بيئته وخصائصه النفسية والفكرية .

أوليست الحياة دمعاً وابتساماً وعرفاً ونكراً وخيراً وشراً وقبحاً وجمالاً .

أوليست غاية الفن ان نرسم الطمر كما نرسم البرد . بل ان الجمال الانساني لا يقوم بغير المفارقات بل من منا لم يشعر في بعض أيامه بحزن مجهول قد اكتنف روحه وقلبه وحملها اليأس والجزع .

ولقد تأثرت آداب الأمم جميعاً بهذه الظاهرة الروحية وانتهى التشاؤم بالطرب اليوناني الى فلسفة اغتنام وهي الفلسفة العابثة التي عب فيها شعراء شرقيون عديدون أيضاً وفي مقدمتهم الشاعر الفارسي المشهور (عمر الخيام) .

لاجرم ان المعري قد أحب الحياة والانسانية حباً جماً فخرج يطوف الآفاق وبوده لو أن يطول السهى براحتيه حتى اذا اكتوى بنار التجربة وزاده فقد أمه مدبرة أمره وهو المستطيع بغيره حزناً وألماً انقلب الى ذويه متوحداً متقللاً لا فراراً من المجتمع لذاته بل عزوفاً عن مخزياته وانزوى في مدرسته المتواضعة في (معرة النعمان) منقطعاً الى التأليف والتعليم ورياضة النفس والجسد مؤمناً بعد أن حلب الدهر أشطره ان النفس البشرية المجبولة على غير الخير لا تحصل عليه الا بما استن لنفسه وبما توجه اليه من فلسفة صارمة :

فأكره على الخير مجبولة على غيره في علان وسر
فلم يجعل التبر حلي الفتاة حتى أهين وحتى كسر

أجل . في هذه الفلسفة الصارمة الحازمة وجد أخيراً أبو العلاء اطمئنان نفسه وراحة ضميره ومستقر طموحه وكأني به وقد ابتدأ ايجابياً جد ايجابي يرتد به الطموح الى (السلبية — الايجابية) لا توكيداً بكينونته فحسب بل ليعبر عنها ايضاً باسلوب جديد يطالع العالم بألمع آثاره وأروع أشعاره .

وفي الحق اذا كان الأدب العالمي مديناً الى كرمة الخيام المتوددة المفردة

تنفحه بالرباعيات فهو مدين الى مدرسة المعري المتوحدة المتهجدة تنفحه باللزوميات والفصول والغايات وغيرها من الآيات البينات .

ولقد أفاد أسلوب أبي العلاء من مدرسته الجديدة ونزعتها الفلسفية الصارمة فكانت هي هو بكل ما اليها من ألوان وأجواء وظلال وأضواء .

* * *

وبعدُ . فليس المعري في تشاؤمه (السلبي — الايجابي) الا علماً من أعلام النقد نقد الحياة وهدم الطغاة بأبلغ ما تستوعب الصيغ وهو بأسلوبه الحائر او الساخر أو الثائر المنبثق عن ثورة وجدانه محمولاً على بيانه ليهز الضمير الانساني هزا . ولا غرو بعد ذلك ان يتأثر بأسلوبه أدب المشرق والمغرب . فقد أصبح معلوماً لدى الباحثين في الأدب المقارن ان الشاعر الفارسي (عمر الخيام) الذي أبهج التشاؤم بالاغتنام والحب والمدام قد أفاد في رباعياته من أسلوب المعري واقتبس كثيراً من معانيه الشعرية الفلسفية على ما بين الشاعرين من فارق في الوسيلة هذا الى مدام وذاك الى صيام .

ومثل هذا يصح أن يقال عن تأثر (دانتي) الشاعر اللاتيني في (جحيمه) بأسلوب رسالة الغفران أيضاً مما اجتزيء بالاشارة اليه .

ويبدو أن عرب الأندلس خاصة كانوا من المهتمين بأسلوب المعري وفي النسج على منواله كما يستدل من معارضاتهم لملقى السبيل . ولغيرها من آثار أبي العلاء فقد عارض هذه الرسالة ممن علمنا الحافظ الربيع الكلاعي الأندلسي المتوفى سنة ٦٣٤ ﻫ والكاتب الشهير (أبو عبد الله) محمد بن ابي الخصال وزير يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين .

ولا حاجة بعد ذلك الى التنويه بما كان لعرب المشرق من اهتمام أوفى بآثار المعري وآرائه فقد سارت بحديث ذلك الركبان وعلمه الناس من قاص ودان .

* * *

إلى هنا . وأنهي حديثي عن أسلوب شاعرنا وناثرنا العظيم لأعرض على

حضراتكم صورة تذكارية ناطقة من صور شيخوخته الفانية وقد وقف كالشمس الغاربة ملوحاً للماضي البعيد من شاطئ النهاية محمولاً على هذه الأبيات :

سقياً لأيام الشباب ... وما حسرت مطيّتيا
أيام آمل أن أمسّ ... الفرقدين براحتيا
وأفيض إحساني على ... جاريّ ثم وجارتيا
فالآن تعجز همتي ... عما ينال بخطوتيا
أوصى ابنتيه لبيد الماضي ... ولا أوصي ابنتيا
لست المفاخر في الرجال ... بعمتيّ وخالتيا
لكن أقر بأنني ... ضرع أمارس دارتيا
والله يرحمني إذا ... أودعت أضيق ساحتيا
لا تجعلن حالي إذا ... غيبت أبأس حالتيا

محمد الشريقي

الروح العلائية

وأثرها في أدبنا الحديث

كان الشعر القديم عموماً يدور حول نفس الشاعر أو من يتصل بهم من عظماء الناس ، إليهم يتزلّف ، وبوقائعهم يهتم ، ولاتمام رغائبهم يسرع . أما الشعب ورغائبه والمجتمع وحاجاته والحياة ومشكلاتها والطبيعة ومعانيها فقلما كانت تهمه أو تسترعي انتباهه . وان كان شيء من ذلك فعرضاً في مقدمات قصائده أو خطرة خاطفة في بعض خواطره — وبعبارة أخرى كان الشاعر موضوع شعره ، فالمديح أو الرثاء لمن يستعظمه أو يستوهبه ، والغزل او العتاب لمن يحبه أو يلازمه ، والفخر بنفسه أو بعشيرته . وقد نسج أكثر الشعراء على هذ المنوال لم يشذ عنهم في ذلك غير النادر ومن هذا النادر شاعر المعرة . بل هو عند التحقيق نسيج وحده بين القدماء وسابق لأوانه دون سائر الشعراء .

انفرد هذا الحكيم في عهده بمزية النظر الحرّ إلى الكون والمجتمع البشري فلم يكن قبله من حمل حملته على الفساد العام والمعتقدات الشائعة . وقد مرّت قرون قبل أن بعثت روحه ثانية تحرّك في أدبنا الحديث روح التأمل العميق والنظر الواسع . هذا البعث هو الذي نحاول أن ندرسه في حياتنا الأدبية لنبين ولو بايجاز كلي مدى أثره فيها .

كانت حياتنا الروحية حتى أواخر القرن الماضي لا تزال جارية على سنة القرون الوسطى ، وطفيفاً جداً كان تأثرنا بالنضال المحتدم يومئذٍ في أوربة بين آراء الطبيعيين وتعاليم الالهيين ، فظلت رهبة الدين مستولية على المجتمع العربي . وظلّ الايمان بالله وبالآخرة راسخاً في نفوسهم . الله أكبر بيده نواميس الكون واليه مصير الانسان ، وما السماء والجحيم والخلود والتنزيل والنبوءة إلا بديهيات لا تقبل مناقشة ولا تحتاج إلى برهان . وإلى ذلك يرجع

كل أدبٍ روحي في الأقطار العربية قبل الانقلاب الفكري الذي عم الغرب لبروز نظرية التطور الطبيعي واهتمام العلماء والفلاسفة بها .

فلما انتشر كتاب دارون في أصول الأنواع وأخذ أرباب العلم والنظر يبحثون في نظرياته بين مناقش ومدافع لم يستطع العالم العربي أن يبقى بنجوة من هذه الموجة الفكرية العامة ، فنشأ فيه كما نشأ في الغرب قبله فئة من مريدي التحقيق العلمي كان لها أثر كبير في إثارة الشكوك وتنشيط البحث الحر ورفض مالايجاري السنن الطبيعية مما أدى إلى كثير من الجدل والمناظرة (١).

وكان لذلك نتيجتان ، الأولى تطرّف البعض في رفض النصوص الدينية المخالفة للعلم — وهو مذهب الدكتور شبلي شميّل ومدرسته — والثانية الأخذ بتأويل تلك النصوص للجمع بين العلم والايمان وهو مذهب كثيرين ومنهم جمال الدين الأفغاني(٢) والشيخ محمد عبده(٣) وقد توسع في ذلك محمد فريد وجدي حتى جعل التأويل قاعدة الأصول الاسلامية وأوجب تأويل نص الكتاب إن أوهم ظاهر ألفاظه مخالفة للعقل والعلم (راجع مقالة الاسلام والعلم الحديث في عدد الهلال الممتاز « العرب والاسلام في العصر الحديث » سنة ١٩٣٩) .

وقد ظل هذا النزاع بين الطبيعيين والالهيّين محتدماً حتى مطالع القرن العشرين ، ولعله لا يزال في بعض الأنحاء إلى الآن . على أن النزعة الفكرية في أدب هذا القرن ، هي نزعة التجديد ، تجديد المعتقدات وتحريرها من قيود التقاليد والخرافات . فالأدب القديم المحافظ يتراجع اليوم أمام أدب ينادي بالحرية الفكرية والتساهل الديني لا من طريق الالحاد كما قد يتبادر إلى ذهن البعض « فلا شيء — كما يقول الدكتور صرّوف — افسد من هذا الوهم ولا أقبح منه تهمة على العلم لأن العلم والكفر مستقلان كل الاستقلال ، فكم عالم من أشد الناس تديناً وكم كافر يجهل مبادئ العلم (٤) » .

(١) من رام الاطلاع على ما كان يدور من خصومة في هذا الباب فليراجع المقتطف مج ٨ ص ٧١٢ — ٧١٩

(٢) راجع خاطرات الأفغاني للمخزومي ١٦١ و ١٨٥

(٣) راجع مقال الدين والفلسفة ، المقتطف مج ١٠٥ (٤) المقتطف ٧ — ٥٦٥

هذا الأدب الجديد أدبٌ فكري ومن مزاياه الشك في كل ما يناقض العلم أو يغل العقل عن التقدم . ولا أقول إنه صدى لشعر المعري ولكني أقول إنه يستقي من نفس المنبع ، منبع التفكير الحر المنبثق من اصطدام النظريات العلمية بالتقاليد الدينية والاجتماعية . فكيف تسنى لشاعر اللزوميات في القرن الخامس الهجري ما يتسنى لمفكري القرن العشرين ؟ وهل كان في بيئته ما يدفعه إلى ورود هذا المنبع الفكري ؟ سؤال لا بد في الاجابة عنه من الرجوع إلى عهد الشاعر وإلقاء نظرة على أثره في نفسه .

« بيئة المعري الفكرية » : عاش شاعرنا ما بين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس للهجرة — أي في إبان الحضارة الفكرية العربية . في ذلك العصر كان قد تم نقل العلوم اليونانية وسواها إلى العربية ونبغ في الشرق العربي كثيرون من العلماء والمفكرين . فكانت بغداد وعدد من المدن الشرقية الاخرى مراكز علمية احتكت فيها « الروحانية » السامية التي حملت إلى الناس الايمان بالتوحيد والمعاد بالعقلية اليونانية التي حملت اليهم البحث المنطقي والنظريات الفلسفية . وكان من جراء هذا الاحتكاك تعدّد المنازع الفكرية والكلامية مما أحدث في العقول ميلاً الى النظر النقدي . فتسرب الشك الى عقول الكثيرين واستولى على البعض منهم روح الانكار أو اللاأدرية ، فرفضوا ما لم تقبله عقولهم من تعاليم وسنن . ومن هؤلاء المعري فقد نشأ في هذا الجو الفكري المضطرب توّاقاً الى المعرفة وبلوغ الحقائق المشبعة للعقل ، وفي نفسه الحساسة كان اصطدام التقاليد بالتفكير الحرّ اصطداماً عنيفاً . حقاً لا نعرف بالضبط متى كان ابتداؤه ولكننا نعلم أن أثره لم يبرز الا بعد رجوعه من بغداد وحبسه نفسه على العلم في المعرّة . وفي كلامه على نفسه في كتابه الفصول والغايات (١) ما يدل على نزعته منذ الثلاثين إلى التأمل العقلي يقول مخاطباً النفس : « قد أخلقتِ الجسد فما تريدين ، اظعني عنه لا يحمدك في الحامدين . ما زلت آمل الخير وأرقبه حتى نضوت كملاً ثلاثين . . . فلما تقضت الثلاثون وأنا كواضع مرجله على نار الحباحب علمت أن الخير مني غير قريب . الرجل كل الرجل من آتى الزكاة ورحم المسكين ،

(١) ص ٢٧٩

وتبرّع بما لا يجب عليه وكره الحنث وكفر عن اليمين » . ومن قرأ هذا الفصل كله كما ورد في الكتاب يستشف ما استشفه الدكتور طه حسين من نزعة المعري إلى التأمل في النفس وتبعتها وفي الشر وأنه غريزة في الحيوان وفي طلبه التزهد والتعالي عن سفاسف الحياة (١) .

وقد نرى نزعة التأمل العقلي قبل ذلك فيه في رثائه لوالده وهو في شبابه ، إذ يقول عن مصير الأموات :

طلبت يقيناً يا جهينة عنهم ... وان تخبريني يا جهين سوى الظن
فان تعهديني لا أزال مسائلاً ... فاني لم أعط الصحيح فأستغني

ولكن نفسيته على ما يظهر لم تنضج إلا دور العزلة — دور اللزوميات ، وفيه يظهر طابعه الروحي الخاص .

« طابعه الروحي »: ليست اللزوميات عند التحقيق الا انعكاساً لحالاته النفسية الناشئة عن بيئته الفكرية والاجتماعية . ويظهر فيها مطبوعاً بطابع خاص يميزه عن سائر الشعراء والكتاب وهو يتألف من ثلاثة عناصر رئيسية هي : الحيرة والتشاؤم والاخلاص .

١ — الحيرة : وهي وليدة التفكير في ما لا يحده العقل المحدود . أهناك حياة ثانية أم لا حياة ؟ هل الله كما تصوّره النصوص الدينية أو هو شيء آخر ؟ أيتفق العقل والايمان أم لا يتفقان ؟ . مثل هذه الأسئلة كانت تضطرب في نفس المعري وكان لديها كالقارب تتقاذفه اللجج . فبينا تراه يقينياً يهاجم الجاحدين والمعطلين في مثل قوله :

إذا كنت من فرط السفاه معطلاً ... فيا جاحد اشهد أنني غير جاحد

وقوله :

وقال أناس ما لأمر حقيقة ... فهل أثبتوا أن لا شقاء ولا نعمى
فنحن وهم في مزعم وتشاجر ... ويعلم رب الناس أكذبنا زعما

وقوله :

لا ريب أن الله حق فلتعد ... باللوم أنفسكم على مرتابها

(١) مع أبي العلاء في سجنه ص ٢١٥ — ٢٢٣

تراه يتابع اللا أدريين فيقف من الغيبيات موقف المشكك بل موقف المناقض نفسه إذ يقول :

دفناهم في الأرض دفن تيقن ... ولا علم بالأرواح غيز ظنون
وروم الفتى ما قد طوى الله علمه ... يعد جنوناً أو شبيه جنون

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحق لسكان البرية أن يبكوا
يحطمنا صرف الزمان كأننا ... زجاج ولكن لا يعاد له سبك

خذ المرآة واستخبر نجوماً ... تمر بمطعم الأري المشور
تدل على الحمام بلا ارتياب ... ولكن لا تدل على النشور

والآراء في تفسير حيرة الشاعر وتناقضه مختلفة . ومهما تكن فمما لا شك فيه أنه لم يصل إلى درجة الالحاد فهو يقول بإله حكيم متعال عن البشر . ولكن صورة الله في نفسه ليست الصورة ذاتها التي يتخيلها المؤمن العادي . ولعلنا من دراسة أقواله ومقابلتها نخلص إلى الحكم بأن نظره إلى العالم الثاني لم يكن إلا نظر لا أدري متأثر بالاسلام أو مسلم متأثر باللاأدرية .

٢ — تشاؤمه : وهو ظاهر في أكثر شعره — كقوله في الإنسان والطبيعة البشرية

قد فاضت الدنيا بأدناسها ... على براياها وأجناسها
وكل حي فوقها ظالم ... وما بها أظلم من ناسها

وقوله :

قالوا فلان جيد لصديقه ... لا يكذبوا ما في البرية جيد
فأميرهم نال الإمارة بالخنا ... وتقيهم بصلاته متصيد
وجبلة الناس الفساد وضل من ... يسمو بحكمته إلى تهذيبها

ولو تابعناه في آرائه ووقفنا عند ظاهر أقواله لقلنا حتماً بالجبرية المطلقة ولما رأينا من حاجة إلى معاهد تربوية أو علمية ولا إلى شرائع دينية . فباطلة كل وسائل الثقافة أو الاصلاح . أليس الانسان ولد فاسداً وسيبقى كذلك إلى أن يزول ؟ ولكن هل كان المعري جبرياً وإلى أي حد ؟ وللجواب عن هذا السؤال يجب هنا أن نفرق بين الجبرية الفلسفية والجبرية الشعرية .

فالاولى تفكير منظم ينتهي فعلاً إلى القول بأن الانسان غير مكلف وأنه لا سبيل إلى خروجه عما رسم له منذ الازل ، وهي فكرة تهدم كل ما يحاوله الانسان من ترقية نفسه كفرد أو كمجموع ، وتجعل الشرائع الدينية والاجتماعية قيوداً لا معنى لها في الحياة . أما الجبرية الشعرية فهي شعور فقط بضعف الانسان إزاء المجهول . فبينا ترى الشاعر من جهة يقول بالقدر ويصف فعله وأثره في الناس . كقوله :

وللحيّ رزق ما أتاه بسعيه وعقل ولكن ليس ينفعه العقل

قضى الله فينا بالذي هو كائن فتم وضاعت حكمة الحكماء

كتب الشقاء على الفتى في عيشه وليبلغنّ قضاءه المكتوبا

ما حركت قدم ولا بسطت يد إلا لها سبب من المقدار

قضاء بوافي من جميع جهاته كما هو عن أيماننا والاياسر
ولو لم يرد جور البزاة على القطا مكونها ما صاغها بمناسر

وهل ألوم غبياً في غباوته وبالقضاء أتته قلة الفطن

وما دفعت حكماء الرجال حتفاً بحكمة بقراطها
ولكن يجي قضاء يريك أخا غيّها مثل سقراطها

تراه من جهة أخرى يدعو الناس إلى مثل عايا ينشدونها ويحضهم على فضائل يعيشون بموجبها . وهو في هذه الدعوة جادّ فيما يقول ، ويحملنا ضمناً على الاعتقاد بأنه مؤمن بقدرة الانسان على الخير . وإلا فما معنى طلبه الاصلاح الديني والاجتماعي وما معنى نقده حياة الافراد والجماعات ، ولماذا يدعونا إلى اتباع العقل والبعد عن الكذب والرياء والتنويه والادعاء حاضاً على العمل الصالح وضبط النفس عن الشهوات وغير ذلك من الفضائل . إن المعري جبري إذ يرى ضعف الانسان أمام الكون وحوادث الايام أمام نظام الحياة والموت . ولكنه غير جبري في الدعوة إلى البر والتقوى والحض على الحياة الفاضلة .

نعم إنه على ما يظهر يائس من تهذيب الطبع البشري :

فلا تأمل من الدنيا صلاحاً فذاك هو الذي لا يستطاع

ولكن يأسه لا يمنعه عن تبيان ما يجب عليهم أن يفعلوه لينالوا التهذيب الحقيقي . فكأنه يترك للانسان شيئاً من الحرية ، ولهذا تسمعه يعارض الجبرية بقوله : إن كان من فعل الكبائر مجبراً فعقابه ظلم على ما يفعل

٣ — الاخلاص : وهو من أبرز صفاته . فهو مخلص إلى العقل الهادي الوحيد في الحياة :

كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

جاءت أحاديث إن صحت فان لها شأناً ولكن فيها ضعف اسناد

فشاور العقل واترك غيره هدراً فالعقل خير مشير ضمه النادي

ولا يعني ذلك أن المعري كان معتزلياً في آرائه ونظرياته إذ كان يهاجم بنقده جميع الفرق ، ولكنه كان كالمعتزلة في تعظيمه شأن العقل . ويظهر إخلاصه أيضاً في نظره إلى الدين . وهو عنده على وجهين . الاول : وضعي أي نظام بشري قائم على مراسيم وفرائض ، وهذا باب للاختلاف بين الناس ولنشوء التحزب والتنافر بينهم بل التباغض وسفك الدماء ، وفي ذلك يقول :

إن الشرائع ألقت بيننا إحناً وأودعتنا أفانين العداوات

والثاني : روحي عملي وهو رياضة النفس على عمل الخير والتمسك بأهداب الفضيلة والتعالي عن الاطماع الضارة والشهوات الفاسدة :

وقد يكون في الوجه الوضعي من الدين فائدة لمن فهم حقيقته وعرف كيف يستخدمه لتقوية الروح الدينية الحقيقية في النفس . ولكن المعري قلما يرى ذلك فهو صريح في مهاجمته النظم الخارجية زاعماً أن أربابها إنما يحرصون عليها لما يرجونه من فائدة مادية :

إنما هذه المذاهب أسبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء

أفيقوا أفيقوا يا غواة فانما دياناتكم مكر من القدماء

أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا وماتت سنة اللؤماء

هكذا ينظر إلى النظم الدينية . بل كثيراً ما نراه يسرف في تهجمه على رؤساء الدين وينعتهم عموماً بما قد يصدق فقط على بعض الافراد ، فيقول مثلاً :

رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساءَ
يحرّم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمد مساءَ
يقول لكم غدوت بلا كساءٍ وفي لذاتها رهن الكساءَ
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهة أساءَ

ومن إسرافه في ذلك قوله :

كم قائم بعظاته متفقه في الدين يوجد حين يكشف عاهرا

ومع تفضيله الاسلام على سواه يدمج أهله مع أهل سائر المذاهب والفرق فيقول :

وكلنا قوم سوء لا أخص به بعض الانام ولكن أجمع الفرقا
دين وكفر وأنباء تقص وفر قان ينص وتوراة وإنجيل
في كل جيل أباطيل يدان بها فهل تفرّد يوماً بالهدى جيل
هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضلّله
اثنان أهل الارض ذو عقل بلا دين وآخر ديّن لا عقل له

وأقواله في ذلك أكثر من أن يحصرها هذا المقام . ومهما يكن من إسرافه وتعميمه فهو لا شك حرب على الرياء في الدين والانصراف إلى الاوضاع الخارجية . وإنما الامر عند الجوهر لا العرض — الروح لا المسوح — فلا عجب أن نراه يخاطب الدين الذي لا يأمن الناس بوائقه بقوله :

توهمت يا مغرور أنك ديّن عليَّ يمين الله ما لك دين
تسير إلى البيت الحرام تنسكا ويشكوك جار بائس وخدين

والذي يستسلم إلى أطماعه وشهواته :

سبّح وصلّ وطف بمكة زائراً سبعين لا سبعاً فلست بناسك
جهل الديانة من إذا عرضت له اطماعه لم يلف بالمتماسك

فالدين الحقيقي عنده هو الانصاف وإعطاء كل ذي حق حقه :

الدين انصافك الاقوام كلّهم   وأيُّ دين لآبي الحق إن وجبا

وكما أن إخلاصه للحقيقة يدفعه إلى تلمس الدين في قلب الانسان وتصرفاته لا في فروضه ووسائل عباداته ، كذلك هو يدفعه إلى التصريح برأيه في موقف الحكومة من الشعب . فالحكومة عنده إنما هي خادمة للشعب مستأجرة بماله لاجل مصالحه ، لا سيدة مستبدة به تسومه العذاب وتتمتع بما يجنيه من مال . فيؤلمه أن يرى الحكام في أيامه :

يسوسون الامور بغير عقل   فيُنفذ أمرهم ويقال ساسه
فأفٍّ من الحياة وأفٍّ مني   ومن زمن رئاسته خساسه

ويصورهم بأقبح الصور فيقول :

ساس الانام شياطين مسلطةٌ   في كل مصر من الوالين شيطان

وقد يحمل المعري إخلاصه أيضاً إلى مهاجمة العلماء ذاهباً إلى أن علمهم ليس بشيء بل هو الجهل :

وما العلماء والجهال إلا   قريب حين تنظر من قريب

ولا يستثني نفسه بل يصرح بكل تواضع أنه جاهل :

الله يشهد أني جاهلٌ ورعٌ   فليحضر القوم إقراري وإشهادي
أعمى البصيرة لا يهديه ناظره   إذ كل أعمى لديه من عصا هادي

أقررت بالجهل وأدعى فهمي قومٌ   فأمري وأمرهم عجب
والحق أني وأنهم هذر   لست نجيباً ولا هُم نجب

علمي بأني جاهل متمكن   عندي وإن ضيّعت حق العالم

لقد علم الله رب الكمال   بقلة عقلي وديني ومالي

دعيت أبا العلاء وذاك مينٌ   ولكنَّ الصحيح أبو النزول

ومن ظواهر صراحته ذهابه إلى أن الكون سائر على نظام أزلي ثابت ؛ فاذا حبس المطر أو فاض فان الصلاة إلى الله مثلا لا تحمله على تغيير طبيعة الجو :

قضى الله في وقت مضى أن عامكم يقلّ حياه أو يزيد به السّجم
فقولكم رب اسقنا غير ممطر ولكن بهذا دانت العرب والعجم

ومهما يحاول الانسان أن يغالب هذا النظام المحتوم فانه لا يرجع إلا بالخيبة ولا يلاقي غير العناء :

والطبع أحكمه المليك فلن ترى حجراً يقول ولا هزبراً ينغم
وإذا غدوت على القضاء مغالباً فأذاك تستمري وأنفك ترغم

وإذا كان الامر كذلك فعبث تعلقنا بالخوارق واتكالنا على التدجيل والتنجيم والسحر وما إلى ذلك من ضروب الاباطيل ، ومن العبث أن نقول إن بركات الطبيعة متعلقة بأعمال الانسان :

لم يسقكم ربكم عن حسن فعلكمُ ولا حماكم غماماً سوء أفعال
وإنما هي أقدارٌ مرتبةٌ ما علقت باساءات وإجمال

فالمعري مخلص للحقيقة ينفر من الرياء والاستبداد والادعاء ويطلب الصراحة والابتعاد عن الغرور ونبذ كل مالا يوافق العقل ، فلا بدع أن نرى الكثيرين في عهده وبعد عهده بعيدين عن إدراك كنه نفسه يرمونه بالكفر أو يتقوّلون عليه مايمليه عليهم الجهل وسوء الظن .

كان المعري في القرن الخامس الهجري يعيش في جوّ قرننا الحاضر بل نستطيع أن نعده من حكماء هذا القرن ومن روّاد التفكير الروحي الحديث . ومن يقرأ أدبنا التأملي اليوم ولا يراه مشبعاً بالروح العلائية — روح الحيرة والتشاؤم والاخلاص للحقيقة — تلك الروح التي تفيض من قلب الشاعر متأثرة بمساويء الحياة . كان الشعراء قبله وهم مبصرون لايرون في الحياة إلاّ أنفسهم ولا يرون في الأدب إلا مايوصلهم إلى اغراضهم ، لكن المعري وهو الاعمى قد ألقى على الحياة نظرة أوسع من نظراتهم وتطلع إلى آفاق أبعد من آفاقهم ، فانعكست نظراته عن بيئة قاتمة كأنما هي أشعة تنفذ الينا من وراء زجاجة سوداء ، وهي نفس الروح أو النظرات التي نراها في أدبنا الحديث . ولا أعني أن هذا صدى أو تقليدلشعر المعري بل أعيد القول أن شاعر المعرة وشاعر القرن العشرين يستقيان من نبع واحد .

والغريب أننا لا نرى في هذه القرون العشرة التي تفصلنا عن أبي العلاء

عهداً شملته هذه النزعة الفكرية التي نراها اليوم . ولماذا ؟ لأن هذه القرون شهدت انحطاط الحركة العلمية الحرّة وسيطرة التقاليد القديمة ، فاتجه العقل فيها نحو الجمع الأدبي والتصنيف الديني والتفسير اللغوي والبياني وغرق في تيار الرجعية فلم تتهيأ له بيئة تساعده على النظر الحر كما تهيأت له في الآونة الأخيرة ، وإذا قلت الآونة الأخيرة ، فاني أعني ما أقول ، إذ هي لا تتجاوز الثلاثين أو الأربعين سنة الماضية ، بل لعلها لا تتجاوز المدى القائم بين الحرب العالمية الأولى وهذه الحرب . في هذه الفترة نرى الشعر العربي يخرج عما كان عليه في أواخر القرن التاسع عشر ، يخرج عن الموضوعات القديمة التي عرفت في كل الاجيال إلى آفاق جديدة يطل منها على المدنية الحاضرة ويرى ما فيها من قبح أو جمال .

« ظواهر الاتفاق والاختلاف بين أدب المعري وأدب القرن العشرين » :
إن أدبنا الفكري إزاء الروح العلائية بين عاملي جذب ودفع . الاول يقوده إلى نفس المنهل الذي نهل منه المعري والثاني يدفعه عنه إلى منهل آخر . فلو راجعنا الشعر العربي الحديث لوجدنا فيه ما نجده في اللزوميات من نظر إلى الحياة وما وراء الحياة . خذ مثلاً هذين البيتين :

خبرت دنياي وأبناءها مذ نشأتي خبرة مستقريْ
فلم أشاهد غير ما حالة أرتني السوء بكل امريءْ

هذا صوت يرتفع من العراق على لسان الدجيلي وهو شبيه في تشاؤمه بصوت الرصافي إذ يقول ضارباً على هذا الوتر :

أرى الخير في الاحياء ومض سحابة بدا خلّباً والشر ضربة لازم
إذا ما رأينا واحداً قام بانياً هناك رأينا خلفه ألف هادم
وما جاء فيهم عادل يستميلهم إلى الخير إلاّ صده ألف ظالم
جهلت بجهل الناس حكمة خالق على الخلق طرّاً بالتعاسة حاكم

ألا يعكس لنا هذا الكلام روح أبي العلاء المتبرمة بالانام ؟ وأمثال هذه الابيات كثيرة في هذا العصر . وكما لام المعري والده على الاتيان به

إلى هذا العالم المملوء بالشقاء هكذا يفعل الشاعر المصري محمود أبو الوفا إذ يصيح بمرارة اليائس :

أبي ! وفي النار مثوى كل والدة ووالدٍ أنجبا للبؤس أمثالي
خلفتني فوضعت الحبل في عنقي يشده لف دهر جد ختال
ما كان ضرك لو من غير صاحبة قضيت عمرك شأن الزاهد السالي

وهو ذا العقاد وهو الاديب القائل بوجوب الانضواء إلى كنف الثقافة الحديثة ، والمعنى في كتاباته باصلاح المجتمع . تجيئه أحياناً ساعات يقع فيها تحت تأثير أبي العلاء فيقول :

لقد كنت أرجو في الحياة لبانة فعدت وما لي في الحياة رجاء
وكنت إخال الناس إلا أقلهم كراماً إذا هم كلهم لؤماء

وهذا شاعر مصري آخر ، هو أحمد رامي ، وهو من ناظمي الاغاني المرحة تحل به أحياناً الروح العلائية فيصيح متظلماً من الحياه وأبنائها :

كثر اللؤم في بني الانسان وقسا قلبهم من الاضغان

وبعد أن يعدد مساوىء الحياة من غدر وظلم وقسوة وساب يدعو الطبيعة إلى البكاء على الانسان وعلى طريقة المعري يصرح أن لا خير إلا في إمحاء هذه الدنيا من صفحة الاكوان :

إن دنيا تضج باللؤم أولى بإمحاء من صفحة الاكوان

وإنك لتحس بهذه الروح المتبرمة في كل الاقطار العربية حتى في المهاجر الاميركية ولعلها بين اللبنانيين والسوريين هناك أشد لاصطدام خياليتهم الشرقية بالمادية الغربية .

فجبران مثلاً لا يرى بين الناس ما نسميه خيراً أو عدلاً أو دينا . وفي مواكبه يصرح قائلا :

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا والشر في الناس لا يفنى وإن قبروا
والعدل في الارض يبكي الجن لو سمعوا به ويستضحك الاموات لو بصروا
والدين في الناس حقل ليس يزرعه إلى الأُلى لهم من زرعه وطر

وهو يزعم أن هذه المثل العليا لا توجد على حقيقتها إلا في الطبيعة

بعيدة عن صخب المدن وتكالب سكانها — ففي الطبيعة لا تعدي ولا حسد ولا ظلم ولا أوهام بل كل شيء يجري على مقتضى ما خلق له. ومثله فوزي المعلوف في قصيدته على بساط الروح وأخوه شفيق في عبقر ورشيد الخوري في قروياته وأعاصيره ورهط غيرهم من أدباء المهاجر.

وقد تجاوزت هذه الروح العلائية الحديثة مصر وسورية ولبنان والعراق إلى سائر الاقطار العربية فدخلت الحجاز وتونس وسواهما وتغلغلت في نفوس النشء الجديد.

وكما تنبعث روح أبي العلاء في عصرنا بالتشاؤم تنبعث في الحيرة أو النزعة اللا أدرية. ويكفي للتمثيل هنا أن أنوّه بقصيدة أبي ماضي «الطلاسم» وقصيدة الرصافي «من أين من أين يا ابتدائي» والزهاوي «حول الحقيقة».

ويمثل ذلك قول الزركلي من قصيدة «في سر الوجود أو الحياة»:

لجة مزبدة أم نهر معتكر أم هو سيل
ما أمامي؟ حيرة لا تنتهي ما دام هذا الليل ليل

وقد تصل هذه اللاأدرية في الصافي النجفي حدود الانكار في قصيدته الخلود الزائف وسواها. فهو يقف هناك موقف المهكم من اليقينيين الذين ينظرون إلى ما بعد الموت نظرهم إلى امر واقعي.

وفي أدبنا الجديد نزعة علائية شديدة إلى محاربة التعصب الديني والتقاليد البالية والدعوة إلى التمسك بجوهر الدين دون العرض، بالعمل دون العقيدة. ولا أبالغ إذا قلت إن هذي هي النزعة العامة في الشعر العصري في كل الأقطار العربية، وهي أوضح من ان أمثل لها في هذا المقام. وقد دعت إليها دواعي المدنية الحديثة المبنية على روح العلم والنظر الحر إلى الحياة. وأوقدها في الأدب حدثان هامان — الأول إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨. والثاني الدعوة إلى الملك العربي أيام المغفور له فيصل. فهذان الحدثان كانا مبعثاً لتموجات أدبية مندفقة من قلوب تؤمن بالإخاء والوئام. وتختلف عن دعوة المعري بأنها أكثر اتصالا بالعاطفة القومية. فالمعري لم يعنَ بهذه الناحية الخاصة ولم يكن في بيئته ما يدفعه إلى غير النظر الروحي أو الاجتماعي البحت. أما الادب الحديث فيجمل الدعوة إلى جوهر الدين والتعالي عن القشور

الفارغة والانظمة المفرقة وسيلة لتقوية الرابطة القومية بين مختلف العناصر ، وهنا تشتبك السياسة بالدين او الدعوة إلى القومية بالدعوة إلى شجب المنعنات الطائفية الحائلة دون الاتحاد القومي . وقد قاد ذلك بعضهم إلى التهجم على رؤساء الدين — كما فعل المعري — وعزو كثير من السيئات إليهم — وكما أسرف شاعر المعرة أسرفوا هم أيضاً وأطلقوا لاقلامهم العنان دون رادع في هذا الميدان .

ومن أمثلة هذا الاسراف ما جاء للريحاني من خطبة له موضوعها « الثورة الادبية » قال : (١)

« وأما الكهان ياسادتي فهم أول من عاثوا في الارض فساداً . هم أول من قيدوا النفوس البشرية واستعبدوها ، هم أول من تاجروا بالخداع والتغرير . هم أول من استولوا على الامراء والملوك وأيدوا سلطانهم بأنباء من السماء كاذبة . والكهان اليوم أو رؤساء الاديان كلها هم أعداء الحرية الروحية الادبية » . إلى أن يقول : « على الكهان وآلهة الكهان امتشق نبي العرب حسامه في الكعبة . وصبّ أشعيا نار غضبه في أورشليم على الكهان ومذابحهم وتزاويقهم وأصنامهم ، وانقضت صواعق حزقيال في إسرائيل ، وزمزمت رعود دانيال في بابل . على تغريرات رجال الدين وخزعبلات العبادات قام ابن عبد الوهاب في نجد ولوثيروس في وتنبورغ ونوكس في إنكلترة ، وغيرهم في البلاد كثيرون » .

وكما كان الادب العلائي ينزع إلى العقل ويؤمن بالنظام الازلي وينفر من التدجيل والاوهام هكذا نرى أدبنا الآن . على أن في الادب الحديث برغم ما يشمله من ظلام التشاؤم والحيرة مسحة من التفاؤل أو الرضى بالواقع والايمان بمقدرة الانسان على التقدم . وقد مرّ معنا أن المعري لم يكن جبريا مطلق الجبرية وأن في شعره ما يسمح للانسان بشيء من حرية الارادة في التصرف . ولكن ذلك لم يبلغ فيه درجة الرضى والايمان بمقدرة الانسان كما نراه في الادب الحديث . إن المعري يكاد يقف أمام القدر موقف الوهن والتردد :

(١) راجعها في الريحانيات ٢ — ١٣

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد

أما الشاعر الحديث فينزع إلى المناضلة والجهاد . المعري لم يكن يرى في الحياة ما يستحق السعي لاجله ، أما شاعر اليوم فالحياة عنده برغم قتامها ذات قيمة ولكن قيمتها لن تبلغ إلا بإرهاف العزم واطّراح الخوف والاقدام على المصاعب . وعلى ذلك قول الشاعر المصري عبد الرحمن شكري :

انضُ عنك الحذار من حادث الدهـر فليس الحذار يغني فتيلا
إنما العيش أن تكون جريئاً ليس ترضى الحياة غمراً ذليلا

ويقول :

هو العيش كالحسناء تبغض محجماً جباناً ويحظى بالوصال جسور
بدا لي أن لا سعد إلا تصبّر تقرّبه في النائبات صدور
وعزمٌ وإيمانٌ وطبعٌ وحكمةٌ ورأيٌ بآلاء الحياة خبير

فالكدّ والجرأة والصبر هي مفاتيح الحياة المثلى ، وإذا صح ذلك فالحياة التي هذه مفاتيحها حياة ثمينة جديرة بالاهتمام والجهاد . وهذا الجهاد كثيراً ما يعني التمرد على القديم . ولا ينكر أن المعري كان متمرداً يدعو إلى اطراح كل ما لا يقبله العقل السليم ، ولكن تمرده مقيد بالاستسلام للقضاء ، وبهذا يختلف عن الشاعر الحديث الذي يعني بالتمرد للتخلص المطلق من كل مايقيد النفس البشرية ويقف في سبيل تقدمها المطرّد . ويتمثل لنا ذلك في جبران ومدرسته . فالتمرد عنده ليس هدماً فحسب بل هو الخطوة الاولى في سبيل البناء الاثبت وهو التخلص من العوائق التي تعوقنا عن النمو إلى ما هو أفضل (١) . وفي هذا الجهاد والسعي نحو الافضل تنكشف لنا معاني الحياة الحقيقية . فاللا أدرية الحديثة مع اعترافها بجهل الانسان للحقيقة ترى لزاماً عليه ابتغاءها أو الطموح إليها إذ على هـذا الابتغاء والطموح تقوم دعائم العمران والتقدم .

ويكثر في أقوال المحدثين القول بأن السعادة حالة وجدانية نفسية لا أمر موضعي تحصل عليه من الخارج . فالبعض يلتمسها في القناعة والبعض في

(١) راجع مقالة البنفسجة الطموحة في العواصف .

بساطة العيش والبعض في الالتجاء إلى حمى الطبيعة والبعد عن عناء المدنية والبعض يراها في السعي المستمر والاختبار المتجدد كقول أحدهم (١) : « لذاتنا في الشوق لا في الوصال » ولا ينكر أن فكرة القناعة والبساطة فكرة قديمة وهي بارزة في حياة المعري وأقواله . أما فكرة السعي المستمر والاختبار المتجدد ففكرة حديثة مستمدة من الادب الغربي ، ولعلّ غوته في روايته فوست هو أعظم من أثار هذه الفكرة في نفوس المحدثين . (٢)

ومهما يكن من علاقة بين أدبنا الحديث والروح العلائية فمما لا شك فيه أن العصر الحاضر متأثر بهذه الروح وأن شاعر المعرة لا يزال حياً في نفوس المفكرين . ولا أعلم شاعراً قديماً بلغ تأثيره الروحي في أدبنا ما بلغه تأثير هذا الشاعر العظيم — شاعر واحد فقط يقاربه هو أبو الطيب المتنبي ولكن من سبيل آخر . فهذا يثير فينا روح الفخر القومي أو الفردي . ويرفعنا إلى ذروات الاختبار الحي ولكننا لا نقف معه كما نقف مع المعري متسائلين عن الحياة والانسان ، عن الشرائع والعمران ، عن الاكوان وما وراء الاكوان.

ليس المعري أشعر شعراء العرب فقد نرى كثيرين ممن يفوقونه في نواحٍ مختلفة من الفن الشعري ، ولكنك قلما تجد فيهم من يضاهيه في تأثيره الروحي على الاجيال . ولماذا ؟ أليس لانه يطبع شعره بطابع الصراحة والاخلاص ، ولانه ينظر إلى الحياة نظرة المترفع الحقيقي لا المقلد للمترفعين أو المرتزق بادعاء الورع والدين :

فلتفعل النفس الجميل لانه خيرٌ وأحسن لا لاجل نوالها

إن المعري أسمى تراث روحي وصل إلينا من الاجيال الغابرة وقد زالت منذ أيامه إلى الآن دول وتيجان ، وبادت أمم وبلدان ، ولكن روحه لا تزال حية لانها روح النابغة الذي يعيش لكل زمان .

انيس المقدسي

---

(١) يوسف غصوب في القفص المهجور ١٤٩

(٢) وقد توسع الاستاذ أحمد أمين بك في شرح هذه الفكرة (راجع كلامه في كتاب فيض الخاطر ٣ — ٩٤ فهو حري بالمطالعة).

الحفلة السادسة

في دمشق

لما أصبح الاعضاء (يوم السبت في ٣٠ ايلول ١٩٤٤) ساروا في مدينة اللاذقية إلى الشارع الذي أطلق عليه اسم أبي العلاء ، بين دوي الموسيقى وهتاف الشعب ، فزاروا دار الكتب الوطنية التي شيدها المحافظ ، وافتتحوا شارع أبي العلاء وساروا فيه .

ثم غادر الركب مدينة اللاذقية في الساعة العاشرة وسار إلى الجنوب مع ساحل البحر . فمرّ ببلدة بانياس وقلعة المرقب وبلدة طرطوس حيث وقف قليلا ، ثم تابع سيره صوب الجنوب حتى بلغ حدود لبنان ، وعطف إلى الشرق ، فصعد في الجبال وبلغ بلدة تل كلخ . ثم أشرف على بحيرة حمص وحدائقها وسهولها .

وكان رئيس بلدية حمص السيد فيضي الاتاسي ومحافظها السيد فؤاد الحلبي قد خرجا على رأس وفد من أعيان المدينة لاستقبال الركب . فساروا جميعاً في موكب عظيم وبلغوا مدينة حمص في الساعة الثانية بعد الظهر .

ولما دخلوا المدينة زاروا فخامة السيد هاشم الاتاسي رئيس الجمهورية السابق فاستقبلهم في داره أحسن استقبال وآنسهم ألطف إيناس ، ثم خرجوا بعد ذلك معه إلى حديقة البلدية المعروفة باسم الروضة حيث أعدت لهم مدينة حمص مأدبة غداء فاخرة فجلسوا في ظلال الاشجار وتجاذبوا أطراف الحديث على مائدة الطعام .

وتكلم على المائدة السيد فيضي الاتاسي مرحباً بالاعضاء ، وتلاه الاستاذ عارف النكدي شاكراً . ثم تكلم الدكتور عبد الوهاب عزام باسم الوفد المصري فقال : « يملأ نفسي إعجاباً وروعة وفخاراً ، أن أقف على مقربة

من أعظم تمثال للبطولة المجاهدة المخلصة الطيبة . ضريح خالد بن الوليد رضي الله عنه . . . يا قومنا إن الفرصة قد سنحت ، والزمان ضنين بفرصه ، والفرص سريع مرورها ، فاحذروا أن تناموا والخطوب يقظى ، أو تبطئوا والزمان يسرع ، أو تقفوا والفلك يدور ، أو تهزلوا والزمان يجد ، ألا إن تكاليف المجد شاقة ومطالبه صعبة ، وغاياته بعيدة . ولكن في ضمان العزائم المجتمعة ، وفي كفالة النفوس الأبية تذليل الشاق ، وتيسير الصعب ، وتقريب البعيد ، فاجمعوا أمركم ، واجمعوا كلمتكم ، وتقدموا إلى العمل بقلوب ملؤها الرجاء والامل ، ورؤوس ملؤها الحكمة والروية ، وأيد ملؤها النشاط والقوة . . الخ الخ . »

ولما انتهت مأدبة الغداء في الساعة الرابعة بعد الظهر برح الركب مدينة حمص عائداً إلى دمشق فمر ثانية ببلدة النبك واستراح قليلا في حديقة البلدية ، ثم غادرها قبيل غروب الشمس فبلغ دمشق في العشاء .

وكان الدكتور طه حسين قد دعا أعضاء المهرجان والوزراء وأدباء دمشق وأساتذها إلى مأدبة عشاء في فندق (اوريان بالاس) ، فألقى الاستاذ مهدي الجواهري أبياتاً في مدح الوفد المصري دعا فيها الدكتور طه حسين واخوانه إلى زيارة العراق . ثم أخذ الاعضاء بأطراف الحديث عن رحلتهم وما تخللها من سرور ومشقة وإكرام وحفاوة واخلدوا بعد ذلك إلى الراحة في غرفهم .

وفي الساعة العاشرة من صباح الاحد الاول من شهر تشرين الاول عام ١٩٤٤ سار الركب إلى مصيف بلودان لتناول طعام الغداء على مائدة المجمع العلمي العربي في الفندق الكبير ، ثم عاد منها في الساعة الثالثة بعد الظهر لحضور الحفلة الخطابية السادسة .

وبدئت الحفلة الخطابية في الساعة الخامسة بعد الظهر في بهو الجامعة السورية ، وهي ختام حفلات المهرجان تتابع فيها الخطباء على الوجه الآتي :

١ — الدكتور عبد الوهاب عزام — لزوم ما لا يلزم :
عضو المجمع العلمي العربي — متى نظم ، وكيف نظم ورتب

٢ — الشيخ عبد القادر المغربي — شيخ المعرة والشيخ الدرا
نائب رئيس المجمع العلمي العربي

٣ — الاستاذ سليم الجندي — دين أبي العلاء
عضو المجمع العلمي العربي

٤ — الاستاذ هنري لاووست — اختلاف الآراء في فلسفة أبي العلاء
عضو المجمع العلمي العربي

٥ — الاستاذ شفيق جبري — ذكرى أبي العلاء (قصيدة)
عضو المجمع العلمي العربي

وتكلم في هذه الحفلة بعض الخطباء ممن لم ترد أسماؤهم في البرنامج كالاستاذ فؤاد افرام البستاني ، والاستاذ عزمي النشاشيبي ، والدكتور عارف العارف ، والآنسة جهان الموصلي ، وسنثبت كلماتهم في الملحق :

وتخلل الحفلة دور موسيقي غنت فيه فرقة الاذاعة بدمشق أبياتاً من شعر أبي العلاء وهي :

ومن لي بأني في جناح غمامة ... تشبهها في الجنح أم رئال
تهاداني الارواح حتى تحطني ... على يد ريح بالفرات شمال
فيا برق ليس الكرخ داري وانما ... رماني إليه الدهر منذ ليال
فهل فيك من ماء المعرة قطرة ... تغيث بها ظمآن ليس بسال
أإخواننا بين الفرات وجلق ... يد الله لا خبرتكم بمحال
أنبئكم أني على العهد سالم ... ووجهي لما يبتذل بسؤال

ولما انتهت الحفلة الخطابية في الساعة التاسعة مساء سار الاعضاء إلى قصر رئيس الجمهورية اجابة لدعوة فخامته فتناولوا طعام العشاء على مائدته .

وتكلم على المائدة الشيخ بهجة البيطار فدعا إلى اتباع السلف الصالح في التشريع المدني الحديث ، ثم تلاه الاستاذ أحمد أمين فقال : « أبو العلاء شخصية من أعجب العجب . فهو يطعمنا ويجوع ، ويجمعنا ويعتزل ، ويرمينا

بالحجارة وترميه بالازهار ، وتسطع علينا روحه في هذا العصر متألقة بالحياة الجديدة . لقد كان في حياته يصف بؤس الناس ، ولا يريد أن ينغمس في شؤونهم . أما حياتنا الحديثة فتقضي أن نصف البؤس وأن نعمل لازالته . ولعل هذه الروح هي التي ترفرف علينا الآن .

« نحن لانريد أن نعتزل كما اعتزل ، وان نصور ولا نتدخل في الحوادث ، ولكن نريد أن نتصور الحوادث ونعمل على اصلاحها وازالة شرورها . اننا نشعر أننا في عالم لاتنفع فيه الا الارادة القوية . في عالم لاتكفي فيه الاماني الطيبة . وانما يحتاج الى العمل الطيب » .

ثم قال : « وأحب ان اقرر ان الشريعة الاسلامية سمحة لاتحجر علينا ان نفهم العالم وان تكون نظراتنا الى الفروع نظرات مرنة . فالعالم تقدم في كل فرع من فروع الحياة ، والتشريع يجب ان يتمشى مع العصر » .

ثم تكلم الدكتور طه حسين فقال : « اما انا فلم اقف لأتحدث في هذه الموضوعات الخطيرة التي تحدث فيها الزملاء ، وانما لأودي عنا جميعاً واجباً لاشك انه احب شيء الينا . وهو ان نشكر لفخامة الرئيس الاول ماتفضل به من رعاية مهرجان ابي العلاء . ولا خلاف في ان مالقيه ابو العلاء في حياته من عطف الحكام أو غضبهم كثير ، ولكن الشيء المحقق ان حظ أبي العلاء بعد موته من الاضطهاد والاعراض عنه اكثر من العطف عليه والميل اليه . فاذا قلت ان حضرة صاحب الفخامة الرئيس هو اول زعيم عربي في العصر الحديث عطف على شيخ المعرة فشمل الاحتفال برعايته الكريمة ثم افتتح المهرجان واختتم اجتماعاته ، ثم دعا الوفود الى قصره ليكرمها ، فانما أعبر عن شعور كل واحد منا » ثم اختتم كلمته بشكر الوزراء لما تفضلوا به من مشاركة اعضاء المهرجان في الاحتفال بأبي العلاء .

وارتجل فخامة رئيس الجمهورية كلمة شكر بها لاعضاء المهرجان جهودهم الطيبة في احياء ذكرى أبي العلاء وتوثيق اواصر المودة بين اقطار البلاد العربية فقال : « ان في مدينة معاوية ومدينة خالد بن الوليد ، ومدينة أبي الفداء ، ومدينة الحمدانيين وغيرها من المدن والقرى والدساكر التي زرتموها لفكرة واحدة متغلغلة في

قرارات النفوس ، وهي ان هذه الأقطار لا تحب سوى الحرية ولا تفكر الا في العروبة والكرامة . وستبقى ذكرى المهرجان على مر الأيام منقوشة في الصدور لا لأنها ذكرى أبي العلاء فحسب، بل لانها ذكرى قدومكم الى ربوع الشام للحفاوة بالشاعر النابغة والفيلسوف العبقري أبي العلاء المعري . واذا عدتم ايها الاخوان الى بلادكم فاذكروا ان هذه البلاد التي عانت من صروف الدهر وجور الزمان ما تعجز الامم عن حمله تريد الآن أن تحيا سيدة عزيزة حاكمة نفسها بنفسها فخورة بماضيها وأمجادها ، وانها تريد أن تبقى حرة مستقلة . ونحن اليوم على وشك تحقيق فكرة يلذ لنا ترديدها ، لانها هدفنا ، وغايتنا التي نسعى اليها جميعاً . وهي انه لاحياة لبلادنا الا اذا اتحدت الامة العربية بآمالها وآلامها واهدافها . وكما انها ذات تاريخ واحد وتقاليد واحدة فكذلك تريد أن تكون ذات ثقافة واحدة وسياسة واحدة . ولقد ادركنا في اجتماعاتكم هذه الوحدة الثقافية كما بلغنا في الماضي الوحدة الأدبية . وستتحد سياستنا بحول الله في اجتماعات الاسكندرية . فلكم منا اجمل الشكر وللذين يجتمعون لآن في الاسكندرية التحيات الطيبات وخالص الاماني . والله نسأل ان يأخذ بايدينا لنصل الى ماتصبو اليه نفوسنا من آمال ورغبات » .

وكان ختام مهرجان ابي العلاء في منتصف الليل من اليوم الاول من تشرين الاول عام ١٩٤٤ .

جميل صليبا

لزوم مالا يلزم

متى نُظم وكيف نُظم ورتّب

عنيت بأبي العلاء المعرّي ناشئاً ، وكتبت في أخباره وأشعاره تلميذاً . وما زلت معنياً به حافظاً لأخباره وأشعاره . واللزوميات أعظم آثار الرجل ، وهي سجل عقائده وآرائه ، ولها النصيب الأوفر من أحاديث من يتحدثون عن المعري ، وكتابة من يكتبون في فلسفته .

وكثيراً ماساءلت الأدباء وسألت نفسي : متى نظمت اللزوميات وكيف رُتبت ؟ أخطّ الشاعر خطتها ثم نظمها ولاءً على ترتيب حروف الهجاء ، فآراؤه فيها متوالية على هذا الترتيب ؛ ماتتضمنه أبيات على رويّ الهمزة مقدم زماناً على مايذكر في أبيات على رويّ الباء وهلم جرّا ؟ أم نظم الرجل مانظم ثم رتبه على حروف الهجاء ، فقدم متأخراً وأخر متقدماً ، مسايرة للترتيب الهجائي ؛ فما يعرف المتقدم والمتأخر من شعر الرجل إلا مادلت عليه حوادث مذكورة فيه ، ولا يستطاع تتبع أفكاره ورعاية تطورها على الزمان ؟ وكنت أقول إنه لابد لمؤرخ أبي العلاء من إن يَفصل في هذه القضية ، فيجزم بأن اللزوميات مرتبة على الزمان أو غير مرتبة .

فلما دعاني المجمع العلمي العربي إلى شهود الاحتفال بذكرى أبي العلاء بعد مرور ألف عام على مولده ، وسألني عن الموضوع الذي أوثر الكلام فيه في هذا الاحتفال ، اخترت أن أتكلم في تاريخ اللزوميات وترتيبها . فأعدتُ قراءتها مستوعباً ، متقصياً الأبيات التي تذكر فيها حوادث معروفة أو رجال معروفون ، والتي تذكر فيها سنّ أبي العلاء أو حاله من الشباب والكهولة والشيخوخة . وراجعت مأثره التاريخ من أخبار الرجل ، وذكر كتبه . فانتهيت إلى القضايا التي أسجلها فيما يأتي :

المبحث الأول

متى نظمت اللزوميات

– ١ –

جمهرة شعر أبي العلاء في مجموعتين : الأولى تتضمن شعر الصبا والشباب ، وهي التي سماها سقط الزند . وقد جرى في هذا الشعر مجرى الشعراء الآخرين ، فمدح وهجا وتغزل ورثى ووصف الخ .

وقد قال أبو العلاء في مقدمة سقط الزند :

« وقد كنت في ربان الحداثة ، وجن النشاط ، مائلا في صغو القريض، أعتده بعض مآثر الأديب ، ومن أشرف مراتب البليغ . ثم رفضته رفض السقب غرسه، والرأل تريكته ؛ رغبة عن أدب معظم جيده كذب ، ورديئه ينقص ويجدب » .

وقال مستملي أبي العلاء الذى كتب ثبت كتبه كما رواه ياقوت في معجم الادباء :

« من غير هذا الجنس كتاب لطيف فيه شعر قيل في الدهر الأول يعرف بكتاب سقط الزند وهو ثلاثة آلاف بيت » .

وفي سقط الزند قصائد قالها في بغداد ، وأخرى أرسلها إلى بغداد بعد رجوعه إلى المعرة سنة أربعمائة . وأبيات قيلت بعد سنين كثيرة من اعتكافه في المعرة كالبيتين اللذين مدح بهما القاضي ابن نصر المالكي ، ومرثية جعفر بن علي بن المهذب .

والمجموعة الثانية هي التي سماها « لزوم مالا يلزم » .

– ٢ –

هذه المجموعة الثانية من أشعار أبي العلاء قد نظمت بعد رجوعه من بغداد . وقد خط خطتها ، وتكلف لها ماتكلف من لزوم مالا يلزم ، ومن استيعاب الحروف الهجائية على الحركات الثلاث والسكون . قال في مقدمتها :

« كان من سوالف الأقضية أني أنشأت أبنية أوراق توخيت فيها صدق الكلمة ، ونزهتها عن الكذب والميط . ولا أزعمها كالسمط المتخذ ، وأرجو ألا تحسب من السميط . فمنها ماهو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد . . . الخ » .

وقال في المقدمة كذلك :

« وقد تكلفت في هذا الكتاب ثلاث كلف :

الأولى : أنه ينتظم حروف المعجم عن آخرها .

والثانية : ان يجيء رويّه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك .

والثالثة : أنه لزم مع كل رويّ فيه شيءٌ لايلزم من ياء أو تاء أو غير ذلك من الحروف » .

فهذا شعر حدد موضوعه واختير له نظامٌ في القوافي ، وترتيبٌ على الحروف وحركاتها . وكأنه كتاب من كتب العلوم اتصل تأليفه حتى كمل . وهي خطة تسلى بها في عزلته . فينبغي أن يكون تاريخه متصلا ونظمه متواليا .

وانا ادعي أن ماتضمن هذا الكتاب من الآراء هو فلسفة أبي العلاء في عزلته بعد سنة أربعمائة ، وان هذا الكتاب كله ، إلا أن تشذ أبيات قليلة ، نظم بعد هذه السنة .

يدل على هذا أن أبا العلاء قال في مقدمة السقط : إنه رفض الشعر . وقال في مقدمة اللزوميات : « وقد كنت قلت في كلام لي قديم إني رفضت الشعر . رفض السقب غرسه ، والرأل تريكته . والغرضُ ما استُجيز فيه الكذبُ ، واستعين على نظامه بالشُبهات . فأما الكائن عظة للسامع ، وإيقاظاً للمتوسن ، وأمراً بالتحرز من الدنيا الخادعة وأهلها الذين جبلوا على الغش والمكر ، فهو إن شاء الله مما يُلتمس به الثواب » .

فهذا النظم الذي توخى فيه العظة والايقاظ كان بعد النظم الذي جرى فيه مع الشعراء ثم رفضه رفض السقب غرسه ، والرأل تريكته .

ودليل آخر أنه ذكر سنه في كثير من أبيات اللزوميات تصريحاً وتلويحاً ، ولم يذكر ما دون الأربعين ، وهو قد بلغ الأربعين سنة ثلاث وأربعمائة ، إلا بيتاً واحداً في هذه القطعة :

إذا هبت جنوب أو شمال فأنت لكل مُقتاد جنيب
رويدك إنْ ثلاثون استقلت ولم يُنب الفتى فمتى ينيب

والخطاب في هذا البيت إما أن يكون لغير الشاعر وإما أن يكون بعض اللزوميات قد نظم حين جاوز الثلاثين قبل سفره إلى بغداد ، وإما أن تكون

هذه القطعة نظمت كذلك بعد رجوعه من بغداد واعتزامه الاعتزال ، وكانت سنه حينئذ سبعاً وثلاثين سنة ، فقد مضت الثلاثون ولم يبلغ الأربعين ؛ فليس بعيداً أن يذكر مرور الثلاثين . ومهما يكن فجمهرة الكتاب نظمت بعد سنة أربعمائة كما أسلفت .

ودليل آخر على أن أبا العلاء شرع بنظم اللزوميات بعد رجوعه من بغداد بقليل ، أنه يذكر في اللزوميات – كما فعل في سقط الزند – رحلته إلى العراق آسفاً على الرحيل وعلى الأوبة . وهذا ، في غالب الظن ، لا يقال بعد مضي سنين كثيرة على هذه الرحلة :

وما بيَ طِرق للمسير ولا السُّرى ... لأني ضرير لا تضيء لي الطُرْق
أغربانك السحم استقلت مع الضحى ... سوانح أم مرّت حمائمك الوُرق
رحلتُ فلا دنيا ولا دين نلته ... وما أوبتي إلا السفاهة والُخرق

***

يا لهف نفسي على أني رجعت إلى ... هذي الديار ولم أهلك ببغداذا
إذا رأيت أموراً لاتوافقني ... قلت الإياب إلى الاوطان أدّى ذا

***

شئمت ياهمة عادت شآمية ... من بعد ما أوطنت عصراً ببغداد

***

وأزيد على هذه الادلة أن أبا العلاء ذكر سنّ الاربعين في اللزوميات ، وقد بلغها بعد رجوعه بسنين ثلاث .

– ٣ –

إن كان المعري شرع ينظم لزوم ما لا يلزم حين رجع من بغداد أو بعد رجوعه بقليل فكم استمرّ ينظمها ، ومتى انتهى من نظمها وجمعها ورتبها وكتب لها المقدمة التي كتب ؟

يمكن أن نجيب هذا السؤال بوسيلتين ؛ الاولى تتبع الحادثات التي ذكرها والرجال الذين أورد أسماءهم في شعره . والثانية استقراء الابيات التي ذكر فيها سنه .

(١) الحوادث والرجال :

١ — أولا : بنو عامر وطيء :

يذكر أبو العلاء فتناً وخطوباً أثارها بنو عامر وطيء في الشام وما حولها ، ويسمي بعض رجالهم في مواضع كثيرة ، منها :

إذا عامر تبعت صالحا وزّجت بنو قرة الحردبا
وأردف حسان في مأْتم متى هبطوا مُخصباً أجدبا
وإن قرعوا جبلا شامخاً فليس يُمنف إن يَحدبا
رأيت نظير الدبا كثرة فتيرهمُ كميون الدبا

ومنها :

ألم تر طيئاً وبني كلاب سموا لبلاد غزة والعريش
ولو قدروا على الطير الغوادي لما نهضت إلى وكر بريش

ويذكر طيئاً وزعيمها حسان في قوله :

قد أشرعت سنبس ذوابلها وأرهفت بُحتر مَعابلها
لفتنــة لا تزال باعثــة رامحها في الوغى ونابلها
حسان في الملك لا يَحسّ لها تزجي إلى موتها قنابلها

ويقول :

أرى حلبا حازها صالح وجال سِنان على جلّقا
وحسان في سلفي طيء يصرف من عزه أبلقـا
فلما رأت خيلهم بالغبار ثغاما على هامهم عُلقا
رمت جامع الرملة المستضام فأصبح بالدم قد خُلقا الخ

وقد رثى للرملة كثيراً وحزن لما ناب أهلها ؟ يقول :

والرملة البيضاء غودر أهلها بعد الرفاغـة يأكلون قفارا

***

عتروا الفوارس بالصوارم والقنا والمَلك في مصر يعتر فارها (١)

---

(١) الملك في مصر كان للفاطميين حينئذ وكان الخليفة منهم الظاهر (٤١١ — ٤٢٧) فهو يلوم الفاطميين على أن تركوا هذه القبائل تعبث في الارض وهم لاهون بتعتير فارات المسك يتطيبون بها لا بعتر الفوارس . والعتر الذبح .

جعلوا الشفار هواديا لتنوفة ... مرهاء تكحل بالدجى أشفارها
تكبو زناد القادحين وعامر ... بالشام تقدح مرخها وعفارها

ويقول :

أيا قيلُ إن النار صال بحرهـا ... مقيمُ صلاة والمهند وارس
وبالرملة الشعثاء شيبٌ وولدة ... أصابهم مما جنيت الدهارس
وقد ظهرت أملاك مصر عليهم ... فهل مارست من ظلمها ماتمارس
وأحسنُ منكم في الرعية سيرة ... ُطغجٌ بن جف حين قام وبارس

وقد ذكر المعري هذه الحادثات في سقط الزند كذلك ، إذ قال في القصيدة التائية التي بعث بها الى علي التنوخي بعد رجوعه من العراق :

بيني وبينك من قيس وإخوتها ... فوارسٌ تذر المكثار ِسكيتا

ويقول في القصيدة الطائية التي أرسلها إلى خازن دار العلم ببغداد وهو محتجب بمعرة النعمان :

وما أذهلتني عن ودادك روعة ... وكيف وفي أمثالها يجب الغبط
ولا فتنة طـائيـة عامرية ... يحرق في نيرانها الجعد والسبط
وقدطرحت حول الفرات جرانها ... إلى نيل مصر فالوساع بها تقطو
فوارس طعـانون ما زال للقنا ... مع الشيب يومافي عوارضهم وخط
وكل جواد شفه الركض فيهم ... وَجٍ يتمنى أن فارسه َسقط
ونبّـالةٍ من ُبحتر لو تعمدوا ... بليلٍ أناسيٌ النواظر لم يخطوا

فما هذه الفتن التي ذكرها أبو العلاء ومتى كانت ؟

كانت أمور الشام ولا سيما البلاد الشمالية في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس مضطربة بين سلطان الفاطميين والامراء المتغلبين من بني حمدان ومواليهم ومن رؤساء القبائل العربية . وقد استولى صالح بن مرداس الكلابي صاحب الرحبة على حلب في هذا الاضطراب سنة ٤٠٢ . ثم وقعت خطوب ردت حلباً إلى سلطان الفاطميين حيناً . فلما قتل نائب الفـاطميين عزيز الدولة سنة ٤١٢ ، وتولى من قبلهم ابن شعبان طمع صالح بن مرداس في التغلب على نواب الفاطميين فحالف اثنين من رءوس العرب هما حسان الطائي

وسنان بن عُليان الكلبي واتفقوا على أن يقتسموا الشام من حلب إلى حدود مصر ، فصارت حلب وما يليها لصالح ، ودمشق لسنان ، والرملة وما يليها إلى مصر لحسان . وذلك سنة ٤١٤ . وقد تقدمت أبيات المعري التي تذكر هذا التقسيم .

هذه حوادث وقع بعضها في العقد الاول من القرن الخامس ومعظمها في العقد الثاني . فهذه الابيات قد نظمت كذلك في هذين العقدين ولا سيما الثاني منهما .

ثانياً — يُذكر صالح بن مرداس في اللزوميات مرات أخر لحادث آخر كان له في نفس المعري أثر باق .

نقل ياقوت عن أبي غالب بن مهذب المعري في حوادث سنة ٤١٧ من تاريخه : « صاحت امرأة يوم الجمعة في جامع المعرة وذكرت أن صاحب الماخور أراد أن يغتصبها نفسها . فنفر كل من في الجامع وهدموا الماخور وأخذوا خشبه ونهبوه . وكان أسد الدولة (صالح) في نواحي صيدا فوصل الامير أسد الدولة فاعتقل من أعيانها سبعين رجلا . وذلك برأي وزيره تادرس بن الحسن الاستاذ . وأوهمه أن في ذلك إقامة للهيبة — قال ولقد بلغني أنه دعي لهؤلاء المعتقلين بآمد وميّا فارقين على المنابر — وقطع تادرس عليهم ألف دينار . وخرج الشيخ أبو العلاء المعري إلى أسد الدولة صالح وهو بظاهر المعرة وقال له : مولانا السيد الاجل أسد الدولة ومقدمها وناصحها كالنهار المائع اشتد هجيره وطاب بَرداه ، وكالسيف القاطع لان صفحه وخشن حدّاه . خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . فقال صالح قد وهبتهم لك أيها الشيخ . ولم يعلم أبو العلاء أن المال قد قُطع عليهم وإلا كان قد سأل فيه » .

ونقل ياقوت أيضاً عن القفطي أنه وجد على ظهر ديوان الاعشى في مدينة قفط سنة ٥٨٥ ما يأتي : « حكي أن صالح بن مرداس صاحب حلب نزل على معرة النعمان محاصراً لها ونصب عليها المجانيق واشتد في الحصار لاهلها . فجاء أهل المدينة إلى الشيخ أبي العلاء لعجزهم عن مقاومته لانه جاءهم بما

لا قبل لهم به وسألوا أبا العلاء تلافي الامر بالخروج إليه بنفسه وتدبير الامر برأيه إما بأموال يبذلونها أو طاعة يعطونها ، فخرج ويده في يد قائده وفتح الناس له بابا من أبواب معرة النعمان ، وخرج منه شيخ قصير يقوده رجل . فقال صالح هو أبو العلاء فجيئوني به . فلما مثل بين يديه سلم عليه ثم قال : الامير أطال الله بقاءه كالنهار الماتع الخ » .

وهذه الحادثة ذكرها المعري في موضعين من اللزوميات في حرف الدال المكسورة واللام المكسورة . يقول :

تغيبت في منزلي برهة ستيرَ العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر إلا الاقل وُحمّ لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً إلى صالح وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام وأسمع منه زئير الاسد
فلا يعجبني هـذا النفاق فـكم نفقت محنة ما كسد

ويقول :

آليت أرغب في قميص مموه فأكون شارب حنظل من حنظل
نجى المعاشر من براثن صالح ربٌّ يفرج كل أمر مُعضل
ماكان لي فيهـا جناحُ بعوضة والله ألبسهم جنـاحَ تفضل

فهاتان القطعتان نظمتا في حادث وقع سنة سبع عشرة وأربعمائة . والظن أن نظمهما لم يتأخر عن هذا التاريخ كثيراً .

ثالثاً — يذكر الشاعر « محموداً » في مواضع كثيرة يقول :

يسلك محمود وأمثـاله طريق خاقان وكـنداج

✲ ✲ ✲

أسر إن كنتُ محموداً على خلق ولا اسر بأني الملك محمـــود
مايصنع الرأس بالتيجان يعقدها وإنمـا هو بعد الموت جلمود

✲ ✲ ✲

لاكانت الدنيا فليس يسرني أني خليفتها ولا محمودهـا

✲ ✲ ✲

سيموت محمود ويهلك آلك ويدوم وجه الواحد الخلاق

* * *

من محمود الذي كرر المعري ذكره وجعله مثلا في الملوك وقال إنه لايسره أن يكون في منزلته ، وإن الدهر سيبطش به كما بطش بالضعفاء ؟

في تعليقات الطبعة المصرية أنه أمير المعرة إذ ذاك . ولا نعرف من تولى في تلك النواحي ذلك العصر إلا محموداً حفيد صالح بن مرداس . ومحمود هذا تولى الإمارة سنة ٤٥٢ وخلع في السنة التالية ، ثم تأمر مرة أخرى سنة ٤٥٤ ، فدامت له الامارة حتى سنة ٤٦٨ . فقد تولى بعد وفاة المعري .

ولا أدري لماذا أثبت الشيخ الميمني البيت الاول : « يسلك محمود . . . الخ » اول فصل من كتابه عن المعري عنوانه : « هو ووزير محمود بن نصر بن صالح » . نقل في هذا الفصل مايقال عن تدبير محمود هذا لقتل المعري وخلاص المعري بالدعاء. وهي خرافة مروية نفاها الشيخ الميمني وقال إن محموداً تولى بعد وفاة المعري كما قلت . فهل الميمني ، مع نفيه هذه الخرافة ، يظن أن محموداً الذي في البيت هو حفيد صالح ذكره المعري قبل توليه الملك ؟ لاأدري لماذا اثبت هذا البيت في فاتحة هذا الفصل .

والذي أراه أن محموداً الذي أكثر المعري ذكره هو سلطان ذاع صيته في ذلك العصر وضرب المثل بقدرته وغناه ، هو يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين فاتح الهند . ولهذا قرنه المعري بالخليفة في البيت :

لا كانت الدنيا فليس يسرني أني خليفتها ولا محمودها

والسلطان محمود تولى الملك من سنة ٣٨٧ إلى سنة ٤٢١ . فهذه الابيات التي تضمنت اسمه نظمت قبل سنة ٤٢١ ولا ريب لان المعري يذكره ذكر الاحياء ، ويقول : « سيموت محمود . . . الخ » . ويزيد هذا وضوحا أن الشاعر يقول في اللزوميات أيضاً :

محمودنا الله والمسعود خائفه فعدّ عن ذكر محمود ومسعود

ملكان لو أنني خيرت مُلكهما وعود صلب أشار العقل بالعود

ومسعود هو ابن السلطان محمود استقر له الملك سنة ٤٢١ بعد أن ظفر

بأخيه محمد . وبقى له السلطان حتى سنة ٤٣٢ . وأما السلطان محمود السلجوقي وأخوه مسعود فقد ملكا في القرن السادس الهجري .

رابعاً — كان أبو القاسم المغربي الوزير ممن أقام بالمعرة وكان يواد المعري ويراسله ، وكان المعري يحفظ له ولابيه من قبل أياديه . فلما توفى رثاه بأبيات مثبتة فى اللزوميات . ولا أعرف فيها رثاء لغيره أو مدحاً صريحاً :

ليس يبقى الضرب الطويل على الدهـ ـر ولا ذو العبالة الدرحايه
يا أبا القاسم الوزير ترحلـ ـت وخلفتـني ثفـال رحايه
وتركت الكتب الثمينة للنا س وما رحت عنهم بسحابه
ليتني كنت قبل أن تشرب المو ت أصيـلاً شربته بضحايه
إن تحتك المنون قبلي فاني منتحـاها وإنها منتحايه
أمْ دَفر تقول بعـدك للذا ئق لا طعم لي فأين فحـايه
إن يخط الذنب اليسير حفيظا ك فكم من فضيلة محّايه

وهذا الوزير توفى سنة ٤١٨ . فهذه القطعة نظمت في هذه السنة .

خامساً — يقول المعري :

ألم ترني وجميع الانام في دولة الكذب الذائل
مضى قيلُ مصر إلى ربه وخلى السياسة للخائل
وقالوا يعود فقلنا يجوز بقدرة خالقنا الآئل
اذا هبّ زيد الى طيء وقام كليب الى وائل

أظن أن قيل مصر المعني في هذا البيت هو الحاكم بأمر الله الفاطمي ، فهو الذي انتظر بعض الناس عودته . والحاكم هلك سنة ٤١١ . فالظاهر أن هذه الابيات نظمت قريباً من هذا التاريخ .

(ب) سن المعري في اللزوميات :

يذكر المعري سنه في اللزوميات تصريحاً وتلويحاً ؛ تارة يقول بلغت كذا أو جاوزت كذا ، وتارة يقول : إذا بلغ الانسان كذا آن له أن يرعوي أو حان له أن يهلك . وقد عبرت اللزوميات مستقصياً الابيات التي يذكر فيها سنه ؛ فاذا هو يذكر الاربعين مراراً ويذكر الخمسين كثيراً

ولا يذكر ما دون الاربعين إلا مرة واحدة قدمت الكلام فيها ، ويذكر السبعين مرة سأثبتها من بعد .

يقول في الهمزية التي افتتح بها اللزوميات :

إذا ما خبت نار الشبيبة ساءني ولو نُص لي بين النجوم خباء
أرابيك في الود الذي قد بذلته فأضعفُ إن أجدى لديك رباء
وما بعد مر الخمس عشرة من صبا ولا بعد مر الاربعين صباء

* * *

ويقول :

خبر الحياة شرورها وسرورها من عاش مـــدة أول المتقارب
وافى بذلك أربعين فمـــا له عذر إذا أمسى قليل تجارب

* * *

ومتى سرى عن أربعين حليفها فالشخص يصغر والحوادث تكبر

* * *

ورميت أعوامي ورائي مثل ما رمت المطيّ مهامه السفـار
وركبت منها أربعين مطيـة لم تخل من عنت وسوء نِفار

* * *

شربت سني الاربعين تجرعا فيا مَقِراً ما شربه فيّ ناجع

* * *

ويجوز أن تدل هذه القطعة أنه بلغ ثمانياً وأربعين :

عش ياابن آدم عدة الوزن الذي يدعى الطويل ولا تجاوز ذلـكا
فاذا بلغت وأربعـين ثمانيا فحياة مثلك أن يوسد هالـكا

وأما ذكر الخمسين فأكثر وأصرح :

حياتي بعد الاربعين منيـة ووجدان حلف الاربعين فقود
فمالي وقد أدركت خمسة أعقد أبيني وبين الحادثات عقود ؟

* * *

إذا كنت قد جاوزت خمسين حجة ولم ألق خسراً فالمنية لي ستر
وما أتوقى ، والخطوب كثيرة ، من الدهر إلا أن تحل بي الهتر

* * *

إذا طلع الشيب الملم فحيه ولا ترض للعين الشباب المزوَّرا
لقد غاب عن فوديك خمسين حجة فأهلا به لما دنا وتسورا

* * *

وما العيش إلا لجة باطلية ومن بلغ الخمسين جاوز غمرها

* * *

أخمسين قد أفنيتها ليس نافعي بتأخير يوم أن أعض على خمس

* * *

لا خير من بعد خمسين انقضت كملا في أن تمارس أمراضا وأرعاشا

* * *

خمسون قد عشتها فلا تعش والنعش لفظ من قولك انتعش

* * *

علقت بحبل العمر خمسين حجة فقد رث حتى كاد ينصرم الحبل

* * *

كأنك بعد خمسين استقلت لمولدك ، البناء دنا ليهوى

وقد ذكرت الخمسون في ثلاث قطع أخرى ، في حرف الطاء والكاف والميم . ولم تذكر الستون في اللزوميات قط . وجاء ذكر السبعين في قوله :

من عاش سبعين فهو في نصب وليس في العيش بعدها خيره

رجحنا أن أبا العلاء شرع ينظم اللزوميات بعد رجوعه من بغداد كما قلت آنفاً . وقد عرفنا أنه ذكر سن الاربعين والخمسين كثيراً ولم يذكر الستين قط على برمه بالحياة وتعجله الموت — ولو بلغها وهو ينظم اللزوميات لأكثر ذكرها — فساغ أن نقول إن الرجل نظم اللزوميات من سن الاربعين إلى أن نيَّف على الخمسين . وأما السبعون فأغلب الظن أنه لم يعن بها نفسه .

وإن قدرنا أنه المعني بها فقطعة أو قطع قليلة نظمت بعد وألحقت بهذه المجموعة التي نظمت كلها أو جلها في السن التي قدّرتُ .

ويؤيد هذا أن الحوادث التي ذكرها وقعت كما بينت في أوائل القرن الخامس ولم تتأخر عن سنة ٤٢٠ وكذلك الرجال الذين ذكرهم أحياء كصالح بن مرداس ومحمود بن سبكتكين ماتوا قريباً من هـذا التاريخ . وقـد رثى الوزير المغربي الذي توفى سنة ٤١٨ . وأشار إلى وفاة الحاكم بأمر الله وقد توفى سنة ٤١١ . فكل حادثة مؤرخة نجدها في اللزوميات تقع في العشرين الاولى من القرن الخامس . وكل رجل ذكره الشاعر ذكر الاحياء هلك حول هـذا التاريخ : صالح مات سنة ٤٢٠ ، ومحمود مات سنة ٤٢١ .

واما مسعود بن محمود الذي تولى سنة ٤٢١ فقد ذكره مرة مع أبيه ولم يعد إلى ذكره . فهو لم ينظم في أيام مسعود بعد هلاك محمود ، أو لم ينظم إلا نادراً .

وأعزّز بأمر يستأنس به مضموماً إلى الادلة السابقة ، أن أبا العلاء ذكر في مواضع من الكتاب أنه لم يشب ، وزعم أنه كان جديراً بأن يشيب ، وأنه لا يسره بقاء شعره أسود . يقول :

ويحمل الهم قلبي معفياً جسدي رأسي أحم وظهري غيرُ منأطر

* * *

غرك سود الشعرات التي في الوجه مني وأنا الدالف
كلفتني شيمة عصر مضى هيهات منك العصر السالف

* * *

يا مفرقي هلا ابيضضت على المدى فما سرني أن بت أسود حالكا
قبيح بفود الشيخ تشبيه لونه بفود الفتى والله يعلم ذلكا

* * *

تأخر الشيب عني مثل مقدمه على سواي ووقت الشيب ما حضرا

* * *

ثم ذكر في مواضع كثيرة لا تقل عن عشرة ، شيبَ رأسو وبياض شعره ، مثل قوله :

غنا على الشيب فهل زارنا طيف لأصل الشرخ منتابُ

* * *

كانت مفارقُ جون كأنها ريش غِربه
ثم انجلت فعجبنا للقار بُدّل ضربه

* * *

أأذهب فيكمُ أيام شيبي كما أذهبتُ أيام الشباب

* * *

قد شاب رأسي و من نبت الثرى جسدي فالنبتُ آخر ما يعتو به الزهر

* * *

أيها الشيب لايريك من كفي مقص ولا يواريك خطر
إن نهيت النفس اللجوج عن الإثم وطابت فإنما أنت عطر

فقد نظمت اللزوميات وشعره أسود ، ثم استمر النظم حتى شاب . وهذا يلائم السن التي ذكرتها والتاريخ الذي حددته . ولو أنه نظمها قبل الاربعين لما ذكر الشيب ، ولما استبطأه . ولو نظمها بعد الخمسين لما ذكر المفرق الحالك والشعرات السود . ولا يجوز أن يدّعى أنه نظم قبل الشيب واستمر ينظم حتى مات ، وسن الشيب متصلة بالموت . فقد دلت الادلة الاخرى على أنه لم يستمر في النظم طول عمره .

ويمكن أن يقال : إن كان أبو العلاء فرغ من نظم اللزوميات أو كاد حين بلغ الخمسين فكيف ذكر الكبر متبرما ، وطول الثواء متململا ، وذكر دنو الاجل وقرب الرحيل ، وسقوط الاسنان ، في مثل قوله :

طال الثواء وقد أنى لمفاصلي أن تستبد بضمها صحراؤها

* * *

وما زال البقاء يرث حبلي إلى أن حان للمرس انقطاع

* * *

أعلل مهجتي ويصيح دهري   ألا تغدو فقد ذهب الرفاق

* * *

تخلفت بعد الظاعنين كأنهم   رأوك أخا وهن فما حملوكا

* * *

أيتها النفس لا تهالي   شرخي قد مر واكتهالي
لم يبق إلا شفاً يسير   قُرّب من موردي نهالي

* * *

فمي أخذت منه الليالي وإنني   لأشرب منه في إناء مثلم

* * *

رب متى أرحل عن هذه الد   نيا فاني أطلت المقام

هذه الابيات وأشباهها تصدر عن الشيخ هِمّ ، بلغ أرذل العمر ، وذهب جيله وبقي وحده . ولكن المعري له شأن آخر ، فهو يبرم بالحياة في عنفوانها ويقول :

شربت سني الاربعين تجرعا   فيا مقراً ما شربه في ناجع

ويرى ان الحياة بعد الاربعين موت ، والوجدان فقد .

حياتي بعد الاربعين منية   ووجدان حلف الاربعين فقود

فشكوى أبي العلاء من الضعف ، وهتافه بالموت ، وبرمه بالحياة لا يدل كل حين على الشيخوخة أو الهرم .

وأما قوله :

فمي أخذت منه الليالي وإنني   لأشرب منه في إناء مثلم

فسقوط الأسنان كثيراً ما يعرض في السن التي قدّرتُ أنه نظم فيها الكتاب .

وقد ذكر سقوط أسنانه في رسالته إلى أبي الحسن بن سنان ، وقد تقدم إليه باختصار كليلة ودمنة بأمر عزيز الدولة . وعزيز الدولة قتل سنة ٤١٢ ، ولما يبلغ أبو العلاء الخمسين .

المبحث الثاني

ترتيب اللزوميات

— ١ —

وضع أبو العلاء خطة هذه المنظومة متكلفاً فيها ثلاث كلف كما قال في المقدمة : أن يلتزم في قوافيه حرفاً لا يلزم ، وأن ينتظم حروف المعجم كلها ، وأن يستوفي في كل حرف الحركات الثلاث والوقف .

وقد تبين من تاريخ الحوادث التي ذكرت في هذا النظم ومن تاريخ الرجال الذين ذكرهم ومن الأسنان المختلفة التي ذكرها أن الترتيب الهجائي لا يساير الترتيب الزمني . أنظر إلى رويّ الأبيات التي أثبتها فيما تقدم ، وإلى تاريخ الحوادث التي تتضمنها والأسنان التي تذكر فيها تر هذا واضحاً . فلا يسوغ أن نظن أن قطعة على روي الباء مثلاً ينبغي أن يتقدم تاريخها على قطعة في حرف الميم ، وينبغي ألاّ ينظر إلى الترتيب الهجائي في تتبع آراء أبي العلاء في لزومياته .

— ٢ —

ودليل آخر : أنّ كثيراً من القطع المتوالية تتفق في الموضوع أو تتفق في الوزن والقافية بل تتفق في كلمات القافية أحياناً . فلو أنه نظمها ولاء لم يكن للفصل بينها وجه ، وكان يلزم أن تكون قطعةً واحدة ، ولو نظمها قطعاً متوالية لم يُجز لنفسه أن يكرر فيها القوافي والمعاني ، فليس الفصل بينها إذاً إلا بأنها نظمت في أحيان مختلفة ثم جمعت .

أنظر إلى هاتين القطعتين ، وهما متواليتان على الميم المضمومة :

العقل يخبر أنني في لجة ... من باطل وكذاك هذا العالم
مثلُ الحجارة في العظات قلوبنا ... أو كالحديد فليتها لا تألم

ويليها :

لم تلقَ في الأيام إلا صاحباً ... تأذى به طولَ الحياة وتألم
ويُعد كونك في الزمان بلية ... فاصبر لها فكذاك هذا العالم

ويقول من قطعة في حرف القاف :

مرازبُ كسرى ماوقت مهجة له وقيصر لم يمنع رداه البطارق

وفي قطعة تليها :

وهل أفلت الايام كسرى وحوله مرازبه أو قيصر وبطارقه

فلو أن القطعتين نظمتا ولاء ما كرر هذا المعنى .

وأما القطع المتوالية المتفقة في الوزن والقافية ، والروي وحركته أو سكونه فكثيرة لا تحوج الى التمثيل هنا . والامر كله أبين من أن يطال فيه الكلام .

— ٣ —

وهنا نسأل : إن كان أبو العلاء لم ينظم على ترتيب الحروف والحركات فكيف ضمن الوفاء بما التزم من استيعاب الحروف وحركاتها ؟ إن كان قد نظم على الروي والحركة اللتين تعنّان له دون أن ينتقل من حرف إلى مايليه ومن حركة إلى ما بعدها فكيف استوعب الحروف والحركات ؟

لنا أحد فرضين : إما أن الرجل كان يأمر كاتبه أن يثبت كل حرف في فصل على حدة ، وكان يستعيده قوافي هذا الفصل فيكمل نقصه حتى كملت الحروف والحركات . وإما أنه جعل الكتاب كله مجموعة واحدة على غير تفصيل ، وكان يقصد إلى تغيير الحروف كل حين على غير ترتيب . فلما اجتمع له مقدار كبير من المنظوم رتبه وأكمل نقصه . وبهذا يُشعر قوله في المقدمة : وهذا حين أبدأ بترتيب النظم .

ونحن نجد في الكتاب قطعاً نظن أنها لم تنظم إلا لضرورة هذا الاستيعاب فالثاء المفتوحة ، والذال الساكنة ، والضاد المضمومة ، والطاء الساكنة ، والهاء الساكنة ، لم ينظم في كل منها إلا بيتين اثنين وهما أقل ما ينظم لإنفاذ خطته . وقد قال هو هذا في آخر المقدمة .

— ٤ —

نظم أبو العلاء ملتزما ما لا يلزم ، ومستوفياً الحروف وحركاتها ، ورتب كتابه على الحروف وعلى حركات كل حرف ، وقال في آخر المقدمة :

« وهذا حين أبدأ بترتيب النظم وهو مائة وثلاثة عشر فصلا ؛ لكل

حرف أربعة فصول . وهي على حسب حالات الروي من ضم وفتح وكسر وسكون ، وأما الالف وحدها فلها فصل واحد ، لانها لا تكون إلا ساكنة . وربما جئت في الفصل بالقطعة الواحدة أو بالقطعتين ليكون قضاء لحق التأليف . وبالله التوفيق » .

وقد أدركت أنا بالتأمل في فصول اللزوميات ، ترتيباً آخر لم ينبه إليه المعري . وهو ييسر على الباحث عن الأبيات في الكتاب ، زيادة على التيسير بترتيب الحروف والحركات . ذلك أن الأوزان في كل فصل مرتبة على ترتيب الدوائر والأبحر عند العروضيين .

فنجد البحر الطويل في الفصل مقدماً على غيره ، والمتقارب مؤخراً عن غيره ، والأبحر بينهما على ترتيبها . وليس معنى هذا أنه استوفى في كل فصل الأبحر الخمسة عشر ، بل المعنى أن مايوجد من الأوزان في فصل يلتزم فيه الترتيب .

فالذي يبحث عن قطعة أو بيت على الراء المفتوحة — مثلاً — لا يلزمه ، إذا عرف الوزن ، أن يبحث في أبيات الراء المفتوحة كلها ، بل يطالب البحر الذي فيه وزن القطعة أو البيت في موضعه من الراء المفتوحة . وذلك يسير إذا عرف ترتيب الأبحر في العروض وهو أمر أمم .

* * *

هذا ما بدا لي في تاريخ اللزوميات وترتيبها ، فمن بدا له ما يؤيد رأيي أو ينقضه ، فليتفضل مشكوراً بالادلاء برأيه والإبانة عن حجته .

وكنت هممت أن أتبع هذا البحث بنظرة شاملة في موضوع اللزوميات وترتيب أمهات الآراء فيها مسلسلة ، ولكن عداني عن هذا طول البحث وتجاوزه الحدّ الذي يحده ضيق الوقت وكثرة المتكلمين في حفلات أبي العلاء .

ولعلي أضمه إلى هذا البحث من بعدُ ليكونا بحثاً مجملاً جامعاً مستوعباً اللزوميات : تاريخها وترتيبها وموضوعها . وبالله التوفيق .

عبد الوهاب عزام

شيخ المعرة والشيخ المدرا

موضوع كلمتي ايها السادة لا يتعلق بأبي العلاء نفسه . وإنما يتعلق بوصف كتاب مخطوط دمشقي له علاقة بآثاره . وتفسير أشعاره .

وهو موضوع على قلة شأنه بالنسبة إلى موضوعات الافاضل الذين تكلموا في هذا المهرجان الالفي — فيه جدّة تسوّغه . ونسبة دمشقية تروّجه . وشيء من مفاجأة يشفع به .

على أن موائد العلم كموائد الطعام . لا تستطاب ما لم تتعدد ألوانها . وتتباين طعومها . ويجد كل من الآكلين ما يلذ له منها .

وإن كان شاعر بني عبس شكا شعراء زمانه الذين لم يغادروا له متردّماً برقّعه فان المتكلمين من خطباء وشعراء في هذا المهرجان تركوا لي — من فضلهم وعن غير اختيار منهم — متردماً رتقته . وشتاتاً لممته . وخبراً من أخبار أبي العلاء . جئتكم به أمشي على استحياء .

***

إذا وازنا بين ما تركه لنا أبو العلاء من ثروة في أدبنا العربي وبين ما تركه غيره من أدبائنا الاقدمين وجدنا بطل مهرجاننا قد تقدمهم . وأبرّ عليهم . وكان له السبق خاصة في ثلاث خصال :

(١) أخيلته المبتكرة في المعاني .

(٢) أسلوبه القصصي(١) في ايراد أبحاثه اللغوية والادبية .

---

(١) هذا موضع التساؤل أو التعجب من أبي العلاء في وضعه طائفة من مصنفاته في شكل قصه أو حوار خيالي بين عدة أشخاص أو بين الطير والحيوان والملائكة أحياناً : فمن تصفح اسماء الكتب التي صنفها علماء عاشوا في زمن أبي العلاء وقبل زمنه وبعد زمنه لم يجد فيها ما يجده في مصنفاته هو من هذا الأسلوب الخيالي : فبين مصنفاته [أدب العصفورين] [خطب الخيل] [رسالة الضبعين] [رسالة على لسان ملك الموت] [سجع الحمائم] [الصاهل والشاحج] [كتاب القائف] قالوا انه على مثال كتاب كليلة ودمنة [رسالة الغفران] [رسالة الملائكة] —

(٣) نقده الجريء للنُظُم الاجتماعية الفاشية في زمانه .

على أن آثار أبي العلاء ليست كلها سواء في حسن السياقة . ولا في قرب التناول . ولا في الفائدة والامتاع : فسقط الزند شعر ولا كاللزوميات . والفصول والغايات نثر ولا كرسالة الغفران . حتى أن أبا العلاء نفسه كان يانف من نسبة أشعار (سقط الزند) إليه . أو أن تقرا عليه . أو أن يتمثل بها لديه . وكان يسمي سقط الزند (ديوان الصبي) بينا كان يسمي شرحه على اللزوميات (راحة اللزوم) .

ومن بين هاتين التسميتين يمكننا أن نستخرج اعتراف أبي العلاء نفسه ببداعة لزومياته . وتخلّف ما عداها .

— وهي على شكل رسالة الغفران غير أن رسالة الغفران أوسع منها خيالاً . وأمتع امتاعاً . وله كتاب باسم [نظم السور] وهذه التسمية تشعر بأن سور القرآن تتشاكى وتتظلم من بعض الشيء . كل هذه المصنفات مما وضعه أبو العلاء وهي تدل على أن له ميلاً خاصاً أو ذوقاً خاصاً في فن القصة لم نعهده في غيره من عباقرة المؤلفين الذين عاشوا في زمنه ومثل بيئته فمن ورث هذا الميل يا ترى ؟ وكيف تسرب الى نفسه ؟

نعم ان شروط فن القصة في آثاره الخيالية هذه لم تتوفر بتمامها فيها لكنّ نواتها قد وجدت فيها مستوحاة من طبع أبي العلاء وغريزته العبقرية .

يخطر لي أن هذا الميل في أبي العلاء ان لم يكن تسرب الى طبعه من القرآن الكريم فقد تسرّب اليه من الفرس فقد كان له « كما يظهر من ترجمته ومجموع أخباره » زوار وخلطاء وتلاميذ منهم : أشهرهم الخطيب التبريزي وكان تلميذاً له ويظهر أن المعرة كانت إلى عهد قريب منزلاً للحجاج والزوار الايرانيين يقصدونها لموقعها من طريقهم ولأثر في جامعها منسوب الى سيدنا الحسين .

ومن أشهر من زار المعرة في زمن أبي العلاء من الفرس « ناصر خسرو » الرحالة الفارسي العظيم وقد وصفها ووصف أبا العلاء في رحلته التي سماها [سفرنامه] فلا جرم أن يكون أبو العلاء — وهو الذكي الألمعي الثقف اللقِف — عرف من هؤلاء الطرّاء الفارسيين شيئاً ولو قليلاً من أدب الفرس وتخيلات شعرائهم وأسلوبهم القصصي في مصنفاتهم . وما ننسَ لا ننس [كليلة ودمنة] و [شهنامة الفردوس] . ومن كان في ذكاء أبي العلاء لا يعوزه لأجل التأثر والمحاكاة أكثر من هذا القليل حتى تفيض قريحته بالكثير مما كان على نمطه ومضروباً على غراره . ويمكن أن تعدّ مقامات البديع الهمذاني من جملة الآثار الخيالية التي تأثر بمضامينها أبو العلاء : فهي — وان كانت عربية في مولدها — فارسية في محتدها . إذ أن البديع فارسي العِرق : كان يقيم بهرات ومات فيها . وكان معاصراً لأبي العلاء : جمعهما ديبم الشباب وعاش المعري بعده أكثر من نصف قرن .

إذن يصح القول بأن أبا العلاء ليس سوى لزومياته : فهي التي لم يَفرِ فيها فَريَّه أحد . ولم يُلهم في عُمقيِّ تفكيرها إلهامه أحد . بل هي التي سجلت له حق الخلود من جهة . وكشفت لنا عن أسرار مجتمع زمانه من جهة أخرى . وقد نبهنا هو نفسه إلى صنيعه هذا مذ قال :

(ومن تأمل أقوالي رأى جملا يظل فيهن سرُّ الناس مشروحا)

وهل يريد بسر الناس إلا ما نريده بقولنا : (أسرار المجتمع) (أسرار الوجود) (نواميس الاجتماع) (طبائع العمران) .

***

ومن مواضع العجب أن أحداً من فحول العلماء لم يتصدَّ للزوميات فيشرحها كلها (١) شرحاً يستوعب فيه جميع ما دفن فيها من كنوز . واستتر تحت ذيلها من رموز .

ولو تصدى متصدٍ إلى شرحها على النحو الذي وصفنا لَمَنَحَنا من واسع علمه (دائرة معارف) تحيط بثقافتنا العربية الاسلامية من جميع جهاتها . ولكن هذه الاحاطة تحتاج إلى عيلم (انسكلوبيدي) عامٍ في مناحي علمه . شامل لكل فن ومطلب في اتساع ذرعه . وعمق تفكيره . ولا ندري ان كان أمثال هؤلاء العيالم تركوا شرح اللزوميات تهيباً للعمل ؟ أو تأثماً من العمل ؟

لا جرم أن في اللزوميات ما ينفعل منه الورع المتزمّت . ويقطب عند سماعه المسلم المتشدد . أما ديوان (سقط الزند) فلا يكاد يوجد فيه والحمد لله ما يحول بين المرء وقلبه . أو يلقّنه الشك في ربه . ولذا كثر شرّاح السقط . وقل أو فقد من شرح اللزوميات .

***

(١) بلغنا أخيراً أن قد شرح بعضها أبو عبد الله الطليوسي . ويوجد من شرحه هذا بعض أوراق في المكتبة التيمورية بالقاهرة . وبعض قصائد من الشرح المذكور في مكتبة الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب في تونس .

وعلى قاعدة (ازهد الناس في العالم وأهله وجيرانه) زهد الجيران والاقارب في وضع شرح على السقط : أولئك الجيران والاقارب الذين عناهم أبو العلاء بقوله في (سقط الزند) :

(أإخواننا بين الفرات وجلَّق يدَ الله لا خبرتكم بمحال)

وقام الاباعد يشرحونه . ويتفننون في التعليق عليه . وإيضاح ما خفي منه : فشرحه التبريزي والرازي والخوبي[1] والابيوردي والواحدي والاخسيكتي والخوارزمي[2] وهؤلاء كلهم مشارقه . وربما كانوا أعاجم أيضاً . وشرحه من المغاربة الاندلسيين القادسي والبطليوسي[3] ،

ونسأل الجيران عن سبب زهدهم في شرح ديوان جارهم . فيجيبنا الاستاذ عباس الغزاوي البغدادي عضو مجمعنا العلمي بأن لديه شرحاً للسقط ألَّفه سنة ١٢٧٧ هـ أحد أدباء العراق : وهو ابراهيم فصيح الحيدري البغدادي وسماه (نفح الرند) وقد قرظ هذا الشرح أمين أفندي الجندي مفتى دمشق الشام . وأسرة الحيدري أسرة علم في بغداد كانت . أما اليوم فمن أبرز شخصياتها السياسيين معالي (داود الحيدري) وزير العراق المفوض في لندن .

وأنتم يا علماء القطر الشامي ؟

يجيبنا صاحب كشف الظنون بأن ابن الرازي الحموي (المتوفى سنة ٧٣٧ هـ) له شرح على سقط الزند .

وأنتم يا أقرب الجيران : يا علماء دمشق الماضين الذين قال أبو العلاء في بلدكم : (دمشق عروس الشام الموموقة . وواسطة عقدها المرموقة) ها أنتم أولاء ترون مبلغ عناية أحفادكم دماشقة اليوم بتكريم أبي العلاء في مهرجانه الألفي . أما لكم فيه أثر ؟ أو لديكم عنه خبر ؟

فيجيبنا شيخان دمشقيان متعاصران ومتقاربان في الوفاة : (يوسف البديعي)

(١) وشرحه يسمى (التنوير) وهو مطبوع في الهند سنة ١٢٧٦هـ ثم طبع في مصر سنة ١٢٨٦ هـ .

(٢) وشرحه يسمى (ضرام السقط) وهو مطبوع على هامش طبعة التنوير الهندية .

(٣) قال بروكلمن أن شرح البطليوسي قد طبع أيضا .

و (محمد بن نورالدين[١] الدرا) . يقول لنا الاول : إنه ألف في أخبار أبي العلاء كتاباً سماه (أوج التحري) (وهو الذي طبعه المعهد الافرنسي بدمشق . ووزعت نسخه خلال أيام مهرجانه الألفي) فنقول للبديعي لانريد هذا وانما نريد شرحاً لسقط الزند .

فيهمهم إذ ذاك الشيخ الدرا ونسمعنا صوته المهيب من وراء برازخ الاموات قائلا : انني وضعت شرحاً على ديوان سقط الزند الذي نظمه عروس مهرجانكم في مجلد تزيد صفحاته على خمسمائة صفحة . وفرغت من تأليفه سنة أربع وستين بعد الألف للهجرة . فيكون قد مر على ولادته إلى يومكم هذا ثلاثمائة سنة كاملة وبذلك أستحق أن يقام له مهرجان صغير بجانب المهرجان الألفي الكبير . وافتتحت مقدمته بقولي :

(نحمدك يامن شرح صدر من بصّره بنور الهداية . فارتسم في ديوان حضرة الولاء . وطمس على بصيرة من حذره غرور الغواية . فأخلد إلى الارض وأبى العلاء) .

إلى أن قلت في سبب وضعي للشرح المذكور ما خلاصته : إنني كنت مولعاً بديواني (ابن الفارض) و (أبي الطيب) كما كنت حريصاً على أن أتفهم معاني اشعار (أبي العلاء) في ديوانه (سقط الزند) . وقد صعب عليّ تفسير طائفة كبيرة منها . حتى علقت في الكف نسخة من الديوان عليها هوامش . فاستعنت بها في وضع شرحي هذا . مع ما أنا فيه من الغربة في مدينة جُدة حاجاً . وكتبي اللغوية بعضها في بلدي دمشق . وبعضها الآخر في الديار المصرية . وقد ترددت أولا في الشروع حتى رأيت في المنام مولانا الشريف (زيدَ ابنَ محسن[٢]) وكان من سعادة تلك الرؤيا تقبيلي لراحته . فألهمت أن أخدم خزانة كتبه بهذا الشرح . ففعلت . وقدمت بين يدي خدمتي قصيدة مدحته بها . وجعلت عدتها أربعة وستين بيتاً بعدد ما زاد على الالف من تاريخ نظمها الذي كان سنة أربع وستين بعد الالف ومطلعها :

(خذ يمين الحمى فثم بدور طلعت في دجا الشعور تُنير)
(كل بدر يُقله غصن بان مثمر بالدلال لدن نضير)
(فقدت قلبها المناطق فيه فهي حيرى على الخصور تدور)

(١) وفاة الشيخ الدرا كانت بدمشق سنة ١٠٦٥ هـ ووفاة الشيخ البديعي ببلاد الروم سنة ١٠٧٣ هـ .

(٢) راجع ترجمته في تاريخ المحبي الدمشقي جزء ٢ ص ١٧٦ .

قال : وكنت سميت شرحي (سقَط العقيان والحلى لعروس ديوان أبي العلاء). ثم رأيت في المنام أني أستقدح زنداً . واستصبح منه فَنْدا . فعبرت ذلك بأن أسميه (ضوء الفند(١) من سقط الزند) .

قال : وقد خطر لي أن أرتب قصائد الديوان على حروف المعجم بعد أن أدمج فيها الدرعيات وأجعلها ديواناً واحداً — خلافاً لترتيب نسخه المتداولة في أيدي الناس — ثم شرعت في العمل فقلت : قال أبو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان المعري نسبة إلى المعرة وهي قرية من قرى دمشق الشام) إلى آخر ماقال المؤلف.

اقول : جعلُ المؤلف (معرة أبي العلاء أو معرة النعمان) من قرى دمشق أمر مشكل : ويمكن تأويله بأن المعرة كانت في زمن المؤلف من ملحقات حماة . وحماة من أعمال دمشق فتكون المعرة من قرى دمشق . أو أن الناسخ أخطأ : أراد أن يكتب (حلب) فكتب (دمشق) . وهو الاقرب . ومن المستبعد جداً أن يكون (الشيخ الدرا) أراد بمعرة أبي العلاء معرة صيدنايا التي هي من قرى دمشق . نستبعد هذا لانه جهل مطبق . لا يتفق مع فضل المؤلف المحقق .

***

هذه أيها السادة خلاصة ما قاله الشيخ الدرا في مقدمة شرحه . ثم ذكر في خاتمته أنه أتمه في خلال تسعة أشهر . وأنه بيض منه أربعة كراريس ورجع إلى وطنه دمشق . فتوفي في السنة التي بعدها (أي سنة خمس وستين بعد الألف) ودفن في جبانة باب الصغير . وبقيت مسودات الشرح مهملة مدة ثلاثين سنة . حتى قام ابن أخت المؤلف (عبد الحق بن علي الدرا) فبيض المسودات بياضاً كاملا . وذلك سنة خمس وتسعين بعد الألف .

والمحبي في تاريخه (٢) (خلاصة الأثر) ترجم للشيخ الدرا ترجمة حسنة وأثنى عليه . وقال إنه كان من أنبل أبناء وقته فاضلا شاعراً ممتع المحاضرة قرأ

(١) الفند معناه الشمع الذي يستضاء به وهو لفظ لا تعرفه العرب بهذا المعنى وربما كان سريانيا . وقد كتبت فيه مقالا مسهباً نشرته مجلة المجمع العلمي العربي (مجلد ١٧ ص ٥٧)

(٢) جزء ٤ ص ٣٤٩ .

العربيـة على النجم الغزي وحضر دروس الشيخ عبد الرحمن العمادي فتفوّق وشاع فضله ورحل إلى القاهرة مراراً . وأخذ عن الشيخ سلطان ومن عاصره من العلماء . ومدح من ساداتها الشيخ محمد البكري الصديقي بقصيدتين :

مطلع الاولى :

(خليليّ حطا بالركائب من مصر سقاها وحياها المريع من القطر)

ومطلع الثانية :

(من لقلب من الهوى لا يُفيق وعيون إنسانُهن غريق)

ويظهر أن مخطوطة مكتبتنا هي التي كتبها عبد الحق ابن أخت المؤلف . وربما كانت وحيدة لا ثاني لها : فقد سألت عنها كبير آل الدرا في دمشق فقال إنهم يسمعون بها ولم يرو لها أثراً . وراجعت فهارس دار الكتب الظاهرية . ودار الكتب المصرية فلم أظفر بذكر لها . وقد كتبت على ظهر المخطوطة هذه الجملة : (إن هذا الشرح أحسن شروح الديوان) أما كيف وصلت هذه المخطوطة الينا في طرابلس الشام فيمكن استنتاجه مما يلي :

يوجد في الصفحة الاربعين من المخطوطة هامشة نحوية بخط أديب كبير من أدباء دمشق هو أحمد بن الياس الكردي . وقد وقّع عليها وأرّخ بجانب التوقيع سنة كتابتها بمائة وثلاث وتسعين بعد الألف .

وأحمد الكردي هذا من عيون شعراء الشام في القرن الثاني عشر . ترجم له المرادي في تاريخه (١) وقال : إنه كان يلقب بالارّجاني (٢) الصغير وبالقاموس الماشي . وهو الذي وصف السفينة وصفاً أبدع فيه كل الابداع وذلك يوم ركبها إلى مصر القاهرة يمدح واليها محمد باشا الشهير بالراغب ومطلعها

(١) سلك الدرر جزء ١ ص ٨٣ .

(٢) تشبيهاً له بالارجاني الكبير وهو لقب القاضي ناصح الدين أبي بكر أحمد المتوفي سنة ٥٤٤ هـ وربما كان السبب في أنهم شبهوه به إبداعه في وصف السفينة كما أبدع الارجاني في وصف الشمعة في قصيدته التي مطلعها :

(نمّت بأسرار ليـل كاد يخفيها وأطلعت قلبها للناس من فيها)

ثم سرد أوصافها إلى أن قال :

(صفر غـلائلها . حمر عمـائمها سود ذوائبهـا بيض لياليهـا)

(هذي مُنايَ بلغتها لاوانها فالحمد للافلاك في دورانها)

ومنها :

(النيلَ أيتهـا السفين فليس لي في فارس أرب ولا أرجانهـا)

(فتز شفي من ثغر دمياط المنى لا ظل ذاك الشعب من بوّانها)

قال المرادي : ونزل أحمد الكردي طرابلس الشام وتزوّج بها وحصل له بعض وظائف . ثم غادرها إلى حلب موافياً صديقه الوزير راغب باشا المذكور حينما جاء والياً . فمات فيها سنة تسع وتسعين ومائة بعد الألف للهجرة . أما كتبه فيظهر أنها بيعت في طرابلس . ومن جملتها مخطوطة الدرا التي قانا إن عليها هامشة بخط أحمد الكردي فوقعت إلينا منذ ذلك التاريخ .

وخط هذه النسخة جيد واضح . والأبيات وحدها مكتوبة بالحمرة . غير أن فيها طائفة من الأغلاط . لأن ناسخها على مايظهر لم يكن متمكناً من العربية وآدابها .

وقد عارضت النسخة بشرحي (الخويّي) و (الخوارزمي) فاذا فيها آثار كثيرة من شرح الخويي المسمى بالتنوير : مما يدل على أن النسخة التي ظفر بها المؤلف الدرّا في جدة كانت هوامشها مستقاة من شرح (الخويي) .

***

وللشيخ الدرا استظهارات أو نقول آراء شخصية لم نجدها لغيره من الشراح مثال ذلك ما قاله في شرح بيت المعري :

(ورائي أمامُ والامام وراء إذا أنا لم تكبرني الكبراء)

فهو بعد أن أطال في المعنى المراد من قوله : (ورائي أمام والامام وراء) ونقل جميع ما قاله غيره من الشراح قال : (وثمّ معنى آخر يحتمله التركيب : وهو انه أطلق الوراء والامام وأراد بها مظروفيها : الموتَ والحيـاة . مجازاً مرسلاً : إذ أن أمل الانسان جهة أمامه واجله من خلفه . وحقيقة المعنى حينئذ : إذا لم تعرف قدري العظماء فموتي حياة وحياتي موت . قال وهذا الاحتمال أنسب بمواقع كلام أبي العلاء كقوله (فيا موت زر إن الحياة ذميمة) .

وقال بعد أن شرح قول أبي العلاء :

(يود أن ظلام الليل دام له . وزيد فيه سواد القلب والبصر)

ما نصه : (وإذا تأملت لحوى هذا البيت رأيته كالهادم لاركان البيت السابق ما لم يُتكلف له) . والبيت السابق هو قوله :

(ماسرت إلا وطيف منك يصحبني سرًى أمامي وتأويباً على أثري)

وهكذا نرى للمؤلف استظهارات أو مبادهات من رأيه الخاص لم نرها لغيره .

وإذا رأى الشيخ الدرا شيئاً لم يعجبه من شعر شيخ المعرة لا يبالي أن يلمزه وينال منه . ففي قول أبي العلاء :

(حلباً يملأ الجفان سديفاً يَرعب الغاليات بالترعيب)

شرح الشيخ الدرا معنى هذا البيت ثم قال : (قعاقع ما تحتها طائل)

وبعد أن شرح قوله :

(مستقي الكف من قليب زجاج بغروب اليراع ماءَ مداد)

قال : ولعمري إن الذوق لينبو عن هذه الاستعارات .

***

ولقد لمحنا من خلال شرح الشيخ الدرا أنه من الشيوخ الذين يسيئون الظن بشيخ المعرة خلافاً للبديعي مؤلف (أوج التحري) فأنه كان يحسن الظنّ به . ولعل المعاصرة بين ابني البلد الواحد الدرا والبديعي هي التي أدت إلى اختلاف وجهة النظر في أبي العلاء ثم انتهت بهما إلى وضع تأليفيهما . على أن الشيخ الدرا ما كان يشير إلى رأيه السيء في أبي العلاء إلا في الندَري : مثال ذلك أنه بعد أن شرح قوله :

(وإني وإن كنت الاخير زمانه لآت بما لم تستطعه الاوائل)

قال : (وقد أفحم بحرف واحد ورد الله يده في فيه) يشير بقوله : (أفحم بحرف واحد) إلى قصة الغلام الذي اعترض أبي العلاء قائلا : آنت الذي قلت : (وإني وإن كنت الخ . . .) قال نعم . قال إن الاوائل وضعوا للهجاء تسعة وعشرين حرفاً فزد أنت عليها حرفاً واحداً إن قدرت . فسكت مفحماً .

وأقام الشيخ الدرا النكير على شيخ المعرة مذ قال في رثاء الفقيه الحنفي أبي حمزة :

(واحْبُواه الاكفان من ورق المصحف كبراً عن أنفَس الابراد)

فتأفف الشيخ الدرا من هذا الغلو ووصف صاحبه بما لا يرضي أنصاره وربما حكم عليه بأشد مما وصف .

* * *

حقاً إن عقول المفكّرين من البشر لم تقف في الحكم على أحد من البشر موقفها من شيخ المعرة : حتى كانوا فيه طوائف ثلاثاً : طائفة جعلته من أصحاب الميمنة . وطائفة جعلته من أصحاب المشأمة . أما الطائفة الثالثة فهم الحائرون في أمره . المتوقفون عن تقرير مصيره . ويوشك أن يكون أبو العلاء عنى نفسه وهذا الفريق الثالث عندما قال :

(والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد)

فهو هو الانسان الذي استحدثه خالقه من جماد . وجمع فيه ماتشتت من ذكاء العباد . وأودعه ماشاء من النقائض والاضداد .

* * *

وقد قلت :

أبو العلا لغز غدا حله معضلة عيّ بها العالمون
كم بات في أمر الورى حائراً والناس في حيرته (١) حائرون
فقائل : حيرته عن هدى وقائل حيرته عن فتون
وقائل : خبل عن خلوة لا طعم فيها غير بلس وتين
وقائل : شككه راهب فكان في الشك زوالُ اليقين
وقائل : ضل فلم يهتد لرشده : فهو من الاخسرين
لكنما الجنة مفتاحها في يد ربي لا يد القائلين

المغربي

---

(١) وأشهر قول له دل به على حيرته — هذا البيت :

(ويمتري النفس إنكار ومعرفة وكل معنى له نفي وإيجاب

دين أبي العلاء

اذا حاول الانسان أن يتكلم في أبي العلاء وجد مجالاً واسعاً للقول لأن في شعره أبياتاً رائعة في كل غرض من أغراض الشعر وفي نثره آيات بارعة لا تقل عن شعره في الجودة ولكن الناس نسوا أو تناسوا ذلك ولم يذكروا له إلا السيئات حتى في هذا اليوم الذي أعد للاحتفاء به .

ولقد بدا لي أن تكون كلمتي هذه في تشاؤمه الذي فرض عليه فرضاً فرأيت ذلك يجر إلى سخط القائلين به فصرفت نفسي عنه .

ثم حسن عندي أن أبين عطفه على المرأة لأن بعض الناس يعتقد أنه أعدى عدولها ولكنني عدلت عنه لأنه يحتاج إلى تطويل لا يتسع له هذا المقام. وبعد اللتيا والتي. تخيرت القول في دين أبي العلاء أو مذهبه أو معتقده .

ما هو السبب في تكفيره

افتن المتقدمون والمتأخرون في تكفير هذا الرجل ووصفوه بالالحاد والزندقة والمروق وما أشبه ذلك من النعوت ولا بدلكل حادث في هذا الكون من سبب يوجبه وعلة تقتضيه والممعن في البحث يجد أسباباً كثيرة لذلك من اشدها الحسد من أعدائه والتنطع والتشدد في الدين من خصومه والطموح إلى الظهور على أكتافه . والولوع بالإغراب على حسابه .

الحسد

أما سبب الحسد فان أبا العلاء أوتي من المواهب الفطرية ما لم يؤته كثير من الناس ونال حظوة عند الملوك والأمراء والكبراء قلما نالها شاعر أو عالم ورزق من طيرورة الشهرة ما لم يتح لكثير من النوابغ .

فقد بذل له المستنصر العلوي ما في بيت المال في المعرة . وكتب داعي الدعاة إلى تاج الأمراء أن يجري له ما تدعو اليه حاجته في جميع مهـــامه .

وكلف الوزير الفلاحي عزيز الملك أن يحمله إلى مصر ليبني له دار علم . وسمح له بخراج المعرة مدة حياته فأبى ذلك كله وكان عفافه هذا يزيده حرمة في أعين الملوك فمن دونهم ولم يمرّ بالمعرة وزير مذكور أو فاضل مشهور إلا وقصده واستفاد منه أو طلب شيئاً من تصنيفه أو كتب عنه .

فهذه الحظوات وتلك المواهب أوقدت في قلوب حساده ناراً .

التنطع والتشدد

وأما سبب التنطع فان أبا العلاء انتقد كثيراً من المزاعم التي كان يعتقدها بعض الناس في زمانه .

فأنكر أن يكون حام اسودّ من أجل ذنب أحدثه . وأن يكون الخضر حياً . وان الشيب لم يعرفه الناس قبل ابراهيم وأن الآدمي كان إذا عطس لفظ أنفساً . وأن الشمس تضرب وتهان إذا حان الشروق وأن عجوزاً تحلب القمر وأن . وأن . .

وأنكر تأثير الاحراز التي تكتب لدفع العين أو الجن كما أنكر المشي على الماء والطيران في الهواء وأن يعود مليك مصر إلى الدنيا وأن يقوم إمام ناطق في الكتيبة الخرساء إلى كثير من مثل هذه المزاعم وكان جريئاً في نقده وإبداء آرائه فتناول رؤساء المذاهب والنحل والملوك والعلماء والخطباء والشعراء والتجار وقلما سلم منه صنف من الناس ولم يتخير لذلك قولاً ليناً ولا أسلوباً لطيفاً وإنما واجه هؤلاء بكلمات أشد من الصواعق . وفي اضعاف كلامه كثير مما لا يرتضيه المتشددون في الدين وإن لم يوجب تكفيره .

وأما الطموح الى الظهور

فقد رأينا فيمن انتقد أبا العلاء كثيراً ممن لم يستطع إدراك ما يريده أبو العلاء من كلامه على وجه صحيح وربما جاء بالبيت على أنه حجة له وهو حجة عليه ولكنه انتقده ليقال إنه انتقد أبا العلاء ؟

وأما الولوع بالاغراب

فان فريقاً من الناس يجد في البحث عن زلة لأبي العلاء ويتسقط هفواته حتى إذا ظفر بشيء ولو بشبهة ضعيفة ابتهج وتنفج كأنما أحدث فتحاً جديداً في الاسلام وفيهم كثير ممن عثر فيما قال عثرة لا تقال .

فتألب عليه حساده وأولئك المتنطعون والطامحون والمولعون وأرادوا أن يسقطوه من أعين الناس فالتمسوا مغمزاً في علمه وأدبه وعفافه فلما أعياهم ذلك لجؤا إلى الدين فاتخذوا منه سلاحاً للطعن فيه ومالأهم على ذلك فريق ممن يتابع على غير بصيرة فهذه هي أكثر الأسباب تأثيراً في تألب الناس عليه .

ماذا كانوا يفعلون

اتفقت كلمة حساد أبي العلاء وأعدائه على تكفيره ولكنهم اختلفوا في الطرق التي توصله إلى ذلك فمنهم من كفره بما لا يوجب التكفير ومنهم من نسب إليه أبياتاً هو بريء منها ومنهم من حرف أقواله عما يوجب الايمان إلى ما يوجب الكفر ومنهم من جره إلى الكفر بغير سبب ولا مناسبة ومنهم . ومنهم .. ومن هؤلاء ياقوت فقد جعله ملحداً وروى له هذين البيتين :

اللاذقيـــة فتنـــة ما بين أحمد والمسيح
هذا يعالج دلبـــة والشيخ من حنق يصيح

ولم يروهما غير ياقوت ولا هما في ديوانه ولا يظهر فيهما أثر للالحاد وتأليفهما الركيك يشهد بأن المعري بريء منهما . ولقد كانت العامة أبرع من ياقوت في التكفير فانهم لم يروا فيهما ما يوجب الالحاد فزادوا بيتاً ثالثاً وهو :

كل يعظم دينـــه يا ليت شعري ما الصحيح

وأورد أبو العلاء في رسالة الغفران أبياتاً لسمير بن أدكن مطلعهـا :

يصول أبو حفص علينـا بدرة رويدك ان الحق يطفو ويرسب

فقال ياقوت هذا يشبه أن يكون شعر المعري قد نحله هذا اليهودي . كأنما أنكر أو أكبر أن يكون شعر فيه كفر أو إلحاد لغير أبي العلاء .

وزعم ابن الجوزي والباخرزي و لذهبي ان أبا العلاء عارض السور والآيات بكتاب الفصول والغايات . وربما كان فيهم من لم يطلع عليه . ولم يبين واحد منهم مايريد بالمعارضة فان ارادوا المعارضة بالمعاني والاغراض والمقاصد فهذا باطل لأن اغراض القرآن الكريم كثيرة ومقاصده مختلفة منها شرع الاحكام وبيان بعض الشرائع التي كانت قبل الاسلام وقص الاخبار وما اشبه ذلك والفصول والغايات اغراضه قليلة ومقاصده محدودة لاتكاد تخرج عن تمجيد الله وعن العظات وقد تصدى فيه الى القول في الموسيقى والعروض والنحو ونحو ذلك مما ليس له أثر في القرآن الكريم .

وإن أرادوا المعارضة بالألفاظ فهذا باطل أيضاً لأن أبا العلاء التزم في كتابه هذا أن يكون آخر كل غاية على حرف من حروف الهجاء وأكثر من السجع واستعمال الغريب واستشهد بأقوال الشعراء والحكماء والأمثال ونحوها والقرآن الكريم خال من ذلك كله .

والذي أعتقده أن أبا العلاء كانت له ثروة في اللغة وباع طويل في الحكم واطلاع واسع على العلوم المختلفة فوضع هذا الكتاب على هذا النمط ليبين فيه قدرته في كل ما تقدم وبما ذكرناه يتبين أن بين القرآن الكريم وكتاب الفصول والغايات فروقاً متعددة في الألفاظ والمعاني .

وروى أبو الفداء في تاريخه هذين البيتين على هذا الوجه :

أتى عيسى فبطل شرع موسى ... وجاء محمد بصلاة خمس
وقالوا لا نبي بعد هذا ... فضل القوم بين غد وأمس

والصواب روايتها كما وردا في ديوانه لزوم ما لا يلزم :

دعا موسى فزال وقام عيسى ... وجاء محمد بصلاة خمس
وقيل يجيء دين غير هذا ... وأودى الناس بين غد وأمس

والزمخشري أورد في الكشاف بيت أبي العلاء في وصف النار :

حمراء ساطعة الذوائب في الدجى ... ترمي بكل شرارة كطراف

ثم قال وكانه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن . ولقد عمي جمع الله له عمى الدارين إلى آخر قوله . وهذا البيت يصف فيه المعري نار القرى وهو من قصيدة رثى بها الشريف الموسوي وهو ببغداد . وليس فيه ولا

في القصيدة كلها ما يدل على ما قاله الزمخشري . ولعل هذا البيت أجمل بيت قالته العرب في وصف النار .

ونسب ابن السبكي في الطبقات إلى أبي العلاء البيتين المشهورين وأولهما :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

ثم قال : قبحه الله ما أجرأه على الله . . . وهذان البيتان لابن الراوندي .

ونسب أبو الحسين الجزار هذا الشطر لابي العلاء وهو :

حديث خرافة يا ام عمرو

وهو لبعض مشركي العرب .

وهناك كثير من مثل هذه الاقوال المحرفة ألصقت بأبي العلاء ظلما وزوراً .

وإذا كان مثل هؤلاء الأئمة لا يتثبت في الرواية ولا يتورع عن التحريف والتقول ويكفر بغير موجب فما نقول فيمن هو أدنى منهم منزلة في العلم والشهرة .

وفي الناس كثير ممن يكفر أبا العلاء وإذا سألته عن السبب قال لك إني لم أر شيئاً من كلامه ولكني رأيت فلاناً من العلماء يكفره فقلدته في ذلك ومن قلد عالماً لقي الله سالماً .

ومثل هؤلاء مثل رجل مر بالسوق فرأى فريقاً من الناس يضربون رجلا مسكيناً فجاء إليه وأوسعه ضربا وشتما وسبا فقيل له من هذا الذي ضربته وما السبب الذي حملك على ضربه وسبه فقال إني والله ما عرفته قبل اليوم ولا عرفت له ذنباً ولكني رأيت الناس يضربونه فضربته وهذا سبيل كثير من الناس مع أبي العلاء استضعفوه فنتفوه حياً وميتاً .

كيف وزع المعري على الملل والنحل

لم تتفق كلمة المتقدمين والمتأخرين على جعل ابي العلاء يدين بدين واحد وإنما جعلوه نهبا مقسما بين الملل والنحل والحقه كل واحد بما شاء وشاء له الهوى .

فجعلوه برهميا ومزدكيا وزنديقا وملحداً وكافرا ومعطلا ودهريا وقرمطياً وشيعياً ودرزيا وتقياً وزعم فريق أنه عارض القرآن ومن عطف عليه جعله في حيرة او صاحب تقية او مجمعاً للمتناقضات ومنهم من جعله ساحراً إلى غير ذلك من الاقوال ولكل واحد من هؤلاء متمسك يعول عليه في حكمه .

البرهمية

أما من قال أنه برهمي فاستدل على ذلك بأنه لم يأكل اللحم خمساً وأربعين سنة .

وكلام أبي العلاء يدل على أنه لا يعتقد أن أكل اللحم محرم وإنما تركه اجتهاداً في التعبد ورحمة للمذبوح ورغبة بغفران الله . ويعتقد أن العقل لا يقبح ترك أكله وإن كان حلالا لان المتدينين لم يزالوا يتركون ما هو لهم حلال مطلق . وان له في السنة نيفاً وعشرين ديناراً يأخذ خادمه بعضها وما بقي لا يعجب فاقتصر على فول وبلسن وما لا يعذب على الألسن . هذا ما قاله أبو العلاء ولكن الناس يجعلونه برهمياً شاء أم أبى وقد روي أن النبي ﷺ أتي بشربة من لبن مشوبة بعسل فقال أما اني لست احرمه ولكني أتركه تواضعاً لله . والتاريخ طافح بأخبار المتدينين الذين كانوا يمتنعون من تناول الأطعمة المباحة زهادة فيها ورغبة في التقرب إلى الله .

المزدكية

وأما المزدكية فمن أعجب العجب جعل المعري مزدكياً لأن مزدك على ما قال ابن الأثير كان يستحل المحارم والمنكرات ويسوي بين الناس في الأموال والنساء ويأخذ امرأة هذا فيسلمها الى الآخر . وقد طلب من قباذ أن يسلمه امرأته فاجابه ولكن ابنه انوشروان حال دون ذلك والقصة مشهورة

وأبو العلاء كان يأبى زواج الحرائر ويتشدد في منع المرأة من الخروج إلى الحمام والعراف والحج ويحظر دخول الوليد عليها كل ذلك غيرة عليها وقد قال :

برئت إلى الخلاق من أهل مذهب يرون من الحق الاباحة للأهل

فجعله مزدكياً بعد هذا من الغرائب .

القرمطية

وأما نسبته الى القرمطية فلا تقل في الغرابة عن نسبته إلى المزدكية لأنه لعن بعضهم وكفرهم في رسالة الغفران ص ١٤٥ وقال فيهم في لزوم ما لا يلزم :

يرتجي الناس أن يقوم إمام ناطق في الكتيبة الخرساء

كذب الظن لا إمام سوى العقـ ـل مشيراً في صبحه والمساء
انما هذه المذاهب أسبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقو ن لدمع الشماء والخنساء
كالذي قام يجمع الزنج بالبصـ ـرة والقرمطي بالاحساء

وبعض الناس يقتطع قوله : إنما هذه المذاهب أسباب ... ويجعله بيتاً منفرداً ليصرفه عن القرامطة ويجعله شاملاً لكل مذهب ليثير الناس عامة على تكفيره وأما نسبته إلى بقية المذاهب الأخرى فعلى مثل هذا النمط والقياس كلها قائمة على الشبه وإيرادها ثم ردها وإبطالها يحتاج إلى وقت طويل .

التقية

وأما التقية فلعلها أغرب ما قيل فيه وذلك أن الانسان إنما يلجأ إليها عند الخوف من فتنة أو شر أو بطش . وأبو العلاء صرح في مواطن كثيرة بأمور هي أحق من غيرها بالتقية . فاين التقية ممن يقول في ملوك عصره .

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

ساس البلاد شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان

يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسه
فاف من الحياة وأف مني ومن زمن رئاسته خساسه

بل اين التقية ممن يقول :

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

فما العظات وإن راعت سوى حيل من ذي مقال على ناس تحولها

قالوا فلان جيد فأجبتهم لا يكذبوا ما في البرية جيد
فأميرهم نال الامارة بالخنى وتقيهم بصلاته يتصيد

لو غربل الناس كيما يعدموا سقطاً لما تحصل شيء في الغرابيل

وديوانه مكتظ بمثل هذه الصراحه الاذعة ولو كان عنده شيء من التقية للجأ اليها في مثل هذه المواطن او استغنى عنها .

رأينا في اعتقاد ابي العلاء

يحدثنا التاريخ ان ابا العلاء كان يرمى من اهل الحسد له بالتعطيل وان تلامذته وغيرهم كانو يعملون الاشعار على لسانه ويضمنونها اقوال الملحدة قصداً لهلاكه وقد حرف اثنان منهم بيتا من لزوم ما لا يلزم ليثبتا عليه الكفر فكتب رسالة الضبعين الى معز الدولة يشكوهما اليه ويبين له ان في حلب نسخا من الكتاب بريئة من التحريف وإن أبا العلاء ألف كتاباً في الرد على من نسبه إلى معارضة القرآن وفي الجواب عن أبيات أخرجوها من لزوم ما لا يلزم وكفروه بسببها وسماه زجر النابح ثم طعنوا فيه بأبيات أخر فوضع كتاباً آخر سماه نجر الزجر أو بحر الزجر بين فيه التحريف ووجوه الأبيات ومعانيها وإن أعداءه لم يألوا جهداً في الافتراء عليه وإن كتبه التي وصلت إلينا مغمورة بالشعور الاسلامي وليس في شيء منها متمسك لخصومه إلا رسالة الغفران ولزوم ما لا يلزم.

رسالة الغفران

أما رسالة الغفران فقد قيل ان فيها تهكماً واستخفافاً وهما من الأمور النفسية التي لا يعلمها إلا الله ولا يمكن لبشر أن يعلمها إلا إذا أخبره بها صاحبها ولم ينقل عن أبي العلاء شيء من هذا وبناء الحكم على الشبهة او الاحتمال لا قيمة له عند أهل العلم .

لزوم ما لا يلزم

وأما لزوم ما لا يلزم وهو الذي يعتمد عليه الناقدون والناقمون فقد طبعت نسخة منه في الهند ثم طبع في مصر وهذه النسخة لا نعلم نحن ولا غيرنا يعلم عن أية نسخة نقلت .

ولكننا نعلم يقيناً وفوق اليقين أنها لم تسلم من عبث الطابع والشارح فقد وردت فيها أبيات فيها كلمات زائدة على الوزن كقوله :

وقد ضننت بشاة وهي فاردة على أزل فقيد المال قوت عسال

فكلمة قوت زائدة . وأبيات فيها نقص كقوله :

يخادع ملاك الارض إذا أنت منيته لم تغن عنه مخارقه

ولعل أصل البيت حتى إذا أنت . أو نحوها فقد نقص البيت كلة . وأبيات فيها تحريف كقوله :

والنون في حكم الخواطر محدث والاولى هو الزمان المظلم

والصواب والنور في حكم . . وقد فسر الشارح بعض الكلمات تفسيراً غريباً كقوله :

وجوهكم كلف وأفواهكم عدى . . .

قال الشارح العدي كل خشبة بين خشبتين . وحجر رقيق يستر به الشيء فيكون المعنى وأفواهكم خشبة . . أو حجر . وما أغرب هذا التفسير . وربما اجتمع في البيت الواحد تحريف وتفسير وكل منها يخل بالمعنى كقوله في الديك :

ورثت هدى التذكار من عهد جرهم أو ان ترفت في السماء النعائم

قال في الشرح النعائم النعام ورف الطائر بسط جناحيه وهو غير مستعمل وانما المستعمل رفرف إلى آخر كلامه .

وصواب البيت أوان ترقت في السماء النعائم والمراد بالنعائم هنا ثمانية كواكب وهي من منازل القمر يقال لها النعائم وكقوله من أبيات يذكر فيها أبو العلاء ما يقتاته :

لا أفجع الام بالرضيع ولا أشرك هـذا الفرير بالابن

أقتات من طيب النهات وهل يسلم عود الفتى من الأبن

قال في الشرح والنّهات النّهاق [أي الحمار] والاسد والزحار . والزحار جاء لمعان منها داء يأخذ البعير فيزحر منه حتى ينقلب سرمه ومنها استطلاق البطن . فقد جعل الشارح أبا العلاء يقتات حماراً أو أسداً أو زحاراً على أحد معانيه وكل ذلك قوت ممقوت . وصواب البيت أقتات من طيب النبات .

وفي الكتاب مئات من مثل هذه الهنات لم ينبه عليها الشارح لانه لم ينتبه لها وإذا كان لا يفطن إلى ما يخل بالوزن أو المعنى وهو أقل ما يجب على الشارح ويزيد الخرق اتساعاً بالتفسير الذي يمجه الذوق ويأباه العقل في الأمور البديهية فهل نأمن بعد ذلك من التحريف فيما يتعلق بدين المعري واعتقاده . ولو وقع في كلامه مثل هذه الجملة أنا أومن بالله ولا أشرك به لما استبعدت أن يحذف كلمة لا من الجملة الثانية ويزيدها في الأولى قياساً على ما رأيته في شرحه ولو ساعد المقام لأوردت جملة من هذه المضحكات ومن المعلوم ان لزوم ما لا يلزم لم يكن من كتب العقائد والدين وإنما هو ديوان شعر والشاعر قد يبالغ أو يوجز ويقول ما لا يفعل ويتخيل أمراً غير واقع ويلجأ إلى المجاز كما قال أبو العلاء

لا تقيد على لفظي فاني مثل غيري تكلمي بالمجاز

وإذا كان الأمر على ما ذكرنا فلا يجوز أن توزن أقواله بما توزن به النصوص الشرعية وأقوال العلماء في كتب الدين ولا أن يدقق في مفاهيمها وقيودها ما يدقق في كتب العقائد وإن التشدد في مثل هذا سهل على أعداء الغزالي أن يطعنوا فيه بقوله ليس في الامكان ابدع مما كان . والعقل يستبعد من الغزالي أن ينسب العجز إلى الله .

ومن أمعن النظر تبين له أن المعري يحتذي على مثال المعتزلة والحكماء النظريين فانه جعل العقل أساساً لآرائه . وعلى هذا الأصل ذهب في الفصول والغايات ولزوم ما لا يلزم إلى أن الله تعالى يقدر على المستحيلات لأن عدم القدرة عجز وهو صفة نقص فيجب أن ينزه الله عنه . وإن كثيراً من القضايا الشرعية يقصر العقل عن إدراك حكمة الشارع فيها .

ويظهر لمن تقصى في البحث أن فريقاً من الناس إذا رأى بيتاً للمعري يوهم الحكم عليه بسوء العقيدة تمسك به وإذا رأى مئات من الأبيات الصريحة في الدلالة على حسن اعتقاده ضرب بها عرض الحائط ولم يلتفت إلى قوة الأدلة ولا إلى تكافؤها والقاعدة أن الأدلة إذا تعارضت تساقطت فاذا سلمنا أن الأدلة التي تثبت إيمانه متكافئة مع الأدلة التي تنفيه في القوة والصراحة والسلامة من

الاحتمال حكمنا بسقوطها ووجب علينا أن نلتمس سبيلاً آخر لايضاح هذه الناحية وليس لدينا إلا حياة المعري العملية وهذا التاريخ يحدثنا أنه كان صواماً قواماً صالحاً تقياً زاهداً طاهر اللسان واليد والذيل .

ولا مشاحة في أن التكفير حكم شرعي ولا بد لكل حكم شرعي من علة توجبه وطريق يثبته ولا يصح الحكم على إنسان بالكفر إلا إذا أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة وكان هذا الانكار ثابتاً بدليل سالم من الاحتمال لأن الدليل إذا طرقه الاحتمال سقط به الاستدلال .

وقد رأينا فريقاً من العلماء إذا رأى في كلام المعري شبهة توجب تكفيره تمسك بها وإذا رأى ما يوجب إيمانه قال انه تقية . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نكفر كل إنسان حتى في قوله لا إله إلا الله لأننا نجعل قوله لا إله نفياً للاله موجباً للكفر . وقوله إلا الله من باب التقية ومثل هذا لا يرضاه العلم ولا العدل .

وبعد كل ما تقدم فان أعظم المواطن التي أنكرها الناس على أبي العلاء يكاد ينحصر في خمسة أمور :

الأول اعتقاده بالله وقد يجد الناظر في كتبه أنه أثبت لله من صفات الكمال كل ما أثبته أهل السنة ونفى عنه ما نفوا ولم يشذ عنهم في شيء إلا في مسألتي الزمان والمكان على ما فيهما من نظر .

وقد نسبه فريق إلى الجبر وهو بريء منه ويشهد لذلك قوله :

لا تعش مجبراً ولا قدرياً واجتهد في توسط بين بينا

وأصرح منه قوله :

وإن سألوا عن مذهبي فهو خشية من الله لا طوقاً أبت ولا جبرا

واحتج لبطلان الجبر بقوله :

إن كان من فعل الكبائر مجبراً فعقابه ظلم على ما يفعل

وما يراه الانسان في بعض أبياته الأخر مما يوهم الجبر فهو من نوع ما يراه في أقوال العلماء عند إثبات الجزء الاختياري أو الارادة الجزئية أو ميل النفس حتى قال بعض المحققين الانسان مجبر في صورة مختار .

وفريق آخر جعل المعري جامعاً للمتناقضات فهو مؤمن كافر وبر فاجر وتقي زنديق ودهري موحد فهو عنده مجموعـــة غريبة أو جامع لكل غريب . ومنهم . ومنهم .

الثاني والثالث اعتقاده بالكتب والرسل أو النبوات .

أبو العلاء عظم القرآن كثيراً وأنكر جواز النسخ عليه ووصفه في رسالة الغفران في ص ١٥٨ وصفاً بديعاً لا يصدر إلا عن قلب مفعم بالايمان به .

وقلما رأيته ذكر نبياً إلا وأعقبه بقوله ﷺ إلا إذا ضاق الوزن أو السجع عن ذلك وقد ذكر النبي ﷺ في الجزء المطبوع من الفصول والغايات نحواً من اثنين وعشرين مرة وفي كل مرة يقول ﷺ .

وقد رويت له أبيات في الكتب والنبوات لا يمكن تأويلها تأويلا حسناً إذا صحت نسبتها إليه منها ما هو في لزوم ما لا يلزم ومنها ما انفرد بروايته راو واحد كياقوت وأبي الفداء وغيرهما .

واذا سمح لنا أن نجهر بقول الحق امكننا ان نقول إن في بعض هذه الابيات حقائق لم يستعد كثير من الامة لقبولها بعد ولا يسامح في البحث فيها فندعها الآن إلى الزمان حتى لا نكفر على حساب أبي العلاء .

الرابع اعتقاده بالملائكة

لقد أثبت أبو العلاء الملائكة ولم ينف عن قدرة الله أشباح ضياء بغير لحم ودم وذكر كثيراً منهم في كتبه واعتقد وجودهم في السماء والارض والدنيا والآخرة واعتقاده فيهم لا يخالف اعتقاد أهل السنة :

الخامس الحشر

لأبي العلاء في نثره ونظمه كثير من الجمل والابيات تدل دلالة صريحة قطعية على اعتقـاده الحشر وفي لزوم مالا يلزم وحده أكثر من مائة بيت كلها تصرح باثبات الحشر أو ما يكون فيه من جنة ونار وحساب وما أشبه ذلك وقد أعرض عنها بعض الناس وتمسكوا بقوله :

يحطمنا ريب الزمان كاننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

ورواه ياقوت :

يحطمنا صرف الزمان كاننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سباك

وسواء أكان الصواب لا يعاد له . أم لا يعاد لنـا . فانهم جعلوا البيت دليلا على انكاره الحشر . ومن البديهي أنه يريد بهذا البيت اننا ضعاف كالزجاج يسهل تحطيمه ولكن بيننا وبينه فرق وهو أن الزجاج إذا حطم في الدنيـا أمكن أن يسبك فيعود إلى ما كان عليه فيها ولا يريد السبك في الآخرة وإذا لم يحمل كلامه على هذا الوجه كان معناه بيننا وبين الزجاج فرق وهو أن الزجاج يعاد سبكه في الآخرة ونحن لا يعاد لنا سبك فيها . وهذا بعيد أن يصدر عن مثل أبي العلاء .

النتيجة

إن التاريخ لم يعين لنا الزمن لكل قول من أقوال أبي العلاء حتى نجعل المتأخر منها ناسخاً للمتقدم ونحكم عليه بآخر أقواله .

وإننا نحترم كل رأي كما نحترم صاحبه وإن كان مخالفاً لما نعتقده في أبي العلاء واننا لا نريد أن نجعل أبا العلاء في مصاف الصديقين والاولياء المقربين ولا نحاول أن نبرئه من كل ما قيل فيه .

وإنما نريد أن نبين أن تكفير الانسان بما ينسب إليه من قول لا يصح إلا إذا ثبت بدليل قاطع أنه تكلم بذلك القول على الوجه الذي أوجب تكفيره .

وأن التكفير على ماخيلت أو على شبه أو أدلة محفوفة بالشكوك أو الاحتمالات لا قيمة له في نظر الدين ولا في نظر العلم .

وإن الجنة ليست في أيدينا حتى نهبها من نشاء وننزعها ممن نشاء .

وأن أبا العلاء قال ما قال ولم يعبأ بما قيل ولا بما يقال ولا بمن قال وسجل اسمه في ديوان الخلود رضي أعداؤه أم لم يرضوا .

وأن رحمة الله التي وسعت كل شيء وجنته التي عرضها السموات والارض لا تضيقان عن رجل يقول :

أأصبح في الدنيـا كما هو عالم ... وأدخل ناراً مثل قيصر أو كسرى
وإني لأرجو منـه يوم تجاوز ... فيأمر بي ذات اليمين الى اليسرى

وكنت أود أن يتسع الوقت لأورد من كلام أبي العلاء ما يدل على كل ما ذكرته ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه . وعسى أن لا أكون في كلمتي هذه كمن حاول أن ينقذ غريقاً فغرق معه .

محمد سليم الجندي

اختلاف الآراء

في فلسفة أبي العلاء المعري

إن شخصية أبي العلاء المعري لهي من تلك الشخصيات العبقرية الكبرى المتعددة المزايا والصفات التي يصعب على الباحثين عنها — وإن لم يستحل — أن يدركوها إدراكاً كلياً وأن يحدّدوها تحديداً شاملاً .

فكذلك فلسفته . إنها متفننة النواحي متباينة الأطراف ، متناقضة المرامي ، فقلما تردد الناس في مذهب كترددهم فيها ، وقلما اختلف العلماء ، على تنوّع طبقاتهم ، في غابر الزمان وفي حاضره ، كاختلافهم فيها .

فاذا تأملنا في أولئك المختلفين من المتقدمين وجدناهم على ثلاثة أقسام تفرّعت إلى فروع . فريق من زندقه أو كفّره وفريق من حكم بصحة إيمانه واجتهد في الدفاع عنه إلى حدّ أنه أنكر فيه وجود فلسفة امتاز بها عما سواه وفريق من تحيّر في شأنه وما جرأ على شتمه ولا على تبريره فأمسكوا عنه وفوّضوا أمره إلى خالقه .

إن هؤلاء المتحيرين ، لقلة عددهم وخفة أهميتهم ، لا يستحقون أن نعتني بهم أدنى اعتناء ولكننا أردنا أن نتوسع بعض التوسع في الذين كفّروه ثم فيمن برّأه ، وذلك تمهيداً لتفهم فلسفته فنذكر اختلاف الناس في تعليلها .

***

إن أول من هاجمه مهاجمة منظمة كان الشيخ أبا الوفاء بن عقيل البغدادي شيخ الحنابلة في وقته والذي عاصر أبا العلاء بعض المعاصرة . تفقه ابن عقيل على القاضي أبي يعلى صاحب الأحكام السلطانية المشهورة وأخذ الأصول عن الشيخ ابن الوليد إمام المعتزلة في زمانه . ان ابن عقيل على ما يرويه لنا الحفاظ — شبّه أبا العلاء بابن الراوندي وأنه قال لناس ، زعموا أن أبا العلاء

أبدى إلحاده لعباً ومجوناً ، ما نصه : « وما الذي ألجأه إلى أن يقول في دار الاسلام ما يُكفر به الناس ؟ إن المنافقين مع قلة عقلهم وعلمهم أجود سياسة منه لانهم حافظوا على قبائحهم في الدنيا وستروها وهذا أظهر الذي تسلط عليه به الناس وزندقوه والله إن ظاهره كباطنه . »

ثم اقتدى بابن عقيل الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي الحنبلي الواعظ المتفنن صاحب التصانيف الشهيرة والذي كان معظماً لابن عقيل متابعاً لمعظم آرائه وإن رد عليه في بعض المسائل . ان ابن الجوزي عاب على أبي العلاء مبالغته في معاداة الانبياء ، وهو الذي قال : « زنادقة الاسلام ثلاثة ابن الراوندي وأبو حيان التوحيدي وأبو العلاء وأشدهم على الاسلام أبو حيان لانه مجمج ولم يصرح » .

اقتفى أثر أولئك البغداديين الذين طعنوا في أبي العلاء ، من انتسب بالشام إلى مدرستهم التاريخية وفي طليعتهم الشيخ شمس الدين الذهبي فانه تكلم عن أبي العلاء في كتابين من كتبه الكبار أولاً في تاريخه الكبير الذي لم يُنشر إلى الآن . ثانياً في مختصره المفيد الذي طُبع في حيدر آباد إنه في كتابه الأول أطلق على أبي العلاء تسمية الزنديق واشتدّ في شتمه ولكنه في كتابه الثاني خفّف عباراته واقتصر على القول بأنه سيء العقيدة .

ولكن أبا العلاء ، فيما أرى ، ما لقي بالشام خصماً أشدّ طعناً فيه من الشيخ اسماعيل بن كثير الدمشقي الشافعي الذي لازم الحافظ المزي وأخذ عن الامام الشيخ تقي الدين بن تيمية . انه ، في بدايته ، خصّص لأبي العلاء ترجمةً قيمة كفّره فيها ونسبه إلى فلسفة البراهمة ثم انه أبدى سوء ظنه بأبي العلاء أيضاً لما تكلم عن الشاعر المشهور بالعز الضرير وهو الحسن بن محمد بن نجا . كان هذا الشاعر من نصيبين فنشأ بإربل حيث اشتغل بعلوم الاوائل قال عنه ابن كثير ما نصه : « يُنسب إلى الالحاد وقلة الدين وترك الصلوات له شعر أورد منه الشيخ قطب الدين قطعة في ترجمته وهو شبيه بأبي العلاء المعري قبحهما الله » .

* * *

كان لأبي العلاء من جهة أخرى أنصار انتصروا له ودافعوا عنه أشد الدفاع ويجب علينا أن نذكر في طليعتهم الشيخ كمال الدين ابن العديم الحلبي الذي توفي بالقاهرة سنة ستين وستمائة وأنه صنف لحلب تاريخاً مفيداً وأفرد لأبي العلاء ترجمة طويلة سماها كتاب الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري » فقد جزء كبير منها ونشرها لأول مرّة الشيخ العلامة المؤرخ المشهور راغب الطبّاخ في كتابه أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، أصبح كتاب الانصاف والتحري العمدة التي اعتمد عليها كل من دافع عن أبي العلاء فيما بعد .

فمن أشهر من حذا حذوه واعتمد على كتابه الشيخ زين الدين بن الوردي . ولد ابن الوردي بالمعرّة ونشأ وصنّف في عدة علوم . ترجم أبا العلاء في تاريخه المشهور ترجمة حسنة علينا أن نتوسع فيها بعض التوسع فان عواطف ابن الوردي نحو أبي العلاء مرت بثلاثة أطوار .

كان ابن الوردي في بادئ أمره متعصباً له لكونه من المعرة ولما شاهده في سيرته وشعره من غاية الورع والزهد ثم أنه بعد ذلك وقف على كتاب استغفر واستغفري فبغضه وأبعده عنه ثم وقف على اللزوميات فزادته بغضاً له ونفرة عنه لإفراط الشك والتشكيك المتضمن بها . ثم ان ابن الوردي ، في الطور الثالث من تطوره اطلع على كتاب ضوء السقط الذي أملاه أبو العلاء قبل موته بقليل فان هذا الكتاب أرجع ابن الوردي عن سوء ظنه بأبي العلاء إلى الحكم بصحة عقيدته قال : « فكان هذا الكتاب عندي مصلحاً لفساده موضحاً لرجوعه إلى الحق وصحة اعتقاده فانه كتاب يحكم بصحة إسلامه » . فعظم هذا الكتاب كل التعظيم لما يحتويه من العواطف الدينية السامية وقال في الختام ما يستحق الذكر . « وهو خاتمة كتبه والأعمال بخواتمها وقد يُعذر من ذمه واستحلّ شتمه فانه عوّل على مبادئ أمره وأواسط شعره ويُعذر من أحبه وحرّم سبّه فانه اطلع على صلاح سرّه وما صار إليه في آخر عمره من الانابة التي كان أهلها والتوبة التي تجبّ ما قبلها » .

* * *

هذا ولقد اختلف أولئك العلماء — وهم القليل من كثير ولكل واحد منهم مقام عالٍ في تاريخ الأدب العربي — اختلافاً كبيراً في فلسفة أبي العلاء وعقيدته فاذا أنعمنا النظر في هذا الاختلاف وجدنا له أسباباً معينة.

أولاً: إن أولئك المتقدمين كانوا أكثر اهتماماً بذمّ أبي العلاء أو بمدحه منهم تفهمه أو بالتحري عن حقيقة فكره فهم أقرب إلى المتكلمين منهم إلى المؤرخين وهم في ذلك على خلاف ما نحن عليه الآن فان تطور أساليب النقد والبحث عوّدنا التمييز بين التبرير المذهبي وبين التعليل التاريخي. وثانياً: نشأ هذا الاختلاف في فلسفة أبي العلاء عن تناقل داخلي يُحسّ به في أبياته نفسها في اللزوميات خاصة وفي جميع مؤلفاته عامة فهذا أمر من الأهمية بمكان يجب علينا أن نتوسع فيه بعض التوسع.

* * *

ان أبا العلاء انتقد الديانات كلها في أبيات عديدة مشهورة من اللزوميات أنكر النبوات حتى بالتصريح وهاجم رجال الدين على اختلاف طبقاتهم مهاجمة عنيفة متكررة عاب عليهم بأمرّ التهكم جهلهم ونفاقهم وتناقضهم في أهم مسائل الدين وتنازعهم بمذاهبهم على الدنيا وما فيها فشكّ وشكك في كل ماجاءت به الكتب المنزلة من البعث والثواب والعقاب ومن الأخبار المتعلقة بعالم الغيب وأظهر أيضاً ما كان يظنه مخالفاً للعقل في الشريعة من العبادات والمعاملات انه في كل ذلك تلون، وأي تلون، بآراء الطبيب الفيلسوف أبي زكريا الرازي الذي تعدى الحدود في نقض الديانات والذي كان لكتبه الهدامة أوسع الانتشار بين غلاة الباطنية.

ولكنه مع ذلك، مهما ساء ظنه بالرسل والانبياء، أظهر في أبيات عديدة من هذه اللزوميات نفسها إخلاصه لربه وتفضيله لنبيه محمد ﷺ على سائر الأنبياء وايثاره لدين الاسلام لسائر الأديان. وأبدى في سيرته وفي شعره تقوى لاشك فيها وحث الناس عليها وأما زهده في الدنيا وإحسانه الى الغير فهذا أمر لامزيد عليه فيه وكذلك لايزال يذكر الله تعالى ويمجده وهو يقتنع بوجود الله اقتناعاً فطرياً وجدانياً لايتكلف البراهين على إثباته وأنه في كثير من أبياته وصف الله كما

وصف نفسه وكما وصفه رسوله الى حدّ أن عقيدته تشبه أحياناً عقيدة من اتبع طريقة السلف .

ان هذا التناقض الذي لايظهر في اللزوميات فحسب ولكنه في جميع كتبه عامة كان ، فيما أعتقد ، مقصوداً فلماذا قصده ؟ هذه هي المسألة التي نريد الآن أن نذكر أهم اختلاف الناس فيها .

* * *

ذهب بعض العلماء إلى أن علة هذا التناقض توجد في تطور أبي العلاء الفكري. انه كان ، على مايزعمون ، في أول أمره ملحداً كافراً ثم انه رجع الى الايمان في آخر عمره فتاب وأناب . اننا فيما يخصنا لانعتقد بصحة هذه الفرضية وان جازت عقلاً . فان أبا العلاء أظهر شكه الفلسفي من أول شبابه لما اشتكى في مرثية أبيه جهله لأمور الغيب ولمصير الروح بعد الموت ، كما أنه عبر عن هذه العواطف نفسها من الشك والتشاؤم واللادرية في قصائد يوجد فيها مايدل على أنها من آخر مانظم .

ذهب قوم آخرون الى القول بأن علة هذا التناقض توجد في تقية أبي العلاء وفي كتمانه . قالوا انه كان ملحداً في باطنه ولكنه خشيةً من عقاب الفقهاء تستر وراء تلك العبارات الايمانية والمظاهر الاسلامية . ولكننا أيضاً لانتلقى هذه الفرضية بالقبول ولا نعتقد بأن أبا العلاء التجأ الى التقية بمعناها الاصطلاحي فان جرأته حينما يتكلم عن الديانات ورجالها تدل على صراحة لاتحوجه الى تقية الغلاة ولكنه في ذلك اضطر ، وهو في ذلك متألم أشد التألم ، الى أن يذهب من مذهب المجاز في ابداء كثير من آرائه لما تخالف مخالفة تامة مااتفق الناس عليه وربما كان في ذلك كله أكثر خشية من الاضرار بالغير منه بنفسه اذ لايكون عامة الناس مستعدين لفهم فلسفته حق الفهم . فجاز لنا أن نقول ان المعري في لزومياته قصد معاني أكثر مما ابداه صراحة .

فجاء قوم آخرون زعموا أنهم اكتشفوا سر باطنه واقترحوا لتعليل ذلك التناقض الذي أشرنا اليه علةً اخرى فقالوا : ان أبا العلاء المعري كان مخلصاً في اظهاره لدينه وابدائه لتقواه كما انه كان مخلصاً في حثه الناس على التمسك بدينهم

لما كان في ذلك لعامتهم من فائدة ومنفعة . ولكنه في الحين ذاته كوّن لنفسه وللخاصة فلسفة إلهية مبنية على الوجدان والعقل اكثر منها على النقل أدى به اليها اجتهاده الخيالي غير اجتهاد الأصولي المرتبط بشروطه وهي فلسفة لاتخالف الديانات ولا تنفوقها ولكنها ترمي الى جمع أسمى العواطف الدينية التي يشترك فيها البشر .

إن هذه الفلسفة الالهية تدعو إلى الايمان الواحد المطلق برب واحد حكيم مدبر للأمور على ما يشاء إيماناً وجدانياً فطرياً يحسّ به كل إنسان في صميم فؤاده فيتساوى فيه جميع المؤمنين ثم إن هذه الفلسفة الالهية تكون أخلاقية أكثر منها عبادية أنها تفضل على العبادات الشكلية روح التعبد والدين فتنحو نحو تهذيب البشر ونحو تحويلهم عن الطمع في الدنيا إلى الزهد فيها وعن الظلم إلى الانصاف وعن التعصب إلى التسامح وعن التفاضل إلى التساوي وعن التباغض إلى التحابّ وعن اختلاف الكلمة إلى توحيدها والاتفاق والتضامن .

* * *

فاذا كانت تلك فلسفة أبي العلاء على ما يقولون فما هي العوامل التي حملته على التفلسف بها وماهي المصادر التي ألفته إلى مثل هذه الآراء الالهية والاجتماعية؟ علينا أن نشير الآن بغاية الايجاز إلى اختلاف الناس في ذلك وأن نذكر أهمّ النظريات التي اعتمدوا عليها ، فهم في ذلك على قسمين : من نسبه إلى الزهد الهندي ومن نسبه الى مذهب الباطنية .

ان أول من نسبه الى الزهد الهندي هو أبو الفداء المؤرخ المشهور الذي قال عنه في تاريخه أنه تمذهب بمذهب الهنود فيما يتعلق بنباتيته . فحذا حذوه اسماعيل بن كثير في بدايته وأضاف الى ذلك أنه شككه راهب في دينه . وكذلك كثير من المستشرقين ، وفي مقدمتهم Von Kremer فون كرمر ، ظنوا أن فلسفة أبي العلاء تلوّنت بالفلسفة الهندية خصوصاً فيما يتعلق بالزهد ورحمة الحيوان والنباتية وفلسفة العدم . فرد على هذه النظرية رداً ما الاستاذ العلامة Nicholson نيكلسون والاستاذ البحاثة Massignon حينما تساءل عن إمكان وجود علاقات فكرية بين الحلاج وصوفية الهند .

نعم يجوز لنا أن نظن أن أبا العلاء أخذ بعض الآراء الهندية التي كانت شائعة في أيامه ولكنه اخذها متفرقة لا عن مذهب فلسفي معين . ولا غرو في ذلك فان الصلة بين الهند وبلاد العرب اشتدت في زمانه على يد محمود ابن سبكتكين ، ولكن المسلمين في مختلف الاقطار وإن تعجبوا من عجائب الهند ودهشوا من غريب عوائد سكانها ، فانهم ما كانوا اطلعوا على عقليتهم الفكرية اطلاعاً مكنهم من التفلسف بفلسفتهم ومن التخلق بأخلاقهم . انما اتسعت هذه العلاقات الثقافية فيما بعد القرن السابع للهجرة ففي هذا الزمان المتأخر نفسه افترئت على أبي العلاء هذه التهمة إلتي أشرنا إليها وهي تهمة تقليده لفلسفة الهنود .

وأما النظرية الثانية التي أشرنا إليها فهي نظرية من ظن أن أبا العلاء تأثر بمذاهب الباطنية ، إن هذه النظرية قد انتشرت انتشاراً ما منذ عدة سنوات في الشرق وفي الغرب وأول من أيدها هو الاستاذ بندلي جوزي من جامعة باكو في كتابه عن الحركات الفكرية في الاسلام ؟ يذهب الاستاذ بندلي جوزي إلى أن ما نراه في اللزوميات من حرية الفكر والاشتراكية والسلمية والمساواة الاجتماعية قد سببه تأثير مذاهب الباطنية فيها . ثم ان الاستاذ Massignon ماسينيون هو الذي لفت أنظار العلماء بصفة علمية إلى أوجه الشبه بين فلسفة المعري وبين مذاهب الباطنية خصوصاً فيما يتعلق بتشاؤمه وشكه الفلسفي . ثم أن الاستاذ Bernard Lewis الذي كان من جملة من أحس بضرورة دراسة الحركات الباطنية ، الف كتاباً للتحري عن أصلهم أشار فيه إلى تأثير الاسماعيلية في أبي العلاء وغيره من كبار الشعراء مثل عمر الخيام . ثم أن الاستاذ عمر فروخ في مؤلفه القيم عن حكيم المعرة بحث عن العلاقات بين فلسفة أبي العلاء وبين مذهب الحاكمية فان هذا المذهب ، كما يُعلم ، تكون في زمان أبي العلاء وتفرع عن مذهب القرامطة .

ولا غرو في ذلك فان مذاهب الباطنية ، أيام أبي العلاء قد انتشرت وتوطدت في مختلف أقطار العالم الاسلامي فاحتك أبو العلاء في كثير من دعاتهم واطلع على بعض كتبهم ، وان لم يعتنق مذهب فرقة من فرقهم .

فانه خصص أبياتاً كثيرة من اللزوميات لمناظرتهم عاب عليهم فيها أموراً شتى تدل على أنه تبرأ منهم فعاب على النصيرية قولهم بالتناسخ وعلى الحاكمية عبادتهم للحاكم بأمر الله وعلى القرامطة إباحتهم للمنكرات وطمعهم في الملك .

اننا ، وهذا مما لاشك فيه ولا ريب ، نلاحظ مطابقة غريبة بين بعض أفكاره وبين بعض آراء الباطنية : منها قوله باتباع العقل اتباعا كاد أن يكون مطلقاً وتفضيله إياه على النقل والاخبار ، وزهده المتطرف وغير دلك من الآراء ، كما أنه شاركهم في معرفتهم بالفلسفة اليونانية التي تكثر عناصرها في اللزوميات وفي غيرها .

ولكننا بالرغم من ذلك كله ليس في استطاعتنا أن نحكم بانتساب أبي العلاء إلى مذاهب الباطنية حكما قاطعاً ما دامت معظم كتبهم مجهولة أو غير منشورة ومنها بصفة أخص كتب الشيخ المؤيد في الدين داعي دعاة الاسماعيلية في أيام المستنصر والذي راسل أبا العلاء في مسألة النباتية ، والذي له عدة كتب منها مجالسه التي أبدى فيها آراء تشبه آراء أبي العلاء في اللزوميات .

ليس في نيتنا أن نعالج هذا الموضوع معالجة مطولة فاكتفينا بالاشارة إلى هذه النظرية لكونها شاهدة من شواهد اختلاف الآراء في فلسفة أبي العلاء .

***

ونقول في الختام : ان أبا العلاء في لزومياته يذكر اختلاف الناس وتنازعهم في شؤون الدين والدنيا استهزأ لاختلاف الفقهاء في التحليل والتحريم وفي الاستحسان والاستنكار كما أنه استهزأ لاختلاف المتكلمين في نظرياتهم فانه لو كان في إمكانه أن يشاهد من عالم الغيب اختلاف الناس في شأنه بعد موته لاضاف أبياتاً جديدة إلى لزومياته سخر فيها من هذا الاختلاف الجديد سخرية يمتزج فيها تهكمه المرّ وشفقته الانسانية وتسامحه الشامل وعواطفه السامية التي تجعله فخراً لجميع البشر فعلينا أن نفوض سر باطنه إلى الله تعالى وأن نكتفي بالاعجاب من نفثن فكره ومهارة فنه وإخلاص دينه والسلام .

هنري لاوست

ذكرى ابي العلاء

هتفوا والحمى تموج جنانه ما ضجيجُ الحمى وما مهرجانه
أهشام على السرير وعز الـــملك يطوي لمع الضحى لمعانه
أم وفود الحجاج تطري فتاها وابن مروان وارف سلطانه
أم خيال من آل جفنة كالفجـــر يغني بطيفه حسّـانه
فكأن النعمان قد حشد العر ب وكسرى زاهٍ به إيوانه
ما درى الهاتفون أية ذكرى هيجت ربهم فرف حنانه
تلك ذكرى أبي العلاء وما ذكـــراه إلا الربيع أو ريعانه
دار والدهر وحيه فتراه فلكاً ليس ينقضي دورانه

✿ ✿ ✿

كذب الشعر ما وفى حقه الشعـــر ولا أدى فضله اتقانه
هيكل من نعومة الحس بال لم يطقه من البلى جثمانه
واديم مرمم هدّه الضعـــف فكادت تمجه أردانه
ذاب حتى تخاله العين وهماً أمن الوهم شفّه ذوبانه
عصب ثائر ولا ثورة النا ر وفكر لم يتئد هيجانه
اركبت الخضمّ في عصفة الريـــح فما موجه وما طغيانه
يطمئن العباب بعد مثارٍ ابن منه على الدجى اطمئنانه
لو أصابت ملكاً عضوضاً قوافيـــه لمادت من وقعها أركانه

✿ ✿ ✿

انما الشعر ثورة من صميم الـــقلب ، ما لحنه وما أوزانه
ان لويت الحديد عن عاتق الشعـــب تلوّت بسحره قضبانه
دول كالاحلام تدرج في الار ض وتبقى ندية أفنانه

هدم الدهر مشمخر المباني وسما عن تهديمه بنيانه
رب تاج على جوانبه الدر نضيد ازورت به تيجانه
اين صوب القلوب والفكر الغر تعالى مثل السماء مكانه
ثورة في اعتساف كل عنيد تتلظى في وجهه نيرانه
وهدى في الانام يلمح كالصبح فتمشي بضوئه عميانه
أي سمع لم ينبسط لاغانيه وقلب ما هزه تحنانه
يطرب البلبل المغرد في الروض فتندى من صوته أغصانه
ويفيض القريض في المحفل الظمآن حتى يروى به ظمآنه
لا يعز الله العزيز رجالا لم يكرم في ظلهم فرسانه

* * *

يا ضريحاً على المعرة ما استوحش منه في ليلة جيرانه
عاف رب الضريح كل نعيم في حواشيه ذله وهوانه
لم يفجع أماً بما ترضع الام فغذت رضيعها ألبانه
يمرح الطير في ذراه أميناً ملء عينيه في الفضاء أمانه
حسبه الماء والقفار من الخبز فهذا نعيمه وليانه
ما رفيف القصور ، ما ترف السلطان ، ما تاجه وما صولجانه
رب كوخ أشهى إليه من القصر وان ماج انسه وقيانه
عيشة الفكر لا حياة جماد مات احساسه وطاح كيانه
عيشة الحس والعواطف والفن ففيها صراعه وطعانه
هكذا المرء فكرة وشعور لا جماد العرا ولا حيوانه

* * *

يفخر الناس باللآلىء من كسب حرام ، وفخره ديوانه
لم يضره فقد النواظر فالقلب بصير تفتحت أجفانه
قد يرى المرء بالفطانة ما ليس تراه على النوى أعيانه
كم بصير أعمى الجنان إذا أمّ سبيلا ضل السبيل جنانه

* * *

فلسفي التفكير إن رام فكراً ... في عنان السماء لان عنانه
يتهادى على خضمّ المعاني ... لم يفته موج ولا حسبانه
وزن الدهر والخلائق والنا ... س ولم يخطئ شعرة ميزانه
لمس الدنيا باليدين وجالت ... في خبايا رجالها آذنه
فتخطّى الملوب حتى وعاها ... فجلاها مثل الضحى تبيانه
فترى اللؤم أصفر اللون يخفي ... نهشة الموت والاذى ثعبانه
وترى الكذب جائلا في مداه ... ثم تغدو قصيرة أشطانه
وترى الخبث ثعلباً يتلوّى ... لم يطل مكره ولا روغانه
ويظل الغبي بالزهو يهذي ... ما زهوّ الغبي ، ما هذيانه
صور أملاها الزمان عليه ... فرواها كما رواها زمانه
يهرم الدهر والتصاوير باق ... سرها لا يمسه حدثانه

* * *

راحة القبر لحنه وأغانيـ ... ـه فما التذّت غيرها ألحانه
ما شفاه كأنها الروح والريحـ ... ـان ، في دفن جسمه ريحانه
ما ثدي كأنها حب رما ... ن على الصدر ، في الثرى رمانه
ما عيون الغزلان والسحر فيها ... فالمنايا في شعره غزلانه
فكأن الفناء دفء من البر ... د وقد طال قرسه وأوانه
أو كأن الهلاك ظلة حر ... يتلاشى في ظلها وهجانه
امل ذاهب ويأس مقيم ... طال في جانبيها خطرانه

* * *

أذعن الناس للسلاسل فانقا ... دوا واعيا أصنامهم إذعانه
ثار من زخرف السياسة فيهم ... فتحدى طغاتها شيطانه
كل علج في ظلها عربي ... من معدّ يسمو به عدنانه
ما رأى منها محسناً يسع الامـ ... ـة في ليل ظلمها إحسانه
ذهب الصادقون منها على الدهر ... فجاشت لفقدهم أحزانه
وتمطى في جنبه كل دجال ... توالى على الورى بطلانه

نهب الشعب واستباح حمى الشعـــب فمنه قصوره وجنانه
ضجّ منه أبو العلاء ومن غفـــوة شعب ما هاجه عدوانه
صاح : أين الامام في الوطن الحر — تغني بعدله أوطـــانه
أين أين الامام في أمة يصـــدق فيها فؤاده ولسانه
لا تراه يذوب في كل لون لم يحل عهده ولا ألوانه
انما الملك خدمة ملؤها الصـــدق وقلب ما يلتوي ايمـانه

* * *

فسد الخلق من قديم الليالي واستوت في فساده أزمانه
فكأن الانسان في الغار من أمـــس ولم تنخسف به غيرانه
أفلا نشهد الزحام على الار ض وهـذي جروحه وأنانه
كم بكى الجن والاناسي من هو ل ألحت عليهما أشجـانه
لم يبدل غرائز النـاس علم بـدل الأرض والسما ميدانه
وعظ الواعظون منا طويلا ما شفى وعظهم ولا برهانه
ليت نوحاً على السفينة والكو ن غريق يعمه طوفانه
فلعـل الايام تأتي بجيل لم تروّع سخـاله ذؤبانه

* * *

خفف الهمس ما أظن رفات الشـــيخ يرضى بضجة لقيانه
عاش في عزلة ومات عليهـا في هـدوء اعتزاله رضوانه
لم نكرم أبا العلاء ولكن كرمته آياته وبيـا نه
بعثت جلق روائع ماضيـه — وهـذي آثاره وعيـانه
قسماً بالحمى وما نسج الفجـــر عليه فلألأت أحضانه
ليس يفنى شعب تغنى بماض ملأ الدنيـا نعمة عنفوانه
أرأيتم والمهرجان صـداه كيف هبّت سهوله ورعانه
يتناجى شبابها في هوى الما ضي ومجوامع ضمه وضمـانه
فمتى ينظم الحمى علـم يحمـــل بشرى التفاهم خفقانه

شفيق جبري

تتمة

من ضحايا العقل (١)

يغتبط لبنان ، وقد قام بقسطه من تكريم أبي العلاء في تمام الذكرى الألفية في شهر آذار الفائت ، بان يشارك اليوم الدول العربية في تشييد هذا الصرح الفخم لحكيم المعرة، هذا الصرح الذي وضع آساسه المجمع العلمي العربي، وتبارى في رفع بنيانه فنانو العمارة في مصر والعراق وفلسطين وشرقي الأردن وسوريا ، فكان للبنان أن يأتي بحجره المتواضع ، مستوحياً من هذه الأبحاث النفيسة المتوالية علينا طول الاسبوع في تحديدابي العلاء ، سائلاً ، ماهو سر الحيرة في هذه الشخصية العجيبة ؛ وما هي قيمة ذاك المقياس العقلي الذي اتخذه المفكر في قدر الطبيعة وما وراءها ، فاغتر بعصمته ، مؤملاً ان يخرج به من تلك الحيرة . حتى اذا خذله المقياس ، رأيناه وهو المفكر مؤله العقل ، يهوي صريعاً من ضحايا عقله .

* * *

والذي حارت البريةُ فيه حيوانٌ مستحدثٌ من جمادِ

منذ أن وقف الانسان ذاهلاً أمام مظاهر الطبيعة ، متشوفاً ، في تفهمها ، الى ماوراء الطبيعة ، دخلت الفاسفة في العالم . وكان محورها ، ولا يزال ، هذا الانسان نفسه ، الحائر في كيانه ومصيره حيرة البرية جمعاء . يتناول بطرفه بسائط الأرض ، ويرق بخياله معارج الأفلاك ، ثم ينكفئ على عالمه الأصغر ، متأملاً متسائلاً قادراً مركزه من المجتمع ، ومن العالم الأكبر بكامله ، مقابلاً بين تلك « القصبة الصغيرة » على قول بسكال ، وهذا الكون الهائل ، بين مسكنة القصبة تجاه جبروت الكون ، وصغر هذا الكون تجاه سمو الفكر في تلك القصبة ، بين اللامتناهي في الصغر

(١) الكلمات التي وردت متأخرة فلم تذكر في برنامج الحفلات ، فألحقت بالحفلة السادسة وألقيت فيها .

واللامتناهي في الكبر يقف الانسان وسطاً معتدلاً في هذا النظام الكوني الشامل واذا به المحمول والموضوع في التفكير الفلسفي . بل هو القائس والمقياس والمقيس . يتدرج من المظاهر الى اسبابها ، ويتقصى الأسباب الى سببها الأول ، فيأتي بالشروح والحلول والتعليلات المتباينة .

ويكون العقل اليوناني ، فينسق ويرتب ، ويطلع بالنظم الفلسفية على بناء متماسك .

ويبدأ النقل على عهد الامويين . فتصطدم المدنيتان . وينتبه الفكر العربي من طمأنينته ، فيسأل ويقلق ، ويحاول بدوره الحلول والشروح والتعليلات . ويحاول الاتيان بالنظام المتناسق على يد الفارابي ، بعد ان يتمرس بالمذاهب والبدع والأهواء فمن قدرية يثيرون مشكلة الحرية والاختيار الى جبرية يهولهم الانتقاص من قدرة الله فيسكنون الى القضاء والقدر ؛ ومن معتزلة يشيدون بذكر العقل مادام العقل يوافق نزعاتهم ، الى أشاعرة يلوذون من المنطق بالمنطق ، الى فلاسفة يحاولون التوفيق بين الحكمة والشريعة فلا يوفقون الا الى وضع الواحدة إزاء الأخرى ، متقابلتين حيناً متدابرتين أحياناً . وناهيكم بالديانات المختلفة كاليهودية والنصرانية بطوائفها ومذاهبها من يعقوبي ونسطوري وملكاني وماروني ، والمجوسية بتنوع مظاهرها من زرادشتي ومزدكي ومانوي ، والبوذية وما تتفرع اليه من انواع العبادات والتقشفات .

في هذه البوتقة الجائشة نشأ ابو العلاء . وفي هذا الخضم المتلاطم تاهت فكرته متلمسةً مستهدية .

يترك بلدته المعرَّة فريسة النزاع السياسي ، ويهبط انطاكية ، فتزعجه أصداء المجادلات البزنطية الشهيرة . فينتقل الى اللاذقية ، فتقلق عليه سكينته تلك الضجة الصاخبة « بين أحمد والمسيح » . فيعرج على أحد الرهبان يحاوره ويجادله . ويكون الراهب قد « درس الفلسفة وعلومَ الاوائل » ، كما يقول المؤرخون . فتنفتح لأبي العلاء على النصرانية واليهودية ، وعلاقة الدين بالدنيا والطبيعة بما وراؤها ، آفاق يرتادها تنقلاً واتساعاً ، ولا يتوقف على نقطة منها عمقاً وتأملاً . فلا يفيد الا الإلمامات كافية لتغذية شكه واستخفافه بالعبادات على السواء .

وينتقل به الحظ الى بغداد. وبغداد تجيش بالمناقشات الدينية والمناظرات الفلسفية، والمجادلات العلمية، على حرية تامة في الفكر والقول، واحترام متبادل بين المتناظرين، وتساهل نسمع به اليوم ـ بعد الف سنة ـ فنخجل من أنفسنا. وقد وصف لنا الذهبي بعض هذه المجالس الكلامية بما إستعاذمنه بالله واسترجع اليه. الا انه أفادنا الفائدة كلها في تاريخ الحركة الفكرية في ذاك العصر. قال في حوادث سنة ٣٧٢ للهجرة (٩٨٢ م).

«في هذا الزمان كان الأهواء والبدع فاشية بمثل بغداد من الرفض والاعتزال. فانا لله وانا اليه راجعون. ذكر الحميري في ترجمة ابي عمر احمد بن سعدي الاندلسي الفقيه طامة كبرى، قال: «سمعت أبا محمد بن أبي زيد الفقيه يسأل أبا عمر بن سعدي عند وصوله الى القيروان من بلاد المشرق فقال: هل حضرت مجالس اهل الكلام؟ قال: نعم، مرّتين ولم أعد اليها. قال: ولِمَ؟ فقال: أما أول مجلس حضرته فرأيت مجلساً قد جمع الفرقَ من السنة، والبدعة، والكفار، واليهود، والنصارى، والدهرية، والمجوس. ولكل فرقة رئيس يتكلم ويجادل عن مذهبه. فاذا جاء رئيس قاموا كلهم له على أقدامهم حتى يجلس. فاذا تكاملوا، قال قائل من الكفار: «قد اجتمعتم للمناظرة، فلا يحتج أحد بكتابه ولا بنبيه. فاننا لا نصدق بذلك ولا نعتدّ به وإنما نتناظر بالعقل والقياس». فيقولون: نعم. ولما سمعت ذلك لم أعد ثم قيل لي: هذا مجلس آخر للكلام. فذهبتُ اليه. فوجدتهم على مثل سيرة أصحابهم. فقطعت مجالس أهل الكلام».

وفي بغداد تعرّف المعري الى المجوسية وآرائها، وإلى البوذية. أو السومانية كما كان يقال، ومبادئها في تحريم لحم الحيوان، والميل الى حياة صارمة متقشفة كثيراً ما تقود إلى النسك الكئيب المتشائم. وفي بغداد كذلك سمع بالتناسخ وباحراق أجساد الموتى، فأعجبه هذا، واستنكر ذاك.

وإذا أضفنا إلى هذه المعلومات الدخيلة ما غُذي به، منذ طفوليته، من علوم العربية الأصلية، وما لُقن من شعر القدماء وأحاديثهم وأساطيرهم، صحّ لنا أن نبرّر قوله:

ما مرّ في هـذه الدنيا بنو زمن   إلا وعندي من أخبارهم طرَف

هو « الأخذ من كل شيء بطرف » ، وهو تحديد الأدب في نظر القدماء . أو نخطيء ، نحن اليوم ، إذا قلنا بهذه الثقـافة الملائية إلى الأدب في سعته وتسطحه عن العلم في عمقه وتناسقه ؟

كلُّ هذه البذور صادفت تربة خصبة في عقلية أبي العلاء المطربة القلقة ، فنبتت كما شاءت تتجـاور ولا تكاد تتعارف ، بل هي في نزاع دائم وصخب مستطيل حتى يعجّ الجدل في دماغ الأعمى ، وقد حُجب عنه كلّ ملهى ، وسدّ عليه كل سبيل للتسلية والترفيه ، وإذا به يحاور عقله ، ويجادل نفسه الليـل والنهار ، يسأل ويقارن ، وقد لا ينتظر الجواب ، بل كثيراً ما اكتفى به استفهاماً منكراً ساخراً ، وكأن تنبهه إلى مواضع النقص من البشر ، وشدة استحيائه منهم ، وحذره من غمزاتهم عليه وأقاويلهم فيه .

يروّعه السرار بكل أرضٍ   مخافة أن يكون به السرار

دفعته إلى اتخاذ تلك الدرع من الهزء بهم ، والسخر من أعمالهم ، وأكثر ما يكون هذا السخر حاجزاً يلجأ إليه بعض الضعفاء الحييين فيفاجئون الناس بما يخافونه منهم ، وأعمى المعرة كان من هؤلاء فسخر وأسرف في السخر ، حتى لم ينجُ منه أحد ، لا من كبار القوم ولا من صغارهم ، لا من رجال الدين ولا من رجال الدنيا ، لا من الأحيـاء ولا من الموتى ، لا من عامة البشر ولا من الأنبياء ، لا من الملائكة ولا من الجنّ ، وكان يمتزج هذا السخر بشيء من الحسرة ولد تشاؤماً كثيباً وسوء ظن بالناس لم يختصّ بالنساء وحدهنَّ بـل شمل بني آدم أجمعين ، وارتقى أحياناً إلى الخالق نفسه .

وكان من نتائج هذا الغليان الفكري ، ومن أثر تلك الحالات المتناوبة عقلية الشاعر الحساسة القلقـة ، شذور أحكام وشتى آراء مسكوكة سكَّ النقود الملمة يتداولها الناس فيستنتجون منها المذاهب المتناقضة ، والعقائد الغريبة ، يُزري عليه بعضهم إلحاده الوقح ، ويبرئه غيرهم من « وصمة الكفر الشنعاء » ، ويقيمه فريق آخر زعيماً لأرباب الشك والارتياب ، ويبني له غـير هؤلاء صرح الفلسفة المادية عالياً ، ولكل فريق أسانيد صارخة في « اللزوميات » وفي

غير « اللزوميات » ، يشرحونها ويؤولونها ، ويعلقون عليها ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

بيد أن الخطب أيسر من ذلك في نظرنا ، فليس أبو العلاء بالكافر الملحد ، ولا بالمؤمن المستسلم ، ولا بالشاك الحائر شكاً علمياً ، ولا بالفيلسوف المادي . إنما هو ذكاء حاد ، وعقل معجب بذاته حتى الغرور ؛ وشعور مرهف بوطأة مصايبه خاصة ومصايب قومه عامة ؛ وفضول مستيقظ لما يقال في زمانه — وفي كل زمان — في جور الحكام ، وفساد الأخلاق ، وحيل النساء خاصة ، ورياء رجال الدين ؛ وبقية إيمان في قرارة النفس تكاد تخنقها هذه الموجات الطامية ، ثم هو ، فوق ذلك ، بلاغة صارخة على هدوئها ، وحجة دامغة ، واستنتاج جارف لا يقف لدي تحفظ ، ولا يأخذ باحتياط ، ومقارنات مفاجئة كانت في أصل ذاك السحر الهدام .

ولكان أبو العلاء غير هذه الشخصية المبددة لو أمكنه أن يتعمق في درس الأصول الدينية فيميز بين الشريعة في روحها ومظاهر تطبيقها في العالم ولا يحمل النبوات نفاق بعض اتباعها ورياء بعض ممثليها . ولو أمكنه ، كذلك أن يتلقى المبادئ الفلسفية على وجهها الانساني الأصيل ، غير مكتف بغبار المجادلات وزبد المناظرات ، لما اغتر بالعقل الحسي المشترك وحده يجعله إمامه في كل شيء .

هذه خطوط عامة في تصوير شخصية أبي العلاء ، قد تكون متقطعة وقد تكون واهية ، ولكنها ضرورية في نظرنا ، لنتمثل المفكر قبل الولوج إلى فكرته .

أما موضوعات هذه الفكرة أو أهداف الحملة العلائية ، فقد ترد إلى أربعة :

١ — العناية ألالهية . وهي ، لو كانت موجودة ، لعنيت بالنظام والعدل في هذا العالم ، فلم يسيطر فيه الشر ولم تتوال المصايب على ابي العلاء ؛ تلك المصايب التي لم يجد لها سبباً في اعماله ، ولا في حياته الخاصة المكتنفة بالعفاف والزهد .

٢ — الحقائق الدينية بجملتها في جميع الديانات ، والشرائع التي تسمح للناس بالاساءة إلى الناس .

٣ — مصير النفس بعد الموت ، وكل ما تعلق بذلك من بعث وثواب وعقاب .

٤ — هذا المجتمع البشري الفاسد الذي لا دواء له إلا قطع النسل . ومن هنا حملته على الزواج ، وبالتالي على المرأة .

وقبل أن نشهد الأعمى في هذا المعترك اليائس ، لنتفحص معداته للقتال ولنتعرف مقاييسه ، فنراه أعزل إلا من العقل .

كذب الظن لا إمام سوى العقـــل مشيراً في صبحه والمساء

سأتبع مَنْ يدعو إلى الخير جاهداً وأرحلُ عنها ، ما إمامي سوى عقلي

ولكن أيّ عقل هو ؟ ولأي شيء يصح مقياساً ؟

ينتج من اللزوميات أن المقصود بهذا « العقل » الذي يردد ذكره أبو العلاء في أكثر الصفحات ، فيلوذ به كلما عرضت له مشكلة ، هذا الحس ، أو الادراك ، أو بادي الرأي المشترك بين الناس يأخذون به في اختبارهم اليومي وأحكامهم الجارية ، هذا الإدراك العامي الذي جعله ديكارت مُشاعاً بين البشر .

هذا العقل الحسي الشائع يصلح مقياساً للمحسوسات ، فهو سيد في منطقته المادية ، أما إذا ارتفعنا به إلى ما فوق فلا يرى إلاّ الانكار والنفي ؛ حتى في الشؤون الطبيعية التي لا تقع تحت حسه ، كأن ينفي في القرون الوسطى أن تكون الشمس ثابتةً والأرض تدور ، وكان من حقه أن ينفي ، لثلاثين سنة خلت ، أن يسمع أهل دمشق مثلاً رجلاً يتكلم في بغداد .

هذا العقل الحسي ، هذا المقياس البسيط ، هو الذي تسلح به أبو العلاء فأقبل على الكون بأجمعه ، يقيس كلّ شيء ، ويجادل في كل شيء ، تحت راية ذاك العقل ، فلا عجب أن يُثير كثيراً من الغبار ، ويحدث ضجةً لا تزال أصداؤها تتردد حتى اليوم في أنحاء الاعتراضات السطحية والاحتجاجات العامية ، وأيّ فرق بين هذا الشاعر المفكر والرجل العامي لا يفهم أحكام ما يفوق « عقله » من الشؤون فيزري بهـا ، سوى تلك اللذعة التهكمية ، وذاك التساؤل المغري بالتشكيك واللاأدرية ، أوَ لم يقلد المعري في « عقله » كثير من الشعراء ، فعرضوا الاستفهامات عديدة في مجالي الكون ، وتصوروا أنهم أدركوا قمـــة التفكير الفلسفي إذ أجابوا عن كل ذلك بتعبير واحد : لستُ أدري !

ذلك أن لكل مقيس مقياساً خاصاً ، ولكل نظام في العالم محكا من وعه ، فلا تكال الأرض بالصاع ، ولا يقاس الفكر بالقفزان .

ولا نرى أبا العلاء ميز في صلاح مقياسه العقلي بين نُظم العالم المتدرّجة من الطبيعي المادّي ، إلى الانساني الفكري ، إلى الالهي فائق الطبيعة ، فكان لا بدّ من فساد النتيجة إذ فسدت المقاييس ، وكان لا بدّ من أن ينفي وجود الملائكة والجنّ كما ينفي وجودَ فلان من الناس في بيته مثلاً ، والدليل المشترك بين النفيين هو كونه لا يحسّ بهما :

قد عشتُ عمراً طويلاً ما علمت به حسّاً يُحَس لجنيّ ولا مَلَك

أخذَ ابو العلاء بهذا المقياس في اختباره المادّي فصحّ مقياساً للأحكام ، وأمكنه أن ينفي وجود الفلان في بيته لأنه لا يحسّ به . فخال المقياس صحيحاً كذلك في الشؤون الفائقة المادّة ، ومَنْ من المفكرين لا يميز بين هذين العالمين الفارقين ، فينتقل من الواحد إلى الآخر بالمقياس نفسه ؟ إلا إذا شاء أن يتظرف أو يتماجن فعل أبي نواس ، ولا نراه بعيداً عن أبي العلاء في استخدامه هذا القياس :

ما جاءنا أحدٌ يُخبر أنه في جنة مذ مات أو في نار !

وينتقل الشاعر بمقياسه من الجن والملائكة إلى الله فيقول :

أما الإله فاني لست مدركه

وهو على حقّ وإخلاص في قوله ، لانه لن يُدرك الإله عن هذا الطريق .

على أن الطبيعة الإنسانية ، طبيعته التامة ، كانت كثيراً ما تثور على هذه النتائج المنطقية الفاسدة ؛ فيسكن أبو العلاء إلى الإيمان :

أثبت لي خالقاً حكيماً ولست من معشر النفاة

* * *

انفرد اللهُ بسلطانه فماله في كل حالٍ كفاء

ما خفيت قدرته عنكم وهل لها عن ذي رشاد خفاء؟

ثم يعود بعقله إلى العالم الروحي ، فيرى الديانات المتباينة والعبادات المختلفة ، والشرائع المتناحرة أحياناً ، وكلها تدّعي صحة الدين ، وطهارة الايمان ، والعمل

على خلاص البشر ، فيضيع مقياسه في ذلك ، ولا يرى أفضل من أن ينكرها جميعاً ، حاكماً عليها بالضلال لأنها تخالف « العقل » :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت والهود حارت ، والمجوس مضلله
اثنان أهل الأرض ، ذو عقل بلا دينٍ ، وآخر دَيّن لا عقل له !

* * *

إذا رجع الحصيف إلى حِجاه تهاون بالمذاهب وازدراها
وَهت أديانهم من كل وجهٍ فهل عقلٌ تشدّ به عُراها !

وذاك ان اختلاف العبادات يظهر جديراً بالازدراء في نظر هذا العقل ، فلو كان الجوهر واحداً ، لما تباينت الأعراض :

عجبتُ لكسرى وأشياعه وغسلِ الوجوه ببولِ البقرْ
وقولِ النصارى : إله يُضامُ ويظلم حياً ولا ينتصر
وقولِ اليهود : إلهٌ يُحب رشاشَ الدماء وريح القتر
وقوم أتوا من اقاصي البلادِ لرمي الجمار ولثم الحجر
فواعجباً من مقالاتهم ! أيعمى عن الحق كل البشر(١)

أجل هذه مفاعيل المقياس المادي الضيق الذي لا يمكنه أن يتجاوز الأعراض الى الجوهر الروحي لأنه من نظام مادي . ولا مندوحة لنا في قدر هذا الفرق قدره الصحيح من تذكر ما أشاد به بسكال من تدرج الأنظمة في العالم : النظام المادي وله مقاييسه ، والنظام العقلي وله مقاييسه كذلك ، والنظام الروحي ، أو نظام المحبة ، وله مقاييس خاصة . ومن لم يتح له تجاوز النظام الى تاليه فيستعمل لكل نظام مقياسه الخاص ضلّ ولم يستصبح بنور . هذا المعري يرى تنوع الديانات في اعراضها فينكرها جميعاً ويرمي أصحابها بالعمى . وهذا ابن عربي يتحقق التنوع نفسه ، ولكنه يتجاوز في حكمه نظام المادة لى نظام المحبة فينفذ من الأعراض المتباينة الى الجوهر الموحد ، فيتحقق ان لا معبود في الواقع الا الله ويصيح :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورةٍ فمرعى لغزلانٍ ودير لرهبانْ
وبيت لأوثانٍ وكعبة طائفٍ وألواح توراةٍ ومصحف قرآن

(١) سواء اثبتت نسبة هذه الابيات أم لا فانها تصور الفكرة العلائية في صميمها .

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

***

ولنعد الى إله أبي العلاء، الذي يعود اليه بعقله ، فلا يمكن أن يتصوره خارجاً عن الزمان والمكان . وقد كان مشكل ازلية العالم لايزال يحير الأدمغة في ذاك العهد . فاذا كان العالم أزلياً ، كان الزمان ـ وهو امتداد الحركة ـ والمكان ـ وهو امتداد الاقطار ـ ازليين كذلك :

ولو طار جبريل بقية عمره من الدهر، مااسطاع الخروج من الدهر

فصار الله ضمن الزمان وضمن المكان :

قالوا : لنا خالق قديم قلنا : صدقتم ، كذا نقولُ
زعمتموه بلا زمان ولا مكان ؛ ألا فقولوا :
هـذا كلام له خبيءٌ معناه : ليست لنـا عقول !

اما الجنس البشري في هذا العالم الأزلي فليس من الضرورة ان يبدأ بآدم المعروف ، بل قد يرقى في القدم الى الأزل . و لمَ لا ؟

خالق لايشك فيه قديم وزمان على الأنام تقادم
جائز أن يكون آدمُ هذا قبله آدم على إثر آدم !

والديانات ظواهر اجتماعية تأتي وتزول :

أتى عيسى فـأبطل دين موسى وجاء محمد بصـلاة خمس
وقيل يجيء دين بعد هـذا فأودى الناس بين غد وأمس
إذا قلت المحال رفعت صوتي وان قلت اليقين أطلت همسي

ولا تترك بيننا إلا التفرقة والإحن والعداوات :

إن الشرائع ألقت بيننا إحناً وأورثتنا أفانـين العداوات
وهل أبيحت نساء الروم عن عرض للعرب الا باحكام النبوات

ثم يتناول الشرائع وتناقضها الظاهر في نظره :

يد بخمس مئين عسجداً وديت ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض مالنا الا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار

وهو فساد قياس أدّي إليه سوء الفهم لروح الشريعة . وقد انتبه له الكثيرون ممن تعقبوا المعري بالنقد والرد والشتم والتكفير . قال ياقوت جامعاً كل ذلك « كأن المعري حمار لا يفقه شيئاً . وإلا فالمراد بهذا بين : لو كانت اليد لا تقطع إلا في سرقة خمسمائة دينار لكثر سرقة ما دونها طمعاً في النجاة . ولو كانت اليد تودى بربع دينار لكثر من يقطعها ويؤدي ربع دينار دية عنها . نعوذ بالله من الضلال ؟ »

ومن المشاكل التي اثارت خيال المعري ، وأرهفت حسه ، وأقلقت عقله مشكلة الانسان : كيانه ومصيره .

أولم يكن من الافضل ألا يكون ؟

ريب الزمان مفرق الالفين فاحكم الهي بين ذاك وبيني
أنهيت عن قتل النفوس تعمداً وبعثت انت لقتلها ملكين
وزعمت أن لها معاداً ثانياً ما كان اغناها عن الحالين

أما الموت فيتوق إليه المعري على خوفه منه . يتوق إليه لان فيه راحة وغنى

ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها ، والعيش مثل السهاد
تعب كلها الحياة فما أعجب الا من طامع في ازدياد

* * *

أصبح في لحدي على وحدتي لست إلى الدنيا بمحتاج

* * *

فمالي أخاف طريق الردى وذلك خير طريق سلك
يريحك من عيشة مرة ومال أضيع ومال ملك

ولكنه يخاف على الرغم من هذه المحاولة في الاقناع

وخوف الردي آوى الى الكهف أهله وكلف نوحا وابنه عمل السفن
وما استعذبته روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده ، جنتي عدن

ويقول ، وملء جوانحه الرعب والأسى :

يهال التراب على من ثوى فآه من النبأ الهائل

ثم يخص نفسه ، فيتصور انقضاء اجله واهتمام الناس بحفر قبره في تلك الصورة المفزعة :

يكر الحول بعد الحول عني   وتلك مصارع الأقوام حولي
كأني بالاولى حفروا لجاري   وقد أخذوا المعاول وانتحوا لي

وأما ما وراء الموت ...

أما الجسوم فللتراب مآلها   وعييت بالارواح أنى تسلك

ولندعه على عيه بالارواح هنيهة ، منصرفين الى ما يستخرجه خياله الخصب من نهاية الجسد وتحوله الى تراب :

تعود إلى الارض أجسامنا   وتلحق بالعنصر الطاهر
ويقضي بنا فرضه ناسك   يمرّ اليدين على الظاهر

* * *

تيمموا بترابي علّ فعلكم   بعد الهمود يوافيني بأغراض
وان جعلت بحكم الله في خزف   يقضي الطهور، فاني شاكر راض

فاذا كان الانسان نهايته الى إناء الفخار

فلا عس خاراً من الفخر عائد   الى عنصر الفخار للنفع يضرب
لعل إناء منه يصنع مرّةً   فيأكل فيه من أراد ويشرب
ويحمل من أرض لارض ومادرى   فواهاً له بعد البلى ، يتغرب

وأعجب بتغرب هذه العناصر بعد هلاك المركب الجامع .

وما أقرب فكرة التحوّل هذا إلى رباعية الخيام ، وقد دخل معمل الخزّاف فتخيل سماع الأرواح ترتفع إليه من خلال الطين المجبول ! قال (في تعريب وديع البستاني) .

أمسِ أبصرتُ جارنا الخزافا   يجبل الطين كيف شاءَ اعتسافا
ويكيل المقدار منه جُزافا

وكأني سمعت بين يديه   صوت مظلومة تشكى لديه
آه رِفقاً ! فأنت طين وماء   أيها المرء ، لا تسمني العذابا !

هذا النفع المادي من مآل الأجسام البشرية يتوسع فيه أبو العلاء حق التصورات المزعجة . فيذكر أجساداً كانت جديرة بالصون وقد صارت في طلاء الجدار » .

وكم من رجال جسومهم عفرُ ... تبقى بهم أو عليهم الجدُرُ

وهذه الصورة، وهي أروع وأشد وقعاً لما فيها من التخصيص والتضاد :

لعل مفاصل البناء تضحي ... طلاءً للسقيفة والجدار

ويبلغ به التصور الخيالي أن يرى سطح الأرض كله من تراب الأجسام فيربأ بالموتى أن يدوسهم الأحياء :

خفف الوطء ما أظن أديم الأ ... رض إلاّ من هذه الأجساد

سر إن اسطعت في الهواء رويداً ... لا اختيالاً على رفات العباد

وقبيح بنا وإن قدم العهد هوان الآباء والأجداد

وكيف بهذا التصوّر الفسيح الغنيّ إن علق به الشاعر الفارسي فأشار إلى عادة الفرس في إراقة القطرات من الكأس قبل شربها :

ما جزافاً ما قد أراق السقاة ! ... لا لعمري بل تلكمُ صدقات

إنما الترب يا ندامى رفات !

فليريقوا فتلكم القطراتُ ... لكبودٍ تذيبها الحسرات

وليريقوا لعلها مطفئات ... لوعةً في الثرى تؤج التهابا !

* * *

هذا مصير الأجسام. وأما الأرواح، وهي لا تقع تحت الحسّ، فلم يكن لعقل المعري أن يجيب عن مصيرها بشيء.

فهل تحس إذا بانت عن الجسد ؟

أم انها تنتقل من جسد إلى جسد وفقاً لزعم الهنود في التناسخ ؟ وهل تدخل جسد الحيوان في تنقلاتها ؟ وهل هناك بعث ؟ وحشر ؟ ودينونة ؟

أما العقل فيقول :

ولم نر بطن الأرض يلقي لظهرها ... رجالاً كما يلقي الى بطنها الظهر

* * *

تحطمنا الأيام حتى كأننا ... زجاج، ولكن لا يعاد لنا سبك

ويرفض التناسخ :

يقولون إن الجسم يُنقل روحه إلى غيره حتى يهذبه النقل
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلةً إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل !

واما بقية الايمان فتصيح :

وقدرة الله حق ليس يُعجزها حشر لجسم ولا بعث لأموات

* * *

اذا ما أعظمي كانت هباءً فان الله لايعييه جمعي

بل هي تناضل عن هذا الايمان بالبعث ، وتراهن عليه ، قبل الغزالي بنصف قرن ، وقبل بسكال بستة قرون :

زعم المنجم والطبيب كلاهما ان لامعاد . فقلت : ذاك إليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي ، فالوبال عليكما

* * *

وكيف يثيب الله الناس أو يعاقبهم على أفعالهم ، وهم غير مخيرين فيها .
وهل في هذا الكون القديم السائر منذ الازل الى الابد ، مكان لاختيار أو أثر لحرية ؟ وكيف يؤمن العقل بالحرية والتخيير .

والمرء يقدمُ دنياه على خطرٍ بالكره منه، وينآها على سخط ؟

* * *

ماباختياري ميلادي ولا هرمي ولا حياتي ، فهل لي بعد تخيير ؟

كان عراك الجبرية والقدرية قد خفَّ في المجتمع الاسلامي . ولكنه لم يخف ولن يخف في الفكر البشري ، وهو المقابل بين معرفة الله الشاملة وارادته المطلقة من جهة وعدله بين الناس في توزيع الثواب والعقاب وما يفرضه ذلك من مسؤولية فردية وبالتالي من حرية اختيار .

اما ابو العلاء فقد كان جازماً في حكمه ، غير متردد في استنتاج كل مايمكن من هذا المبدأ . فحمل على القائلين بهلاك من يفعل الكبائر .

ان كان من فعل الكبائر مجبراً فعقابه ظلم على مايفعلُ

وتجاوز حتى جعل المدح والذم لامعنى لهما لأن الانسان غير مخير في اكتسابهما. وقال إن تأليفه الكتب ونظمه الشعر بقضاء وقدر .

وإذا كان الأمر كذلك فقد أصبح الاصلاح لا يرجى في المجتمع ، وظل الانسان شريراً بطبعه ، كما يقول ، وظل الفساد غريزة فيه ، لا يمتاز أحد عن الآخر في هذا الأمر :

إن مازت الناس أخلاق يقاس بها فانهم عنـد سوء الطبع ، أسواء

أو كان كلّ بني حواء يشبهني فبئس ما ولدت للنـاس حوّاء

وإذاً فقد كان طبيعياً أن يفضل المعري الحيوانات على البشر ، بل يفضل تسريح برغوث على عمل الإحسان :

تسريح كفي برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا !

اما الخلاص من الشر الاصيل في البشر فلا سبيل اليه الا العدم أي قطع النسل :

فليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من امه النفساء

ومن نظريات المعري الحبيبة الى قلبه ان الآباء يجنون على ابنائهم :

على الولد يجني والد ولوانهم ولاة على أمصارهم خُطباء

وهو مايبرر تلك الوصية الغريبة التي شاءها ان يُكتب على قبره :

هذا جناه أبي عليَّ وما جنيت على أحد !

ولا سبيل الى قطع النسل الا بتحريم الزواج ، فينقطع بذلك الشر في العالم .

وقد سهل له عقله ، وهو الشفيق على البرغوث ، أن لايتراجع عن وأد البنات :

ودفن ، والحوادث فاجعات لإحداهن احدى المكرمات

بل ان عقله هذا يقوده الى تصور امور يبتسم لها في التساهل بتزويج البنات شرط أن لا يزوج البنون :

واطلب لبنتك زوجاً كي يراعيها وخوف ابنك من نسل وتزويج

ولا نعلم بما نعتذر عنه في حملته على النساء . وما كانت تلك الحملة مقصودة لنفسها . الا انه جر اليها في حملته على النسل البشري . ولو لم توجد المرأة لكان ذلك بدء السعادة . اما وقد وجدت فينبغي .

لزومها البيت مع اهتمامها ... حتى يجيها الوفد من حمامها

وطبيعي أن يكون تعليم النساء امراً مفروغاً منه في نظر المعري :

علموهن الغزل والنسج والرد ... ن وخلوا كتابة وقراءه

فصلاة الفتاة بالحمد والاخلا ... ص تغني عن يونس وبراءه

* * *

ولا تحمد حسانك ان توافت ... بأيد للسطور مقومات

لحمل مغازل النسوان أولى ... بهن من اليراع مقلمات

واذا كان لابد لهن من تلاوة شيء من القرآن فلينظر الى عجوز متناهية الكبر فاقدة الاسنان :

ليأخذن التلاوة عن عجوز ... من اللائي فغرن مهتمات

يسبحن المليك بكل جنح ... ويركعن الضحى متأثمات

فما عيب على الفتيات لحن ... اذا قلن المراد مترجمات

ولا يدنين من شيخ ضرير ... يلقنهن آيا محكمات

سوى من كان مرتعشاً يداه ... ولمته من المتثغمات

وكأنه يتصور مطالب النساء الكثيرة ومراميهن البعيدة فيرسم لهن تلك الصورة المتحركة على مهلها :

أعوذ بالله من ورهاء قائلة ... للزوج : إني الى الحمام أحتاج

وهمها في أمور لو يتابعها ... كسرى عليها، لشين الملك والتاج!

* * *

ولم يفت نظام المجتمع فكر المعري ، وقد كثر فساد الحكم في عصره . فحكم عقله في السلطة ومبدإها ، وطلع علينا برأي كان جديداً في القرون الوسطى المؤمنة بان كل سلطة من الله الخالقة حول صاحب الامر هالة من الكرامة والتبجيل . واذا باعمى المعرة يفتح أبصار الناس على أن مصدر السلطة الشعب وان الامير خادم الرعية :

مل المقام فكم أعاشر أمة ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... وعدوا مصالحها ، وهم أجراؤها !

ثم يستنكر عقله أن يكون البشر طبقات ممايزة في الشرف والحقوق وهم متساوون في الاصل والجبلة، فيصيح :

لا يفخرن الهاشمي على امرئ من آل بربر
فالحق يحلف ما علي عنده الا كقنبر

هذه المساواة بين البشر يريدها كذلك في الممتلكات، رامياً الى شيء من الاشتراكية، لفظاً على الاقل :

لو كان لي، أو لغيري قدر أنملة من البسيطة، خلت الامر مشتركا

***

من الاله ، الى النبوّات والشرائع ، الى مصير الاجساد والارواح ، إلى مظاهر المجتمع . لمحات خاطرة ، ونفذات مشعة ، وأحكام تتفاوت خطأ وصواباً ، وآراء تتباين عمقاً وتسطحاً . هي حجارة من مقالع مختلفة نحتها الشاعر الجاهد فزخرف بعضها ، وصقل البعض الآخر ، وتركها مبعثرة معالم على طريق المفكرين دون أن يشيد منها ذاك الصرح الموحد التصميم ، الموحد البنيان في التفكير البشري المتناسق . إلا أنه ، وإن لم يوفق الى السير في سمت الفلسفة الانسانية السوية ، فقد كفاه فخراً أنه بدأ ، منذ ألف سنة ، يحر هذه الاداة العجيبة التي تجعل من الكائن البشري انساناً كاملاً ، ألا وهي العقل !

فؤاد افرام البستاني
مندوب لبنان

من هو ابو العلاء المعري

ولمَ تقام المهرجانات لذكرى مرور الف عام على ولادته

ما كان ابو العلاء المعري نبياً جاء بدين يهدي البشر الى الصراط المستقيم ولا خليفة راشداً استن للامة سنناً تهديهم الى سبل الرشاد. ولا ملكا عزيز الجانب لم تأخذه في الحق لومة لائم. ولا قائداً فاتحاً وسع ملك العرب وسلطانهم، ولا بطلاً ردّ عنهم غزاة بلادهم، ولا مجتهداً وضع للامة مبادىء قادتهم الى الخير، ولا مكتشفاً ضم الى بلاد امته بلاداً اخرى ولا مخترعا اوجد لامته ما هون عليها مشقات العمل.

ولكن الروح الانسانية تواقة بفطرتها الى الافكار والسوانح العلوية التي تعبق من مهبط الكمال في ظلمات اسرار الخليقة فتنير السبل وتدفع البشر الى العلاء.

والذكاء والمعرفة أعلى ميزات الانسان وأجلها، فاذا اقترنا بالعقل والوجدان كانا كواكب منيرة في ظلمات الخليقة يهتدي بها العاشي في حالك المعضلات.

وانّية الانسان وحرصه على صيانة ما يخصه من كل جامحة تجعله يقدس من تخلق بالقواعد التي وضعها البشر لهذه الغاية واحترام كل من يدافع عنها بالقوة او باللسان. واذا كان هذا التخلق والدفاع في زمن كثر فيه الاستهتار واشتدت فيه قوة الاستغلال زاد صاحبه اكباراً واجلالاً في نظر أمثاله من بني الانسان.

واذا جاء بأكثر مما كان يطلب منه استجلب الانظار اليه واختص بتقدير من لم يكن قادراً على مساواته وأصبح بنظر الناس من الأفذاذ. وابو العلاء المعري كان خلوقاً جريئاً قوي الروح والارادة زكياً عالماً قادراً على التعبير عما يخالج نفسه من عواطف وأفكار وانتقاد كل ما لم يقبله الخلق الكامل

والعقل السليم بحرية وجرأة وبلغة متينة غير مبال بما تأتي به آراؤه بالنسبة الى عصره من مقت ونكبات .

وقد تغلب فيه جوهر الروح على جوهر الجسد فكبح جماح شهواته المادية وعاش عيشة الزهاد المتقشفين مكتفياً بما يمسك مسكة حوبائه من طعام وشراب وتغذية روحه بالدرس والتفكير والتدريس والنظم والتأليف ، غير ملتفت الى قيود محيطه الذي ساد فيه القلق والاضطراب وضحيت فيه الحرية في سبيل ممارسة خصائص الحكم التي كانت تستلزمها حالة الاجتماع آنئذ .

وهذه الخصائص وهذا الاعتكاف على الدرس والتفكير الذي اتخذ فيه الحياة الانسانية كلها موضوعاً لتفكيره والتأمل بحل معضلاتها جاء بينات أفكاره التي استجلبت اعجاب الادباء والعلماء من سائر بني الانسان .

ان منشأ حبنا وتصورنا ومخاوفنا وآمالنا وحسراتنا ورجائنا هو النفس وليس العقل الذي هو آلة الفكر والمحاكمة ، فالنفس هي الينبوع الفياض لعواطفنا ، والعواطف هي الجوهر الأصلي في انسانيتنا والفكر واسطة لتسميتها وتفسيرها واللسان وتر ما يلذ في وجداننا من العواطف المنبعثة عن حالاتنا النفسية .

وهناك بعض تجليات نفسية عميقة لا نستطيع التعبير عنها بلغة الكلام تذهب بنا الى فكرة يأس عميق أو سرور ظاهر .

ومن هذا يمكن وجود مسلكين متناقضين من فكرة واحدة أحدهما يشقي الانسان والآخر يسعده قليلاً او كثيراً ، والأول هو التشاؤم والثاني هو التفاؤل، واذاً ليست مسألة التشاؤم والتفاؤل الا مسألة مزاجية .

فاذا نظر الانسان الى الاكوان الخارجية وصحف حياته نظرة تقدير يحاول بها تعيين القيم فلا ينظر الا من وراء أحوالة النفسية فيرى الدنيا جميلة او قبيحة والحياة سعيدة أو شقية على نسبة انتعاشه المعنوي .

واللذه والألم والسرور والحزن حالتان أصليتان في الحياة الانسانية وكل حالة منهما يتلازم فرعاها مردودين الى شكل عام من أشكال الشعور ينتهي بنا الى القول بأن من لم يتألم لا يتلذذ ومن لم يحزن لا يسر وان الوجدان البشري بحر خضم مجهول الحدود لا ينال غوره تمر به الرياح والعواصف من حين الى

آخر فتثير فيه أمواجاً يعجز العقل عن استيعابها وهي ما نسميه وحياً والهاماً وتلك الأمواج هي الحالات النفسية ، والانسان على استعداد عظيم لحمل الكون الجامد الصامت بأسره على لسانه وهذا هو الشعر في اعمّ وأتم معناه والانسان بمثل هذا الاستعداد انما يأنس الى الأكوان فينطقها ويقبس منها معاني وأفكاراً تصلها به الصلة التامة فيمد الكون بالمعاني .

وما الشاعر الفذ الا ذلك الذي يمد الكون بالمعاني البليغة ويخترق حجب الحياة والموت ويهز النفس أبداً لسورة إلهامه ويزن الحياة بالقسطاس المستقيم . وليس من أمر انساني يفوق أهمية أمر تقويم الحياة وتفسيرها بالمعنى الصحيح الا أن الناس لم يختلفوا في أمر قط اختلافهم في حل هذه المعضلة العويصة ، لما يكتنف مزاجهم من مجلى حالتي التشاؤم والتفاؤل وما صبغ أفكارهم من صبغة الأمل الباسم أو اليأس الباكي .

وان أروع الشعر واجمل البيان هو ما استطاع أن يكشف العواطف المستسرّة المتصلة بقضايا الموت والحياة والسعادة والشقاء التي تتلاطم أمواجها في نفوسنا دائرة على قطبي اليأس والرجاء .

ولعقائد الانسان في المعاد والآخرة اتصال وثيق بانصراف أفكاره وعواطفه الى نظريات التفاؤل والتشاؤم وللايمان وشكوكه أثر بين في تلك العقائد ولتقديره الكون قائماً على الاتقان والنظام وعدم يقينه بذلك دخل كلي في إيمانه وشكوكه فمن لم يؤمن بالعدل المطلق لا يؤمن بالآخرة ، ولهذه المبادئ أكبر صلة بالخير والشر فمن يعتبر الخير أصلاً وعلة غائية يظلّ متفائلاً ومن يعتبر الشر أصلاً في الخلق لا يعيش الا متشائماً .

ومن هذا نستنتج ان الاصل في السعادة هو الاطمئنان النفسي وهذا مبعث الايمان . والايمان خارج عن اختيار الانسان لانه لابد فيه من الهام قدسي خاص أي هداية كما قال تعالى : (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وفي التشاؤم الاقرار بأن الشر أصل في الوجود ، وقد كان المعري من عباقره الشعراء الذاهبين الى الشق الثاني ويرى أن الدهر قائم على الاتلاف والافساد والمجتمع منصوب على الغدر والخيانة وأن النظم البشرية التي يسير

عليها المجتمع بعيدة عن تقويم الحياة والقسطاس المستقيم الذي يريده العقل وأن لا شيء قائم على الاتقان والنظام والعدل والمساواة ؛ فأراد أن يفهم الكون بجميع المعلومات الناجمة عن تجارب البشر والاديان وتاريخ الانسان على العموم ، فدار حول دائرة المعارف الانسانية الصغيرة في وسط فضاء الظلام الواسع يدرس ويفكر وهو الشاعر الملهم والحكيم الواعي ، والفيلسوف اذا سار مع ميوله الطبيعية وتذوق بالشبه ولم يكبح جماح خياله وقع بالشك وانقاد للمؤثرات النفسانية التي تهاجمه من كل صوب وحدب فتطوّح به للانكار وتزمله بالتشاؤم في كل أقواله وأفكاره .

وعمي المعري في الرابعة من عمره وقساوة محيطه وعيشه وما أوتيه من الاحساس الرقيق دفعه لانتقاد كل ما لم يقبله عقله ووجدانه غير هيّاب ولا وجل . فصوّر آراءه في شعره ونثره غير ملتفت إلى قيود محيطه وعقيدته فجاء بما جاء به من انتقاد للمجتمع ولبعض المظاهر الدينية ووقف حائراً يقول :

وبصير الأقوام مثلي أعمى فهلموا في حندس نتصادم

ونظر إلى موت أصحابه الذين سبقوه إلى دار البقاء ، فرأى هناك سراً غامضاً تقف العقول عنده حيرى كليلة فقال :

أما الصحاب فقدمّوا وماعادوا وبيننا بلقاء الموت ميعاد
سرّ قديم وأمر غير متضح فهل على كشفنا للحق اسعاد
سيران ضدان من روح ومن جسد هذا هبوط وهذا فيه اصعاد
أخذ المنايا سوانا وهي تاركة قبيلنا عظة منها وايعاد
توقعوا السيل، أوفى عارض وله في العين برق وفي الاسماع ارعاد

وتراه تجاه هذا السرّ المبين ينتقل فجأة إلى تقويم الحياة وبيان ماهية الوجود فيقول :

كل ذكر من بعده نسيان وتغيب الآثار والأعيان
إنما هذه الحياة عناء فليخبرك عن أذاها العيان
ما يحسّ التراب ثقلاً إذا ديس ولا الماء يتعب الجريان
نفس بعد مثله يتقضى فتمرّ الدهور والأحيان

ومرثيته الخالدة خير معبر عن فكرته في الحياة التي لا يرى فيها ما يستحق منه دمعة أو ابتسامة حينما يقول :

غير مجد في ملتي واعتقادي ‏ ‏ ‏ نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعيّ إذا قيس ‏ ‏ ‏ بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنت ‏ ‏ ‏ على فرع غصنها الميّاد

ولكنه سما بتفكيره إلى عالم الحقيقة عالم القيم المحضة المعينة المستقر الذي لا يتغير يجذبه نحوه كالمغناطيس وعلا به إلى مكانته العليا ووهبه قوّة على النهوض فوق قوّة مستواه الطبيعي فرأى أن العالم ليس مجرّد مجموعة ذرات مادية محشودة بدون معنى وأنه ليس مجرّد فراغ تدور حوله حياة الانسان ، فقال :

بوحدانية العلام دنا ‏ ‏ ‏ فذرني أقطع الأيام وحدي

وقال :

انفرد الله بسلطانه ‏ ‏ ‏ فما له في كل حال كفاء
ما خفيت قدرته عنكم ‏ ‏ ‏ وهل لها عن ذي رشاد خفاء

والبيت الأول لا يعدو قول الله عزّ وجلّ (قل هو الله أحد) إلى آخر السورة ، لأنه يثبت الوحدانية ويثبت القدرة بلفظ القرآن .

وقال :

أما ترى الشهب في أفلاكها انتقلت ‏ ‏ ‏ بقدرة من مليك غير منتقل

وهنا يقصد استقرار الموجود المطلق ، ثم قال :

والله أكبر لا يدنو القياس له ‏ ‏ ‏ ولا يجوز عليه كان أو صارا

وهنا قال بعالم لا يتناهى ومكان لا يتناهى وإلهٍ في هذا العالم لا يتناهى .

وقال :

هو الفلك الدوّار أجراه ربه ‏ ‏ ‏ على ما ترى من قبل أن تجري الفلك
له العز لم يشركه في الملك غيره ‏ ‏ ‏ فيا جهل إنسان يقول لي الملك
وأيامه منظومة في حياته ‏ ‏ ‏ ولا نظم يبقى حين يمتلئ السلك
خلقنا لشيء غير باد وإنما ‏ ‏ ‏ نعيش قليلاً ثم يدركنا الهلك

وهنا استمد ضرورة الايمان من ضرورة المنظم لهذه الخليقة التي حارت بها الافكار وهو يرى اننا خلقنا لشيء غير باد لعقلنا المحدود .

وهو بمناسبات عديدة يبين لنا اعتقاده القوي في الحياة الآخرة وعبادته الموجود المطلق عبادة خالصة لوجهه تعالى ، لاحبا بجنته ولا خوفا من ناره ، ومنها :

وقدرة الله حق ليس يعجزها حشر الخلق ولا بعث لاموات
فاعجب لعلوية الاجرام صامتة فيما يقال ومنها ذات اصوات

* * *

واعبد الله لاارجو مثوبته لكن تعبد اعظام واجلال
اصون ديني عن جعل أوءمله اذا تعبد اقوام باجمال

* * *

ماالخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وانما هو ترك الشر مطرحا ونفضك الصدر من غل ومن حسد
مادامت الوحش والانعام خائفة فرسا فما صح امر النسك للاسد

وقد وضع على مايفهم من نصوص الكتاب في زمن متأخر من حياته كتاب الفصول والغايات يقدس الله فيه ويبجله تقديس النادم المستغفر الذي يعتقد أن ذنوبه اعظم من ان تغفر واشد من أن تجد مجالا للغفران .

وللتدليل على ذلك اذكر لكم ماقاله في هذا الخصوص :

(استغفر من لايعزب عليه الغفران لو كانت الذنوب سودا صارت بشرتي كحلك الغراب واصبح دمي كالحبر المستمنعت للكتاب واعديت ماجاورني من وقت ومكان حتى يكون مقعدي في الشمس الصافية مظلما وانا في رأد الضحاء) وقد وضعه في تمجيد الله والمواعظ ، وقال :

(قد علم ربنا ماعلم اني الفت الكلم آمل رضاه المسلم واتقي سخطه المؤلم فهب لي مابلغ به رضاك من الكلم والمعاني الغراب) . والكتاب من الناحية العلمية متعة الاديب وامنية العالم ملأه بشتى العلوم من اللغة والادب والعروض والنحو والصرف والتاريخ والحديث والفقه والفلك ، بث فيه كل ماوعاه صدره من ألعلم وغيره مما لم يسبق لغيره جمعه بالطريقة التي سلكها ذلك انه يملي الفقرة على تلامذته

ثم يختمها بالغاية وهي عنده بمنزلة القافية من بيت الشعر ، وقد تطول الفقرة وقد تقصر ثم يملي التفسير .

فالمعري شاعر حقيقي وفيلسوف مزاجي واكبر مميزات شعره انه صادر عن الم فياض وهيجان نفسي، ولكن آراءه ساطعة وطراز تفكيره موافق لاصول مراقبة الوجدان وسبيل استدلاله مثال للمنطق الحسي وسلسلة محاكماته تنطلق من تموجات حواسه ، وطول عراكه في ظلمات الحياة ساقه للغضب وانكار قدسية الاديان .

وذهن المعري فعال في كل ميادين الحياة . وجوامع الكلم التي جاء بها غذاء روحي للمثقفين من ابناء الامة العربية .

وفعالية الملكات المعنوية في كل مؤلفاته والتنويع الذي لم يسبق اليه يجلبان لنا الدور الذي لعبه العقل والحس والالم وكلها تحتاج الى فكر وقاد ووجدان رقيق حساس وعلم جم والهام رائع يجب ان يحاكم من اتي بمثلها وجدانه قبل ابرازها محاكمة دقيقة وان يتنور كل مايحيط ويتمركز في قرارة نفسه ووعيه لانها لاترد عفوا ولا يمكن أن تأتي من العدم بل هي ثمرة عملية ذهنية مصقولة جريئة وليست مما يقدر أن يأتي به كل انسان بل خص بها الافذاذ وصقلها العلم والتفكير ولذلك فان شاعرنا الفيلسوف من ارباب الخلود الذين انارت خواطرهم وسوانحهم عقول المثقفين وزادوا ثروة العالم الفكرية ، فلا غرو اذاً ان يحتفل به العرب احتفال الامم الاخرى باكبر مفكريها .

اديب وهبه
مندوب شرق الأردن

المعري والمرأة

أبا العلاء ! هل كان يخطر ببالك أن تشترك امرأة في تقديرك وتكريمك ؟ أما تعجب ياعدو المرأة الجبار أن تقف امرأة الآن تفخر بك وتشيد بمآثرك ؟ اما تستغرب فيلسوف المعرة أن أقف اليوم لأعيد ماسطرته قريحتك الناقمة الفياضة من الطعن واللذع والحط من قيمتنا نحن معشر النساء ؟

ألست أنت القائل :

ألا إن النساء حبال غي ... بهن يضيع الشرف التليد

وهل تنكر قولك :

أتت خنساء مكة كالثريا ... وخلت في المواطن فرقديها
ولو صلت بمنزلها وصامت ... لالفت ماتحاوله لديها

وهل نسيت قولك :

ودفن والحوادث فاجعات ... لاحداهن احدى المكرمات

وقولك :

ودفن الغانيات لهن أوفى ... من الكلل المنيعة والخدور

مابالك أبا العلاء تسرف في تجريح المرأة فتراها شيطانة غي تجرر وراءها الفتنة حيث سارت وحيثما حلت وانى هبطت حتى ولو كانت في مكان من أقدس الاقداس .

وما الذي حدا بك حتى اوسعتها ذماً وتقريعاً ورغبت في دفنها وسلبها نعيم الحياة وعهدها بك تمقت القسوة والظلم فهل اعتقدت استحالة اصلاحها ؟ وليس عجيباً أن تشترك المرأة في احياء ذكراك وتكريم آثارك الخالدة بعد أن تناولتها بلسان لاذع وقول قارس لأن ظلمك الناس لم يكن مقتصراً على المرأة فحسب بل تناولت الرجل أيضاً بنصيب وافر من النقد والتشنيع إذ قلت :

فأف لعصريهم نهار وحندس ... وجنسي رجال منهم ونساء

فكنت إذا تحدثت عن الحاكم نعته بالظلم وعن الولد رميته بالعقوق وعن

الصديق وصفته بالختل والغدر وقد شككت بكل شيء حتى في القدرة الالهية فلا عجب إن شككت بعد هذا ، وكان حقاً عليك أن تنقلها الى جحيمك فتصليها بناره وتحرقها بأواره . ولكن المرأة المستضعفة في نظر الناس استطاعت أن تصمد أمام حملات طائشة مغرضة وأن تبقى أمد الدهر موئل الرجل وملاذه .

وأنا زعيمة بأن الرجل الذي يكثر من التحدث عن المرأة نقداً وتجريحاً ، قذفاً وتشويهاً انما هو اقرب الرجال الى المرأة واشدهم حبألها وايثاراً لأن من أحب الشيء اكثر من التحدث عنه .

سيداتي سادتي عاش أبو العلاء في عصر زهده في الحياة ورغبه عنها وملأ نفسه سوء ظن بها ، عصر فتنة واضطراب عصر ضج بالظلم والزور والبهتان ، عصر عم فيه الفساد وزرت العصمة ، عصر غمره الفجور فسادت فيه الإباحية الخلقيـة وهوت الحياة الاجتماعيـة الى أحط لدركات فتفسخت الأسـرة وعمت الفوضى ففضلت الاماء على الحرائر وتكونت لدى شيخنا المعري النواة الأولى لنسيجه الفلسفي التشاؤمي حتى صب نقمته على المرأة وعلى الحياة لابل على الوجود أجمع حتى أنه لم يستثن ذم نفسه حيث قال :

بني الدهر مهلاً ان ذممت فعالكم ... فاني بنفسي لامحـالة أبدأ

لاشك فيأن الآلام التي بلاها فيحياته جسدية أو روحية كانت العامل الأكبر في تشاؤمه وزهده في الحياة ، ففقدان بصره وحرمانه من عطف امرأة تحدب عليه وتحن إليه تشاركه آلام الحياة وتصور له مباهجها تخلق له جواً سعيداً يسهل لديه اسباب العيش ويحبب إليه البقاء تلك أسباب حملته أن يركب هذا المركب الساخط الصاخب على الحياة .

اجل لم يحظ أبو العلاء بعطف امرأة في حياته ولعله أصابه أذاها فمنعه كبرياؤه من ذكر هذا الأذى فنقم عليها نقمة الملتاع وأطلق لسانه في ذمها .

من يدري لو أن حكيم المعرة هذا لاقى حناناً واشفاقاً من شريكة أو اخت أو ابنة لما ضن عليها بوفاء أو ثناء ولكف عن ذمها وأخمد من نار عدوانه لها وحقده عليها . على أن شذوذه حمله على التناقض في رأيه فبينما نراه يطعن بالمرأة ويصب عليها اللاعنات نراه يشفق عليها وينكر تعدد الزوجات ويندى عداوته حين يذكر المرأة الأم بقوله :

العيش ماضٍ فأكرم والديك به ... والأم أولى بإكرام وإحسان
وحسبها الحمل والارضاع تدمنه ... مران بالفضل نالا كل إنسان

تلك الأم التي عد نعيها اكبر صدمة من صدمات الدهر أتم بها بناء بيته المظلم من الحزن الذي لزمه طيلة حياته ففاضت شاعريته برثائها بقصيدتين مفعمتين بالزفرات الحارة التي كان يصعدها بعد وفاتها .

سيداتي سادتي لو كنا جميعاً معشر النساء والرجال في عصر أبي العلاء وتوالت علينا مصائبه وويلاته لاشتركنا معه في وضع المرأة بأحط منزلة في ذمة التاريخ .

ولو شهد فيلسوف المعرة عصرنا هذا عصراً اشتركت فيه المرأة مع الرجل في العلم والأدب والفلسفة عصراً برهنت فيه أنها مبعث إلهام الرجل وموقظ القوى الخامدة فيه ، عصراً شعر الرجل فيه أنه بجانب شريكة تبادله الرأي وتشاطره آلام الحياة وافراحها ، عصراً ظهرت فيه دائبة لاتمل متحركة لاتسكن نشيطة لاتفتر ولجت ابواب العلم وضحت بكل غالٍ وثمين لكشف النقاب عن أعظم سر من اسرار الوجود خلص البشرية من أكبر الآفات ، عصراً قطعت فيه السنة من كانوا يصمونها بالضعف بما خلدته من المآثر العلمية والأدبية .

لو شهد المعري هذا العصر لغير رأيه في المرأة فما آذى شعورها ولا جرح إحساسها وقدسها أجل تقديس ونالت من نفسه مكانها الأسمى ولسكن الى زوج جعلت من نفسه المتشائمة المظلمة نفساً مشرقة متفائلة تريه السعادة في الشباب والهرم في الغنى والفقر في الصحة والمرض وتنير الناحية المظلمة من آرائه وافكاره ، وتترجم خلجات نفسه ووحي شعوره وتكشف النقاب عن الكثير من كنوز اسراره .

لك العذر أبا العلاء لأن المرأة لاتعدم في كل عصر عدواً لها يرى في كل عمل من أعمالها نقصاً وفي كل حركة من حركاتها عيباً ولكن المرأة يذكي نشاطها النقد ويقوي حركتها التهجم ونحن مهيئات انفسنا لاقتحام كل صعب وتخطي كل حاجز بعزيمة لاتخور وهمة لاتفتر .

جيهان الموصلي
مندوبة الندوة الثقافية النسوية

ابو العلاء واقطاب الفكر المحدثون

ايها الحفل الكريم ،

يسرني قبل البدء بالكلمة التي أعددتها لهذا المهرجان ان أذكر حضرتكم وحضرة الآنسة الموصلي ان عدو المرأة في الوقت الحاضر هو توفيق الحكيم وان الدكتور طه حسين بك والدكتور مهدي البصير والداعي الماثل أمامكم من عشاق المرأة وأنصارها . المؤمنين بجليل قدرها وخطير شأنها في حياة الافراد والشعوب ، وأن لنا أزواجاً واولاداً من اجلهم نحيا لا من اجل أنفسنا فعفواً أيتها الآنسة الفاضلة واغفري ذنب أبي العلاء الذي يكفيه جزاء ان حرم عطف المرأة وخانها. تلك المرأة التي قال الله عنها في كتابه العزيز = « ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . الآية . . »

وبعد انتقص قدر أبي العلاء بعض مواطنيّ اللبنانيين بغية النيل من الثقافة العربية وتقديس الثقافة الغربية الحديثة فعز عليّ وانا المدافع بحكم حرفتي على المجرمين أحياناً ان لا ادرأ الظلم عن أمة لم يعرف التاريخ بين الغزاة من هو ارحم منها ، وعمن يُمثل ثقافتها أحسن تمثيل ، لا سيما أن بيني وبينه رابطة العاهة .

وقد رأيت خير سبيل للرد على مواطنيّ المصابين بهوس الاستغراب ولاظهار الحق أن أقارن بين المعري والمفكرين الغربيين المحدثين جملة وأن أختار موضوعاً لهذه المقارنة الخاطفة اسمى مالدى الانسان من مميزات — العقل والقلب .

يفتخر العلماء الغربيون بالاعصر الحديثة افتخاراً عظيما ويدعونها بأزمنة النور لاستعادة العقل فيها سلطانه المسلوب وبسط نفوذه على المذاهب والآراء والمعتقدات كافة .

بيد أننا لو أجلنا الفكر في تلك الازمنة المضيئة لتبينا أن ضياءها كان في أكثر الاحيان كسماء البلاد التي انبثق فيها مشوهاً غير خالص النقاوة والصفاء وسر ذلك أمور أخصها وأعمها معاً هو أن فريقاً من أئمة المفكرين الذين أوجدوا ذلك الضياء

لم يعترفوا بحقوق العقل الطبيعية ولم يتركوه حراً طليقاً يستشف الحقائق من وراء الحجب والاصداف التي نسجتها الاعصر المظلمة بسخافاتها وأهوائها المزمنة المتراكمة .

فالفيلسوف الفرنسي الامام « ديكارت » مثلا بالرغم من تمجيده العقل تمجيداً عظيماً وتوجيهه الفكر الحديث نحو التنظيم لم يعلن سيطرة العقل على المعارف كلها بل استثنى منها كل ما تعلق بالكنيسة وتعاليمها ، وقال بوجوب الأخذ بتلك التعاليم كما هي دون ما نقد ولا تمحيص .

وإذا ذكرنا ما كان للكنيسة في عصر «ديكارت» من اثر بين في صميم الحياة الغربية الخاصة والعامة ادركنا دون عناء مدى الافق البعيد الذي اعتبره أمام العقليين المحدثين حراما وحذر العقل أن يضيئه بشعاعه .

وإذا انتقلنا من «ديكارت» الى «بسكال» وجدنا عند هذا المفكر المشهور ما يدهش من لا يدهش ، ذلك أنه بعد أن نهج في الشطر الاول من حياته ازاء العقل نهج «ديكارت» لم يلبث أن رجع في الشطر الثاني منها عن هذا المنهج وانطلق — على أثر حادث عربة جرت له فنجا منها كما يقولون — ينتقد العقل إنتقاداً شديداً — ويدعو إلى تمجيد الكنيسة واعتبارها وحدها — ام الحقائق .

وفضلا عما تقدم ان أكثر هؤلاء المفكرين وإن اعترفوا في القرن الثامن عشر وما يليه بسلطان العقل فانهم لم يتجردوا في اغلب الاحيان عما انطبع أو اشتد في أنفسهم وأذهانهم من أهواء ومعتقدات .

وحسبي أن أذكر حضرتكم أن المفكر الاجتماعي العظيم « مونتسكيو » على الرغم من وجوده في عصر كله تحرر وانطلاق من سلاسل الماضي واغلال العهد الاقطاعي فانه لم يتجرد عن هواه الطبعي الموروث بل طالب بالمحافظة على امتيازات النبلاء وان المؤرخ الاشهر «ميشيله» لم يتجرد عن هواه الحزبي فشوه عامداً متعمداً وجه تاريخ امته تشفيا من الملكية والملكيين . وان أكثر المستشرقين والمستعربين لايتجردون عن شعوبيتهم ضد العرب والاسلام فيشوهون الحقائق ويحرفونها عن مواضعها تحريفاً لبقاحيناً وحيناً وقاطعاً منهم في هدم ايماننا بماضينا وأملا بان يتبع ذلك انهدام ثقتنا بمستقبلنا فنبقى بلا أمل ولاطموح وتبقى للغرب الغلبة علينا أبد الدهر .

اما أبو العلاء خير من يمثل الفكر والثقافة العربيين وان جارى العاطفة حين لها أو الق نفسه امام المعضلات الفلسفية الكبرى التي لم يطق حلها والتي لايستطيع العقل الانساني استكناه اسرارها فانه لم يتهيب مبدئيا حرمة الماضي ولا قداسة تراث الاباء فاعمل فيها العقل غير هياب ولا متحفظ كما اعمله في كل شيء لاقتناعه ان العقل سبيل المعرفة العلمية الاوحد .

كذب الظن لاامام سوى العقـــــل مشيراً في صبحه والمساء

وواضح ان هذا البيت المشهور الرائع في لفظه ومعناه ليس من شوارد الخيال أو فلتات اللسان عند المعري ولكنه في رأيه اعلان حقوق العقل وان شئتم تعبيراً احدث فقولوا انه ميثاق المعرة بل بيان حكيمها الفكري اذاعه على المفكرين من الف عام وكان من اول من تقيد به في كل موضوع تناوله بالبحث لم يفرق بين ان يكون الموضوع دينياً أو غير ديني اسلامياً أو غير اسلامي عربياً أو غير عربي .

ولا شك ان بحث هذه الموضوعات وما اليها بالعقل المتجرد عن الميل والهوى ليس بالشيء اليسير حتى عندصفوةالعلماء والمفكرين مثل « ميشله » و « مونتسكيو » كما اسلفنا بل هو من اصعب الامور واشقها على النفس لما يستلزم ذلك من انكار ماانغرس او اشتد فيها من اهواء ومعتقدات امتزجت بالنفس امتزاجاً تاما واصبحت مع الزمن جزءاً من اجزائها بل كيانها المعنوي حتى انا لنفكر باهوائنا ومعتقداتنا واوهامنا اكثر مما نفكر بالعقل .

ولولا أن أبا العلاء من احد الناس ذكاء واثقبهم فكرا وارجحهم عقلا واشدهم انقطاعا عن اسباب الدنيا لما استطاع بلا ريب انيبحث كل موضوع عالجه بالعقل ولا ان يبلغ تفكيره ذروة التحرر والانعتاق حتى اتت آراؤه رغم مابينها من تناقض احياناً حقائق نقية صافية لايشوبها قصر نظر « ديكارت » ولا هوى « مونتسكيو » ومن نحا نحوهما في البحث والتفكير .

بيد أن تفوق أبي العلاء على اكثر المفكرين الغربيين المحدثين لم ينحصر في الناحية العقلية النظرية البحت بل تعدى ذلك الى الناحية الخلقية العملية أيضاً .

فبينا نرى الاديب والمصلح الفرنسي الاشهر « فولتير » مثلاينفق القسم الاكبر من اوقاته في تملق الملوك والامراء وذوي الوجاهة والثراء فيحوك معهم أو ضدهم

مختلف الشباك نبيلها وحسيسها لجلب الدنيا حلالا أو حراماً ، وبينا نري الفيلسوف الانكليزي الامام« بيكون »بالرغم من ثروته الطائلة وجاهه العريض ومنصبه السامي في الدولة يأكل اموال الناس بالباطل فيحكم عليه بالزج في غيابة السجن اعواما ، وبينا نرى الفيلسوف الالماني الشهير « لايبنتز » يوغر صدر المليك الغازي لويس الرابع عشر على الشرق ويقدم له مشروعاً خطياً منطوياً على افناء الملايين من الشرقيين لالجرم ارتكبوه بل لمجرد انهم مسلمون أي أن لهم في عبادة الخالق مذهباً غير مذهبه ، وبينا نرى طائفة من المستشرقين يتخذون العلم اداة للفتح والاسترقاق ويعتبرون الامم والشعوب المستضعفة اقنانا لمجتمعاتهم وعبيداً كما كان اباؤهم الاقطاعيون يعتبرون تلك المجتمعات ذاتها اقنانا وعبيداً .

بينا نرى كل هذا وأكثر من هذا عند فريق من مصابيح ازمنة النور اذا بمفكرنا العربي المحتد والمنشأ أبي العلاء يرفق بالطير والانسان والنحل والحيوان على حد سواء واذا به يأبى التكسب بالشعر مخافة أن يغتصب بواسطة الحكام والامراء الممدوحين مال الشعب والفقراء . واذا به يعتبر البشر قاطبة سواسية لافرق عنده كما قال بين هاشمي وآل بربر ولا بين الامام علي كرم الله وجهه ومولاه قنبر ، واذا به يتعالى عن الدنيا ويأبى الا ان يعيش على هامش الحياة مكتفياً منها بما لايكاد يقيم اوده .

واذا قيل أن أبا العلاء لم يترفع عن الدنيا الا بسبب العاهة التي اطفأت النور من عينيه وغمرته منذ الطفولة بالظلمة الدائمة فاني اذكر حضرتكم ان تلك العاهة ذاتها لم تمنع الدكتور طه حسين بك ولا الدكتور مهدي البصير ولا بشار بن برد ولا الشيخ سليمان الفاروقي ولا الماثل امامكم عن طلب الدنيا واستمراء مابثلنا الله فيها من نعمة كما ان وجود الضياء في عيني « كانت » و « سبينوزا » لم يمنع هذين الفيلسوفين العظيمين عن التزام حياة العزلة والتقشف حتى ان « سبينوزا » وهو اليهودي النجار لم يقبل اكثر الهدايا والمرتبات التي عرضت عليه من الامراء والاغنياء بل أبى الا أن يعتاش من مهنته اليدوية الشاقة وهي صنع زجاج النظارات .

ولا ريب ان هذه الامثلة وما اليها تثبت بصورة لاتحتمل الجدل ان العمي ليس

في حد ذاته سر الاعراض عن متع الحياة وان سلامة البصر ليست في حد ذاتها سر الاقبال عليها .

اما الوقار الذي يعتبره الاستاذ العقاد سر التقشف عند أبي العلاء وان حال بلا ريب دون التهتك والاستهتار فانه لايحول ابداً دون اللذائذ والمسرات التي يبيحها العرف وتقرها الشرائع والانظمة .

فاعراض أبي العلاء عن متع الحياة ليس اذاً صدى عاهته المشهورة كما يتوهم بعض المفكرين ولا نتيجة وقاره المعروف كما يعتقد الاستاذ العقاد ولكنه منبعث عن اسباب وعوامل وان عزت معرفتها معرفة دقيقة لتعلقها باختلاجاته النفسية الداخلية فان اهمها على مايظهر لي ، مزاجه الخاص ثم ماشهد من عسف يرافق الحياة ويتغلغل في صميم مظاهرها المختلفة .

تغني أيام أبي العلاء كاعب من الكواعب كام كلثوم في زماننا مثلا ساعة أو بضع ساعات فتحبى الف دينار ، إن لم أقل أكثر ، فوق ما تحبى من نشوة الزهو والاعجاب ويشتغل عامل من العمال أو فلاح من الفلاحين الدهر كله فلا ينال لقاء أعماله المرهقة العائدة على المجتمع بالنفع العميم والخير المظيم ما تحبى تلك المغنية في حفلة واحدة . ولنقل مثل ذلك عن تاجر يبرم عقداً من عقود البيع او الشراء فيكسب من المال في دقائق مالا يكسبه الف قطب من أقطاب الفكر والادب أنفقوا أعمارهم في خدمة العلم والانسان .

هذه هي الحياة في عصر أبي العلاء وهكذا كانت في كل عصر من العصور وفي كل مجتمع من المجتمعات وهكذا ستكون مادامت على الارض حياة وما دام فوقها بشر يختلفون مواهب وحظوظاً .

وبين أن حياة كهذه قوامها الظلم وفلسفتها أبداً الاخلال بالتوازن بين ماللمرء وما عليه ، بين ما يعطي وما يأخذ ، مايستحق وما ينال ، ليست مما يغري حكيماً كأبي العلاء حرم على نفسه اللحم والعسل مخافة أن يعتدي على ما للنحل والحيوان وامتنع عن الزواج مخافة أن يجني على نفس بشرية بشقاء الوجود .

إن حب الحقيقة دعا أبا العلاء الى إنكار مالم يوافق من المذاهب والآراء والمعتقدات

عقله فلا عجب ان يدعوه مزاجه الحساس النبيل وحبه العدل الى ترك مالم يرض من اللذائذ والمسرات وجدانه .

وعلى كل حال وأيا كان السبب الذي أهاب بحكيم المعرة الى التزام حياة العزلة والتقشف فمما لا يقبل الجدل ان أبا العلاء قطب من أقطاب الفكر والفضل والادب وركن من أركان الثقافة والعدل والرحمة وانه إذا جاز للغربيين ولبعض مواطني اللبنانيين المصابين بهوس الاستغراب أن يفخروا بالاعصر الحديثة ويدعوها بازمنة النور فان من حقنا أن نمجد أبا العلاء وأن ندعو مفكرنا العربي الاعمى بالضياء بل بالشمس طلعت في معرة النعمان فاضاءت الشرق والغرب باشعتها النقية الخالدة خلود الفكر .

عارف العارف

مندوب الحكومة اللبنانية

كلمة الاذاعة الفلسطينية

يطيب لي أن أقف موقفي هذا في حفلكم العظيم الكريم فاشترك بالنيابة عن دار الاذاعة الفلسطينية في القدس . فاتقدم بالشكر والتقدير العظيمين للمجمع العلمي العربي الموقر وللجمهورية السورية الجليلة على ماصنعت أيديهما للادب العربي وللفكر العربي وللنهضة العربية جميعاً بما نظمت هذا المهرجان الالفي لذكرى أبي العلاء وكماقد أحسن المعري إلى الادب العربي والفكر طوال هذه القرون العشرة الماضية فقد أحسن الادباء والعلماء الذين عرفوا في أبي العلاء أدبه العميق وفكره الخالد السامي فعرفوه إلى الناس ونوهوا به في الشرق والغرب — أقول كما قد أحسن هؤلاء الادباء والعلماء محدثين وقدماء إلى الادب والفكر معاً بما قد قدموا للناس من شرح للادب العلائي والفلسفة العلائية . فقد أحسن المجمع العلمي العربي في دمشق وأحسنت الجمهورية السورية الجليلة بحفاوتها اللائقة هذه بذكرى ذلك الشاعر العظيم والفيلسوف الحكيم فاحييكم أيها السادة الاعلام . وأنقل لكم تحية فلسطين بهذه المناسبة السعيدة العظيمة .

أيها السادة الاجلاء لست أقصد هنا الى البحث في أدب أبي العلاء وفكره وفلسفته ولن يكون هذا القصد موفقاً . وأنا أعلم أن فيكم من تفرغ لابي العلاء وتعرف الى أبي العلاء وعرف بابي العلاء على نحو يدعو الى الاعجاب والتقدير حقاً . وانما أقصد كما قد أشرت الى أن أعرب عن شكر فلسطين للقائمين بهذا المهرجان العظيم وبهذه الحفاوة البالغة لذكرى علم من أعلام الفكر العربي معلناً بذلك انهذا المهرجان سيكون خدمة جديدة لكنها بارزة تضاف الى ماقد أدى الى الفكر العلائي من احسان وخدمات .

على أنني فيما ازجي كلمة الشكر والتقدير هذه لايسعني الا أن افضي أمام هذا المحفل الكريم بان فكر المعري انما قد خلد هذا الخلود لانه أثار مشاكل في هذه الحياة ماتزال قائمة . ومع ان الدراسات التي ظهرت للمعري وتظهر الان ستظهر

بسبب هذا الاحتفاء نفسه كثيرة . فان بسط هذه الفلسفة لم يستنفذ بعد . وان لاولي الاقلام وحملة الفكر في بلادنا لمجالا وأي مجال في هذا المضمار الفسيح .

وليس هذا المهرجان الذي تجمع عليه البلاد العربية هو وحده شاهداً على أن أدب المعري خالد ولكن هذه الدراسات المتوالية في غضون القرون العشرة المنصرمة شاهد آخر . وليس هذا غريباً فالرجل الذي قال عن وجوده .

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد .

والرجل الذي قال عن الحكام الجائرين .

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

والرجل الذي قال :

يرتجي الناس أن يقوم امام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لاامام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

الرجل الذي قال هذا وغيره انما اثار مشاكل لاتزال ماثلة وهذا هو لعمر الحق سر الخلود .

غير أن الانصاف يقضي بالقول أن فلسفة أبي العلاء اثارت مشاكل ولم تشر الى حلها ولعل حل هذه المشاكل أن يكون من واجب المدنية الحاضرة في ديمقراطيتها الصحيحة . بل لعله يكون من حقنا أن نأمل ذلك ليتم لرجال الفكر في العالم العربي الحديث مابدأ به أبو العلاء .

وقد ينسى الناس أبا العلاء عند مايجدون سبيلهم الى حل هذه المشاكل فينعمون بالمدنية زاهرة زاهية بريئة من اسباب الكدر والشقاء . ينسونه اذا هم فقدوا يومئذ حس الوفاء وعرفان الجميل وهيهات لهم أن يفعلوا وهيهات اذن أن لايظل أبو العلاء خالداً

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عزمي النشاشيبي
مندوب الاذاعة الفلسطينية

لزوم ما لا يلزم في الأدب العربي (١)

مدخل البحث

كنت منذ حين أتوقع قيام المجمع العلمي العربي بقضاء حق واجب عليه لأبي العلاء المعرّي فالمعرّي من حيث منهجه في البحث العلمي اللغوي في أكثر كتبه المعروفة ما هو إلا مجمع من أعظم المجامع العلمية وأكثرها عائدة على الأدب واللغة ولست مغالياً إذا قلت أن المعرّى سبق زمانه بألف سنة فى القيام بأعظم ما تقوم به المجامع العلمية الحديثة من المهام وقد تخلى عن جميع متع الحياة لينجز بمفرده عملاً عجز عنه جمع غفير من العلماء فهو والحالة هذه أحق أئمة العلم واللغة والشعر بهذا المهرجان وقد فطن مجمعنا العلمي العربي إلى ذلك فنهض بواجبه وأدى الحق لصاحبه وهي لعمري مأثرة من مآثره وحسنة كبرى تضاف إلى حسناته الأخرى .

كنت من جملة من دعي إلى المساهمة في هذا المهرجان وقد تلقيت دعوة الرئيس بكثير من الابتهاج وذلك لولعي بأدب المعري منظومه ومنثوره بيد أني تحيرت بأي ناحية من نواحي المعري أبدأ وهي والحق نقال كثيرة يحار فيها الكاتب والأديب أأكتب فصلاً في سيرة المعري وأخباره أم في عصره وأحواله فأردد ما كتبه المؤرخون أم أملي كلمة في حكمة المعرّي وآرائه في الحياة وهو موضوع كثر خوض أعلام الفكر والأدب فيه أم أنشيء مقالة في أدب المعرّي وهو بحث مطروق ثم نظرت فاذا أمامي نسخة محصلة مختارة من اللزوميات طالما تأملتها واستوحيتها في شرخ الشباب وقد ألهمتني هذه النسخة الآن أن أكتب في هذا الموضوع ألا وهو لزوم ما لا يلزم في تاريخ آداب اللغة العربية .

(١) الكلمات التي بعث بها أصحابها لتنشر في الكتاب بعد أن تعذر حضورهم إلى دمشق في أسبوع المهرجان .

لزوم مالا يلزم في تاريخ آداب اللغة العربية

في لزوميات المعري نواح جمة تثير فينا حب الدرس والنظر فمن ذلك ناحيتها الفلسفية وهي أوفر نواحي اللزوميات حظاً من عناية الادباء فقد افردوا فيها الرسائل والفصول غير انه قلّ من أفرد بحثاً في تاريخ تطور هذا الفن المسمى « لزوم مالا يلزم » وكيف نشأ في الأدب العربي سواء أكان ذلك قبل عصر المعري ام بعده لذلك رأيت من المفيد الالمام بهذه الناحية الادبية اللغوية من نواحي اللزوميات ومن الواضح انه لاعلاقة البتة لهذا البحث بالفلسفة العلائية .

لزوم مالا يلزم في شعر العرب

قال أبو العلاء المعري (١) :

كثيّر انا في حرفي اهبت له ... في التاء يلزم حرفا ليس يلتزم

أبى شاعرنا الحكيم الا ان يكون مؤرخا في بيته هذا يؤرخ الفن الذي احبه ونذر له نفسه ألا وهو التزام مالا يلزم .

يقول أبو العلاء انه حـذا حذو كثيّر عزة الذي التزم اللام في تائيته التي يقول في مستهلها :

خليليّ هذا ربع عزة فاعقلا ... قلوصيكما ثم احللا حيث حلت

وهذه القصيدة — وهي مما يستجاد من شعر العرب — تعد حسب رواية القالي (٢) خمسة وثلاثين بيتا بناها من اولها الى آخرها على التزام حرف معين قبل الرويّ وهو امر لم يسبق اليه شاعر من شعراء العرب وله قصيدة أخرى اولها :

أدارا بسلمى بالنباع فخمت ... سألت فلما استعجمت ثم صمت

فلزم الميم كما فعل باللام فهل كان كثير اول شاعر استخدم هذا النوع من انواع البديع فقلده الشعراء وهل اراد المعري ذلك ؟ الجواب كلا . ومن رأيي أن المعري في اقتدائه بكثير عزة لم يفعل ذلك لان كثيراً اول من استخدم هذا الفن كما توهم فريق من علماء البيان بل لأن لزوم مالا يلزم لم يرد الا نادراً في شعر العرب

(١) اللزوميات ٢ : ٢٣٠ ط الجمالية سنة ١٣٣٣

(٢) امالي القالي ٢ : ١٠٩

قبل عصر كثيّر كما انه ورد عفوا في نبذ ومقطوعات قصيرة اما كثيّر فقد نظم اشهر واطول قصيدة لزومية تناقلها الرواة وبذلك يتداعى زعم من زعم غير هذا من علماء البديع . وفي مقدمة اللزوميات للمعري نفسه مايفند مزاعم القوم ففي المقدمة المذكورة (١) شواهد تدل على أن هذا النوع من أنواع البديع ورد في شعر الأعشى وطرفة والنابغة وعمرو بن معد يكرب وغيرهم من القدماء ولا حاجة إلى القول بأنه شيء غير مقصود وقد ورد عفواً في شعر القوم أو في كلامهم المطبوع أما صاحبنا كثيّر فقد تصنع وقصد التفنن في تائيته فحذا حذوه الشعراء وحسب كثير أن يعترف المعرّي له بهذه الفضيلة .

وللمعرّي فصل لطيف في تاريخ علم القوافي ومصطلحاتها أو ألقابها كما يقول وهل هي — أعني مصطلحات القافية — من وضع العلماء في عصر التدوين أم تلقيت عن العرب فان سكان العمد وإن كانوا لا يعقلون هذه المصطلحات إلا أنه وجد فيهم من يعرف مواقع الحروف ويقرأ ويكتب وقد ورد في هذا الفصل من مقدمة لزوم ما لا يلزم ذكر الخليل وسعيد بن مسعدة (٢) والفرّاء وخلف بن حيان من علمائهم بالشعر والنحو واللغة وقد استنبط المعرّي من الباب الذي عقده أبو عبيدة القاسم بن سلام للبحث في القوافي (في كتابه الغريب المصنف) ومن إسناده لها عن الشيوخ ان صاحب الغريب يرى أنها أي المصطلحات مأخوذة عن العرب كما تؤخذ عنهم اللغة وهذا الفصل الذي كتبه المعري من أقدم ما وصل الينا في هذا الموضوع (٣) .

هذا وقد أكثر شعراء العرب قبل كثير عزة وبعده من التزام ما لا يلزم قبل تاء التأنيث هذه فتارة يلزمون اللام كما رأيت في قصيدة كثير وهو الأكثر وطوراً يلزمون الميم وقد يلتزمون غيرهما من الحروف وأكثر ما اتفق لهم في ذلك من الشعر يعدّ من الرائق المستجاد ومن هؤلاء الأعشى وعمرو بن

(١) مقدمة اللزوميات للمعري ١٩ و ٢٠ ط الجمالية سنة ١٣٣٣

(٢) هو ابو الحسن المعروف بالاخفش الاوسط انظر نزهة الالباء ١٨٤ ومعجم الادباء ٤: ١٢٢ و ١٢٦

(٣) مقدمة للزوميات ١١ و ١٢ ط الجمالية سنة ١٣٣٣

معديكرب ومن بعدهم يعقوب بن سليمان بن طلحة بن عبدالله ومن أحسن شواهد هذا الباب وأشهرها الأبيات التي أولها (١) :

سأشكر عمراً ان تراخت منيتي أيادي لم تمنن وإن هي جلت

وأول أبيات الأعشى :

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي وراكبها يوم اللقاء وقلت

وأول أبيات يعقوب بن سليمان (٢) :

وقد كنت لي حسباً من الناس كلهم ترى بك نفسي مقنعاً لو تملت

ومن القوافي التي التزم فيها العرب ما لا يلزمهم كاف الاضمار في مثل « جمالك وشمالك » وقد التزموا اللام فيها قبل الضمير وقد علل المعري التزام العرب بذلك في خصوص هاتين القافيتين أعني التائية والكافية بأن تاء التأنيث هذه وكاف الاضمار ضعيفتان وكلتاهما من حروف الهمس (٣) فكأن اللام الملتزمة في هذه القصائد هي القافية وكأن كلاً من التاء والكاف صلة لها لا أكثر .

هذا ويمكن أن يلتزم الشاعر حرفين أو أكثر إلى أربعة أحرف أو خمسة (٤) وممن بلغ الغاية في ذلك أبو العلاء المعرّي نفسه فقد بنى قافية على « دارهم مزدارهم صدارهم » ملتزماً فيها أربعة أحرف وبنى أخرى على « ضرائرهم حرائرهم سرائرهم » ملتزماً فيها خمسة أحرف وثالثة على « يعذبون يكذبون يجذبون » ملتزماً فيها أربعة أيضاً إلى غير ذلك .

لزوم ما لا يلزم في أدب المولّدين

لزوم ما لا يلزم معدود على الأكثر من صناعة المحدثين أو المولدين كبقية أنواع البديع فالمحدثون استخدموا هذا الفن فأكثروا من استخدامه عن علم

(١) رويت الأبيات المذكورة في كتب الأدب لجماعة منهم عبد الله بن الزبير على وزن [فتيل] ومحمد بن سعيد البغدادي وابراهيم بن العباس الصولي وغير هؤلاء . ومن نسبها إلى الصولي ابن خلكان في الوفيات ٣ : ٢٣١

(٢) ذيل أمالي القالي ٢٩

(٣) مقدمة اللزوميات ١٨ ط الجمالية سنة ١٣٢٣ ويقول المعري ان حروف المعجم متساويات في القوة الا ما ذكر من التاء والكاف المصدر نفسه ٢٧

(٤) المصدر نفسه ٢٨

وخبرة وبذلك تميزوا عن القدماء ومن أوضاع المحدثين على الأغلب هذه الألفاظ أو الألقاب التي أطلقوها على فنون البديع ولذلك لا يكاد يخلو شعر شاعر من فحولهم من لزوم ما لا يلزم نجده في شعر أبي نواس على قلة وهو أكثر في شعر أبي تمام ولا يخلو شعر البحتري منه قال المعرّي (١) وقد بنى أبوعبادة قصيدة على الطويل الأول وجعل قوافيها على « اروى وجدوى » فلزم الواو إلى آخر القصيدة فقد لزم فيها ما لا يلزم أن جعل رويّ القصيدة الألف أما ابن الرومي فهو على ما يقول علماء الأدب والبيان من أكثر المحدثين ولعاً بلزوم ما لا يلزم قال المرزباني « ابن الرومي أشعر أهل زمانه بعد البحتري وأكثرهم شعراً وأوسعهم افتناناً في سائر أجناس الشعر وضروبه وقوافيه يركب من ذلك ما هو صعب متناوله على غيره ويلزم نفسه ما لا يلزم ويخلط كلامه بألفاظ منطقية يجمل لها المعاني ثم يفصلها بأحسن وصف وأعذب لفظ(٢) » وقال الزيدي كان ابن الرومي من أكثر الناس ولعاً بلزوم ما لا يلزم في شعره(٣) إلا أن المعري أغفل ذكره في من ذكر في هذا الباب مع أنه أولى المولدين بذلك وهو خاصة أولى من البحتري لأنه أكثر استخداماً منه لهذه الصناعة ولا ندري على وجه التأكيد علة ذلك الاغفال ونرجح أن للمعري رأياً خاصاً في صاحبه ونحن نعلم أن الاثنين مختلفان في المذهب والمزاج متباينان في الطباع ومن رأي المعري على الأرجح ان ابن الرومي مدخول العقل كما يظهر من وصفه له في رسالة الغفران (٤) ويؤخذ على ابن الرومي شيء من الغموض والتعقيد وله أسلوب في البيان يفتقر إلى الصقل والعناية وإلى ذلك يومي المعرّي في قوله (٥) :

لو نطق الدهر هجا اهله كانه الرومي أو دعبل

(١) مقدمة اللزوميات ٢٨ وأول قصيدة البحتري المذكورة :

لنا أبداً بث نعانيه في أروى وحزوى وكم أدنتك من لوعة حزوى

(٢) معجم الشعراء ٢٨٩

(٣) يحيى بن حمزة الزيدي في الطراز ٢ : ٤٠٢

(٤) رسالة الغفران ١٦١ ط مصرية قديمة

(٥) اللزوميات ٢ : ١٦٣

وهو لعمري شاعر مغزر   بالفعل لكن لفظه مجبل

اقسام اللزوم

لم يعرف القدماء الا نوعاً واحداً من لزوم مالا يلزم وهو ماىنيت عليه لزوميات المعري بيد أن المتأخرين حاولوا اضافة اقسام اخرى الى هذا الباب من ابواب البديع ومن هذا القبيل قسمٌ سموه « المجنب » وهو أن يجمع في القافية بين كلمتين احداها كالجنيبة التابعة للأُخرى مثل قول أبي الفتح البستي :

أبا العباس لاتحسب باني   لفقري من حلى الاشعار عاري
فلي طبع كسلسال معين   زلال من ذرى الاحجار جاري
وما اكبت لي الايام زندا   فلي زند على الادوار واري

وهذا هو رأي كل من ضياء الدين بن الاثير(١) وعبد الحميد بن أبي الحديد (٢) والاكثرون على انه نوع من انواع الجناس وسموه « المزدوج » أو « المردد » (٣) هذا ومما عده المتأخرون من اقسام اللزوم « تصغير القافية » مثل قول الشاعر :

عز على ليلي بذى سدير   سوء مبيتي ليلة القمير

قال ابن الاثير اذا صغرت الكلمة الاخيرة في الشعر فان ذلك ملحق بلزوم مالا يلزم (٤) » وقد نظم المتأخرون ونثروا بالفاظ كلها معجمة أو كلها مهملة أو جميعها متصلة أو بالعكس وبالغ كثير منهم في العبث بهذه الصناعة اللفظية وعدّ قوم هذا من قبيل لزوم مالا يلزم قال العباسي (٥) ومما يلحق بهذا النوع يعني لزوم مالا يلزم مايختبر به الادباء افكارهم ويشحذون به قرائحهم من التزام حروف جميعها مهملة أو جميعها معجمة أو لاتنطبق معها الشفتان الى غير ذلك من التفننات ويغلب على الظن أن للزوميات المعري دخلا في اتساع القوم بهذا النوع من التصنع

(١) المثل السائر ١٠٣

(٢) شرح النهج ٢ : ٣٨٦

(٣) يحيي بن حمزة الزيدي في الطراز ٢ : ٣٧٤ وراجع أيضاً المثل السائر ١٠٣ وشرح النهج ٢ : ٣٨٦ وجنان الجناس للصفدي ٢٧ قال : ومنهم من يسمي هذا النوع « المكرر » و «المردد» وللصفدي في هذا الكتاب بعض اللزوميات .

(٤) المثل السائر ١٠٨

(٥) معاهد التنصيص ٢ : ١٠٦

بعد العجز عن محاكاة المعري في فنه زاعمين أن ذلك من قبيل لزوم مالا يلزم وليس منه في شيء ومهما كان فهو توسع لاأثر فيه للابداع ولا طائل تحته وانما هو عبث الأدباء في عصر استولى فيه الجمود واستحوذ الخمول على الافكار .

القاب اللزوم

ويبدو لنا من تصفح الكتب اتي الفها علماء البيان أن لهذا النوع من انواع البديع عدة القاب ظهرت في مختلف العصور ومن اقدمها « الاعنات » من العنت وهو الكلفة والمشقة وهو على ماأظن اول لقب اطلق على هذا الفن وبه عرف في كتب البلاغة والبيان التي الفها القدماء مثل ابن المعتز (١) وغيره وقد استعمل هذا اللقب مدة بعد عصر ابن المعتز الى أن تغلبت عليه وعلى بقية اسمائه كالتشديد والتضييق الكلمة الشائعة اليوم وهي « لزوم مالا يلزم » وذلك في عصر المعري أو في عصر قريب منه وخاصة بعد أن ظهر ديوان اللزوميات .

لزوميات المعري

كثرة الالتزامات في شعر المعري

عرفنا مما مرّ ان لزوم مالا يلزم ورد في شعر العرب ولكنه نادر على كل حال اما في شعر المولدين والمحدثين فانه اكثرُ من شعر العرب ولكنه قليل لايكاد يذكر بالقياس الى شعر المعري في اللزوميات فالمعري هو أول من التزم مالا يلزم في مجموعة كبيرة من شعر تكون في العدة كدواوين كثيرة والشائع المتداول ان المعري فرض على نفسه التزام قيد واحد في اللزوميات والواقع غير ذلك ففي هذه اللزوميات قيود أو كلف ثلاث اولها استيعاب حروف المعجم عن آخرها في الروي وثانيها استعمال الحركات الثلاث في القافية ومن بعدها الوقف أي الاسكان وثالثها التزام حرف معين أو عدة أحرف قبل الروي وهو لزوم مالا يلزم بمعناه المصطلح فهذه ثلاث التزامات صناعية على رأي المعري (٢) واكثر من ثلاثة بعد اضافة الوقف اليها على رأي آخر (٣) وهكذا انفرد أبو العلاء بهذه الخصائص الفنية وامتاز

(١) انظر كتاب البديع لابن المعتز ٧٤ (٢) مقدمة اللزوميات ٢٠ و ٢١

(٣) ياقوت في معجم الأدباء ١ : ١٨٣ وهذه عبارة ياقوت : بنى « لزوم ما لا يلزم » على حروف المعجم يذكر كل حرف سوى الألف بوجوهه الأربعة وهي الضمة والفتحه والكسرة والوقف .

على الشعراء قديمهم وحديثهم بهذا المذهب الجديد والاسلوب المخترع فقد جرت عادة هؤلاء الشعراء ان ينظموا الشعر كيفما اتفق وعلى اي روي يهديهم اليه الخاطر لايترسمون غاية معينة كما فعل صاحب اللزوميات والواقع انك اذا تصفحت كثيراً من دواوين القدماء لاتكاد تعثر فيها على ابيات التزموا فيها مالا يلزم الا نادراً ولا يوجد فيهم قط من استوعب حروف المعجم في القوافي أو نظم في قافية مستوعرة أو حوشية وهؤلاء المحدثون أو المولدون ونحوهم مكثرون وقد يكون ديوان احدهم في العدة كدواوين كثير من القدماء قلما استوعبوا في قوافيهم حروف المعجم عن آخرها واذا اتفق لبعضهم ذلك في الحروف فانه في حلٍ من الحركات وفي حلٍّ من الوقف والاسكان فهذا البحتري لم يعثر في ديوانه على رويّ بني على الخاء والتاء والغين وهذا المتنبي استعمل الهمزة مضمومة مرة ومكسورة أخرى ولكنه لم يستعملها مفتوحة ولا ساكنة إلى غير ذلك فاللزوميات والحالة هذه عمل مركب شاق لا بد للاحاطة بجزئياته ثم انجازها من قوة ذهنية ممتازة ومواهب فطرية خارقة للعادة لذلك قيل « ان المعري » أحد أذكياء العالم ونادرة من نوادر بني آدم .

تفاسير اللزوميات ومختاراتها

من الخطأ أن يظن أن اللزوميات هي الكتاب الوحيد في موضوعه للمعرّي فقد اضطر صاحب اللزوميات إلى تأليف كتب ضخمة تتعلق بديوانه المذكور اما شرحاً لما فيه من الغريب مثل كتاب « راحة اللزوم » في مائة كراسة وقد ذكره القفطي وياقوت الحموي والحاج خليفة (١) واما دفاعاً عن آرائه فيه مثل « زجر النابح » وذلك أن بعض الجهال تكلم على بعض أبيات منه يريد التشرر والأذية فالزم أبا العلاء أصدقاؤه فأنشأه وهو كاره في (٤٠) كراسة وكتاب « بحر الزجر » يتعلق بزجر النابح وله كتاب سماه « الراحلة في تفسير لزوم ما لا يلزم » (٢) وقد ضاعت هذه الكتب فيما ضاع من كتب المعري ولم يصل إلى أيدينا منها شيء . وللبطليوسي شارح سقط الزند شرح على بعض اللزوميات

(١) كشف الظنون ١ : ٥٣١

(٢) ياقوت في معجم الأدباء ١ : ١٨٣ و ١٨٤ و ١٨٧ وكشف الظنون ١ : ٥٣١

نقل لنا عنه بعض الأدباء (١) وتوجد من هذا الشرح أوراق قديمة في الخزانة التيمورية بالقاهرة وهو شرح ممزوج لشعر المعرّي في السقط واللزوميات . وفي الخزانة المذكورة رسالة تتضمن مباحث جرت بين القاضي أبي بكر بن العربي والبطليوسي بشأن الشرح المذكور وفيها أيضاً نسخة مخطوطة من مختصر اسمه « مختار لزوم ما لا يلزم » لم يعرف صاحبها (٢) وقد اختار بعض أدباء القاهرة منذ أربعين سنة مجموعة من اللزوميات سموها « الالزم من لزوم مالايلزم» ولها مقدمة لطيفة وفيها يقول حافظ ابراهيم :

لله درّ انتخاب بحسن ذوقك يشهد
كان كتاب المعرّي فصار معجز أحمد

وفيها لآخر (٣) :

أجدت انتخاباً يا نسيم وجدته ألذّ من الماء الزلال على الظما
لقد كان سفراً لم نجد لاقتنائه لزوماً فأضحى بانتخابك ألزما

وألف شميم الحلي كتاباً سماه « الاشارات المعرّية » (٤) ولابن القامغاز (٥) الحلي كتاب المطاول يرد فيه على المعري في مواضع سها فيها .

نقد اللزوميات

نقصد بهذا العنوان نقد اللزوميات من ناحيتها الادبية فمن علماء الادب من يزعم ان الكلفة ظاهرة في لزوميات المعري وان جيدها المطبوع لايزيد على رديها المصنوع واقدم ماوصل الينا من هذا القبيل رأي ضياء الدين بن الاثير فقدزعم ان شعر أبي العلاء في اللزوم متكلف وقال عن شعر لابي تمام في اللزوم « هذا احسن مايجىء في هذا الباب وليس بمتكلف كشعر أبي العلاء » وقال ايضاً « ماينبغي لمؤلف الكلام ان يستعمل هذا النوع حتى يجيء به متكلفا وقد سلك ذلك أبو العلاء المعري » ومن اقواله » وقد جمع أبو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان كتاباً سماه

(١) الخفاجي في شفاء الغليل ١٩١ والبلوي في الف باء ٢ : ٥٢
(٢) أبو العلاء المعرى لأحمد تيمور ٦٨ و ٧٣
(٣) الألزم من لزوم ما لا يلزم ط الجمهور سنة ١٣٢٣
(٤) معجم الأدباء ٥ : ١٣٨
(٥) بغية الوعاة ٧٩

« لزوم مالا يلزم » فأتى فيه بالجيد الذي يحمد والردي الذي يذم (١) ومن شعر أبي العلاء المتكلف على رأي ابن الأثير لزوميته التي اولها :

تُنازعُ في الدنيا سواك ومالهُ ولا لك شيء في الحقيقة فيهما

وقد تبع ابن الأثير في هذا الرأي جماعة منهم عبد الحميد بن أبي الحديد فقال : « وقد صنع أبو العلاء المعري كتاباً في اللزوم من نظمه فأتى فيه بالجيد والردي واكثره متكلف (٢) » وللمتأخرين عن هؤلاء كلام في نقد اللزوميات أضربنا عنه صفحا لانه لايزيد على كونه ترديدا لكلام ابن أبي الحديد وابن الأثير مثل قول ابن معصوم (٣) « ألف الشيخ أبو العلاء المعري كتابا سماه لزوم مالا يلزم ولكن جمع فيه الغث والسمين » الى غير ذلك من الاقوال .

فهذه كما ترى اقوال عامة لم تُدعم بدليل ومنشأها اما الجهل باغراض أبي العلاء أو الحسد والمكابرة . واللزوميات على ماارى لم تخل من تشدق أو تكلف وكيف يخلو من ذلك سفر في ضخامة هذا الديوان ومن هذا القبيل قول المعري فيها :

غلت واغلت ثم غالت وأوحشت وحشت وحاشت واستمالت وملت

وقوله :

مابال رأسك لاتبش بلونه عين وبات بكل ذي نظر يبش
يمسي كبعض الروم ابيض باردا ولقد يكون كانه بعض الحبش

فهذا والذي قبله شيء ثقيل بارد ولهذه الابيات نظائر في اللزوميات ولكنها قليلة مغتفرة بالقياس الى كثيرها من الشعر المطبوع .

وخلاصة القول كان صاحب اللزوميات مطبوعا على هذا الفن وقد يتكلف ويتعسف ولكن تكلفه ليس بكثير خلافاً لما ادعاه هؤلاء الادباء .

لزوم مالا يلزم بعد عصر المعري

دخل هذا الفن منذ عصر المعري في طور جديد من حيث طبيعته ومميزاته ففي هذا العصر انشئت اللزوميات وصار لزوم مالا يلزم شعاراً لصاحبها وميزة

(١) المثل السائر ١٠٥ و ١٠٨
(٢) شرح نهج البلاغة ١ : ٦٦
(٣) أنوار الربيع ٧٧٩

يمتاز بها ادبه حتى شاع هذا اللقب كانما هو من الاوضاع اللغوية التي ابتكرها المعري وكأنَّ مدلولَ هذه العبارة مدلول قائم بنفسه ليس له صلة بالبديع أو بهذه المحسنات اللفظية وذلك لأن المعري استخدم فنون البديع للتعبير عن آرائه وهي آراء خاصة فاجأ بها الناس وتناول فيها نقدَ عاداتهم واخلاقهم ونظم الحكم والسياسة وشؤون الاجتماع والعمران عندهم أي ان المعري لستخدم هذه الصناعة اللفظية تحدوه فكرة عامة أو غاية فلسفية بعيدة وبهذا فارق سواه ممن استخدموا انواع البديع ولا غاية لهم الا مجرد العبث بالالفاظ الفارغة فللزوميات فضل ظاهر لافي موضوع الادب واللغة فحسب بل في باب العلم والمعرفة .

فضل اللزوميات على اللغة

تركت اللزوميات اثراً لايستهان به في عصر المعري والعصر التي تليه وذلك من نواح شتى فمن الناس من تأثر بها من حيث لغتها واساليبها البيانية فبعثت من هذه الناحية نهضة لغوية كبرى شاع على اثرها التزام مالا يلزم في شعر الشعراء وفي انشاء المترسلين وخصوصاً في القرنين الخامس والسادس وهلم جرا وحاول كثير من الادباء محاكاة المعري في جزالة الفاظه أومشايعته في طريقته أو معارضته في اسلوبه الا انهم قصروا عن شأوه غالباً فالمعري امام مجدد مجتهد في ادبه والقوم مقلدون على الاكثر وقصارى احدهم ان يلتزم مالا يلزم في ابيات او في قصيدة أو عدة مقطعات واين هذا من سفر كامل مفرغ الحلقات كاللزوميات ولدينا شواهد كثيرة على شيوع الادب اللزومي في العصور المذكورة فهذه المقامات اللزومية لمنشئها الوزير السرقطي الآتي ذكره وكذلك الرسائل اللزومية لكل من ابن اسيد الغرناطي (١) وعبد الرحمن المكناسي (٢) وممن شغف بمباراة المعري نثراً ونظماً شميم الحلي (٣) روى عنه ياقوت وحدثنا عن اطواره الغريبة وله ترجمة مفصلة في معجم الادباء وهو من منشئي الرسائل اللزومية وله ايضاً كتاب الاشارات المعرية وكتاب اللزوم في مجلدين .

هذا في النثر واما في الشعر فقد سلك مسلك المعري في لزومياته كثيرون من

(١) السيوطي في البغية ٢٩٨

(٢) المصدر نفسه ٣٠٣

(٣) ياقوت في معجم الأدباء ٥ : ١٣٨

اشهرهم العلامة الماكسيني الآتي ذكره ومن الشعراء الذين اشتهروا بمحاكاة المعري في شعره أو في لزومياته ابن فورجة البروجردي وابو النجيب عبد الرحمن بن عبد الجبار المراغي احد افراد زمانه علماً وادباً وكان يلتزم مالا يلزم في شعره وهو المقصود بقول الأبيوردي الشاعر المشهور (١) :

شعر المراغي وحوشيتم كمقله اسلمه اسقمه
يلزم ما ليس له لازماً لكنه يترك ما يلزمه

وفي هذا المعنى لابن معصوم (٢) :

وشاعر قريضه من كل حسن معدم
لم يلتزم شيئاً سوى لزوم ما لا يلزم

فهذا ونحوه يدلنا على أن فريقاً ممن راق له مذهب المعري في لزوم مالا يلزم قصر عن شأوه في اللزوميات وذلك لأن صاحبها كان مطبوعاً على هذا الفن بخلاف غيره .

فضل اللزوميات على العلم

ويوجد فريق آخر تأثر باللزوميات من حيث الفكرة التي دارت عليها أي من حيث معاني اللزوميات لا من حيث مبانيها فقد ثار الجدل وكثر الخلاف بسبب اللزوميات وآراء المعرّي فيها وتضاربت أقوال المصنفين من العلماء والأدباء ما بين منتصف له أو قائلٍ باكفاره حتى أن بعض الأدباء من أنصار المعري يضع اللزوميات في الرُتبة بعد الكتب الإلهية المنزلة وهو القائل (٣) .

إن كنت متخذاً لجرحك مرهما فكتاب رب العالمين المرهم
أو كنتَ مصطحباً حكيماً سالكاً سبل الهدى فلزوم ما لا يلزم

فقد بعثت اللزوميات كما ترى حركة فكرية عامة تغلغلت في أنحاء العالم القديم شرقا وغرباً وظهر جماعة من البلغاء والمترسلين نهجوا بأدبهم نهج المعري في تذكير الناسي وتنبيه الغافل وتعليم الجاهل وحاموا حول مقاصده

(١) ابن خلكان في ترجمة الأبيوردي من وفيات الأعيان ونقلها ابن معصوم في أنوار الربيع ولا وجود لهذين البيتين في النسخة المطبوعة في بيروت من ديوان الأبيوردى .

(٢) أنوار الربيع ٨٦٠

(٣) نقلاً من ظهر نسخة قديمة من لزوم ما لا يلزم .

في التوحيد والالهيات وأصول الدين والأخلاق لكن لم يبلغ أحدهم شأوه في ذلك لأن سيرة المعري وسلوكه كانا من مواعظه البليغة فالمعرّي وعظ الناس بأعماله قبل أقواله والمرجح أن الزمخشري والاصفهاني في مقاماتهما ونوابغ كلمهما قد تأثرا بأسلوب المعرّي في ملقى السبيل أو في الفصول والغايات .

والخلاصة للمعرّي في اللزوميات أسلوب أخاذ يشبه أساليب أساتذة التربية أحياناً فهو يترفق في صقل العقول لحملة المنقول كما يجتهد في تلقين لغة الأعراب وأصول الآداب لأصحاب التأمل والنظرات الفلسفية .

الرابطة المعرية

ونعني بهذه الرابطة تألب فئة من أئمة الأدب وفيهم جماعة من المكافيف أو العميان واتفاق آرائهم على تقديم المعرّي والتعصب لأدبه واقتفاء آثاره في منظومه ومنثوره وقد نشأت هذه الرابطة بعد عصر المعري ولاحظنا وجودها ونحن نتصفح كتب التاريخ والطبقات ولأدب المعري على الأرجح أبلغ الأثر في وعي أتباعه من العميان فقد نبه فيهم شعور الاعتداد بأنفسهم والثقة بكفاءتهم والاعتزاز بزعامته وإمامته في الأدب فراحوا يكثرون من رواية شعره ويبثون الدعوة له ومنهم من سلك مسلكه في التزام ما لا يلزم وذلك للرابطة التي تربط بين المعري وبين هؤلاء المكافيف ودونك أشهر من عرفناه من هؤلاء :

١ — العلامة الماكسيني (١) : اسمه مكي بن ريان الماكسيني الموصلي إمام في النحو واللغة والأدب بالغ تلاميذه — وهم كثيرون — في الثناء عليه ومن أقوالهم « جامع فنون الأدب وحجة كلام العرب » وهذه الكلمة لتلميذه ابن المستوفي وأطلق عليه صاحب التبيان (٢) في شرح الديوان لقب « الشيخ الامام »

(١) أول من ترجم للماكسيني تلميذه أبو البركات ابن المستوفي في تاريخ اربل وعنه نقل المتأخرون مثل ابن خلكان ٢ : ٥٨٣ والصفدي في نكت الهميان ٢٩٦ والسيوطي في البغية ٣٣٥ وابن العماد في الشذرات ٥ : ١١ وما كسين التي نسب اليها بليدة من أعمال الجزيرة على نهر الخابور يقول ابن خلكان وهي على صغرها تشابه المدن الكبيرة في حسن بنائها ومنازلها .

(٢) انظر مقدمة التبيان في شرح الديوان [ط] القاهرة سنة ١٢٨٧ ومنها يظهر أن المؤلف قرأ المتنبي على الماكسيني سنة ٥٥٩ في مدينة الموصل .

وهو في رأي الجزري[١] « إمام عالم بالقراءات والنحو » ومما لاحظناه ان الماكسيني المجمع على تدينه وورعه كان أبداً يتعصب للمعري ويطرب اذا قرئ عليه شعره فسلك مسلكه في النظم وذلك للجامع بينهما من العمى والادب على مايقول ابن المستوفي وهكذا نجد للمعري انصاراً من بين حفظة القرآن وأئمة القراءات . توفي الماكسيني سنة ٦٠٣ ومن شعره .

سئمت من الحياة فلم أردها ... تسالمني وتشجيني بريقي
عدوي لايقصر عن أذايا ... ويفعل مثل ذلك بي صديقي
وقد أضحت لي الحدباء داراً ... وأهل مودتي بلوى العقيق

٢ — الداودي الضرير : داود بن احمد ابو سليمان الداودي الضرير — اديب بغدادي مولع بشعر أبي العلاء يحفظ منه جملة صالحة ولذلك كان الناس يرمونه بسوء العقيدة توفي الداودي سنة ٦١٥ ومن شعره أمثلة في معجم الادباء[٢] .

٣ — السنهوري المادح : اسمه احمد بن مسعود السنهوري الضرير ويعرف بالمادح عاصر الصفدي اجتمع به واخذ عنه سنة ٧٥٨ وفيه يقول « كان حفظه الله له قدرة على النظم ينظم القصيدة وفي كل بيت حروف المعجم وفي كل بيت ظاء وفي كل بيت ضاد وهكذا من هذا اللزوم » وتجد امثلة مشهورة في نكت الهميان[٣] .

٤ — الصرصري الشاعر البغدادي الضرير : لغوي أديب من البلغاء يدخل شعره في ثمان مجلدات مدائحه النبوية سارت بها الركبان له قصائد التزم فيها ما لا يلزم وهكذا الحروف الصعبة واخرى في كل بيت حروف المعجم . قتل الصرصري في وقعة بغداد سنة ٦٥٦ وتجد في نكت الهميان[٤] امثلة بليغة من شعره تجعله بحق من فحول الشعراء .

ومما يدخل في هذا الباب

الامير اسامه بن منقذ : من رواة شعر المعري في اللزوم وقد روى فيما روي

(١) طبقات القراء للجزري ٢ : ٣٠٩
(٢) معجم الأدباء ٤ : ١٩١
(٣) نكت الهميان ١١٥ و ١١٦
(٤) المصدر نفسه ٣٠٨ و ٣٠٩

له لزوميّة في الشيب بعبارة تدل على تقديم المعري واكباره (١) ولا توجد هذه اللزومية في النسخ المتداولة من الازوميات وهي :

واهاً لرأسك زال ادهمه عنه واشهبه وارقطه
وأعاده مثلَ اللجين مدىً قد كان قبل به ينقطه
ياليت شعري حين يرتحلُ الـ ـجونُ المودّع اين مسقطه

ابن فورجة : محمد بن حمد بن فورجة ـ زنة سكرجة ـ البروجردي نحوي لغوي من المبرزين في النظم والنثر لقي المعري في بغداد على الاكثر وقرأ عليه واكثر من الرواية عنه وبينهما مشاعرة ومكاتبة وقد ورد ذكره في سقط الزند بمناسبة قصيدة بعث بها الى المعري اولها :

الا قامت تجاذبني عناني وتسألني بعرصتها المقيلا

فاجابه المعري بقصيدة مشهورة اولها :

كفى بشحوب اوجهنا دليلا على ازماعنا عنك الرحيلا

ومنها :

كلفنا بالعراق ونحن شرخ فلم نلمم به الا كهولا
وردنا ماء دجلة خير ماء وزرنا سيد الشجر النخيلا
وشارفنا فراق أبي عليّ فكان أعزّ داهية نزولا
ولو لم الق غيرك في اغترابي لكان لقاؤك الحظ الجزيلا

وللمعري اثر كبير في طريقته واسلوبه في الشعر ولذلك قال الباخرزي (٢) «شعره فرخ شعر الاعمى اعني شاعر معرة النعمان وان كان هذا الفاضل منزها من معرة العميان » وفي دمية الباخرزي وتتمة اليتيمة للثعالبي امثلة من شعره (٣) ولابن فورجة حديث ممتع في النقد الادبي جرى بينه وبين المعري بشأن المتنبي وفي هذا الحديث اشارة إلى مقاييس الفصاحة عند القوم وقد حكاه صاحب التبيان في شرح

(١) لباب الآداب [ط] الرحمانية ٣٧٥ وعبارة الامير أسامة (والشيخ أبي العلاء بن سليمان التقدم في هذا المعنى بقوله) وانظر ٢٠١ و ٣٧٠ و ٤٦٣ من الكتاب المذكور

(٢) دمية القصر ٩١ من الطبعة الحلبية

(٣) تتمة اليتيمة [ط] طهران ١ : ٢٢١ و ٢٢٥ وممن ترجم لابن فورجة ابن شاكر في فوات الوفيات ٢ : ٢٤٧ و ٢٦٨ والسيوطي في البغية ٣٩ والمجد الشيرازي في البلغة .

الديوان (١) وابن فورجة كما مر كثير التحدث والرواية عن أبي العلاء في الادب واللغة وفي اسمه وميلاده اقاويل مختلفة اصحها ما قدمناه .

لزوم ما لا يلزم في الادب الاندلسي

يروع المتأمل في تاريخ الاندلس نهضةٌ منقطعة النظير في اللغة وآدابها وفي علوم النقل والرواية وكثرة غريبة في عدد اللغويين والنحاة لم يعهد مثلها قط إلا في العراق في بعض عصوره والاندلس تلي العراق في كثرة من تخرَّج فيها من أئمة النحو واللغة واهل الرأي والمذهب فيها ولا مجال في هذه العجالة لتفصيل ذلك هذا من ناحية ويدهش المتأمل من ناحية أخرى فتور ظاهر في الاندلسيين من حيث عنايتهم بالحكمة والمعارف العقلية في بعض العصور وقد عانى كثير من اعلام الفكر وأهل النظر ما عانوه من العنت والضيق على ايدي أمراء السوء يعاونهم على ذلك أحيانا فريقٌ من المتفقهة الجامدين وتاريخ اولئك الاعلام والنظار في الاندلس حتى أعيان الادباء مليءٌ بالمحن والنكبات في كثير من الاحيان وقد اسرع الانحلال الى دول الاسلام في الاندلس والمغرب ومن جملة العوامل في ذلك — على ما أظن — هذا الافراط والتفريط افراطُ القوم في جانب المنقول وتفريطهم في ناحية المعقول وذلك خلافاً للامم المنيعة المجاورة للاندلسيين وهي امم كان جل اعتمادها في حياتها على المعقولات وعلى الحقائق التي تعززها التجربة ويشهد بها الامتحان .

وقد دخل أدب المعري من شعر ونثر الى الاندلس على ايدي جماعة من تلامذته المغاربة أو الاندلسيين الذين رحلوا الى الشرق ولازموا أبا العلاء وقرأوا عليه اوعلى من قرأ عليه من تلامذته كالخطيب التبريزي شارح الحماسة فشغف الاندلسيون بأدب ابي العلاء واعجبتهم طريقته واساليبه وكثر فيهم مقلدوه واتباعه في فنونه الادبية كما يظهر لنا من تصفح كتب التاريخ والطبقات ولا نبالغ اذا قلنا ان مؤلفات المعري في الشعر واللغة خاصة بعثت من جهة نهضة أدبية لغوية كما اوجدت من جهة ثانية حركة فكرية عامة في الاندلس . فمن الاندلسيين فريق تصدى لمساجلة المعري ومعارضته وبينهم الاعيان والوزراء في كتب لم تزل باقية

(١) التبيان ٢ : ٢٧٥

إلى هذه الغاية في خزائن المغرب والاندلس [١] ومن الاندلسيين فريق آخر تأثر بالمعري من حيث بلاغته وجزالة لغته في شعره خصوصاً سقط الزند والدرعيات وغيرها وقد عنى هؤلاء برواية شعره في السقط أو شرح ما فيه من الغريب فكان السقط من جملة محفوظات البلوي صاحب كتاب « ألف باء » ومن شراح السقط ولعله اشهر شراحه ابن السيد البطليوسي صاحب الاقتضاب الآتي ذكره ومن أدباء الاندلس من حاكى أبا العلاء في التزام ما لا يلزم ومن هؤلاء أصحاب المقامات والرسائل اللزومية في النثر . وأصحاب الدواوين في النظم وقد ضاع اكثرها فلم يصل إلى أيدينا منه شيء فلا نرى جدوى في التعريف باصحابها وانما نكتفي بذكر من وصلت الينا آثارهم ممن حذوا حذو المعري في لزوم ما لا يلزم نثراً ونظماً من الانداسيين مبتدئين بالقسم الاول اي بالكتاب والمترسلين .

لزوم ما لا يلزم في نثر الاندلسيين

اشتهر بالتزام ما لا يلزم في النثر فريق من كتاب الاندلس وهاك اسماء أربعة من مشاهيرهم في استخدام الفن المذكور .

١ ـ السرقسطي صاحب اللزوميات : اسمه محمد بن يوسف بن ابراهيم السرقسطي شاعر ناثر اديب رحالة في طلب العلم جاب الاندلس وزار أشهر مدنها ومنها غرناطة قرطبة مرسية بلنسية مالقة شاطبة للاخذ عن أعلامها وممن أجاز له القاضي ابو علي الصدفي وهو أكبر مشايخه [٢] ترجم للسرقسطي ابن الابار [٣]

---

(١) من هذه الكتب الباقية الى الآن كتاب [جهد النصيح] في مساجلة المعري في خطبة الفصيح تأليف الحافظ سليمان بن موسى الكلاعي كتاب [المسمى الجليل والمرعى الوبيل] في معارضة ملقى السبيل للحافظ محمد بن الأبار البلنسي ولابن الخصال وزير يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين كتاب في هذا الموضوع . احكام صيغة الكلام من تأليف الوزير الأندلسي الناسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي ويذكر فيه بعض مؤلفات غير معروفة لأبي العلاء ومن هذه الكتب نسخ خطية محفوظة في الخزائن التونسية والأندلسية .

(٢) المعجم في اصحاب أبي علي الصدفي لابن الابار [ط] مدريد سنة ١٨٨٥ ص ١٤٠ و ١٤١ وراجع عن الصدفي طبقات القراء للجزري ١ : ٢٥٠ وطبقات الحفاظ للذهبي ٤ : ٤٨ ونفح الطيب ١ : ٣٦٤ و ٣٦٥

(٣) المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي لابن الابار

وابن بشكوال (١) والسيوطي (٢) وشهدوا بفضله وغزارة علمه وله شعر ورسائل ومن مؤلفاته « المسلسل » وموضوع هذا الكتاب لغوي ولكنه غريب لم يسبق اليه من حيث الوضع والترتيب فقد التزم السرقسطي فيه أن يفسر كل لفظة باخرى لها معنيان قريب وبعيد أو معنى حقيقي وآخر مجازي ثم ينتقل إلى ذلك المعنى البعيد ويفسره وهلمّ جرّاً مثلا يفسر الذهب بالنضير ثم يقول النضير الناعم والناعم الخافض والخافض الواضع وهكذا على التسلسل فكأنه كتاب من كتب المجازات اللغوية أو من كتب البلاغة وماشاكل ذلك وهو مفيد في بابه . على أن أشهر ما وصل إلينا من اثاره مقاماته اللزومية .

المقامات اللزومية

هي خمسون مقامة انشأها السرقسطي بقرطبة لما وقف على مقامات الحريري التي أنشأها بالبصرة ولا شك أنه وقف على لزوميات المعري لجمع بين مباراة الأثنين وفي هذه المقامات يتحدث « المنذر بن حمام عن السائب بن تمام » اشتهرت هذه المقامات ورويت عن منشئها ولذلك يقول ابن الزبير « له المقامات اللزومية المشهورة » (٣) ويقول ابن بشكوال « له مقامات أخذت عنه واستحسنت » (٤) وممن رواها عنه الامام النحوي اللغوي المشهور بابن الباذش ورواها عن ابن الباذش ابن الابار ومن رواتها محمد بن خير الاشبلي صاحب الفهرست المشهور الآتي ذكره جاء فيه « المقامات اللزومية خمسون لابن الطاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي من انشائه روايتي كذلك عنه » (٥) وقد ذكرها في كشف الظنون (٦) ومما قاله « المقامات اللزومية مشهورة جاءت على غاية من الجودة » وعدد هذه المقامات اللزومية خمسون كما مر توجد منها نسختان في مكتبة جامع لاله لي بالاستانة وقد

(١) الصلة لابن بشكوال [ط] مدريد ٢ : ٥٢٩ و ٥٣٠

(٢) بغية الوعاة ١٢٠

(٣) نقله السيوطي عنه في البغية ١٢٠

(٤) الصلة لابن بشكوال ٢ : ٢٢٩ و ٢٣٠

(٥) فهرس ابن خير [ط] اسبانية ٣٦٣

(٦) الكشف ٢ : ٤٩٥ [ط] الاستانة

وصف النسخ المخطوطة من المقامات المذكورة أديب دمشقي (١) ونشر نموذجاً منها وهو المقامة الاولى واسمها « القفرية » ومن جملة هذه المقامات مقامة اسمها « الخداعية » وأخرى اختصت بالنظم والنثر وهي المقامة المحسون وفي هذه المقامات دليل على بلاغة منشئها وغزارة مادته في الادب واللغة ولكن انى له بلوغ شأو المعري أو الحريري في المنظوم والمنثور .

٢ ــ ابن خير الاشبلي ابو بكر محمد بن خير الاشبلي حافظ ثقة في النحو واللغة والادب له ترجمة مفصلة في طبقات الحفاظ(٢) ومثلها في طبقات القراء(٣) وثالثة في بغية الوعاة(٤) وهو يمثل لناولع الاندلسيين بالمعري وعنايتهم بكتبه في ذلك العصر وذلك ما حملنا على ذكره في هذا المكان توفي ابن خير سنة ٥٧٥ بقرطبة ولم يصل إلى أيدينا من آثاره الا الفهرست المسمى « فهرست ابن خير » وهذا الفهرست عبارة عن سفر جمع فيه اسانيد ما رواه من الكتب وبعضها اسانيد عالية فهو مثلا يروى « الكامل » بسند عال يرفعه إلى المبرد وقد استطرد فيه إلى فوائد ادبية وتاريخية . ومن مرويات ابن خير على ما جاء في الفهرست المذكور(٥) جميع كتب المعري ورسائله وسائر شعره في « اللزوم » وكل ما له من منثور ومنظوم قال روايتي ذلك عن أبي بكر بن العربي (٦) عن أبي زكريا التبريزي عن المعري .

٣ ــ مترسلون لزوميون : وهذه اسماء فريق من المترسلين اللزوميين ورد ذكرهم في كتب الطبقات مثل عبد الرحمن بن اسيد الغرناطي قالوا هو كاتب بارع قدر من اللزوم على ماعجز غيره حتى صار طبعا له (٧) وعبد الرحمن السلمي الاندلسي يعرف بالمكناسي كاتب حلو الاغراض ينشيء الرسائل اللزومية

(١) السيد محمد علي ظبيان في مجلة المقتبس ٢ : ٢٦٦ ــ ٢٦٨ وفي مجلة الزهراء ٢ : ٢٠٢ ــ ٢٠٤

(٢) طبقات الحفاظ الذهبي ٤ : ١٥٤ و ١٥٥

(٣) طبقات القراء للجزري ٢ : ١٢٩

(٤) البغية ٤١

(٥) فهرس ابن خير الاشبلي [ط] اسبانية ٢١٢ و ٤٥٠

(٦) انظر عن الحافظ أبي بكر العربي مطمح الأنفس للفتح بن خاقان ٢١ و ٧٣ وطبقات الحفاظ للذهبي ٤ : ٨٦ ــ ٨٩ وأزهار الرياض ٣ : ٦٢ ــ ٦٥ و ٨٦ و ٩٥ ونفح الطيب ١ : ٣٣٥ ــ ٣٤٣

(٧) البغية ٢٩٨ عن تاريخ غرناطة

وبلغ في اللزوم مبلغاً اعجز غيره وله رسائل جليلة . توفي بمراكش سنة ٥٩١ (١) ومنهم ابن غلندة ذكر ابن الابار انه من اصحاب اللزوميات الى غير هؤلاء .

لزوم مالا يلزم في شعر الاندلسيين

مذهب الجماعة . مذهب اندلسي في الادب

قال الشهاب المقري (٢) في ترجمة ابن جزي الغرناطي مانصه « ذهب في شعره مذهب الجماعة كابي العلاء المعري والرئيس ابن المظفر وابي طاهر السلفي وابي الحجاج بن الشيخ وأبي الربيع بن سالم وابي علي بن أبي الاحوص وغيرهم » هذا ما قاله الشهاب المقري ومنه نعلم أن طريقة المعري ومن حذا حذوه في نظمه كانت طريقة ماثورة شائعة يدرسونها في الأندلس والمغرب وان « مذهب الجماعة » هذا مذهب اندلسي في الادب ويقصدون به نظم الاشعار في المواعظ والالهيات والتوحيد والاخلاق وما الى ذلك كما نجده في اشعار السلفي (٣) وابن جزي (٤) وابن ابي الاحوص (٥) وابن الشيخ وغيرهم ممن لم يذكرهم الشهاب المقري في كتابه وهي اشعار التزموا فيها ما لا يلزم في كثير من الاحيان وهاك اشهر شعراء الاندلس الذين نظموا شعرهم على الطريقة المذكورة وفي مقدمتهم ابن السيد البطليوسي والسرقسطي وغير هؤلاء :

١ — ابن السيد البطليوسي : عبد الله بن محمد بن السيد نزيل بلنسية شاعر ناثر بليغ مؤلف موفق في التأليف من اعلام الاندلس في اللغة والادب وهو

(١) البغية ٣٠٣ نقلاً عن ابن الزبير

(٢) أزهار الرياض ٣ : ١٨٦

(٣) انظر عن الحافظ السلفي وفيات الأعيان ١ : ٥٣ ـ ٥٥ وطبقات الحفاظ للذهبي ٤ : ٩٠ ـ ٩٦ وأزهار الرياض ٣ : ١٦٧ ـ ١٧١ ومواضع أخر من الكتاب المذكور

(٤) محمد بن جزي أديب فقيه مؤلف جماعة للكتب له خزانة ملوكية استشهد سنة ٧٧١ تجد ترجمة وأمثلة من شعره في أزهار الرياض ٣ : ١٨٦ ـ ١٨٩

(٥) ابو علي بن ابي الأحوص القرشي الغرناطي اسمه الحسين بن عبد العزيز له ترجمة مفصلة في بغية الوعاة ٢٣٦ وهو من حيث المزاج والميل الى العزلة والتسخط على الحياة والتزام ما لايلزم في شعره كثير الشبه بأبي العلاء المعري .

صاحب الاقتضاب (١) والانصاف (٢) افرد الفتح بن خاقان رسالة خاصة في ترجمته ضمنها جزءا من شعره (٣) وله ايضا ترجمة في قلائد العقيان(٤) ووفيات الاعيان(٥) وبغية الوعاة (٦) .

عني البطليوسي بشعر ابي العلاء المعري وشرح مافيه من الغريب وله شرح مشترك على سقط الزند واللزوميات يقال انه احسن الشروح بيد انه نادر الوجود توجد منه اوراق قديمة في الخزانة التيمورية بالقاهرة(٧) وقد عثر اخيرا في تونس على نسخة قديمة منه في مجلدين فهو اقدم شرح يعثر عليه من شروح سقط الزند واللزوميات . وله شعر وترسل كثير وهو متفنن في شعره ونثره نظم قطعة تنفك عنها ست قطع وأخرى تنفك عنها تسع(٨) وللمعري تأثير ظاهر في طريقته واساليبه قال ابن خاقان وقد اكثر من القول في الزهد . توفي البطليوسي سنة ٥٢١ ومن شعره وقد التزم ما لا يلزم :

امرت الهي بالمكارم كلها ... ولم ترضها الا وانت لها اهل
فقلت اصفحوا عمن اناب اليكم ... وعوذوا بحلم منكم ان بدا جهل
فهل لجهول خاف صعب ذنوبه ... لديك امان منك اوجانب سهل

ومن تفننه قوله في اولاد صاحب قرطبة وهم عزون ورحمون وحسون :

اخفيت سقمي حتى كاد يخفيني ... وهمت في حب عزون فعزوني
ثم ارحموني برحمون فان ظمئت ... نفسي الى ريق حسون فحسوني

٢ - السرقسطي الشاعر : هو صاحبنا منشيء المقامات اللزومية المار ذكره في الفصل السابق شاعر مكثر يلتزم في شعره على الاكثر مالا يلزم ومن شعره امثلة عثرنا عليها في كتب الادب جلها على ما نظن مقتبس من مقاماته اللزومية .

للسرقسطي في معاهد التنصيص(٩) اربعة ابيات لزومية مهد لها صاحب المعاهد بقوله ، ولابي طاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي وهو مصنف المقامات اللزومية وهي خمسون مقامة بناها على لزوم مالا يلزم واول الابيات :

(١) طبع في المطبعة الأدبية بيروت سنة ١٩٠١
(٢) طبع مصر سنة ١٣١٩
(٣) نقل المقري صاحب نفح الطيب وأزهار الرياض هذه الرسالة برمتها في كتابه الأخير ٣ : ١٠٣ و ١٤٩
(٤) ص ١٩٣
(٥) ٣ : ٤٧٤
(٦) ص ٢٨٨
(٧) ابو العلاء المعرّي لأحمد تيمور ٦٨
(٨) ازهار الرياض ٣ : ١٣٤
(٩) معاهد التنصيص ٢ : ١٠٦

ياهائما بالدلال والخفر الصقت خد العزيز بالعفر

ومن شعره في المقامات اللزومية وهو مما رواه ابن الأبار [١] والأبيات خمسة أولها :

هيهات من ذنب المسيء تأسف وله على هول الذنوب تعسف

وله قصيدة من هذا الباب أولها :

دعا بك الدهر لو تجيب يا حبذا السامع المجيب

منها : المجد فوز الفتى بحظ فما تميم وما تجيب

٣ ـ ابن الشيخ البلوي [٢] : اسمه يوسف بن محمد أبو الحجاج القضاعي البلوي يعرف بابن الشيخ عالم لغوي من محفوظاته سقط الزند عنى باللزوميات في شعره . أهم ما وصل من مصنفاته (الف باء) [٣] في الأدب واللغة وهو كتاب غريب الوضع والترتيب التزم في ترتيبه ما لا يلزم وفيه نقل عن شرح للبطليوسي على لزوم ما لا يلزم للمعرّي والبلوي المذكور مولع بالنظم على هذه الطريقة كأستاذ الفقيه أبي محمد الخطيب [٤]. توفي ابن الشيخ البلوي سنة ٦٥٣ ومن لزومياته في شيخ فقير خطب جارية غنية :

أتخطب من قدها غصن بان ومن كالسجنجل منها اللبان

تضاف إلى الشمس من حسنها وتنسب في العز للمرزبان

وأنت عديم أخو عيلة مشيبك في عارضيك استبان

وليكن هذا آخر البحث في تاريخ لزوم ما لا يلزم وهو فيما نظن قليل من كثير وربما فاتنا منه ما يعادل هذه الصفحات وقد حالت حوائل قاهرة دون استيعاب البحث مضافاً إلى كلال الذهن وتشتت البال والله المستعان على إتمامه في المستقبل إنه ولي التوفيق .

(بغداد) محمد رضا الشبيبي

رئيس مجلس النواب

(١) المعجم في اصحاب القاضي الصدفي لابن الابار ١٦١

(٢) انظر بغية الوعاة ٣٥٣

(٣) طبع هذا الكتاب في مصر سنة ١٢٧٧ بمجلدين

(٤) الف باء ٢ : ٣٦١ و ٣٦٢ وانظر ايضاً ١٥٤ و ٢٧٦ و ٣٦٦

ابو العلاء المعرى وعلم النحو

كتب لأبي العلاء صنوف من المجد العلمي .

كان شاعراً مكثراً مفيضاً خلف ديوانين من اوسع الدواوين فى العربية — ومع ذلك وجد من العلماء من يقول — أبو العلاء حكيم وليس بشاعر — وكان فيلسوفاً حكيماً حدد لنفسه رأياً في الحياة وأملى عليه رأيه خطة من العيش التزمها وصبر عليها ووفى بها — ومع ذلك جحدت عليه فلسفته وقيل مضطرب في الرأي متقلب في الحكم وقيل برم بالحياة تملي عليه السوداء — ودع عنك من رماه بالالحاد والزيغ وسوء الايمان .

وكان عالماً لغوياً فكان هذا أبين مجد له واشرقه . ومذ كان ابو العلاء بهر الناس علمه باللغة وتصرفه فيها واحاطته بعلومها ولم يتعلق عليه في هذا متعلق .

ولكن البحث الجديد يبدو كانه يعكس الطريق على السابقين في تقدير علم أبي العلاء وتقويم مواهبه ودرس آثاره .

فاما فلسفته فقد وجدت من استنبطها واحاط بها وصورها وحدة متماثلة متكاملة تستحق أن تجد منزلتها في تاريخ الفلسفة وتاريخ الفكر وتاريخ الحياة أيضا .

ومذ بدأ الدكتور طه حسين — وهو ناشيء — يكشف عن فلسفة المعري ويؤلف بين اشتاتها ويظهر الناس على جملتها ، وفلسفة أبي العلاء حقيقة ماثلة لدى الناس لا يجحدونها وان اختلفوا في تقويمها .

وأما شعر أبي العلاء فللادباء اليوم رأي حسن في تقديره وأنه الشعر علا عن اللغو وسما بما فيه من رأي وبحث في أمور الحياة .

وانه الشعر العربي الذي يقدم للناس نثراً فيقبلون عليه راضين يمتعون بمعانيه قلوبهم وعقولهم .

وإن الغربيين اذا ترجموا من الشعر العربي لم يجدوا لديهم أقوم من شعر المعري .

فقد كشفت فلسفة المعري وقوم شعره — أما علومه اللغوية وهي المع آيات مجده فماذا دُرس منها ؟ لقد زحزحت عن مكانها وكانت الأولى . وكأنما نشر ابو العلاء فيلسوفاً وشاعراً وقد كان يحيا عالماً لغويا .

وانا أحاول هنا أن أدرس طرفاً يسيراً من أطراف علوم أبي العلاء اللغوية — وهو العلم الذي سماه المتقدمون (بالعربية) وشمله كتاب سيبويه ونسميه الآن علم النحو والصرف أو « علم النحو » ونكتفي .

وأريد أن أكتفي من البحث ببيان موقف أبي العلاء من هذا العلم ومن سبل بحثه في فقه العربية .

أرضي أبو العلاء هذا الاسلوب من البحث أم كرهه؟ فان كان قد رضي فهل أحدث فيه بحثاً أو زاده فصلاً ؟ وان كان كرهه فهل بدل منه شيئاً أو حاول ان يبدله ؟ .

تعلم أبي العلاء النحو بالشام

بكر أبو العلاء إلى درس النحو صبياً — كما كان الناشئون يبكرون — وتلقى أول دروسه على والده الشيخ عبد الله بن سليمان ولم يكن نحوياً مذكوراً ولا عرف له رأي في النحو وإنما تعلم منه ما كان ينبغي أن يتعلم فقيه يتهيأ للقضاء .

وكان الشيخ عبد الله فقيهاً قاضيا عربي النجر يفتخر بنسبه من تنوخ .

وكان أشياخ العرب يقبلون على نحو الكوفة ويعرضون عن نحو البصرة نحو الموالي وكان الفقهاء يحبون نحو الكوفة ايضاً لأن الكوفيين أكثر رواية وجمعا للآثار وحفظاً للحديث ولأن البصريين اقلوا الرواية وتورطوا في الفلسفة والجدل واطرحوا الحديث ان يحتجوا به ولحنوا المحدثين .

لذلك أخذ الشيخ يعلم ولده كتاب النحو الذي تعلمه من قبل وهو « مختصر محمد بن سعدان الضرير الكوفي النحوي » المتوفي سنة ٢٣١ وكان هذا الكتاب مما يتدارسه الناشئون بالشام ويؤثره الفقهاء .

وكان بمدراس الشام موجز آخر يسمى « الجمل » الفه عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي وكان الزجاجي من أئمة النحاة وقصد إلى الشام واقام بطبرية وتوفي بها سنة ٣٣٩ هـ وترك له مدرسة وتلاميذ يدرسون كتابه « الجمل » فدرسه أبو العلاء .

وكذلك كان بالشام كتاب في النحو مختصر يسمى « الكافي » ورد اليهم من مصر ألفه الشيخ أحمد بن محمد المرادي المصري المتوفي بمصر سنة ٣٣٨ قالوا « كان شيخاً تقياً ورعا انتفع به خلق كثير » ونقل تلاميذه كتابه الى الشام فكان مما يدرس بها ولقيه أبو العلاء وقرأه ايضاً وقد بقيت هذه المختصرات تدرس بالشام الى أن جلس أبو العلاء بالمعرة استاذا يعلم الناس فعلمها لتلاميذه كما سنراه بعد .

انتقل هذا الفتى المستكثر من العلم الى «حلب» قالوا «دخل أبو العلاء حلب وهو صبي فقرأ بها على محمد بن عبد الله بن سعد النحوي » ولم يقولوا ما قرأ عليه ولكن ابن سعد لم يكن نحوياً ولا ذكر في النحاة وان سمي نحوياً وانما كان راوية لديوان المتنبي .

وكان شعر المتنبي متغنى أهل الشام وهتاف عاطفتهم وذاكر ايامهم فاحبه الشباب واحبه أبو العلاء ثم زاده فيه حبا ان معانيه لاءمت نفسه فأكب عليه جمعاً وحفظاً ثم قصد ابن سعد هذا الذي لقي المتنبي وسمع منه وحفظ عنه وعد راوية له ولكن الفتى كان أجمع لشعر المتنبي وأروى له من راويته .

قالوا « ان ابن سعد كان يروي من ديوان المتنبي قصيدته التي مطلعها » :

« أزائر يا خيال أم عائد »

فقال منها .

. . . . أو مَوْضِعاً في فنان ناجية

فرد عليه ابو العلاء — وقد اجتمع معه بحلب وهو صبي — وقال بل هو

او مُوضِعاً في فتان ناجية

فلم يقبل ذلك ابن سعد ومضى الى نسخة عراقية صعدت مع ابي علي بن ادريس من العراق فوجد القول ما قال ابو العلاء ولم تكن القصيدة مما قرأه على المتنبي ولكن مما بعث اليه .

فلم يجد أبو العلاء في حلب استاذا له لا في الرواية ولا في النحو .

وانما كان في حلب آثار مدرسة نحوية عظيمة أساسها أبو عبد الله الحسين بن احمد بن خالويه سنة ٣٧٠ وأبو الفتح عثمان بن جني المتوفي سنة ٣٩٢ ولهذه المدرسة اسلوب في البحث يتميز بعنايتها بالقرآن وجمع روايته وتوجيه ماسمى منها

شاذا وعمل الامامين في هذا الباب هو مرجع الدارسين له وقد تأثر أبو العلاء بأسلوب هذه المدرسة في البحث وان لم يلق احدا من ائمتها وألف كتابا سماه « تظلم السور » يتكلم فيه عن لسان السور وتتظلم كل سورة ممن قرأها بالشواذ ويتعرض لوجه الشاذ .

لم يفلح المعري في أن يلقى استاذا بالشام فانحدر الى بغداد على وعثاء الطريق وعناء الرحلة ومشقة السفر عليه خاصة ولكن لقاء الشيوخ كان من تمام العلم ولربما كان الرجل عالما مليئا ثبتا ثم عيب بانه لا لقاء له وبانه صحفي لم يأخذ عن كبار الشيوخ .

بغداد ونحاتها

كانت بغداد تصطخب باصوات العلماء وعلماء النحو خاصة كان فيها قبيل مقدم أبي العلاء الامام ابو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي المتوفي سنة ٣٦٨ كان الى امامته في النحو فقيها قاضيا ورعا وشرح كتاب سيبويه فجاء اوسع شرح واسيره وابقاه الى الآن وهو يبلغ حجم « الكتاب » اضعافا ثلاثة أو أربعة والناس يحرصون عليه ويجاهدون في تحصيله ويتفاخرون باقتنائه .

وكان إلى جانبه ، الامام أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي المتوفي سنة ٣٧٧ وكان يلقب سيبويه الثاني وقالوا « لم يشهد النحو بعد سيبويه اعلم به ولا أدق نظرا في قياسه من أبي علي » .

كان الشيخان يتنازعان رياسة النحو في الدنيا ولكل منهجه فأبو سعيد أكبر رواية وأوفر حظاً من الشعر واللغة والسماع وإن كان نحوه نحو البصرين وجدلهم وقياسهم .

والفارسي أدق نظراً وأصح قياساً وأغوص على أسرار العربية وكان يقول « اخطيء في خمسين مسألة مما تأتي به الرواية أحب إلي من ان أخطيء في مسألة واحدة مما يأتي به القياس » .

وكان إلى جانب هذين الإمامين الشيخ أبو الفتح عثمان بن جني المتوفي سنة ٣٩٢ وهو تلميذ الفارسي وفي طريقته . ثم الرماني علي بن عيسى المتوفي سنة ٣٨٤ وهو ذو طريقة وحده كان اعمق من الفارسي غوصا على القياس وعلته حتى كان الفارسي يقول .

« ان كان النحو ما بأيدينا فليس مع الرماني شيء منه وان كان النحو ما عنده فما بأيدينا منه شيء » .

كل هذا يبين عن كثرة المدارس النحوية وتفرع المذاهب ونشاط الجدل اللغوي ولكن ابا العلاء نزل بغداد وقد تخرمت المنية هؤلاء الأئمة . السيرافي سنة ٣٦٨، والفارسي سنة ٣٧٧، والرماني سنة ٣٨٨، وابن جني سنة ٣٩٢ .

فكأنما كتب له الايلتقي مدارس النحو الا في أعقابها وكأن الموت كان يسابقه إلى لقاء الشيوخ .

كانت رياسة النحاة قد انتهت الى الشيخ علي بن عيسى الربعي المتوفي سنة ٤٢٠ وكان شيخاً كبيراً وكان اماماً واسع العلم ولكنه كان ضيق الصدر غير محمود العشرة ولم يكن لأبي العلاء بد من ان يقصد اليه ويحكون ان اباالعلاء منذاستأذن على الشيخ اذن له في عبارة تنيء اليه فكر راجعاً ولم يعد ولم يتلق عن الربعي شيئاً.

ونحن نعلم خلق الربعي وانه صرف عنه بعض النأبهين من تلاميذه سئل ابن برهان « لِمَ تأخذ النحو عن أصحاب الربعي وتترك الشيخ وقد أدركته . فقال يمنعني جنونه وما تعلمون مني » . (انظر ياقوت . ترجمة ابن برهان) . وكذلك نعلم طريقة الربعي في الجدل النحوي واتباعه سبيل استاذه أبي علي الفارسي .

وكلا الامرين لا يلائم أبا العلاء فلم يكن من سبيل الى أن تطول الصحبة بينهما . وعندي ان أبا العلاء قصد الى الربعي وأخذ عنه قليلا ثم انصرف وابن العديم ينص على أنه تلقى عن الربعي . أما القصة فانها أبدعت في تصوير هذا النفور وسرعته وبت اللقاء كأن لم يكن لقاء .

لم يجد أبو العلاء اذن استاذاً له في بغداد كما لم يجد من قبل استاذا في الشام واضطر ان يطلب النحو من الكتب وان يكون قارئاً لامتلقياً.

وسنحاول ان نعلم ما اتصل به من كتب النحو وكيف اتصل بها ونرى كيف قدرها وقدر أصحابها .

الكتاب وسيبويه

نعلم من بعض رسائل المعري (ص ٢٦ مرجليوث) أن أبا العلاء كتب الى أحد أخواله — أبي طاهر بن سبيكة — يسأله أن يحصل له نسخة من « الكتاب »

ومن شرحه وان خاله لقي عناء في تحصيله وكأنه كتب اليه بما لقي فأرسل اليه المعري رسالة منها « وفهمت ما ذكره الشيخ من أمر النسخة المحصلة وهو — ادام الله عزه — الكريم المتكرم وانا المثقل المتبرم جرى في التفضل على الرسم والمحت الحاح الوشم فاما الشرح فان سمح القدر والا فهو هدر . . . .

وكنت قلت في بعض كتبي الى سيدي ان كانت الخطوط مختلفة والابواب مؤتلفة فلا بأس يغني عن السرق ثوب من خلق ماعدا خط علي بن عيسى فانه رجل اتكل على مافي صدره فتهاون في سطره .

وهو — ادام اللهُ تأييده — من الملامة في احصن لامة فلا يبعثه تمذر الحاجة على اللجاجة اهو الكتاب المكنون الذي لايمسه الا المطهرون انما هو اباطيل إباه وتعليل في ايام الحياة » اهـ

اما تقديره سيبويه رحمه الله فانه لم يزل يتعرض له بالنقد والتخطئة في مواضع من رسائله منها :

« ان ابن القارح سأل ابا ليلى نابغة جعدة كيف تنشد قولك:

فليس بمعروف لنا ان نردها صحاحا ولا مستنكرا ان تعقرا

أتقول — «ولا مستنكرا» ام «ولا مستنكرٍ» فيقول الجعدي بل «مستنكرا» فيقول الشيخ فان انشدكم منشد « مستنكرٍ » فما تصنع قال « أزجره وازبره نطق بامر لايخبره » فيقول الشيخ انا لله وانا اليه راجعون ما أرى سيبويه الا وهو في هذا البيت لان أبا ليلى ادرك جاهلية واسلاما وغذي بالفصاحة غلاما .

وامامنا سيبويه يذكر هذا البيت في كتابه (ج ١ ص ٣٣)

ويجيز فيه «مستنكر» بالجر ويتكلم في توجيهه

ومثل هذا ماتراه في سؤاله عدي بن سعد عن بيته :

ارواح مودع ام بكور انت فانظر لاي امر تصير

وأن سيبويه يزعم ان «أنت» يجوز ان ترفع بفعل مضمر يفسره قولك فانظر فيقول عدي بن زيد دعني من هذه الاباطيل .

وقد ينبغي ان نتلبث عند هذين النقدين قليلا ففيهما أصلان يرجع اليهما اكثر ما

نقده ابو العلاء من نحو البصرة الاول أن نحاة البصرة بقياسهم قد قولوا العرب مالا يقولون وأجروا على ألسنتهم غير ما يرضون .

والثاني انهم تكلفوا في توجيه الكلام وتخريجه بما اوقعه في الاباطيل .

واذ كان هذا يبين عن رأي أبي العلاء في سيبويه وفي الكتاب فلنحاول أن نتعرف الى رأيه في أبي سعيد والشرح .

السيرافي وشرحه

طلب أبو العلاء شرح السيرافي من خاله أبي طاهر مع الكتاب كما قرأنا في الرسالة السابقة وقال في تقديره « أما الشرح فان سمح القدر والا فهو هدر » .

وطلبه ايضا من صديق له آخر هو أبو عمر الاستراباذي وكأنه لقي في تحصيل الشرح عناء ايضا كما يفهم من رسالة أبي العلاء (ص ٣٨ مرجليوث) .

« كان أيسر من عنائه في ذلك قذف الشرح في سيح . . .

انما هو افانين كلام اصبح وهو مجموع المقيس فيه والمسموع لايخلد من رواه قد عاش الناس بسواه . . . ولا أقول لمن غاب ريش سهمه اللغاب ولا اقول لكتاب ابي سعيد — « اولئك ينادون من مكان بعيد » بل انا من التثقيل حذر ، مشفق من ذلك معتذر ، وانما سالت أن يستسمد برائه لقلة نظرائه وهو عندي أجل والكتاب أيسر وأقل من أن يكلف خطوات ولو كن كديبب القطوات » .

وأبو العلاء لايزهد في الشرح زهده في الكتاب ولا يجعله كما جعل الكتاب « اباطيل إياه » وانما اشفق من التثقيل وعاب من الشرح انه « أصبح وهو مجموع المقيس فيه والمسموع » وأبو العلاء يضيق بالقياس صدرا ولا يعدل بالمسموع شيئاً ولكن الشرح مع مافيه من القياس غزير الرواية والشيخ أبو سعيد فياض الاستشهاد وذلك اغرى أبا العلاء بتحصيله .

أما الرأي في أبي سعيد فانك قد تراه في ثنايا مانقص عليك قال ابو سعيد في الجزء الاول من الشرح عند ترجمة سيبويه « باب مايكون في اللفظ من الاعراض » مانصه :

حضرتُ أبا بكر بن دريد وقد أنشد أبياتا تنحل آدم وهي :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الارض مغبر قبيحُ
تغير كل ذي لون وطعم وقل بشاشةُ الوجهِ المليحِ

فقال أبو بكر أول ماقال الشعر أقوى فقلت له انشاد البيتين على وجه لايكون فيه اقواء وانما هو :

.... وقل بشاشة اوجهُ المليحُ

على تقدير وقل بشاشةً بفتحتين وجعل يستشهد لحذف التنوين في هذا الموضع اذا تلاه ساكن بشواهد عدة من الشعر ومن القرآن الكريم ثم قال وحذف التنوين عند الالتقاء بساكن غير داخل في ضرورة الشعر وقد رأيت بعض من ذكر ضرورة الشعر أدخل فيه حذف التنوين وهو عندي ليس كذلك . اهـ . من تفصيل لعمري وفيّ رويّ .

وابو العلاء يعرض لهذه القصة حين يلتقي ابن القارح بابينا آدم ثم يقول مانصه : قلت انا هذا الوجه الذي ذكره ابو سعيد شر من اقواءٍ عشر مرات في القصيدة الواحدة اهـ. (رسالة الغفران ص ١٠٩ و ١١٠) .

ابو علي الفارسي وكتبه

ونحن مضطرون ان نطيل عليك بنقل من نص رسالة الغفران ص ٥٧ لتعلم تقدير أبي العلاء للفارسي وكتبه .

« قال ابن القارح : وكنت قد رأيت في المحشر شيخاً لنا كان يدرس النحو في الدار العاجلة يعرف بأبي علي الفارسي وقد امترس به قوم يطالبونه ويقولون تأولت علينا وظلمتنا فلما رآني أشار بيده فجئته فاذا عنده طبقة منهم يزيد ابن الحكم الكلابي وهو يقول ويحك أنشدت علي هذا البيت برفع «الماء» يعني قوله :

فليت كفافاً كان شرك كله وخيرك عني ما ارتوى الماءُ مرتوي

ولم أقل إلا « الماءَ » . وكذلك زعمت اني فتحت الميم في قولي :

تبدل خليلا بي كشكلك شكله فاني — خليلاً صالحاً بك — مَقتوي

وإنما قلت «مُقتوي » بضم الميم . وإذا هناك راجز يقول تأولت عليّ أني قلت :

يا إبلي ما ذنبه فتأبيَهْ ماء رواء ونصيّ حولَيَهْ(1)

(١) يروي هذا البيت أبو سعيد في الشرح :

يا ابلي ما ذامه فتابيَهْ ماء رواء ونصيٌ حولَيَهْ

شاهداً على تثنية « حول »

فحركت الياء في « تأبيه » ووالله ما فعلت ولا غيري من العرب

وإذا رجل آخر يقول أدعيت علي أن الهاء راجعة على الدرس في قولي :

هذا سراقة للقرآن يدرسه والمرء عند الرشى أن يلقها ذيب

أفمجنون أنا حتى أعتقد ذلك . وإذا جماعة من هذا الجنس كلهم يلومونه على تأويله . فقلت يا قوم ان هذه أمور هينة فلا تفتنوا هذا الشيخ فانه يمت بكتابه في القرآن المعروف « بالحجة » وانه ما سفك لكم دماً ولا احتجن عنكم مالاً فتفرقوا عنه وشغلت بخطابهم والنظر في حورهم فسقط مني الكتاب الذي فيه ذكر التوبة فرجعت اطلبه فما وجدته فأظهرت الوله والجزع » اه .

فهو يخطئه في روايته ويكره منه تأويله ويزعم أنه يقوّل العرب ما لم يقولوا ويحمل كلامهم ما لم يريدوا وانه انما يرضى من عمله (كتاب الحجة) وهو في اعراب القرآن وتوجيه قراءاته .

وكذلك انصرف المعري عن بغداد لم يتلق عن أحد من أئمة النحو بها وقرأ كتبهم فضاق صدراً بما فيها . وكان أشد ما ضاق به التكلف في التأويل والغلو في التعليل والمضي مع القياس مضيا يراه المعري منتهياً الى أن يجيز في العربية ماليس منها

تدريسه النحو بالمعرة

عاد أبو العلاء الى المعرة واستقر بها استاذا فماذا علمهم من النحو ؟

جعل يعلم من شاء منهم كتب النحو الموجزة التي تعلمها من قبل في المعرة وفيما حولها من بلاد الشام وهي .

(١) الجمل — للزجاجي — (٢) الكافي — للنحاس (٣) المختصر — لابن سعدان .

وجعل يؤلف الكتب شرحاً لها أو بياناً لشواهدها . فألف لكتاب الجمل :

(أ) — عون الجمل (ب) — اسعاف الصديق

وألف على « الكافي » كتاباً سماه « قاضي الحق » . وعلى مختصر ابن سعدان كتاباً سماه « المختصر الفتحي » ألفه لأبي الفتح ابن كاتبه .

فان املى كتاباً مبتدئاً به فهو على مثال هذه الكتب من الايجاز — وعلى هذا الف كتاب « الحقير النافع » كتاب مختصر في خمس كراسات . ثم ألف كتاباً

يتصل به سماه « الطل الطاهري » كتبه لأبي طاهر المسلّم بن علي من رجال الدولة وهو قريب في الحجم من الكتاب الأول وقد يخلط الكتابان كتاباً واحداً.

لم يؤلف كتاباً موسعاً ولا تعرض لهذه الكتب النحوية المطولة التي اتصل بها في بغداد إلا أن يكون كتاب سيبويه هم بشرحه فشرح قليلاً منه أو من شواهده ثم انصرف عنه ولم يتممه.

وكان يملي هذه المختصرات ويهديها إلى أصدقائه أو إلى أحد من رجال الدولة قضاء لحق أو جزاء على معروف أو براً بصاحب كما ترى في تسمية كتبه « اسعاف الصديق » و « قاضي الحق » وكما نقرأ في اخباره ففي ترجمته في كثير من الكتب التي ترجمته — « قال الشيخ أبو العلاء لزمت مسكني منذ سنة أربعمائة واجتهدت أن أتوفر على تسبيح الله وتمجيده إلا أن اضطر إلى غير ذلك فأمليت أشياء وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم أحسن الله معونته فألزمني بذلك حقوقاً جمة وأيادي بيضا لأنه افنى فيّ زمنه ولم يأخذ عما صنع ثمنه والله يحسن له الجزاء ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء » اه.

وقد كتب لولد هذا الشيخ كتابين في النحو « المختصر الفتحي » و « عون الجمل » قالوا وكان هذا الكتاب آخر ما أملاه الشيخ وما شغله من التأليف رحمه الله.

الخلاصة

طفنا مع أبي العلاء حيثما اتصل بالنحو متعلماً أو معلماً قارئاً أو مملياً ورأينا أنه لم يتلق عن أستاذ يحترمه ويقدره ويتأثر بتوجيهه إلا أن يكون أباه فقد وجهه إلى نحو الكوفيين وحببه في الرواية والسماع ثم أورثته المدرسة الشامية الميل إلى إعراب القرآن وإلى توجيه قراءاته.

أما في بغداد فقد نفر من المدارس النحوية البصرية وضاق بما فيها من قياس وتعليل وجدل.

ولما عاد إلى المعرة اكتفى أن يعلم من النحو المختصرات أو يملي الجمل وأخذ يبث في رسائله نقده لمذاهب البصريين ومافيهامن تعليل وتكلف في التأويل.

أما اجتزاء أبي العلاء بالمختصرات والجمل فقد يكون مذهباً تعليمياً نافعاً

وقد يصلح لمن شاء أن ينال من النحو حظاً ثم ينصرف إلى غيره مما قد يحتاج إلى النحو كالفقه والأدب . أما من شاء النحو على أنه فقه اللغة وكشف أسرارها وخصائصها وتعليل قوانينها ومجاريها فان ذلك لا يجـــدبه شيئاً ولا يصله بشيء .

وأما نقد أبي العـلاء للنحاة للمبالغة في التعليل والتكلف في التأويل فقد يكون له من ذلك ما ينقده على أنه نقد لم يكن دقيق المسلك ولا خفي المكان وكل ما ابتدعه المعري هو أسلوبه الشمري في هذا الانتقاد .

وأستطيع الآن أن أقرر مطمئناً أن أبا العلاء كان عالماً بالنحو وأن أقرر — كذلك — أنه لم يكن نحوياً ولا أراد أن يكون نحوياً وإنما كان ناقداً لغوياً درس النحو فعابه وضاق به وانصرف عنه واكتفى من قواعده بما يمكنه من العمل الذي وافق هواه وساير طبعه وهو — النقد — ونظرات في مثل (عبث الوليد) أو (ذكرى حبيب) تبين أنه انصرف إلى النقد ولم يعن بمسائل النحو ولا بتخريج النحاة .

من بعد أبي العلاء

لم يذهب مع الريح نقد أبي العلاء للنحاة وأسلوبه الشمري الذي اتبعه في النقد زاد من أثره فشاع وتندر الناس به .

ولو أنه كان نقداً أعنف من هذا وأعمق بحثاً ثم مضى في بطون الكتب النحوية لما بلغ هذا المدى من الذيوع ومن الأثر .

نرى عقب زمن أبي العلاء عَرَضاً ظاهراً في كتب النحو — وكتب الأئمة منهم — يبدؤون كتبهم بالدفاع عن النحو والذود دونه ذوداً عنيفاً يرى أنه درء لهجوم قوي مر .

فالامام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧٤ يبدأ دلائل الاعجاز — وهو كتاب يعده الجرجاني ونعده معه كتابا في النحو — يبدأ هذا الكتاب بجدل قوي لمن زهد في النحو واحتقره واصغر أمره وتهاون فيه — وان صنيع هؤلاء أشبه بالصد عن كتاب الله وتعرف معانيه ثم يُفصل ما عابوه من النحو بما لايبعد مما ندد به ابو العلاء — (وانظر تفصيل ذلك في اول الدلائل) .

والامام ابو القاسم محمد بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ يبدأ كتابه « المفصل » بمثل هذا الدفاع ويجعل الذين يغمصون من العربية ويضعون من مقدارها ويريدون ان يخفضوا ما رفع الله من منارها لايبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الابلج وزيغا عن سواء المنهج وذلك لأنهم لايجدون علما من العلوم الاسلامية فقهها وكلامها وتفسيرها واخبارها الا وافتقاره الى العربية لايدفع ويرون الكلام في معظمها مبنيا على علم الاعراب . . . .

والزمخشري رحمه الله يتحكك بابي العلاء في مواضع اخرى ففي تفسيره للمرسلات عند آية « ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر » . جلب ذكر أبي العلاء لأدنى مناسبة — كما يقول النحاة — فذكر بيت المعري :

حمراء ساطعة الذوائب بالضحى ترمي بكل شرارة كطراف

وجعل يعيب المعري ويلمزه لسوء تشبيهه وهو ظاهر التجانف والميل . وتعودنا من الزمخشري رحمه الله ان يعرض لخصوم المعتزلة وليس ابو العلاء منهم ولكن الزمخشري كان رجلاً أديباً قرأ رسائل المعري وفطن لموقعه من النحاة فحمله كرهه على التحرش به .

وهذه الخصومة النحوية قد جنت على ابي العلاء ايضا فان النحاة اهملوا شعره وندر جداً ان تعرضوا له بشرح أو استشهاد أو نقد وقد عنوا بشعر ابي تمام والمتنبي لما فيهما من تصرف في اللغة وفي الاساليب النحوية وقد كان في شعر ابي العلاء من ذلك مايغريهم بدرسه ولكنهم اعرضوا عنه .

وأظهر من هذا اعراضهم عن كتبه في النحو فلم يدرسوها ولا نقلوا عنها حتى لم يبق منها كتاب ولا أثر من نقل . وتلك خصومة جنت على المتخاصمين ولم يجن العلم منها شيئاً .

ولقد أرى أن ابا العلاء فكر في النحو بالطبيعة التي فكر بها في كل امور الحياة يحس العيب — فيما يراه عيبا — فيعبر عنه ويندد به وربما التزم ان يتجنبه ويعصم نفسه منه ولكن رأيه في اليأس والقنوط يمنعه ان يثور الى شيء من الاصلاح .

واذا ما نهض النحو — واظنه ينهض — فانه سيشهد ان النحاه المتقدمين والبصريه منهم خاصة قد ابلوا في كشف اسرار اللغة ووصلوا من فقهها الى قيم كثير وان آثارهم قد طمت تحت ركام من الاعراض والفتور وان ابا العلاء كان شيئاً مما فتر الناس عنها ...

* * *

وكتب بالاسكندرية في رمضان من سنة ١٣٦٣ وقدم الى المهرجان الألفي المقام لأبي العلاء في سورية وأملاه

ابراهيم مصطفى

« مندوب جامعة فاروق الأول »

بعض ملاحظات

تتعلق بحياة أبي العلاء وآثاره

« تشرفت بدعوة المجمع العلمي العربي بدمشق اياي لحضور مهرجان الشاعر الحكيم العظيم أبي العلاء المعري . وأنا أشكر للمجمع العلمي الموقر دعوته باسمي وباسم أدباء فارس وعلمائها ورجالاتها . وأعتذر لحضوري متأخراً فما كل ما يتمنى المرء يدركه .

لقد هيأت بحثاً موجزاً كتبته باللغة الفرنسية لألقيه إبان المهرجان فلم أتمكن من ذلك وقد طلبت إلى صديقي الدكتور أسعد طلس أن يترجمه إلى العربية ففعل مشكوراً .

وسأرجع إلى طهران حاملاً الى بلادي أطيب الذكريات لرجال سورية الأفاضل الذين غمروني بعطفهم وبخاصة رجال المجمع العلمي العربي وأدباء دمشق » .

* * *

قال بعض شعراء فارس متنبئاً بحظ الشعراء بعد موتهم :

« حينما يكون الشاعر حياً لايقدر الناس شعره حق قدره، بل ان بعضهم ينقد لفظه كما ان آخرين يتهجمون على آرائه .

ولكنه إذا مات أصبح قوله أغلى من الدر وأثمن من الابريز .

فياحبذا تلك الحالة الحسنة التي يصبح فيها الموت افضل من الحياة » .

لاشك في ان هذا الشاعر يتألم من حال كثير من معاصريه الذين لايقدرون قيمة شعره وعبقريته لما في نفوسهم من الحسد والفكر الضيق . كما لم يقدر كثير من الاقدمين عبقرية غيره من الشعراء والنوابغ .

إن ابا العلاء هو واحد من هؤلاء الشعراء الذين لقوا من معاصريهم مالقيه هذا الشاعر فانهم تهجموا على عبقريته وضيقوا عليه انفاسه في حياته ومنعوه أن يظهر بصورته الحقيقية . وذلك ان ابا العلاء ماكان يشبه قليلا او كثيرا من تقدمه من الشعراء إما باسلوبه الخاص او بافكاره الجريئة فكان طبيعياً ان ينظر الناس اليه نظرة قاسية ويتهجموا عليه ويشتموه ويلعنوه ويكفروه لا لشيء سوى انهم حاسدون او متعصبون رأى ذلك أبو العلاء من معاصريه فتعب منهم وتألم من مجتمعهم

واحتقرهم فازوى في « محبسه » يعيش عيشة نسك وانزواء ويعبر عن آرائه بالفاظ غامضة واسلوب مبهم كل ذلك بتعمد منه لئلا يطلع على مذهبه وافكاره من ليسوا لها اهلا .

اشتهر ابو العلاء شهرة واسعة في حياته على الرغم من ذلك الانزواء الشديد الشديد وهو بحق اهل لتلك الشهرة لان قدره لم يكن قط بحاجة الى مرور الازمان ليعرفه المسلمون في كافة نواحي الارض .

ان الذين قدروا ابا العلاء في حياته هم كثيرون كما ان العلماء الذين كانوا يفتخرون بالنسبة اليه والاستفادة منه كانوا لا يحصون ، اما الملوك والامراء الذين كانوا يحبون ان يتشرفوا به وبزيارته فهم كثيرون أيضاً .

انا لا استطيع ان احدث طويلا عن ابي العلاء في هذا الجمع الحافل من علماء الشرق والمشرقيات لقلة بضاعتي ولكني حثت التي بعض ملاحظات تتعلق بحياة ابي العلاء احد كبار مفكري الشرق واحد مفاخره . وانا آمل أن اكون في بحثي هذا قد امطت اللثام عن بعض الأمور المبهمة في ادب ابي العلاء .

على الرغم من انزواء ابي العلاء في معرة النعمان فان صيته كان قد وصل الى اقصى حدود خراسان وما وراء النهر وذلك قبل نصف قرن من وفاته .

اذا استثنينا رحلة ابي العلاءالقصيرة الى بغداد فاننالانجده رحل الى بلد وراءبلاد الشرق الاسلامي ولكن هذا لم يمنع مواطني الفرس من ان يرحلوا الى بغداد من كل الجهات ليفيدوا من اقامته القصيرة في تلك المدينة . وكثير منهم من استسهل الصعاب فقصد معرة النعمان ليقرأ على الشيخ في داره .

وانه لمن الفخر ان يكون هؤلاء الفرس هم الذين نشروا آثاره وكتبه في بلاد الشرق الاسلامي في حياته وبعدها . وانه لمن الخير ان نلاحظ انهم كانوا اسبق من غيرهم في نشر ادب ابي العلاء .

ان من اول من تحدث عن المعري فيما اعرف من ادباء فارس هو ابو منصور الثعالبي في كتاب «تتمة اليتيمة» الذي نشرته في طهران [انظر ج ٩/١] . والذي الفه بين عامي ٤٠٤ و ٤٠٧ للهجرة اي قبل موت ابي العلاء باربعين او خمس واربعين سنة . وقد خصص الثعالبي فصلا عن حياة الشيخ كما روى لنا بعض شعره واليكم نص كلامه [كان حدثني ابو الحسن الدلفي المصيصي الشاعر وهو من لقيته

قديماً وحديثاً في مدة ثلاثين سنة قال لقيت بمعرة النعمان عجباً من العجب رأيت اعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ويدخل في كل فن من الجد والهزل يكنى ابا العلاء سمعته يقول انا احمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر فقد صنع لي واحسن بي اذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء قال وحضرته يوما وهو يملي في جواب كتاب ورد عليه من بعض الرؤساء :

وافى الكتاب فأوجب الشكرا   فضممته ولثمته عشرا
وفضضته وقرأته فاذا   أجلى كتاب في الورى يقرا
فمحاه دمعي من تحدره   شوقاً اليك فلم يدع سطرا

فتحفظتها واستعملتها كثيراً في مكاتبات الاخوان اهـ]

وقد أورد ياقوت نص الثعالبي باختصار في معجم أدبائه [ج ١ /١٧٢ - ١٧٣] وقد أضاف على ذلك (قال أنشدني لنفسه :

لست أدري ولا المنجم يدري   ما يريد القضاء بالانسان
غير أني أقول قول محق   قد يرى الغيب فيه مثل العيان
إن من كان محسناً قابلته   بجميل عواقب الاحسان.)

وإذا قارنا عبارة ياقوت بعبارة تتمة اليتيمة وجدنا أن هذه المقطوعة التي أوردها ياقوت ليست لأبي العلاء وإنما هي للمحسن بن عمرو بن المعلى الذي ترجمه الثعالبي في التتمة بعد أبي العلاء مباشرة . والراوي لهذه المقطوعة على قول الثعالبي هو أبو يعلى البصري لا أبو الحسن الدلفي كما زعم ياقوت . وتفسير هذا ان نسخة التتمة التي رآها ياقوت كانت مخرومة ينقصها بعض مقاطع فاشتبه الأمر على ياقوت فخلط بين شعر أبي العلاء وشعر المحسن . فأنبه العلماء على هذه الغلطة التي وقع فيها ياقوت وأرجوهم أن يصححوا ما قاله لئلا يقعوا في الفخ الذي وقع فيه .

بعد الثعالبي جاء ناصر خسرو الداعي الباطني والشاعر الفارسي المشهور الذي زار معرة النعمان في ١٥ رجب سنة ٤٣٨ أي قبل موت أبي العلاء باحدى عشرة سنة وقد حدثنا في رحلته « سفرنامه » بأخبار هامة عن شيخ المعرة وقد اعتمد عليها كثير من المستشرقين والشرقيين في دراساتهم ولذا فاني لا أحب أن أقف طويلاً أمامها وأناقشها .

ونحن إذا رحنا نفتش عن العلماء الفرس الذين ترجموا لأبي العلاء وشرحوه ونشروا آثاره تقف أمام عالم كبير هو أبو زكريا بن الخطيب التبريزي (٤٢١ — ٥٠٢) الذي سار على قدميه من تبريز إلى المعرة ليلقى حكيمها ويفيد منه مع أنه لم يكن له من العمر أيامئذ إلا قريب من سبعة عشر عاماً ولكن القدر قد عاكسه فان مدة استفادته من الشيخ لم تطل أكثر من سنة أو سنتين على أقصى تقدير . وهذا يفسر حملة صاحب التنوير على كتاب ضوء السقط للتبريزي واليك نص كلامه عن هذا الكتاب [غير واف بالمقصود ولا دال على الغرض المطلوب لتقاصره عن بلوغ ما يجب من الابانة والايضاح وقصوره على إشارات من مواضع معدودات لا تكشف الغطاء من مشكلة ولا تشفي ذاغلة ، قد عني الشارح فيه بشرح الألفاظ وتفصيل ما غمض من اللغات غير أنه حرم توفيق الاتقان فيما نقله ولم يصب شاكلة الصواب فيما استثبته وأصّله ، ولما لم يكن ضوؤه كافلاً باضاءة المعنى ولا معثراً على ما هو المقصود من إبانة الفحوى ...] (طبع مصر سنة ١٣٢٤ ص ٥) . وسنتكلم مفصلاً فيما صاحب التنوير .

وهناك مؤلف فارسي آخر تحدث عن أبي العلاء ونقل شيئاً كثيراً من مختار شعره وهو الباخرزي صاحب كتاب دمية القصر المؤلف في سنة ٤٦٤ أي بعد موت أبي العلاء بخمس عشرة سنة ، فقد حدثنا الباخرزي بأخباره منقولة عن أبي عثمان الصابوني الذي زار شاعرنا في معرة النعمان .

بعد أن انتشر كتاب ضوء السقط في العالم الاسلامي أصبحنا نجد عدداً كثيراً من الشراح الفرس ولن أتحدث اليكم في هذه الفترة عن شروحهم الكثيرة فان الوقت أضيق من ذلك ولكني أحب أن أقف وقفة طويلة أمام شارح واحد وهو صاحب التنوير الذي لا يزال إلى عهدنا هذا مجهولاً .

إن هذا الشرح القيم قد انتهى منه صاحبه في شهر محرم سنة ٥٤١ وقد نشر للمرة الأولى مطبوعا على الحجر في تبريز سنة ١٢٧٦ ثم نشر في القاهرة مرات عديدة وقد ذكر صاحب معجم المطبوعات العربية ومفهرس دار الكتب المصرية أن صاحب هذا الشرح هو ابن طاهر النحوي أبو يعقوب يوسف

ولكنهم لا يعرفوننا شيئاً عن أخبار أبي طاهر هذا ولا عن مصادرهم التي اعتمدوا عليها في هذا القول.

إن قولهم انه [نحوى] هو تحريف ظاهر عن كلمة (خويي) لأن المؤلف كان من [خوي] وهي بلدة لاتزال موجودة الى ايامنا هذه في الشمال الغربي من بلاد آذربجان في فارس وقد ذكر السمعاني في كتاب الانساب في نسبة [الخويي] مايأتي: «من المنسوبين الى خوي احدى بلاد آذربجان صاحبنا ابويعقوب يوسف ابن محمد— كذا وهو تحريف ظاهر لكلمة طاهر — ابن الخويي من اهل خوي سكن طوس وكان حسن السيرة فاضلا كتبت عنه اقطاعا من الشعر بنوقان وكان ينوب عن القاضي» [كتاب الانساب ورقة ٢١٢ ب] وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان [٢/٥٠١ في مادة خوي] مايأتي: «يوسف بن طاهر بن يوسف بن الحسن الخوي الاديب ابو يعقوب من اهل خوي اديب فاضل وفقيه بارع حسن السيرة رقيق الطبع مليح الشعر مستحسن النظم كتب لابي سعد الاجازة وقد كان سكن نوقان طوس ولي نيابة القضاء بها وحمدت سيرته في ذلك وله تصانيف من جملتها رسالة تنزيه القرآن الشريف عن وصمة اللحن والتحريف وقال ابو سعد وظني انه قتل في وقعة الغزية بطوس سنة ٥٤٩ أو قبلها بيسير».

واذا نحن قارنا عبارة ياقوت بعبارة السمعاني عن ابي يعقوب نجد ان مااورده ياقوت عن السمعاني إما أن يكون من نسخة كاملة من كتاب الانساب لم تصل الينا وإما ان يكون من كتاب آخر للسمعاني.

ومما يجدر قوله انه قد بقي لنا كتاب ثانٍ من آثار أبي يعقوب وهو مجموعة أمثال عربية عنوانها — فرائد الخرائد — ومن الكتاب نسخة في المكتبة الوطنية بباريس رقمها ٣٩٦٨. وفي مقدمة هذا الكتاب نجد اسم المؤلف هكذا يوسف ابن طاهر الخويي. ويذكر الحاج خليفة هذا الكتاب فيقول: «فرائد الخرائد في الأمثال والحكم لابي يعقوب يوسف بن طاهر الخويي فرغ منه سنة ٥٣٢ ذكر في اوله ان ابا الفضل احمد بن محمد الميداني وانه استاذه ألف كتابا لكنه اطال فيه فذكر فيه مااهمل من الامثال وألفه على ترتيب الحروف وادرج فيه الابيات السائرة والحكم».

ويلاحظ المرء ان الحاج خليفه كان يعرف كتاب التنوير كما كان يعرف ابا يعقوب الخويي مؤلف الفرائد ولكنه لم ينسب كتاب التنوير اليه لان اسم المؤلف لم يكن مذكوراً في صدر كتاب التنوير .

ولا شك في ان مؤلف كتاب التنوير هو نفس مؤلف كتاب الفرائد الذي ذكره الحاج خليفة. كما انه لاشك في ان مؤلف التنوير هو نفس الرجل الذي ترجمه ياقوت والسمعاني. قد لاحظنا ان ياقوتاً والسمعاني لم يذكرا كتاب التنوير في عداد مؤلفات ابي يعقوب الخويي ولكن نلاحظ في مقدمة التنوير ان مؤلف هذا الكتاب كان مضطلعا بعلوم الدين والعقائد والطب فضلا عن الآداب . وانه كان يعيش في خراسان . وليس هناك مايمنع ان يكون نائب القاضي في طوس وانه ألف كتاباً دينياً اسمه تنزيه القرآن . [انظر بروكلمان ١ /٢٨٩ الذيل ١ /٤٥٣ و ٥٠٧] .

وخلاصة ماسبق :

١ً — ان مؤلف كتاب التنوير هو ابو يعقوب يوسف بن طاهر بن يوسف بن حسن الخويي من خوي احدى بلاد آذربيجان .

٢ً — كان شاعراً ومحدثاً واديباً وفقيهاً وكان مقيماً في طوس يشغل وظيفة نائب القاضي .

٣ً — كان تلميذاً لأبي الفضل الميداني صاحب مجمع الأمثال وكان السمعاني صاحب الانساب ممن اخذوا منه اجازة .

٤ً — إنه ألف كتاب فرائد الخرائد ليرتب كتاب أستاذه ويتممه في سنة ٥٣٢ ، وألف كتاب «تنزيه القرآن الشريف عن وصمة اللحن والتحريف» .

٥ً — إن كتاب تنوير سقط الزند قد تم تأليفه في خراسان في شهر المحرم سنة ٥٤١ وان المؤلف قتله الغز في أواخر سنة ٥٤٨ أو أوائل سنة ٥٤٩ بطوس وكان ذلك بعد استيلاء الغز على خراسان وأسرهم صاحبها السلطان سنجر.

ومن أغرب الحوادث أن هناك شارحاً آخر لسقط الزند هو صدر الافاضل القاسم بن الحسين الخوارزمي (٥٥٥—٦١٧) مؤلف ضرام السقط الذي أتم تأليفه سنة ٥٩٧ أي بعد تأليف التنوير بست وأربعين سنة ، قتله التتار في سنة ٦١٧ في خوارزم .

وقد أشار صدر الأفاضل في ضرام السقط [المطبوع بتبريز سنة ١٢٧٦ على هامش كتاب التنوير] إلى شراح السقط قبله وهم ابن الخطيب التبريزي صاحب التنوير . وهو قد حمل حملة على صاحب التنوير . كما حمل على صاحب شرح آخر هو الايضاح لمؤلف لا نعرفه .

أيها السادة الأفاضل

أختم كلمتي بالاعتذار اليكم لأني لم اجئكم بشيء ذي قيمة في بحثي هذا . فقد كنت أحب أن أتحدث اليكم عن الخيام وعلاقة أدبه بالمعري لأنهما يتشابهان في مواضع كثيرة ولكن ضيق الوقت وقلة البضاعة منعاني من ذلك فأعتذر اليكم ثانية والسلام عليكم ورحمة الله .

عباس اقبال

مخطوطات أبي العلاء المعري

في مكتبة جامعة برنستون

تمتاز مكتبة جامعة برنستون بخزانة كتبها العربية التي شرع في تأسيسها عام ١٩٠٠ المستر غريت من تلامذة الجامعة سابقاً وأمنائها حالياً . فالخزانة تستوعب اليوم ما نيف على عشرة آلاف مخطوط عربي مما يخولها حق تبوء المقام الأول بين خزائن جامعات العالم . على أن مكانتها ليست بكثرة مخطوطاتها فحسب بل بعدد الأمّات والنوادر منها .

فمن هذه النفائس « كتاب الصناعة الطبية لحنين بن اسحق العبادي . نسخه عثمان بن علي بن محمد السمرقندي عام ٥٧٢/١١٧٦ — ٧٧ . وهو ترجمة كتب جالينوس الطبية ويحوي موادّ لا وجود لها في مخطوطات جالينوس اليونانية واللاتينية . وفضلاً عن ذلك فالمخطوطة العربية أقدم من كل المخطوطات اليونانية واللاتينية الباقية اليوم . ومنها « الكتاب الملكي » لعلي بن العباس المجوسيّ نقله بركات بن ثابت عام ٥٨٦/ ١١٩٠ . وهو النسخة الوحيدة الكاملة في هذا الكتاب على ما نعلم باستثناء نسخة في حوزة الدكتور سامي حداد في بيروت . ومن طريف أمر هذا الكتاب أنه التأليف العلمي الرئيدي الوحيد الذي حفل الصليبيون بنقله إلى اللاتينية وذلك في أنطاكية عام ١١٢٧ . ومنها « الموجز في الطب » لابن النفيس الدمشقي المتوفى عام ١٢٨٨ وهو بخط مسعود ابن محمد القزويني نسخه عام ١٣٩٣/٧٩٥ وابن النفيس هو الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل سرفيتوس البرتغالي المنسوب هذا الاكتشاف له بمائتين وثلاثين سنة . ومنها « المدخل إلى صناعة الموسيقى » للفارابي نسخه أحمد بن محمد ... عام ١٤٦١/٨٦٦ وهو مزدان بالرسوم والرّموز الموسيقية التي لا يستطيع أحد اليوم قراءتها .

وبين مخطوطات هذه المجموعة تأليفات وتعليقات بيد عدد من اعلام التاريخ

الاسلامي في التأليف والخط بينهم ياقوت الحموي الجغرافي وابن الأثير المؤرخ وابن النفيس المتطبب وابن عربي الفيلسوف المتصوف والفيروزابادي اللغوي وابن حجر العسقلاني الفقيه .

ولما تكرم الاستاذ رئيس المجمع العلمي العربي وطلب الي إعداد كلمة لمهرجان أبي العلاء راجعت الفهرس الذي كنا نشرناه بالطبع عام ١٩٣٨ لمجموعة (غريت) العربية التي كانت يومئذٍ في حوزة مكتبة جامعة برنستون فوجدت فيه ذكر ثلاث مخطوطات تحمل اسم المعري فرأيت أن اصفها واتحف المجمع بصور بعض صفحاتها . ولا بد من ان نذكر في هذا المقام ان الجامعة اقتنت بعد طبع هذا الفهرس بمجموعة ثانية من المخطوطات العربية تبلغ نحواً من ستة آلاف لم يتيسر لنا الآن درسها ووضع فهارسها لذلك لا ندري ما إذا كان فيها نسخ غير هذه من مؤلفات أبي العلاء .

إن أحدث مخطوطات المعري في جامعة برنستون هي « الرسالة الاغريضية » (رقمها ٢١٩١ في فهرس مجموعة غريت المطبوع . والاغريض زهر النخل وكل أبيض طري) . نسخها عام ١٨٥٨/١٢٧٥ في المدينة محمد علي بن حسين بن عمر الدمشقي وضمنها مع غيرها من الرسائل في مجلد واحد كلها منقولة من مجموعة وجدها في خزانة شيخ الاسلام بالمدينة . وهي رسالة في اللغة والشعر والمنطق نشرها (مرغليوث) مع رسائل غيرها لأبي العلاء في اوكسفورد عام ١٨٩٨ ولا نعرف لها أختاً سوى مخطوطة في خزانة الاسكوريال بمدريد (وصفها درينبورغ في فهرس هذه الخزانة تحت رقم ٤٧٠ — ٢) . ومخطوطتنا تقع في ٤ ورقات طول كل ورقة منها ٢٧٫٦ سنتيمتراً . وعرضها ١٨٫٥ سنتيمتراً . وطول المكتوب من الصفحة ٢٢ وعرضه ١١٫٨ . وعدد السطور في الصفحة يختلف بين ٢٩ و ٣١ . ورقها أوربي صقيل وحبرها أسود باستثناء العنوان وعلامات الوقف فانها بحبر أحمر .

جاء في مستهلها :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه

رسالة أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري وتسمى الاغريضية كتبها جواباً عن الرسالة التي كتبها الوزير ابو القاسم هبة الله المغربي . والمغربي هذا توفي سنة ١٠٢٧/٤١٨ على ما ترجم له ابن خلكان .

وفي نهايتها :

وكان تمامها في يوم الاثنين المبارك الموافق خمسة وعشرون [كذا] خلون من محرم الحرام من شهور افتتاح سنة الف ومائتين [و] خمسة وسبعون [كذا] على يد ناقلها لنفسه أضعف الورى محمد علي بن حسين بن عمر الدمشقي نزيل المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأذكى السلام .

وعلى هامش المخطوطة بعض التصحيحات . وهي في حال حسنة . غلافها من الطراز الشرقي الأزرق له ردة وعليه طوابع حمراء . والمخطوطةمشتراة من بريل الكتبي المعروف في هولانده عام ١٩٠٠ . وكان بريل اشتراها مع غيرها من السيد امين بن حسن الحلواني المدني الحنفي عام ١٨٨٣ لمناسبة افتتاح المعرض الاستعماري في امستردام . وبريل استشار المستشرق الاسوجي لاندبرغ في امر مجموعة الحلواني لدى اقتنائها .

أما اقدم نسخة من مخطوطات المعري في مجموعة برنستون فهي من « لزوم ما لا يلزم » اهم مجموعةشعريةلأبي العلاء (رقمها ٢٨ في فهرس مجموعة غريت المطبوع) نقلها حسين بن احمد بن حسين الجزري بتاريخ ١٠١٣/١٦٠٥ . عدد اوراقها ٢٠٠ الواحدة منها ٥ ، ٢٠ × ١٤ سنتيمتراً والمكتوب منها ٥ ، ١٧ × ٢ ، ٧ . وتشتمل كل صفحة على ٣١ سطراً بالخط النسخي المضبوط بالشكل على ورق اوربي صقيل . جاء في مستهلها :

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد رسوله وعلى الأئمة الابرار من عترته قال ابو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمن التنوخي المعري رهن المحبسين [البيت والعمى] تجاوز الله عنه .

وفي نهايتها :

وكان الفراغ منه يوم الجمعة المبارك في اواخر شهر شعبان من شهور سنة ثلث عشر بعد الالف على يد افقر الورى الى رحمة الله تعالى حسين بن احمد بن حسين الجزري غفر الله له ولوالده ولجميع المسلمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين والحمد لله وحده .

وفي حواشيها تعاليق وتقييدات من مقتنيها ومطالعيها . وهي في حالة حسنة

وجيدة التجليد . وعلى دفتي غلافها مطبوع مداليتان مذهبتان. ولغلافها ردة مطبوع عليها أيضاً مدالية مذهبة . والمخطوطة مشتراة من خزانة مراد البارودي في بيروت عام ١٩٢٥ .

وهنالك مخطوطة ثالثة للمعري في پرنستون وهي « سقط الزند » (رقمها ٢٩ في فهرس مجموعة (غريت) المطبوع . وهي اول مجموعة اشعار نظمها (المعري) نسخها عام ١٠٥٣/١٦٤٣ علي الراشدي سبط المعروفي . عدد اوراقها ٧٨ الواحدة منها ١٩٫٥ × ١٣٫٥ ، سنتيمتراً والمكتوب منها ١٢٫٥ × ٦٫٥ . وعلى كل صفحة ١٩ سطراً بالخط النسخي المضبوط بالشكل على ورق اوربي صقيل بحبر أسود فيما سوى العناوين وعلامات الوقف فبحبر أحمر أو أزرق . والمخطوطة مخرومة من اولها والصفحة الاولى منقولة ثانية بخط ناسخ متأخر. جاء في مستهلها:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه العون

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين اما بعد . . . وفي نهايتها:

تم الديوان المعروف بسقط الزند من شعر أبي العلاء احمد بن عبد الله المعري على يد الفقير الحقير علي الراشدي سبط المعروفي وكان الفراغ من تمليقه يوم الاثنين لخامس عشر شوال من شهور سنة ثلاثاً [كذا] وخمسين والالف احسن الله تعالى ختامها آمين يارب العالمين .

ويتلو ذلك حاشية مؤداها ان النسخة هذه منقولة من نسخة بخط القاضي عبد اللطيف بن القاضي محب الدين في معرة النعمان .

وعلى هامش المخطوطة عناوين ضمن دوائر حمراء وكثير من التعليقات والاضافات والشروح . ولقد عبث العث بعدد من صفحاتها . وغلافها من الطراز الشرقي مطبوع على دفتيه مداليتان والمخطوطة مشتراة من البارودي في بيروت عام ١٩٢٥ .

جامعة پرنستون ـ ٢٠ تموز عام ١٩٤٤ فيليب حتي

«الناس تخطب في علاك وتنشد»

لمضي ألفٍ من سنيك أحمدُ … الناس تخطب في علاك وتنشدُ
ذي (مهرجانات) تقام بجلّقٍ … ونظيرها من حول قبرك تعقد
الوفد تلو الوفد جاء مشاركاً … فيها وكل عن بلاد موفد
جاؤك من شرق البلاد وغربها … وشعارهم لأبي العلاء المقصد
يحيون ذكرك بعد موتك أعصراً … طاب الممات وطاب منك المولد
شيخ المعرة والحوادث جمة … وكفاك أنك لم تنلك لها يد

* * *

يا صاحب العلم الغزير ومن رأى … سرّ الحياة حواه حتى الجلمد
والخلق لا يفنون بعد مماتهم … لكنما أعمارهم تتجدد
يا من عجمت من البرية عودها … وخبرت جيلك غوروا أو انجدوا
ووصفت فلسفة الحياة بصورة … فيها تساوى يوم وصفك والغد
هل أنت تسمع منشديك قريضهم … أمْ أنت فانٍ لا تعي من ينشد
أترى عرفت بأن شعرك لم يمت … فله بألسنة الأنام تردد
في كل بيت من بيوتك حكمة … للناس بالغة وشعر جيد
شعر يهز السامعين نشيده … شعر تقوم له النفوس وتقعد
جلت معانيه وأفصح لفظه … وكأنه في السبك ثوب مؤجد

* * *

مات الملوك ولم تعش اخبارهم … وقديم ذكرك في الوجود مخلد
يروي حديثك مؤمن ومنافق … ومحايدون ومغرضون وحسد
شعراً وفلسفةً وزهداً صادقاً … في كلها عجب لمن يتفقد
لله من صيتٍ بعيدٍ نلته … أعلى مكانته الحجي والسؤدد

شيدت مجداً لم تشده أئمــة … من أهل بيتك فضلهم لا يجحد
وبلغت من كرم الطباع مكانة … ما حازهـا إلا النبيّ محمــد
ودّ الملوك لو أنّ فضلك فضلهم … هيهـات يبلغ ما بلغت السيد
خطبوا اليك ودادهم ووصالهم … فأبيت وصلهمُ وأنت المزهـد
وغدوت عنهم راغباً مترفعـاً … لم يصطنعــك توعد وتودّد
وسلكت في دنياك غير سلوكهم … للعلم منــك وللاله تجرّد
ورغبت عن أكل اللحوم زهادة … وعبادة وكذا التقي الأزهد
وحبست نفسك لا ترود ديارهم … حتى الممات وظل بيتك يقصد
يأتون ناديك الندي ليأخـذوا … عنك العلوم كأنّ دارك معهد
فيـارحونك قاصدين ديارهم … وهم الأولى زودتهم فتزودوا

☆ ☆ ☆

حسدتك أقوام وألّب فتيــة … منهم عليك فقيل إنك ملحد
وسعى لخفضك جاهل ومناوىء … وبقيت رغمهما وأنت الأمجد
النـاس فيك مؤالف ومخالف … ومفكر في أمره متـردد
وكذا العظيم بموته وحيـاته … ناس تواليــه وناس تحسد
شاهدت شر الناس في أفعالهم … فصدعت تنقد حالهم وتُندّد
نقداً تنزّه عن غلوّ أو هوىً … في النفس أو عما يريد المفسد
وسخرت من فتك الطغاة وبطشهم … لم تخشهم إن أبرقوا أو أرعدوا
هذي لعمرك جرأة نبويــة … عن نيلها قصر الشجاع الأيد

☆ ☆ ☆

أأبا العلاء وما عليك غضاضة … ان عدت للدنيا فعودك أحمد
لترى بعينك كيف يقتتل الورى … وجيوشهم للموت كيف تحشّد
فيها النساء مع الرجال تجندت … وعلى النضال تدرّبوا وتعوّدوا
ساروا إلى الهيجاء صفاً واحداً … ما منهمُ إلا الكمي الأصيـد
يصلون نار الحرب لا يخشونها … والحرب تخترم الجسوم وتحصد
لا درع داود تقيهم من ردىً … كلاّ ولا درع كوصفك تسعد

ناهيك من حقدٍ لهم وتطاحنٍ عند القتال وغـلـةٍ لا تبرد
في كل ثانيةٍ وكل دقيقـة غاراتهم ما بينهم تتجـدد
في الأرض حربهمُ وحرب في السما لهمُ وأخرى حيث بحر مزبد
ركبوا القلاع الطائرات كأنها الـ عقبان تهبط في الفضاء وتصعد
يرمون بعضهمُ لبعضٍ من علٍ بقذائفٍ نيرانها تتوقـد
دُكت بها للأبرياء منازل والدير هدّ بها وهدّ المسجد
وهناك (قنبلة) تطير بنفسها ولهـا الأثير مسير ومسدّد
لا تستطيع الطائرات لحاقها ولها إذا طارت دويٌّ أبعد
تهوي فتنفجر انفجاراً هائلاً أنىّ يوجهها الخبير المرشد
قتل الرضيع بها وماتت أمـه من أجله وأبوه ثمّ مجنّد
كم نائمٍ في بيته مع أهلـه هدمت عليهم بيتهم فاستشهدوا
وجرت كصخر السيل دباباتهم تفني رجال الحرب أنّى تقصد
أما بوارجهم فهن حوارس وهناك غواصاتهم تتصيّـد

☆ ☆ ☆

قالوا نحارب حرب سلمٍ دائمٍ في الأرض يلقاه الضعيف المفرد
وعدالةٍ بين الشعوب جميعها حتى يتم لهـا المعاش الأرغد
كلٌّ يبرّر بالدعاية دينـه وفعاله عمـا يبرّر تبعـد
أأبا العـلاء فذي حكاية حالهم أما الحديث فليس فيه تزيّد
نم في ثراك وِرح فؤادك من عنىً فالناس بعدك بئس مما تعهـد

تبريز ـــ ٢١ آب سنة ١٩٤٤

كاظم الدجيلي
قنصل العراق في تبريز

المعرى والموسيقى

قد يستغرب هذا العنوان وحق للسامع ان يستغرب فابو العلاء شاعر وابو العلاء فيلسوف حكيم وابو العلاء زاهد وابو العلاء لغوي ونحوي وصرفي .

ولكن ماحيلتي وانا امرؤ ولع بالموسيقى وايقن ان الطبيعة البشرية لاغنى لها عنها الا اذا كانت شوهاء او بتراء وأبو العلاء ذو طبيعة رقيقة في الطبائع وذو قلب كريم بين القلوب فاذا كان قد اخذ نفسه بالامتناع عن طيبات الحياة فانه لم يفعل ذلك لنقص في شعوره بما امتنع عنه ولا لخلل في جسمه يباعد بينه وبين تفهم تلك الطيبات وانما امتنع عنها وهو بها شاعر واي شاعر ولها مدرك واي مدرك . وما اعتقد ان ابا نواس ذكر الخمر ووصفها باكثر من ذكر ووصف أبي العلاء لها وان اختلفت بينها الغاية واساليب العرض وما ارى صريع الغواني وعمر بن ابي ربيعة ألما بغوامض غرائز النساء واخلاقهن كما ألم أبو العلاء بها وبتحليلها وان اختلفت بينهم الاساليب والغايات . فابو العلاء كان عالما بما اتى من زهد وكان عالما جدا بما ترك من طيبات حتى نرى ان شعره ونثره قد فاضا بتحليل ماترك ولم يلمّ الا قليلا بتحليل ما آثرلنفسه من طرائق العيش فلم يصف ولم يحلل اثر المطعم الجشب واللباس الخشن والعزلة القاسية في نفسه بمثل ماحلل اثر الخمر والمرأة والمال والمجد .

فهذا بعض ماجعلني ابحث عن الموسيقى في حياة هذا الانسان العظيم وشيء آخر هو ادعى لان ابحث عن اثر الموسيقى في نفس المعري خاصة وهو انه رحمه الله كان بصيرا انقطعت بينه وبين الدنيا الاسباب الا بسبب من اذنه ولمسه فكان بالحري ان تراعي هذه الاذن المرهفة كل نأمة من حوله وكل هيعة . وهو لم ينقطع عن خوض ماكان يخوض فيه جميع الناس من مجتمعات عامة وخاصة الا بعد ان شارف الاربعين من عمره فهو اذن قبل ذلك قد استمع الى الموسيقى ساعيا لسماعها او غير ساع سمعها في الافراح وسمعها في المآدب العامة وسمعها على افواه الحداة في القوافل التي كانت تحمله بين الشام والعراق وسمعها من صديق يدمدم او جار يترنم على الاقل .

ولم يعهاني المعري ان اسأل عن موسيقاه الرسوم والاطلال فهو قد اثبت تذوقه لها وتحليله لآثارها واطلاعه على ضروبها والحانها في شتى اشعاره ومؤلفاته .

اما اطلاعه على ضروب والحان موسيقى عصره فقد انبأنا به كتاب الفصول والغايات بتفصيل لانجده عند مؤلفي ذلك العصر حتى المغنين منهم والملحنين فقد جاء في الصحيفة الثامنة بعد الثمانين من ذلك المؤلف بعد ذكر شيء عما ينطق به العود من طرائق الغناء مايلي :

« والطرائق الثماني . الثقيل الاول وايقاعه ثلاث نقرات متساويات الاقدار على مثال مفعولن (مف) نقرة (عو) نقرة (لن) نقرة وهي نقرات ثقال وانت تثبته بالوتد المفروق أوضح مما تثبته بالسبب المضطرب وذلك ان الوتد المفروق ثلاثة احرف اوسطها الساكن والسبب حرفان فانت اذا وقفت على الوتد المفروق سكنت سكونا اطول من السكون الذي على السبب مثل قولك صخر بحر دهر فعلى هذا يجري الثقيل الأول .

وخفيف الثقيل الاول وحقيقته ثلاث نقرات متواليات وهي اخف من التي ذكرنا واسرع تواليا كقولك مفعولن بلا فصل والثقيل الثاني وقد اختلفوا في ايقاعه فاسحاق يوقعه ثلاث نقرات نقرتان متساويتان ممسكتان وواحدة ثقيلة على وزن مفعولان ومنهم من يوقعه اربع نقرات متساويات الاقدار لاخفاف محثوثات ولا ثقال ممسكات على مثال مفعو مفعو ومنهم من يوقعه اربع نقرات ثلاث متساويات والرابعة اثقل منهن على مثال مفعولاتن .

وخفيف الثقيل الثاني وحقيقته اسرع حثا منه وهو نقرتان خفيفتان والثالثة ثقيلة وهو الخفيف الذي اختاره اسحاق ويسمى الماخوري وهو عكس الرمل ووزنه مفعولان .

والرمل هو نقرة ثقيلة واثنتان محثوثتان (لان مفعو) ومثله في الكلام (ملّ وصلي صدّ عني

وخفيف الرمل . وخفيف الرمل جاء على غير جنسه وذلك ان خفيف كل نوع جاء على غير جنسه وذلك ان خفيف كل نوع مثل ثقيله الا انه اخف حث الايقاع فاما الرمل فلم يجيء خفيفه على عدد نقراته وهو على نقرتين بينهما فصل ووزنه على مثال فعلن فعلن

والهزج . وهو على نقرة نقرة.واحدةثقيلة وأخرى خفيفة على وزن (قال لي).
وخفيف الهزج . وخفيف الهزج مثله الا انه اسرع حثاً منه . . » .

ولسنا نعلم ما كانت تضم في هذا الباب المؤلفات الكثيرة التي فقدت لأبي العلاء على أن فيما انتقل لايدينا بعض الغنية عن افتقاد ماضاع فشعرهُ ونثرهُ يؤكدان لنا أن المعري لم يكتف بان يلم بطرق الالحان وضروبها بل هو يتذوقها ويحلل آثارها في نفوس السامعين . استمع له في لزومياته وهو ينعى التكبر على الانسان فيقول:

ما كبره وثقيل اللحن يمنعه من سرعة الفهم ترسيل وتمديد

فالمعري لايكتفي أن يعدد ضروب اللحن من ثقيل وخفيف الثقيل والرمل والهزج وغيرها بل أنه ليعرف طبائع هذه الضروب معرفة من تخطت هذه الالحان سمعه الى قلبه وشعوره . فهو قد وعى طبيعة اللحن الثقيل وشعر أن من طبيعة هذا اللحن أن لايكون سريعاً الى الفهم لطول الترسل والتمديد فيه .

ولا ابالغ إذا قلت لكم إن واحدا من المئة من المغنين حتى الحذاق منهم لا يعرفون تأثير صفات الغناء — التي منها الاسترسال . والتمديد . ولا باس من أن نذكر الان بعض صفات الغناء لتروا من ذلك ان أبا العلاء كان في هذا الفن من العلماء فمنها الاجتهاد . والاستهلال . والاسترسال . والمناضلة . والمخاتلة . والتغريد والتفخيم . والترخيم . والمراسلة . والمطاولة . والترجيع . والتفريع . والتقدير . والتوطئة. والاتفاق . وتقدير الانفاس . والاضعاف والتذلل . والتدلل . والاتصال والتحرش . و لابتداع الى غير ذلك مما لايعرفه الا الراسخون في هذا الفن والمعري لا يكتفي بذلك أيضاً بل انه يطلعك على خبرته بعلاقات الالحان بعضها ببعض وبانه خبير بقواعد الانتقال من لحن الى لحن حتى يأتي على آخرها ففي رسالة الغفران يقول على لسان ابن القارح لاحدى قيان الجنة (اعملي قول ابي أمامة) .

أمن آل مية رائح او مغتد عجلان ذا زاد وغير مزود

ثقيلا أول (فتصنعه فتجيء به مطربا وفي اعضاء السامع متسربا ولو نحت صنم من احجـار ثم سمع ذلك الصوت — لرقص فيقول (هلم خفيف الثقيل الاول) فتنبعث فيه بنغم لو سمعه الغريض لأقر ان ماترنم به مريض فاذا اجادته قال (عليك بالثقيل الثاني) فتأتي به فاذا رأى ذلك قال (سبحان الله كلما كشفت القدرة بدت لها عجائب

فصيري الى خفيف الثقيل الثاني فانك لجيدة محسنة ثم يقترح عليها الرمل وخفيفه وأخاه الهزج فاذا تيقن لها حذاقة وعرف منها بالعود لباقة هلل وكبر واطال حمدربه واعتبر ا . هـ . فمن هذا الخبر يظهر لنا أن المعري كان عارفاً باصول الخروج من لحن الى لحن اذ ان بين الانغام توافقاً وتنافرا وليست كل نغمة توافق السير مع غيرها من النغمات بل أن هناك نغمات لاتأتلف مع غيرهـا البتة ونرى الجهلاء اليوم لفن الموسيقى يقترحون على مغن اغنية من مقام (السيكاه) بينما يكون المغنى آخذاً بانشاد اغنية من الحجاز كار مثلا ففي مثل هذا الحال لايعلم الا الله مقدار مايصيب المغني من التأثر التنافري الواقع بين النغمتين وهذا مالم يغفل عنه أبو العلاء كما ظهر لنا في الخبر السابق وقد جاء في رسائل اخوان الصفا ان الخروج من لحن الى لحن والانتقال منه ليس له طريق الا على احد الوجهين اما أن ينقطع ويسكت ويصلح الدساتين والاوتار بالحذق والارخاء ويبتدأ ويستأنف لحنا آخر ويترك الامر لحاله ويخرج من ذلك اللحن الى لحن قريب منه مشاكل له — وهو ان ينتقل من الثقيل الى خفيفه او من الخفيف الى ثقيله او الى ماقارب منه .

اما تحليله لاثر الموسيقى في النفس فظاهر في شعره ونثره على صورة تدعونا الى ان نقف عند هذا التحليل متأنين غير مستعجلين فابو العلاء في لزومياته وفي فصوله وغاياته وفي غير ذلك من مؤلفاته يدعو الى اجتناب اللهو والتمتع بمفاتن الحياة واجتناب كل مايعين على ذلك وفي جملتها الموسيقى فهو اذن — يدعو الى اجتنابها لانها كالخمر والنساء من افتن مفاتن الحياة ولان لها سحرا لايمتنع منه اصعب القلوب ولا اشد الاعصاب ولأنها لاتملاء الحياة آمالا واحلاما وهو لايرى بحكم زهده وتشاؤمه أن يسمح للحياة ان تلعب بنا بهذه الامال والاحلام التي تزينها لنا بالموسيقى أو بالخمر او بالنساء او بها جميعا .

ولكن الموسيقى لذة منزهة لاتخلب الالب كما تفعل الخمر ولاتثلم الشرف او تنغص العيش كما يحتمل أن تفعل النساء وانما هي لذة منزهة كما قلت تسمو بالروح ولاتهيج الجسد الا اذا استعانت بمعاني الشعر أو بحرارة الخمر او بقرب الكواعب الغر .

فالمعري من ذلك بين نارين النار الاولى هي أنه ليؤثر الموسيقى لو كان يمكن ان تكون اللذة المنزهة الوحيدة التي يلجأ اليها الناس وهو لايتعنت في كبت اعجابه بها بل يقول مثلا :

وهواك عندي كالغناء فانه حسن لدي ثقيله وخفيفه

ويسترسل مع شعوره وخياله في عالم الالحان فيقول :

وغنت لنا في دار سابور قينة من الورق مطراب الاصائل مهدال
أت زهراً أغضاً فهاجت بمزهر مثانيه احشاء لطمن واوصال

فهذا كلام من افسح لحسه ولشعوره المجال الى مداهُ في لحظة من تلك اللحظات التي كان يتناسى فيها أخذه بالزهد كل خشن من قول او عمل .

والنار الثانية هي التي اكتوى بها المعري برضاه واراد ان يكوي بها جميع العالمين وهي الاحتشاد بكل قوى الارادة لخنق الغرائز وكبت المشاعر واجتناب اللذائذ والابتعاد عن كل مايغرى بالاستسلام لفاتن الحياة :

والموسيقى أجلّ خطراً من أن نهمل شأنها في هذا الباب فهي مفتاح لكثير من الاخيلة واللذائذ — والشهوات

طربت لقمريتي مربع على غصني ضالة غنتا
بدت لهما زهرات الربيع فاحسنتا القول وافتنتا
وتعذر نفسك عن الحنين وتعذل عنك أن حنتا

فهو اذن على تذوقه لها وفهمه لرفعة شأنها مضطر الى أن لايجعلها تكأة الى غيرها من اللذائذ الجسدية الدموية ولا مغريا يحرك الغرائز ويذوق الاماني والاحلام .

ولهذا فهو اذا ذكر لك الموسيقى في أي موضع من شعره ونثره فانه لايهمل مطلقاً ان يذكر الى — جنب ذلك بانها ضرب من الندب والنواح أو باعث على الندب والنواح فهو ما يفتاء يردد :

وشبيه صوت النعي اذا قيـــس بصوت البشير في كل ناد
ابكت تلكم الحمامة أم غنـ ـت على فرع غصنها المياد

ويقـول :

ردي كلامك ما املت مستمعا وهل يمل من الانفاس ترديد
هاجت بكاي اغاني القيان بها كأنها من ذوات الشكل تعديد

ويقـول :

تسمى رشيدا من لؤي بن غالب امير وهل في العالمين رشيد
فان أغاني الليالي نياحة ومنها بسيط مقتضى ونشيد

وقــوله :

تخالفت الغرائز والمعـاني فكيف توافق المتجسدات
فما بين المقـابر نادبات وما بين الشروب مغردات

او هو على الاقل يذكرك في تلك اللحظة التي تنعم فيها بالموسيقى ان الاحداث والفواجع ملء برديك فلا تذهب مع تنعمك الى مداه

هي النفس عنّاها من الدهر فاجع برزء وغنّاها لتطرب ساجع

فنفسك يابن آدم لاتزيد على انها العوبة بيد الحياة ماتغنيها السواجع الا لتنعيها الفواجع رحمك الله أبا العلاء فلقد انشأك الله عقلا جباراً لايقنع الا بان يحيط بجميع ماحوله وشعوراً عميقاً زاخراً يتقد كالكوكب الخالد ولا يسطع كالهشيم المحترق رحمة سابغة وسعت العالمين والسلام

فخري البارودي

الفهرس

الصفحة

تتمـــــة

(الكلمات التي وردت متأخرة فألحقت بالحفلة السادسة)

الصفحة

(الكلمات التي بعث بها أصحابها لتنشر في الكتاب
بعد ان تعذر حضورهم الى دمشق في أسبوع المهرجان)

MILLENARY FESTIVAL

OF

ABŪ AL-ʿALĀʾ AL-MAʿARRĪ

DAR SADER *PUBLISHERS*
P.O.Box 10
BEIRUT